

الموسوعة الشامية في تاريخ الحزب والصليبية

الحملة الصليبية السادسة

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق ١٤١٩ / ١٩٩٨

الجزء الرابع والثلاثون

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

- ١ — حروب فردريك الثاني ضد الإيلينيين في سورية و قبرص
- ٢ — وصف ثيودريك للأماكن المقدسة
- ٣ — رحلة يوانس فوقاس في الأرض المقدسة

تأليف وتحقيق وترجمة

الاستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق ١٤١٩ / ١٩٩٨

الجزء الرابع والثلاثون

- ٢٣٣٩ -

(١)

حروب فردريك الثاني ضد الإيبليين

في

سورية و قبرص

تأليف

فيليب دي نوفار

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

أوجد انتصار حطين و ما أعقبه من تحرير للقدس و لعدد كبير من المدن و الحصون واقعاً جديداً، كاد أن يصبح صاحب تأثيرات شاملة دائمة، لكن اخفاق صلاح الدين في تحرير صور، و سياسته تجاه أعيان أسرى حطين و كذلك الأفراد شكلت بداية تراجع، إن لم أقل انتكاسة، ووضح هذا أثناء وقائع الحملة الثالثة، حيث فرضت واقعاً جديداً، تمثل بشكل رئيسي بإزاحة بيزنطة من على مسرح الأحداث، و بتأسيس حكم لاتيني في قبرص، و بإعادة تأسيس مملكة القدس في عكا، و كان بالين دي ايبلين من أبرز شخصيات الفرنجة التي تعاملت مع صلاح الدين أثناء استسلام القدس له، لابل بعد ذلك ايضاً، و نظراً للفراغ الكبير الذي تكون في اوساط الفرنجة البلديين — البولياني — تقدمت أسرة بالين إلى الصدارة، و تابعت تقدمها لاسيما بعد وفاة صلاح الدين.

فبعد وفاة صلاح الدين انشغل رجالات الأسرة الأيووية بالحروب الأهلية الداخلية، و هكذا فرطوا رويداً رويداً بعجل مكاسب صلاح الدين بعد حطين، و استرد الفرنجة عدداً من مدن الساحل الشامي حرباً، أو تخاذلاً أو خيانة، و كان من بين ما استردوه مدينة بيروت، التي فرط بها واليها عزالدين سامة، و كان بالأصل من ممالك صلاح الدين، و عبر أحد الشعراء عن مشاعر الناس آنذاك تجاه ماكان يحدث فقال مخاطباً صاحب حصن تبين عندما حاصره الفرنجة سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨ م، و قاومهم :

لايلام الذي يروم السلامة

سلم الحصن ماعليك ملامة

سنة سنها ببيروت سامة

عطاء الحصون من غير حرب

وآلت بيروت بعد ضياعها بوقت قصير إلى حكم الأسرة الإيلينية، و استطاعت هذه الأسرة بحكمها لبيروت أن تجمع ثروة كبيرة و بالتالي أن تشغل دوراً عظيماً في تاريخ الفرنجة في كل من مملكة عكا و مملكة قبرص، و ظهر هذا الدور أثناء الحملة الصليبية الخامسة، لكنه اتضح تماماً أثناء الحملة الصليبية السادسة، ففي هذه الحملة لم تقم معارك بين السلطان الكامل محمد بن العادل و بين الامبراطور فردريك الثاني، فقد تسلم هذا الامبراطور القدس من الكامل عن طريق المفاوضات، و لأن الكامل استولت عليه الرغبة بالتفرغ لقتال أخوانه في الشام و أفراد بيته و الصراعات التي تمت أثناء وجود فردريك الثاني في المشرق كانت بينه و بين الإيلينين، و هكذا استمرت و تحولت إلى حروب فرنجية داخلية بعد عودته إلى إيطاليا .

و غاب الأيوبيون عن استغلال هذه الصراعات و الحروب لأنهم انشغلوا هم أيضاً بشؤونهم الداخلية، و هذه صورة مفجعة دون أخبارها بالتفصيل من الجانب الفرنجي فيليب دي نوفار، الذي نقدم تاريخه الآن، و ما دونه فيليب هو الأهم، وهو الذي يؤخذ عليه ليس انحيازه للبيت الإيليني فحسب، بل الشعر الغث الذي نظمه و أودعه في ثنايا صفحات كتابه، لكن مع ذلك هذا الكتاب بشعره وثيقة ثمينة تصور واقع الفرنجة في المشرق في النصف الأول من القرن الثالث عشر، و تفيدنا أن كل من الحملة الخامسة و السادسة كان الألمان هم الذين أسهموا فيهما أكثر من سواهم، لكن بالوقت نفسه كان دور البابوية معادلاً، إن لم نقل متفوقاً على الدور الألماني، و كان للصراع بين البابوية و الامبراطورية أبعد الآثار على مصير الحملتين.

و فيما الصراعات الداخلية في الشام شاغلة للقوى كلها، كان المغول قد أسسوا امبراطوريتهم المترامية الأطراف، و استولوا على واحة خوارزم، و أزالوا أسرتها الحاكمة، و دفعوا بجلال الدين منكبرتي سلطان خوارزم

مع فلول جيوشه نحو الجزيرة الفراتية و أعالي بلاد الشام .

و تورط الخوارزمية بالصراعات الأيوبية، الأيوبية، و ساعدوا الصالح أيوب على استرداد القدس من الصليبيين، و من ثم الوصول إلى عرش السلطنة في القاهرة، مما أثار ما يعرف بالحملة الصليبية السابعة، و تزامنت أحداث هذه الحملة مع تدمير قوى الخوارزمية، و بالتالي انفساح المجال للمغول للتقدم من العراق نحو الجزيرة و بلاد الشام، و لقد ورد بعض أخبار هذا في بعض المصادر العربية المتقدمة و سنرى المزيد حوله في غير العربية حول الحملة السابعة و ماتلاها مع عدد من النصوص الجغرافية الهامة.

من الله أستمد العون، و أستلهم الرشاد، و أطلب التوفيق، و له جل و علا الحمد الدائم و الشكر، و الصلاة و السلام على نبينا المصطفى و على آله و صحبه و سلم.

سهيل زكار

دمشق ١٩ — شعبان ١٤١٩ / ٨ — كانون الأول ١٩٩٨

مدخل

١- إن أخبار أعمال الحرب « Gestes des chiprois » و
حوليات أمادي هما أساس نص هذا التاريخ

لا يوجد - بقدر ما نعلم - في هذه الأيام مخطوط يحتوي على النص
الأصيل لتاريخ فيليب دي نوفار ، و النص الذي نقدمه اليوم قام
بالأساس على ما صنفه بحرص شديد ، و أعدده شارل كوهلر من خلال
مصدرين رئيسيين كان كتاب فيليب قد دمج فيهما، و هما « أخبار أعمال
الحرب » و « حوليات أمادي »، و جاء عمل كوهلر عملاً علمياً دقيقاً
جداً، و لاشك أن النص المصنف ، هو أقرب ما يمكن إلى نص فيليب
الأصلي، و سيظل كذلك حتى يجري اكتشاف مخطوط المؤلف نفسه .

و كان كتاب « أخبار أعمال الحرب » ، والذي هو المصدر الرئيس
لتاريخ فيليب ، هو حولية كتبت بالفرنسية القديمة ، في قبرص في القرن
الرابع عشر ، و هو متوفر في مخطوط واحد تاريخه ١٣٤٣ ، و قد نسخ في
سيرينا Cerines من قبل جون لي ميج Mieg ، و كان سجيناً لدى
عموري دي ميمار Mimars ، قسطلان قلعة سيرينا ، القلعة التي
استخدمت آنذاك - كما الحال اليوم - سجوناً حكومياً ، و تم اكتشاف
هذا المخطوط في سنة ١٨٨٢ من قبل م . كارلو بيرين Perrin في
بيدمونت ، و ما برح في الملك الخاص لأسرته ، و قد اتخذت عنه نسخة
تحت إشراف م . بيرين و أرسلت الى الكونت بول رينت Riant ، الذي
كان مؤرخاً واسع الشهرة في ميدان تاريخ اللاتين في الشرق ، و قد أودع
هذه النسخة في المكتبة الوطنية حيث تحمل الرقم « ٦٦٨٠ » - مخطوطات
فرنسية حديثة التملك »، و اعتماداً على هذه النسخة أعد غاستون رينود
Raynaud طبعته المحققة التي نشرها في عام ١٨٨٧ تحت رعاية

جمعية الشرق اللاتيني، و قد تولى م . بيرين تصحيح تجارب هذه الطبعة اعتماداً على النسخة الأصلية التي بحوزته، و جرى فيها بعد إعداد طبعة ثانية للنص اعتماداً على نسخة رينيت من قبل الكونت لويس دي ماس لاتري ، بغية إلحاق هذا النص بنصوص مجموع روشيل : «تواريخ الحروب الصليبية » المنشور من قبل «أكاديمية النقوش و الآداب الجميلة »، و ظهرت هذه الطبعة عام ١٩٠٦ في المجلد الثاني من «الوثائق الأرمنية »، و بما أن الكونت دي ماس لاتري قد توفي قبل نشر هذا المجلد ، عهد بإكمال عمله إلى غاستون الباريسي، ثم عهد به فيما بعد إلى شارل كوهلر، و قد حمل النص المنشور مقدمة كتبها كوهلر، و عانت هذه الطبعة من الإقحامات الثقيلة، و لأن النص كان مبسطاً ، فقد أقحمت فيه كلمات كثيرة في أماكن عديدة بهدف توضيح معانيه، و قد أدى هذا الى تغيير النص بعض الشيء، كما جرى توحيد لفظ الكلمات، و مع أن الترجمة الحالية عادت مراراً إلى هذه الطبعة ،لقد اعتمد نص أخبار الأعمال - باستثناء نص فيليب الذي صغره كوهلر فيما بعد - على طبعة رينود .

وكتاب « أخبار أعمال الحرب » هو تاريخ لمملكة قبرص من الأزمان المبكرة حتى سنة ١٣٠٩، و قد جرى تصنيفه في حوالي سنة ١٣٢٥ ، من قبل مصنف غير معروف تمّ التعرف عليه على أنه جيرارد دي مونتريال ، و جرى تقسيم هذا المصنف إلى ثلاثة كتب هي : «تاريخ الأرض المقدسة » و « تاريخ فيليب دي نوفار » و « تاريخ داوية صور » ، وذلك مجازة لرينود فهو الذي أطلق هذه الأسماء عليهم ، و «تاريخ الأرض المقدسة»، هو سلسلة من الحوليات ،التي تقصت تاريخ العالم من الخليقة حتى سنة ١٢١٨، و قد فقدت الأوراق الأولى من المخطوط،وعلى هذا تبدأ الحوليات فعلياً بسنة ١١٣٢، ولقد ورد في الفقرة ٨١ أنه جرى في الفقرات المتقدمة عرض تاريخ العالم من آدم

حتى فردريك الثاني ، مما يعني أن الأجزاء المتقدمة كانت تحتوي على عرض مختصر لتاريخ العالم ، أما بالنسبة لقسم ١١٣٢ حتى سنة ١٢١٨ ، فهو كله مجرد حوليات مختصرة ، مع تفاصيل أطول أحياناً لبعض الأحداث المحلية الهامة ، و يتفق غاستون الباريسي و شارل كوهلر بالاعتقاد على أن الفقرات من ٨٢ حتى ٩١ قد أقحمت في تاريخ الأرض المقدسة بعدما انتزعت من السيرة الذاتية المفقودة لفيليب دي نوفار ، ولسوف تتوفر هذه الفقرات في الملحق الأول في آخر هذا المجلد .

و الكتاب الثاني من تاريخ «أخبار الأعمال» هو بشكل أساسي تاريخ فيليب دي نوفار ، و قد شكل هذا القاعدة بالنسبة لنص كوهلر ، و كان مصنف «أخبار الأعمال» قد ضمنه فقرات من مصادر أخرى ، ولاسيما من تاريخ هرقل (أي تكملة تاريخ وليم الصوري) ومن كتاب « حوليات الأرض المقدسة » ، و قام كوهلر بمقارنة دقيقة بين نصوص «الأعمال» و «هرقل» و «الحوليات» و أخرج أثناء إعادة بنائه للنص الأصلي لفيليب جميع ما أقحم به وضمنه .

و الكتاب الثالث في «الأعمال» أي «تاريخ داوية صور» هو تكملة لتاريخ قبرص و سورية من ١٢٤٣ حتى ١٣٠٩ ، و الصفحات الأخيرة من المخطوط هي مفقودة أيضاً ، و من الممكن الافتراض أن الكتاب بصيغته الأصلية لم يتجاوز بالتاريخ أبعد من عام ١٣٢٤ ، وهي سنة وفاة هنري الثاني ، فمع هذه السنة أنهى فلوريو بوسترون Florio Bustron - الذي استخدم «الأعمال» مصدراً له - الجزء الثاني من تاريخه ، و هذا بلا شك أفضل مصدر عن هذه الحقبة من تاريخ اللاتين في الشرق ، وصحيح أنه أدنى مكانة من كتاب فيليب دي نوفار إلا أنه يمتلك بالفعل مكانة معيارية تظهر أن المصنف كان جيد المعلومات و قد تملك فهماً و تقديرًا تاريخياً له قيمته .

والكتاب الهام الثاني المبني إلى أبعد الحدود على تاريخ فيليب هو «

حوليات فرانسيسكو أمادي « وهذا الكتاب تاريخ بندقى لقبرص ، منذ أيام الخليفة عمر حتى اعتلاء الملك جون الثاني للعرش في قبرص سنة ١٤٣٢ ، وقد كتب قبل سنة ١٤٨٩ ، ويستدل من محتوياته أنه كان ملكاً لعالم بندقى و لغوي هو فرانسيسكو أمادي ، الذي ربما كان - أو ربما لم يكن - هو المصنف ، مع أنه يعزى إليه بشكل عام ، ويلاحظ أنه بالنسبة لحوادث السنوات من ١٢١٨ حتى ١٢٤٣ ، في هذا الكتاب أنها ترجمة حرة لكتاب تاريخ فيليب إلى لغة البندقية ، مع بعض أعمال الاختصار والضبط و التحسين في أجزاء مختلفة ، وعلى افتراض أن أمادي هو الذي كتب الحوليات ، من الواضح أنه كان أمامه النسخة الأصلية من «تاريخ فيليب» أو نسخة من «الأعمال» ليس فيها النقول من «هرقل» ، ويلاحظ أنه في كل مرة نسخ فيها كتاب الأعمال عن «هرقل» ، إمتلك أمادي قراءة مختلفة ، ففي الوقت الذي لا يوجد فيه أي من شعر «الأعمال» لدى أمادي ، نجد في حوليات البندقى دوبيت ليس في محتويات «الأعمال» ، وهي تتحدث عن الأحوال المتأخرة لـ «فيلنغز Fi-langers» ، وقد أقحمت في وسط الرواية ، وفي الوقت الذي لم يكن فيه كوهلر شاعراً بالثقة تماماً بأن هذه الفقرة هي خاتمة فيليب حتى ينشرها في مكانها المفترض ، وارتضى بأن يضعها في الحاشية ، أخذت زمام المبادرة وأعطيت نفسي الحرية في إعادتها إلى خاتمة التاريخ ، ولقد استخدم كوهلر أمادي لضبط نص «الأعمال» ، وفي كل مناسبة رددت «الأعمال» كلمات هرقل حرفياً ، اعتمد كوهلر على نص أمادي في بنائه لنص فيليب الافتراضي ، واعتمدت هذه الترجمة على نص كوهلر ، بدون أدنى ملاحظات ، إلا عندما اقتضى الحال إضافة بعض المعلومات الجديدة بالاضافة ، فضلاً عن هذا توليت جمع جميع الفقرات المنقولة عن هرقل وهي التي أخرجها كوهلر من نص «الأعمال» ، وأثبتها في الملحق الثاني لهذا المجلد.

وبالإضافة لكتاب «الأعمال» وأمادي، هناك عدة كتب أخرى استقت بعض معلوماتها من تاريخ فيليب، وقد استخدمها كوهلر كلها، من ذلك «حوليات أخبار قبرص» تصنيف فلوريوبوسترون Florio Bustron وهو قبرصي صار ايطالياً، وجد في القرن السادس عشر، وقد أسس هذا الكتاب إما مباشرة على تاريخ فيليب أو على «الأعمال»، وقد استقى ماريو سانوتو في كتابه «كتاب الأسرار» المكتوب سنة ١٣٠٧ - ١٣٢١، بعض المعلومات من فيليب، لكنها معلومات ضئيلة، وإطار معالجتها ضيق، ولها قيمة قليلة، ولادور لها في عملية بناء النص .

ولقد جرى اعتماد تاريخ فيليب دي نوفار من قبل كل كاتب عالج تاريخ قبرص خلال القرن الثالث عشر، وجاء هذا الاعتماد إما من خلال «الأعمال» وأمادي وبوسترون أو من خلال سانوتو، فلقد اعتمد على واحد من هذه التواريخ كل من: لوردانو Lordano، وجوانا Ju-ana، ورينهارد Reinhard، وماس لاتري، ولوهر Loh-er، وموللر Muller، وروهرخت Rohricht، ولقد استخدم موللر وروهرخت جميع هذه التواريخ، وفقط ايتين Etienne دي لوزغان، الذي كتب في القرن السادس عشر، يبدو أنه لم يعرف فيليب، ومن الظاهر أنه استقى معلوماته واعتمد في تحصيلها على ميراث أسرته مع معلوماته الشخصية، ومن بين الكتاب الذين كتبوا حول فيليب الثاني نجد أن كل من وينكلمان Winkelmann وكانتوروز Kantorowicz قد استخدموا الأعمال، واعتمد كل من كنغتون Kington وهو لارد - بريولز Huillard-Breholles على هرقل، وعرفا فيليب من خلال سانوتو فقط .

وعلى هذا من الممكن أن يعد تاريخ فيليب المصدر الأول للحقبة الأعظم أهمية وخطورة في تاريخ قبرص، وكذلك بالنسبة لميدان أعمال فردريك الثاني الذي لانعرف عنه سوى القليل، ويقدم هذا التاريخ قصة

حرب رواها فارس شارك بها، وهي حرب لم تكن من النوع الذي هزّ أركان العالم، بل كانت من الحروب الإقطاعية العادية، وتزداد أهمية لأن فردريك الثاني كان من بين الشخصيات التي تورطت بها، هذا ولا يوجد سوى القليل من المصادر التي تعطي صورة أوضح عن الحضارة المتميزة للدويلات الصليبية و توابعها الإقطاعية، مما أعطاه فيليب في تاريخه، ففي هذا التاريخ صور الإجراءات القانونية، والسياسات المتقلبة، والفردية المتصلبة، ولقد أعطتنا الدويلات الصليبية اللاتينية فرصة لدراسات متمعة للإقطاع تحت ضوء المجهر، وصحيح أن الصور صغيرة، ولكنها كاملة، ذلك أنه من غير الممكن أن يحصل الإنسان على صورة دولة إقطاعية خالصة أفضل مما توفره دولة القدس اللاتينية، ثم أنه لا يمكن لإنسان أن يرى القدس أفضل من رؤيتها من خلال تاريخ فيليب دي نوفار .

٢- فيليب دي نوفار :الرجل والمصنف

بالنسبة للإيطالي من القرن السادس عشر، كان المثل الأعلى لرجل النهضة هو «الرجل العالمي» الذي جمع في شخص واحد سمات العالم، والمحارب، والسياسي، والخطيب، والرياضي، والفنان، والأديب، ولقد عدّ كل من لورانزو الفاخر، وألبيرتي، وليوناردو، أفضل النماذج لهذا الإنسان المثالي، فهكذا نظر إليهم من قبل أهل عصرهم والذين جاءوا من بعدهم، وقام جميع الأقل منزلة بشرية بإدعاء الانتماء إليهم وإلى الحضارة التي أنتجتهم، ونادراً ما عزيت أية إشارة تمجيد إلى الأيام الأبر، وإلى الثقافة التي تقدم وجودها على عصرهم مباشرة، أي عصر التنوير، والمعني بهذا العصر الأبر الذي أطلق عليه الإنسانيون ظملاً اسم العصر «القوطي» ومع هذا هناك كاتب من كتاب القرن السادس عشر، كان من بين نماذج الإنسانيين، هو فلوريو بوستورن، وهو إيطالي قبرصي، كتب تاريخاً عن بلاده، وقد استخدم اصطلاح «الرجل العالمي» وأطلقه إطرأً

على فيليب دي نوفار، الذي كتب في قبرص في القرن الثالث عشر، ولاشك أن هناك عنصراً من التفاخر الفروسي لدى صاحبنا القبرصي في ما وسم به نوفار، مع شيء من المغالاة الأمر الذي غالباً ما أخذ به أنسانيو النهضة، لكن مع هذا أن يقوم عالم من عصر النهضة باطلاق هذه السمة على كاتب من القرن الثالث عشر، هي حقيقة جديدة بالملاحظة، ويزيد من أهميتها أن فيليب دي نوفار كان بكل وضوح خصماً للرجل الذي كان حقاً هو «الرجل العالمي» للقرن الثالث عشر، أي الامبراطور فردريك الثاني «Stupos Mundi» .

وفيما يتعلق بفيليب دي نوفار، القليل من المعلومات هو المتوفر عنه، وذلك باستثناء ما حدثنا به شخصياً عن نفسه، وظل لمدة طويلة معروفاً على أنه فقط كاتب إحدى الرسائل القانونية، التي كونت «أطروحة القدس»، وفقط احتل في منتصف القرن الماضي مكانة كمؤرخ وشاعر من خلال إكتشاف ثم نشر تاريخه وكتابه «Quatre Ages de l'homme» .

وكان فيليب قد ولد في حوالي أواخر القرن الثاني عشر، ولعل ذلك كان حوالي سنة ١١٩٥، في مدينة نوفار في لومباردي، ومضى إلى الشرق في سن مبكرة، وكان ذلك سنة ١٢١٨، وكان غلاماً في خدمة بيتر شابي، الذي كان فارساً قبرصياً، ولقد كان بين حاشيته أثناء حصار دمياط، وفي أثناء وجود الفرنجة في دمياط انتقل من خدمة شابي إلى خدمة رالف صاحب طبرية، الذي كان قانونياً شهيراً، ومنه تعلم علم القانون، الاختصاص الذي نال منه فيما بعده وبسببه شهرته، وبهذا الصدد قال فيليب نفسه:

«وحدث أنني كنت لدى الحصار الأول لدمياط مع السير بيتر شابي، وقد تناول السير رالف صاحب طبرية الغداء معه، وبعد الفراغ من الطعام جعلني السير بيتر أقرأ لهما من الرومانسي، وقال السير رالف

بأنني أقرأ بشكل جيد، ومرض السير رالف فيما بعد، فقام السير بتر بناء على طلب السير رالف، بإرسالي إليه لأقرأ له، وهكذا أمضيت هناك ثلاثة أشهر أو أكثر، وكنت منزعجاً جداً، بالذي توجب علي أن أسرّبه كثيراً، ونام السير رالف قليلاً وبشكل سيء، وعندما كنت أقرأ عليه بقدر ما أحب، أخبرني بأشياء كثيرة تتعلق بمملكة القدس، وبالاستخدامات وبالأحجام، وقال: ينبغي أن أتذكر كل هذه الأشياء، وتقبلت أنا، الذي خفت كثيراً من طباعه، كل شيء، وكنت بعد هذا بصحبة مولاي الأسن في بيروت حتى موته، ولقد أخبرني بأشياء كثيرة بكياسته وذلك بناء على طلبي، لأنه لم يقدم قط على الكلام طواعية مثلما فعل السير رالف، وتعرفت بعد هذا معرفة جيدة على مولاي صاحب صيدا، وكان ذلك في بيروت، وفي عكا، وفي قبرص، وأخبرني بأشياء كثيرة عن طواعية بلطفه المعتاد، وبعد هؤلاء الرجال العظماء والحكماء، أمضيت وقتاً طويلاً في المحكمة مع السير وليم فيزكونت والسير أرئيس Arneis والسير وليم دي رايفت Rivet الأصغر، الذي كان محامي استئناف عظيم، وتعرفت في مملكة القدس بشكل جيد على السير نيقولا أنتيوم Anti-aume، والسير فيليب بيسديون Baisdion، الذي كان محامي استئناف عظيم في داخل المحكمة وخارجها».

وانتقل فيليب من خدمة رالف صاحب طبرية إلى خدمة جون أوف إيبيلين صاحب بيروت، واستقر في قبرص حيث تزوج، ولا بد أن الزواج قد قام قبل عام ١٢٢٦، ذلك أن بالين ابن فيليب كان قد جعل فارساً في سنة ١٢٤٣، وكان بالين دي ايبيلين عرابه، هذا وكان فيليب هو الأول من أسرته الذي استقر في الشرق، وما لبث فيليب أن حصل على مركز له مكانة هامة، حيث أصبح واحداً من أهم مستشاري جون دي إيبيلين وابنه بالين، ومن أتباعها الاقطاعيين، ذلك أن فيليب استحوز على اقطاع منهما.

والسنوات ما بين ١٢٢٩ إلى ١٢٥٣ هم الأكثر أهمية في حياة فيليب وبالنسبة للجزء الأعظم من هذه الحقبة يزودنا تاريخه برواية كاملة، وكان أول بروز له في سنة ١٢٢٩، عندما حاول وكلاء الامبراطور الخمسة في قبرص اغتياله لأنه رفض قبول حكمهم وتمنع عن أداء القسم ليعترف بوكالتهم، وكان في هذه الأونة متمكناً لاقطاعية، وكان قد نال سمعة جيدة في محكمة قبرص، حيث ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالايبلينيين، وكان عندما نجا من وكلاء الامبراطور، التجأ إلى مشفى القديس يوحنا في نيقوسيا، حيث بعث من هناك إلى مولاه بالين دي إيبيلين يطلب مساعدته، وشارك فيليب في معركة نيقوسيا، التي قاتل فيها الإيبليينون في سبيل انقاذه وانقاذ السيدات النبيلات اللاتي حوصرن معه، وقاد مجموعة من الجنود ضد وكلاء الامبراطور، وأسهم في تحقيق النصر، (١٤ تموز ١٢٢٩)، كما وقدم فيليب مساعدته أيضاً أثناء حصار ديودامور Dieudamor وكتارا Kantara، وقد جرح أثناء العمليات حول ديو دامور.

وعندما خطط القبارصة في سنة ١٢٣٢ لرفع دعوى لدى البلاطات الغربية ضد الامبراطور، كان فيليب هو الذي سيحمل دعواهم، وقد منع من الذهاب فقط بسبب استسلام الحامية الامبراطورية، وهي حادثة جعلت الدعوى غير ضرورية، وكان فيليب حاضراً مع جون دي إيبيلين لدى التفريج عن بيروت في سنة ١٢٣٢، وذهب مع بالين دي إيبيلين إلى طرابلس في سفارة لدى بوهيموند لجذب ذلك الأمير للدخول في الحلف القبرصي، والتحق فيليب بعد هذا بالكتلة الأساسية للقوات القبرصية وذلك بعد معركة قلعة إيمبرت Imbert ، ثم ذهب مع هذه القوات إلى قبرص حيث شارك في مباحثات استسلام قلعة فيها غوستا وقلعة كتارا، وقد شارك في معركة أغريدي Agridi، وكان واحداً من خمسة رافقوا بالين دي إيبيلين في هجومه الخطير على طرف الرابية.

وبعد معركة نيقوسيا وفي أثناء حصار سيرينا منح فيليب حكم نيقوسيا وعهد إليه بالاشراف على الأسرى الذين حجزوا هناك، وكان هو مع أرئيس Arneis صاحب جبلة قد أعدا شروط استسلام سيرينا في سنة ١٢٣٣، وأخبار السنوات الثلاثة التالية غير متوفرة في رواية فيليب، لكنه عاود الظهور في سنة ١٢٣٦ قرب فراش موت جون دي إيبيلين صاحب بيروت، وكان حاملاً للصليب أمام مولاه وهو يموت، وكانت قمة أعمال حياته عندما استطاع في عام ١٢٤٣ اقناع صاحبي بيروت وتبنين والمحكمة العليا للقدس لتأجيل هجومهم على صور حتى يصل الملك كونراد إلى السن القانوني، وإقامة أليس صاحبة قبرص حاکمة لمملكة القدس، وكوفئ فيليب مكافأة جيدة من قبل الملكة الممتنة، التي سددت عنه جميع ديونه، التي وصلت إلى مبلغ ألف مارك من الفضة، ومنحته اقطاعاً يدر عليه مبلغ ألف قطعة ذهبية في العام من موارد عكا، وإثر هذا أسهم فيليب في حصار صور، وعمل بمثابة الحاكم الملكي في تجهيز الاسطول، وكان الوكيل الذي عهد إليه بالعمل على ابرام شروط استسلام قلعة صور.

وهذه الاشارات جميعاً مستخرجة من تاريخ فيليب، ويعتقد بعض النقاد أنه بالغ في إبراز أهمية دوره في هذه الحوادث، هذا ولا يوجد سبب للتشكيك في صحة هذه المعلومات، ذلك أن ما من واحد من المصادر الأخرى عزت أياً من الأعمال التي عزاها فيليب إلى نفسه إلى إنسان آخر، فمن المؤكد أن فيليب دي نوفار كان خلال حياة الملك هنري الأول، ملك قبرص واحداً من المستشارين الدائمين للملك، فقد ظهر اسمه على عدد كبير من الوثائق على أنه كان واحداً من أتباع هنري، وبعد وفاة الملك هنري في عام ١٢٥٣، كان فيليب مع غي دي إيبيلين وروبرت دي مونتغيو سكارد Montgeuiscard بين الذين أشرفوا على تنفيذ وصية الملك المتوفى، وهذا واضح من خلال رسالة بابوية تاريخها عام

١٢٥٥، جاء فيها تهديد بالحرمان الكنسي للمشرفين على تنفيذ الوصية إذا لم يسددوا العشر المحدد للكنيسة بموجب شروط الوصية، وجاء آخر ظهور لفيليب في وثائق كان هو الشاهد بها على ثلاث منح إلى فرسان التيوتون، قدمها جون دي إيبيلين صاحب بيروت، وكان جون ابن مولى فيليب المتقدم ورفيقه، والمقصود هنا هو بالين دي إيبيلين، ووردت إشارة إليه في عام ١٢٦٤ في جدل قانوني أمام المحكمة العليا في عكا، على أنه «يعدّ أفضل محامي استئناف في هذا الجانب من البحر»، وبعيد هذا بأمد وجيز، لربما في عام ١٢٦٥، عندما صار في السبعين من عمره كتب الـ «Quatre ages de L'homme»، وبالنسبة لتاريخ وفاته هو أمر غير مقرر، حيث لم ترد إشارات إليه بعد عام ١٢٦٤، ولعله مات بعد هذا التاريخ، ففي سنة ١٢٦٩ ظهر ابنه بمثابة شاهد على وثيقة لهيوج الثالث، ولعله استحوذ في هذا التاريخ على اقطاعات والده التي نالها من التاج.

ورست شهرة فيليب دي نوفار بين معاصريه ورجال بلاده على براعته كمحامي استئناف في المحكمة، وعلى الترتيب الذي صنفه حول الإجراءات القانونية الـ «Livre de forme de plait» أو باسمه الآخر الذي عرف به وهو الـ «Livre a un sien ami»، وهو من أهم الأعمال التي شكلت «اطروحة القدس»، وفي الوقت الذي جاء فيه كتاب فيليب على أنه ليس دراسة في شؤون العدالة، ولا يرقى إلى المستوى العظيم لكتاب تلميذه جون دي إيبيلين صاحب يافا، الذي تم في سنة ١٣٦٩ تبني كتابه: «Assies de La houte cour» على أنه القانون الأساسي لمملكة قبرص، مع هذا من الواضح أن كتاب فيليب كتاب عملي لعرض القوانين وللإجراءات التي اعتمدت في محاكم القدس وقبرص، ولا بد من أن تأثير نوفار على إيبيلين كان كبيراً، وفي الوقت الذي ليس من الواضح القدر الذي نهله إيبيلين من كتاب نوفار، ليس هناك

من شك أنه تعلم القانون منه، وبفضل تعليم فيليب له، امتلك إيبيلين حبه لعلم القانون، ويقف نوفار بمثابة حلقة وصل بين «قوانين الضريح المقدس» القديمة، التي عادت للملكة اللاتينية في القدس، التي لا بد أنه قد تعلمها من رالف صاحب طبرية، والقوانين القبرصية الجديدة التي وضعها إيبيلين، وتختلف قوانين إيبيلين في كثير من الحالات عن قوانين ماوراء البحار، وتظهر المقارنة فيما بين القوانين المبكرة المعروفة باسم «القوانين الملكية» وبين كتاب نوفار، وكذلك كتاب إيبيلين التطور الذي ألم بقانون القدس، وأن هذا التطور لم يلزم بمحتوى القانون فقط بل ألم بطرائق مقارنة القانون، وتعدّ «القوانين الملكية» أقدم مجموعة قانونية وصلتنا من قوانين ماوراء البحار، حيث يعود تاريخها إلى أواخر القرن الثاني عشر، وهي تحتوي على مجرد بيانات قانونية فعلية، والذي تولاه نوفار هو تأكيد ما هو قانوني، كما عرض كيف ينبغي التماس ذلك، وكتب إيبيلين رسالة في علم القانون، وسعى جاهداً لتأكيد الأسباب والمبادئ الراسية خلف القوانين بطريقة جديدة بأحسن علوم العدالة والقضاء.

ويتألف كتاب نوفار من ثلاثة أقسام: في القسم الأول عرض لأحكام الإجراءات العامة التي استخدمت في محاكم ماوراء البحار، وفي القسم الثاني نقاش للأنماط الخاصة من أعمال العدالة، لاسيما التقديرات، والنقاط القانونية المتعلقة بكل قضية، وآراء كبار رجال العدالة حولها، أما في القسم الأخير فبحث في السمات والإحالات المطلوبة للمختص المحترف للقانون، والكتاب هو مرشد للمحامين ودليل من أجل الممارسة الفعلية للقانون، حيث يمكن لمحامي الاستئناف أن يتعلم طرائق تجنب الهفوات أمام المحكمة مع مذاهب الخداع المستخدمة، ولا يذكر نوفار آراء الشخصية حول القوانين، ولا أفكاره حول الإجراءات، بل أقنع نفسه بنقل آراء الآخرين، ولم يقيم بأية محاولة لاستخراج أية جوانب

علمية من القوانين أو فلسفة تشريعية، فقد ترك هذا ليتولى صنعه تلميذه الأعظم كفاءة والأكثر شهرة، ولهذا فإن كتاب نوفار — بسبب طبيعته — لم يمتلك قط لا الاحترام نفسه ولا مدى التأثير الذي امتلكه كتاب إيبيلين، زد على هذا إن ظهور كتاب إيبيلين بعد أمد وجيز من كتاب نوفار، حرم هذا الكتاب من المكانة التي كان ربما سيحظى بها ويتمتع بها، ومع أن الأجيال التالية لم تعط قيمة فعلية لكتابة: «*Livre de forme de plaut*» لقد استمرت سمعة فيليب دي نوفار حية على أنه كان واحداً من أعظم الشخصيات في تاريخ القانون الإقطاعي.

لكن نشاطات فيليب الأدبية لم تقتصر أبداً على ميادين القانون، ولم تنحصر بها مطلقاً، فقد أتيح لفيليب عندما بات في سن متقدمة أن يمتلك الفرصة ليقوم باطلالة على حياته الطويلة والمليئة بالأعمال، ولتذكر حماقات حياته، ولقد أسف لبعض الحماقات، ونتيجة لهذا كتب اطروحته الفلسفة والأخلاقية التي حملت عنوان:

« Les quatre Ages de L'homme » .

وقسم فيليب في هذا الكتاب حياة الانسان إلى أربع مراحل، في كل واحدة منها عشرين سنة، ومنح لكل حقبة سماتها، ففي الحقبة الأولى الطفولة ثم الشباب حيث ينبغي أن يتعلم الانسان من الأسن منه، والحقبة الثانية هي حقبة شباب، وهذه الحقبة بالنسبة لفيليب هي الأخطر لكل من الرجل والمرأة، فالشباب مندفع ونشيط، وسنين الشباب هي سنين الحب، والذنب، والحماقة، وأعمال العنف المتهورة والتمرد، ويعيش الانسان في المرحلة الثالثة في عمره الوسيط من الأربعين حتى الستين، وصور فيليب هذا العمر على أنه عمر الانجازات الحقيقية، فبعدما تعلم الانسان أثناء طفولته، وتعب من حماقات واندفاع الشباب، أصبح جاهزاً لقطف الثمار حتى أقصى قدراته، وهو العصر الأعظم في حياة الانسان، وفيه يجد خيرة فضائله من: حكمة، وإخلاص، وسماحة، وأشياء أخرى،

أما بالنسبة للمرأة فالأمر على عكس الرجل، فالعصر الوسيط يمكن أن يكون أكثر حماقة من عصر الشباب، لأن عدداً كبيراً من النساء يسعين في سنوات نضجهن للحصول على استحسان الشباب، ويسعين لإيجاد شباب زائف، والحقبة الرابعة من عمر الانسان هي الشيخوخة، وقد منحت للانسان حتى يملك الوقت مادام حياً ليتذكر ألطاف الرب نحوه، ولسداد الديون إلى خالقه، ففي سنوات نشاطه كان ميالاً نحو نسيان ربه، ونحو الاستغراق بالأشياء الدنيوية، التي تدفعه نحو إهمال روحه، ويمكن للانسان أن يملك في سن الشيخوخة الوقت للاستغفار من حماقاته الماضية ومن ذنوبه، وأن يعد نفسه لمواجهة الموت، فلقد أعطي الانسان هذا السكون الأخير، والحزن، والوحداية، عندما يمكنه أن يتطلع إلى ما وراء القبر، إلى الحياة القادمة، وختم فيليب كتابه هذا ببحث حول فضائل التسامح، والمساعدة، والشجاعة، والشرف، وهي سمات مطلوبة ومرغوبة بها وبوجودها في الإنسان، وهذا الكتاب نوع من أنواع كتابات الشيوخ عندما يصبحون متدينين بعمق، وأخلاقين في أواخر أيامهم، وهو خلو تماماً من الاشراقات، ومن طعم الفكاهة، وهو ما نجده متوفر هنا وهناك في تاريخ فيليب، وهذا الكتاب هو عمل رجل قانوني بات شيخاً مسناً، رجل كان في سنوات شبابه يدرب المحامين الشباب ويعلمهم كيف يرافعون أمام سدة المحكمة العليا للملكة، أما الآن ففي سنوات الشيخوخة قد أراد أن يوجه الشباب ويعلمهم الوسائل التي يحضرون بها مذكراتهم للمرافعة أمام سدة محكمة مملكة الساء.

وفيما يتعلق بكتابات فيليب الأخرى، بقي عنها النص المترجم التالي، وقد ورد في كتاب «الأجيال الأربعة»، فهنا وصف فيليب بنفسه هذا الكتاب حسبما كتب بالأصل:

«لقد كتب فيليب دي نوفار، الذي كتب هذا الكتاب، كتابين آخرين،

وقد كتب في جزء من الكتاب الأول ما يتعلق بنفسه، فهناك تحدث عن البلد الذي جاء منه، وبين لماذا وكيف جاء عبر البحر، وكيف قاد نفسه بنعمة من الرب لمدة طويلة، وجاء إثر هذا عدة تراثيل وأغان هو نفسه قد نظمها حول الحماقات الكبيرة لهذا العالم التي ندعوها باسم الحب، وهناك أيضاً الأشعار التي نظمها حول الحروب الكبيرة التي وقعت في أيامه، فيما بين الامبراطور فردريك، وصاحب بيروت، مولاي جون دي إيبيلين الشيخ، كما قدم رواية رائعة جداً عن هذه الحرب نفسها من بدايتها حتى نهايتها، وأودع هناك كلمات وأفاهيل المؤتمرات الكبيرة والمعارك والحصارات، مرتبة منظمة، لأن فيليب كان موجوداً خلالهم جميعاً، ويوجد هناك بالإضافة إلى ذلك أغاني وتراثيل لسيدتنا وللقديسين، التي نظم الكثير منها في شيخوخته، وكتب هذا الكتاب بغية حفظ هذه الاشعار وأخبار أعمال الشجاعة لهؤلاء السادة الجيدين، ولكي تبقى أطول مدة في ذاكرة الذين انحدروا منهم ومن الأصدقاء الآخرين، وفي ذاكرة جميع الذين سوف يسمعونهم».

وتبعاً لما أورده هنا، كان التاريخ على هذا قسماً من كتاب كبير تضمن مايلي: (١) سيرة ذاتية؛ (٢) أشعاراً في الحب؛ (٣) أشعاراً حول الحرب، (٤) تاريخ الحرب، و (٥) أشعاراً دينية، ومن هذه الأشعار فقدت أشعار الحب و أشعار الدين كلياً، أما التاريخ ومعظم أشعار الحرب فقد حفظت في أخبار أعمال الحرب، ولعل جزءاً صغيراً من السيرة الذاتية قد دمج في القسم الأول من « الأخبار » .

و يشكل غياب أي نص أصيل مشكة تاريخ تصنيف « التاريخ » و يجعل ذلك صعباً جداً، وكان بول رختر Richter ، و هو أول من حاول حل مشكلة تاريخ الكتاب، قد توصل إلى محصلة إلى أنه قد كتب على قسمين، فقد كتب القسم الأول قبل ١٢٤٧، و كتب الثاني بعد ١٢٥٨، و تقوم هذه النظرية على فكرة أن فيليب كتب أولاً رواية

مستقلة حول الأحداث المبكرة، ثم إنه بعدما اطلع على « هرقل » و على « حوليات الارض المقدسة »، أعاد النظر بياكتبه و نقحه وأكمّله بتضمينه مواداً استقاها من هذه المصادر، و أشار غاستون الباريسي إلى أن فيليب لربما كتب التاريخ كله في وقت واحد ، ثم أعاد النظر فيه و نقحه فيما بعد، وضمنه الاشارات الواردة حول الأحداث المتأخرة ، الأمر الذي دفع رختر إلى القول بأن الأجزاء الأخيرة قد كتبت في زمن متأخر، وأظهر غاستون الباريسي أن النقول من « هرقل » و من « الحوليات » قد أضيفت من قبل مصنف « الأعمال » و ليس من قبل فيليب نفسه، و ذلك بسبب أن هذه النقول غير موجودة في أمادي ، و قادت أبحاث كوهلر صاحبها إلى المحصلات نفسها التي كان غاستون الباريسي قد وصل إليها ، و كان رأيها الأخير هو أن التاريخ قد كتب فيما بين ١٢٤٣ و ١٢٤٧، و نقح فيما بعد، و لعل ذلك كان بعد سنة ١٢٥٤، لا بل حتى بعد سنة ١٢٥٨ .

و بما أن التاريخ يحتوي على أخبار أحداث وقعت خلال عام ١٢٤٣، من البداهة بمكان أنه كتب بعد هذا التاريخ ، لكن بما أنه أسقط كل إشارة إلى كل من تولية بالين دي إيبيلين لوكلاء الامبراطور في ١٢٤٦ — ١٢٤٧، أو موته في سنة ١٢٤٧، لابد أنه قد كتب قبل وقوع هذه الأحداث ، و قد كان بالين أقرب أصدقاء فيليب إليه ، ثم إنه كان مولاه المباشر، و على هذا مستبعد عدم إقدام فيليب على ذكر مثل هذه الأحداث الهامة في حياته، هذا من جهة و من جهة أخرى كان فيليب قد أتى عرضاً على ذكر عدد من الألقاب و الوظائف التي شغلها أعضاء في البيت الإيبيليني، لكن فقط الألقاب و الوظائف التي شغلوها بعد ١٢٤٧، وجاءت الاشارات إلى جون دي ايبيلين الأصغر، عندما غدا في حقبة متأخرة، صاحب يافا و هو اللقب الذي ناله للمرة الأولى في سنة ١٢٤٧، و أشير إلى غي بمثابة قسطلان لقبرص، وإلى بلدوين بمثابة

مفوض للجيش في قبرص، و لقد شغل هذان هاتين الوظائفيتين فقط بعد عام ١٢٤٧، ووردت إشارة إلى جون دي إيبيلين صاحب أرسوف على أنه قسطلان القدس، وهو قد أصبح كذلك في عام ١٢٥١ فقط، كما وتسلم عدة مرات منصب معاون قاضي المملكة، فقد تملك هذا المنصب في ١٢٤٧ - ١٢٤٨، و ١٢٤٩، و ١٢٥٤ و ١٢٥٦ - ١٢٥٨، وقد كتبت هذه الإشارات بقصد الرفع من شأن مختلف شخصيات الإيبيلينين، وهي ليست جزءاً من التاريخ أو متعلقة به، ويستخلص من هذا بينة على أن فيليب قد أعاد النظر في عمله في وقت ما بعد سنة ١٢٥٤ أو سنة ١٢٥٨، ونقح روايته، لكن ليس عن طريق إضافة مواد جديدة تتحدث عن أحداث جديدة بل مجرد تعريف بالشخصيات التي ورد ذكرها في تاريخه بألقابها الأخيرة فقط، وعلى هذا كتب النص الأصيل قبل سنة ١٢٤٧، أي بعيد عدة سنوات تلت آخر الأحداث التي ورد ذكرها في آخره .

٣ - تقويم لتاريخ فيليب دي نوفار

من غير الممكن عدّ كتاب « تاريخ الحرب بين الامبراطور فردريك الثاني وجون دي إيبيلين » قطعة عالية المكانة في الأدب التاريخي، فهو لا يحتوي على أي فلسفة معمقة للتاريخ، ولا حتى على أية أحكام مسبقة في محاولة لتقرير أسباب الأحداث، ووصف فيليب نفسه عمله بقوله إنه مجرد رواية حول الأسباب الحقيقية للحرب: « و كذلك حول الرجال و الأفاعيل العظيمة »، لكنه عرض الأسباب من خلال وجهة نظر منحازة، و تتعلق قيمة الكتاب و أهميته بسماته أنه رواية واحد من الغولف Guelph السورين، و لأنه يحتوي على رواية صحيحة حول الأحداث التي وقعت، يضاف إلى هذا إن الكتاب يعبر عن موقف فيليب ضد الحزب الامبراطوري في الشرق، مع إطراء للبيت الايبيليني الذي أكد أنه « لا يوجد بيت أعظم منه في كل العالم المسيحي » و فوق هذا كله كتاب

سيرة ترجم فيها فيليب لوا حد من كبار الأبطال الاقطاعيين، و هو صاحب بيروت العجوز .

وكتب فيليب دي نوفار من منطلق فردي مدهش، و فقط المسائل التي لها علاقة مباشرة بموضوعه المختار من الحرب بين الامبراطور و الإيلينيين وجدت مكاناً لها على صفحاته، فهناك قضايا و أحداثاً رئيسية مثل صليبية ثيوت أوف شامبين ورتشاد أوف كورنول، التي وقعت في الإطار الزمني لتاريخه قد حذفت كلياً وأسقطت من رواية فيليب، و في السنوات التي لم يكن فيها من شيء يؤثر بوقائع الحرب، لم يتحدث فيها فيليب عن شيء أبداً، و هكذا نجد سنوات ١٢٣٤ — ١٢٣٥ و ١٢٣٧ — ١٢٤٠، لم تدون، و ذكرت سنة ١٢٣٦ فقط بسبب موت صاحب بيروت، زيادة على هذا لم يقل فيليب شيئاً عن أمور كانت قد حدثت أو لم تكن قد حدثت بعد، في الزمن الذي كتب فيه، من ذلك النقد البابوي للإيلينيين، و جهود الكرسي المقدس في سبيل الحصول على سلم موافق للامبراطور، فهذا ما أسقط، و مثل هذا أسقط أيضاً خبر السلم الذي تحقق، مع تقبل القبارصة في إطار الخطوة البابوية، و لم يكن لهذه الأحداث من آثار على النتيجة النهائية، و لقد مرّ بهم فيليب مرور الكرام، ربما لشعوره أنه لم يكن فيهم فائدة للكنيسة، و من الأفضل نسيانهم، و لعل من أفضل الأمثلة عن عدم تقدير فيليب للمسائل ذات العلاقة، يمكن إيجاده في رواية فيليب عن حملات فردريك في سورية، و معاهدة يافا لعام ١٢٢٩، و كانت بعض الروايات عن أعمال الامبراطور في سورية من الضروري إيرادها لربط أحداث قبرص مع بعضها بعضاً، وهي الأحداث التي وقعت قبل الحملة الصليبية و كذلك ما حدث بعدها، و هكذا روى أخبار الحملة الصليبية في فقرة صغيرة واحدة، كما أن روايته عن معاهدة يافا فقيرة و غير كاملة، لكنه لم ينتقدها على أنها عمل غير مسيحي كما فعل البطريك

جيرولد Gerold ثم إن الشروط التي أتى على ذكرها وتعدادها فكانت فقط ماله أعظم الفوائد بالنسبة لملكة سورية .

ولم يكن هجوم فيليب، موجه ضد فردريك شخصياً ، فالفصل الوحيد في كتاب «الأعمال» الذي فيه حملات افتراء وقذف بحق الامبراطور — الفصل ١٠٢ — ليس من صنع فيليب، بل مقحم جرى إقحامه من قبل واحد من المصادر الغربية، فليس فردريك بل برلياس Barlias وفيلنغر Filanger هما الأشرار في تاريخ فيليب، و رسمت صورة فيلنغر على أنه لم يكن منطقياً، وكان طاغية خارقاً للقانون، لكن صوت فيليب ليس أكثر ارتفاعاً في نقد وكيل الامبراطور هذا من صوت صاحب كتاب «هرقل»، ويبدو أن فردريك نفسه قد لاحظ أخطاء وكيله، فتولى سجنه لدى عودته من سورية، وكان برلياس — رينارد Rinard الشعر — شريكاً، فقد كان يدين بالكثير للإيلينيين، فقد استقبل من قبلهم ونال حظوتهم ، وقد تظاهر خداعاً بحبهم و صداقتهم، لكنه تولى خيانتهم في كل مناسبة بشكل شرير جداً، ولم تعبأ مؤامرات برلياس وخساسته مع رفاقه بشرف وشجاعة الإيلينيين .

وفي هذا المقام يتوجب علينا أن نلاحظ أن عداء فيليب نحو برلياس، قد قاده نحو تفسير ابتعد به عن طريق الحقيقة المطلقة، فالحزب الامبراطوري في قبرص قد تكون ليس من أدنياء منحطين كلهم، بل من سادة من خيرة أسرما وراء البحر، فبرلياس نفسه قد جاء من أسرة قديمة لها قرابات جيدة، وكانت أسر: بيسان وجبلية، وبورسلية Porcellets، ودي ريفيت Rivet وشينارات Chenart جميعاً أسراً نبيلة لها سمعتها الطيبة، وضم الحزب الامبراطوري في سورية أعظم القادة لذلك الحين أمثال : بالين صاحب صيدا، ويودس دي مونتليارد Eudes Demontbeliard، وغارنيير الألماني، وأسراً أخرى، كثير منها أنفسهم كانت من أقرباء أسرة إيلين، وقد أيدت هذه المجموعة نيابة فردريك

عن الملك كونراد، غير أنها ارتبطت بالإيليين عندما دفعتهم نحو هذا الأعمال الالقانونية للوكيل الامبراطوري رتشارد فيلنغر، و بوهيموند صاحب أنطاكية، و أعظم أمير محلي في بلاد ما وراء البحار بعد ملك القدس نفسه ، كان مؤيداً امبراطورياً، ولم يتعاون قط مع الحزب القبرصي، و تولى فيليب عرض الجانب الإيليني من مجمل الصورة، و بالنسبة لوجهة النظر الامبراطورية كان الإيلينيون و أعوانهم فئة متمردة، كانت تسعى للاحتفاظ بسلطة غير شرعية على مملكة قبرص، محاولة التستر خلف شرعية مغلوطة و امتيازات فردية، وتمردهم ضد مولاهم الشرعي و سلطانهم واضح تمام الوضوح في بيانات معللة وردت في ثنايا الاشارات إلى الشؤون الشرقية في تاريخ رتشارد أوف سان جرمانو ولدى مؤرخين آخرين .

و بصرف النظر عن سمات رسالة فيليب الغولفية Guelph وكذلك رواية التاريخية، إن كتابه أشبه بالملاحم، أو بالحري هو ملحمة حول بطل عظيم، هو جون دي إيبيلين العجوز، صاحب بيروت، فلقد أضفى فيليب عليه جميع الفضائل، فبات سيداً حقيقياً، مما يدفع الانسان الى التفكير بأن فيليب رأى وهو في سنه المتقدم، في مولاه السالف المثل الأعلى لجميع الفضائل، ومنه استقى الفضائل التي أثنى عليها في كتابه الـ « Quatre ages » ، ذلك أن السمات التي تجلت في كل من أحداث حياة جون دي إيبيلين هي : الشجاعة، و الشرف ، و الأمانة، و التقوى، و كبح الإنفعالات، و العدالة، والعفو، واللطف، وإذا ما أزعجنا جانباً حتى ظاهرة عبادة البطل عند فيليب، يقف صاحب بيروت بارزاً و كأنه صنع من جبلة بطولية، وكان في كلماته دوماً — حسبما روى فيليب — توازن رفيع من المرونة، والقوة، وقد انتهى جوابه المنطقي لفردريك في ليماسول بالعبرة الرنانة التالية : «وتأكد أنه بالنسبة للخوف من الموت أو السجن أنا لن أفعل شيئاً سوى ما سيطلبه قرار

المحكمة الجيد و المخلص مني أن أفعله»، و عندما أراد الإيليني أن يعبر بشكل فعال و دقيق عن عدم ثقته بالإمبراطور و وبوعوده، لم يلجأ إلى النقد المباشر لخصمه، بل عبر عن فكرته بقوة أعظم بضربه المثل بالوعمل الذي ليس لديه قلب، وهناك تشابه عظيم بين كثير من نصوص رواية فيليب و سمات الأفراد الذين تولى وصفهم في كتابه عن حياة جون أوف إيلين و بين ما ورد في كتاب جوفيل عن حياة القديس لويس، فقد مثل كل من الملك الفرنسي و اللورد القبرصي أسمى أشكال تطور الشخصية الإقطاعية، فكلاهما كانا سيدان لطيفان قد حظيا على كثير من حب و إخلاص شعبيهما، و كان كل منهما مستقيماً و متديناً و منطقياً، وقد حظيا بمن يترجم لكل واحد منهما في رجلي عمل أعجبا بهما و كتباً عن حياتيهما بغية أن تعرف الأجيال المقبلة سمات الرجلين اللذين افتخرا في دعوتيهما موليهما.

و لم يكن كتاب فيليب أقل قراءة و متعة من كتاب جوفيل، لابل يمكن القول إنه تفوق في إحدى النقاط على منافسه، لأن فيليب امتلك حساً مبطناً وجافاً بالفكاهة، تغلغل خلال روايته، و الشاهد الأكثر وضوحاً هو المشهد في محكمة نيقوسيا عندما جرى اعتقال فيليب من قبل وكلاء الإمبراطور، فقال: إنه لا يمكنه الاتفاق مع اقتراح صاحب جيلة في أن يقتل، «وأن والده السير برتراند قد تكلم مراراً بحكمة أكثر»، وهناك أيضاً لمسات أخرى كثيرة، هي أقل وضوحاً، لكن ليست أقل بروح الفكاهة، من ذلك الإشارة إلى «الخروف ذي الأذنين الطويلتين»، الذي أكله المحاصرون في ديودامور، ووصف سمات مختلف الشخصيات في قصائده عن الـ Branche العائد لـ «رينارد»

وبالنسبة لهذه القصائد لا توجد حاجة للحديث عنها هنا، ذلك أنها تستحق دراسة خاصة، وقد عدت هذه القصائد في بعض الأوقات قصائد رائعة، ونظر إليها في بعض أوقات أخرى على أنها سيئة

الوزن، وهي في كثير من الأحيان واضحة، وفي بعضها - كما الحال في القصيدة الأولى - غامضة بشكل يائس، وهذه القصائد هامة كوثائق تاريخية، لأنها تظهر ردات فعل فيليب المباشرة نحو الأحداث لدى وقوعها، و ينبغي أن يلاحظ أنه بالنسبة لقضية سجن بالين في لياسول، أزعج مرور الوقت ذكريات فيليب بشأن مصاعب هذا السجن ووحشيته، ولم يزلها .

وعلى هذا يعدّ كتاب فيليب كتاباً منحاز التوجه، لكنه مع هذا مترفع فوق مستوى التوجه الإنحيازي بسبب دقته وصحته في عرضه للحقائق، ولتركيزه على السمات الحسنة لدى بطله ، فلقد رغب فيليب أن يبقى لمستقبل الأيام حياة صديقه القديم، ومولاه، مع ذكر الأعمال العظيمة لحزبه، وهو في الحقيقة حين سعى لتخليد ذكرى نجاحات الآخرين تمكن من تخليد نفسه .

٤ - صليبية فردريك الثاني و الحرب ضد الإيليين

وفيما يتعلق بتاريخ فيليب دي نوفار إنه يقدم رواية عظيمة الإنحياز المسبق ضد أهداف وسياسات فردريك الثاني في الشرق ، وهي تروي أخبار الأحداث في الصراع ضده فقط من وجهة نظر الذين كانوا في حالة حرب ضده ، ولهذا إن تقديم عرض مختصر لصليبية فردريك وللصراع الذي نجم عنها، لائق تماماً بهذا المدخل، وسيكون هذا العرض أفضل صورة للأحداث يمكن الحصول عليها ، فلقد كتب فيليب بطريقة مقنعة إلى حد أنه إذا لم يكن القارئ حذراً، سيجد نفسه مشاركاً فيليب في أحكامه المسبقة، وداعماً للاتجاه المعادي للإمبراطور، و منحازاً إليه تمام الإنحياز، ولهذا ولكي نصحح فيليب، ومع الرغبة «لإعطاء الشيطان ما يستحقه» جاء إدخال العرض التاريخي الموجز هنا :

أ - بدايات الحملة الصليبية، ١٢١٥ - ١٢٢٨

في ٢٥- تموز ١٢١٥، وفي الكنيسة الكاتدرائية في آخن، حمل فردريك الثاني الصليب، وكرس نفسه لصالح قضية الحرب المقدسة ضد المسلمين، وجاء هذا إثر تسلمه لتاج المملكة الألمانية من يدي سيغفرايد Siegfried رئيس أساقفة مينز، وحرص أتباعه على أن يكونوا مثله فيكرسوا أنفسهم في سبيل إنقاذ الأماكن المقدسة، ولقد كان هذا استعراضاً احتفالياً رائعاً، فقد رفع الهوهنزتوفني ثانية راية الصليب التي حملها كونراد الثالث وفردريك بربروسا، وجدد أمجاد شارلمان، وأمجاد ذلك السيف الذي هو سلاح المسيحية، والذي رؤيت أسطورته الشعبية في الحملة الصليبية الأولى، وهو الذي تولى تطويبه بشكل مهيب من قبل فردريك الأول في هذه الكنيسة نفسها، وتوفر لدى البابا انوسنت الثالث السبب ليتهاج تجاه روح مولاه، ولأن يشعر أنه سيحقق بوساطة فردريك الثاني هذا (الذي سماه والداه أولاً باسم قسطنطين) الوصول إلى النتائج التي أخفقت كل من الحملة الصليبية الثالثة والحملة الصليبية الرابعة في تحقيقها.

وغادرت الحملة الصليبية الخامسة في ١٢١٧ متجهة إلى الشرق حسبما كان مخططاً لها، لكن الملك الشاب لكل من ألمانيا و صقلية لم يكن بين أفرادها، واستولى الصليبيون على دمياط، وتقدموا فوق مياه النيل، فواجهوا هزيمة ساحقة عند المنصورة، وتركوا خلفهم عدداً كبيراً من حشدهم ميتاً أو أسيراً في مصر، ثم عادوا إلى الوطن، وتسللوا إليه وهم مدمرين تماماً، و كان فردريك ما يزال يؤخر مغادرته، و تقبل البابا هونوريوس الثالث - الذي خلف انوسنت على العرش البابوي في سنة ١٢١٦- تسويغات فردريك، ومنحه موافقات متكررة على التأخير من سنة ١٢١٧ حتى سنة ١٢٢٢، ورفع قادة الحملة الصليبية الخامسة، التي كانت سيئة المصير، أصواتهم عالياً في توجيه اللوم إلى فردريك لتوانيه في تقديم الدعم لهم، و أمر البابا بعقد مجمع عام ينعقد في فيرينتينو Fe-

rentino في آذار سنة ١٢٢٣، حيث تقرر مناقشة خطط صليبية جديدة فيه، و كان بين الذين حضروا هذا المجمع الكاردينال بيلاغوس، الذي كان النائب البابوي الذي تولى قيادة الحملة الخامسة، و الذي يعود إليه بالفعل سبب الإخفاق المأساوي لتلك الحملة، و حضر كذلك الملك جون برين صاحب القدس، و رالف بطريك القدس، و هيرمان فون سالزا Salza ، المقدم الأعلى لفرسان التيوتون، مع مقدمي كل من فرسان الداوية و فرسان مشفى القديس يوحنا، وقد اجتمع هؤلاء مع البابا هونوريوس و الملك فردريك، و تم التوافق في هذا المجمع أنه يتوجب عدم القيام بأية محاولة عمليات عسكرية لمدة سنتين، كما تم ضمان مصالح فردريك الشخصية في مصير المملكة السورية، على أساس الاتفاق، و من ثم إقدامه على الزواج من ايزابل دي برين ابنة الملك جون و الوراثة لعرش القدس من خلال أمها ، و أعد فردريك خططاً معلنة من أجل مغادرته في العامين المقبلين، لكنه في عام ١٢٢٥، عندما كان عليه المغادرة وجد نفسه مرة ثانية غير قادر على المغادرة، و طلب من البابا منحه فسحة للتأخير مرة أخرى حتى سنة ١٢٢٧، و منحه البابا المتورط ذلك، و بدلاً من أن يقود فردريك جيشه الى الشرق، قام في آب ١٢٢٥ بإرسال أسطول مكون من أربعة عشر غليوناً الى عكا، و حمل هذا الأسطول جيمس أسقف باقي، الذي كان يعمل بمثابة وكيل له لكي يتولى خطبة الأميرة ايزابل، و جرى الزواج في كنيسة الصليب المقدس في عكا، و بعد مراسم الزواج حملت الملكة الشابة إلى صور، حيث جرى تنويعها في الكاتدرائية بشكل مهيب ملكة على القدس، و ذلك بحضور رالف، بطريك القدس، و سميعان رئيس أساقفة صور، و يودس دي مونتبليارد الذي كان قسطلان المملكة و نائبها، و بالين صاحب صيدا، و وولتر صاحب قيسارية، و جون دي ايلين صاحب بيروت، و عدد كبير آخر، و استمرت الاحتفالات و الأعياد بعد التوقيع هناك لمدة خمسة عشر يوماً في مدينة صور، ثم توجه معها من هناك نحو الغرب

بمثابة حرس شرف: جيمس دي فيتري، أسقف عكا، وبالين صاحب صيدا، ويودس دي مونتبليارد، وسمعان رئيس أساقفة صور، ودانيال دي تيراموند، وعدد كبير آخر من لوردات سورية، وقد نزلوا في برنديزي في شهر تشرين الأول وفي ٩- تشرين الثاني تزوجت الملكة ايزابيل من فردريك شخصياً.

وما أن جرى انجاز الزواج حتى بادر فردريك إلى طلب تاج القدس من ختنه الملك جون مؤكداً على أن ايزابيل ملكة بموجب حقها الشرعي، وأن زواجها قد أنهى بشكل آلي نيابة جون عنها، واحتج جون ولكن بما أنه كان حصل شخصياً على عرش القدس بزواجه من الملكة، لذلك لم يكن بإمكانه إبداء مقاومة شديدة، ومع هذا أصر على أنه كان من بين شروط اتفاق الزواج أن يحتفظ بتاجه طيلة حياته، لكن فردريك رفض هذا، وتجاهل إلتماس جون الذي رفعه إلى البابا، وجعل نفسه يتوج ملكاً للقدس، وقام البارونات السوريون الذين رافقوا ايزابيل إلى ايطاليا بالإعتراف فوراً بفردريك ملكاً عليهم، وقدموا الولاء له، وقام الامبراطور على الفور بإرسال أسقف ملفي Melfi إلى الشرق ليضمن الحصول على ولاء البارونات في سورية، وذهب معه الكونت بيرناردو جنتايل أوف ناردو Berardo Gentile of nardo، والكونت ستيفن أوف كوترون Cotron، وقوة مؤلفة من ثلاثمائة فارس، لتكون شحنة في البلاد باسم الامبراطور، ويودس دي مونتبليارد، القسطلان الذي شغل وظيفة النائب أثناء غياب الملك جون وكان سوف يتابع العمل في الوكالة حتى قدوم الملك شخصياً الى سورية.

ومع أن البابا رفض الاعتراف بفردريك ملكاً على القدس، واستمر في إضفاء ذلك اللقب على جون دي بريين، نجد أن بارونات القدس قد بادروا بالفعل بقبول فردريك ملكاً بحكم كونه زوجاً للملكة مريم، ثم

بعد موتها، نائباً لابتتيهما ايزابل، لكن بزواجها وبتتويجها في صور صارت ايزابل ملكة بنفسها للقدس، وتبعاً لهذا لقد حملت اللقب الملكي الى زوجها، وإذا ما التزم فردريك بقانون المملكة الذي قضى بوجوب ظهور الحاكم في حدود سنة ويوم بعد وراثته المملكة ليطالب بميراثه، لن يكون هناك اعتراض قانوني عليه كملك للقدس.

وقمت اعدادات كبيرة للحملة الصليبية التي تقرر اقلعها في آب ١٢٢٧، ووصلت الجيوش من ألمانيا إلى برنديزي تحت قيادة اللنغريف لويس أوف ثورنجيا Thuringia ، والدوق هنري أوف ليمبيرغ Lemberg، وجاء أربعون ألفاً من الانكليز تحت قيادة أسقف إكسيتير Exeter وأسقف ونشستر ، وهو بيتري روشي Roches المشهور، وتجمعت الحشود الصليبية من لومبارديا ومن أبوليا، ومن صقلية ومن أقاصي ألمانيا في ذلك الميناء الحار وغير الصحي، في حر الصيف، وجرى إرسال الكونت توماس أوف أسيرا Acerra أمام القوات ليعمل في سورية نائباً للامبراطور حتى وصوله شخصياً.

ومع أن فردريك قد أعلن فيما بعد، أنه تولى الإيفاء بجميع الواجبات والتعهدات التي قطعها على نفسه فيما يتعلق بالحملة الصليبية، وجد الحشد الذي وصل الى برنديزي أن الأوضاع غير مهيأة، وأن العدد الكافي من السفن لحمل هذا الحشد الهائل لم يجهز، وأن الامدادات سيئة الاعداد، وأن الأحوال الصحية في المعسكر كانت تعيسة، وكانت موارد المؤن والإقامة غير كافية، وفي حر صيف أبوليا سقط المحاربون الشماليون ضحايا للطاعون ومالبث فتك المرض وقيام عدد من الوحدات بالتخلي عن الجيش أن أنقص العدد كثيراً.

وتم أخيراً في الثامن من أيلول لعام ١٢٢٧، اقلع الامبراطور، وبذلك بدأت الحملة الصليبية بالفعل، لكن الطاعون الذي كان قد دمر عدداً كبيراً من الجيش لم يوفر أحداً حتى أن صاحب الجلالة الامبراطورية قد

أرغمته أوضاعه الصحية السيئة على العودة الى ميناء أوترانتو Otranto، وذلك بناء على نصيحة فون سالزا وجيرولد، البطريك الجديد للقدس، وفي أوترانتو مات لويس أوف ثورنجيا، وبعث فردريك على معظم سفن الأسطول بثمانمائة من الفرسان وبعشرة آلاف من الرجالة، وذلك تحت قيادة دوق ليمبورغ، وأجل البطريك جيرولد موعد مغادرته حتى تتحسن صحته.

لكن البابا هونوريوس الثالث المهادن لم يعد مستحوذاً على عرش بطرس، فقد توفي في ١٨ — آذار ١٢٢٧، وخلفه الكاردينال أوغولينو Ugolino أوف أوستيا، وكان رجلاً عجوزاً، لكنه تمتع بنشاط مدهش، وقد تبنى اسم غريغوري التاسع، ولتصوره نفسه على أنه غريغوري سابع آخر، دعا إلى عقد مؤتمر آخر حول مسألة الإمبراطور المرتد، ثم ما أن سمع البابا العجوز بعودة فردريك حتى أصدر بحقه حرماناً كنسياً، وسوغ عمله هذا بشروط اليمين الذي أقسمه فردريك في سان جرمانو.

وتوفر بالفعل بعض التسوية في عمل غريغوري، في ضوء سجل أعمال التأجيل المتكررة لفردريك، لكن الذي لم يعرفه البابا هذه المرة هو أن فردريك كان مخلصاً بالفعل في خطته للمغادرة إلى سورية، وأن الظروف التي تجددت جعلت الإبحار في عام ١٢٢٧ مرغوباً فيه من وجهة نظر الإمبراطور بشكل خاص.

وكان الوضع السياسي منذ عام ١٢٢٥ متأزماً وحساساً، فقد انشغل الأميران الأيوبيان: الملك الكامل محمد صاحب مصر، والملك المعظم عيسى صاحب دمشق، في حرب أخويه من أجل السيطرة على فلسطين، وحاول منذ ١٢٢٥، المعظم الإطاحة بخصمه، وقام الكامل بالشروع بأعمال انتقامية من المعظم، فتحالف المعظم مع سلطان خوارزم، و بناء عليه انطلق الكامل يبحث عن حليف يوازن الحلف الذي تشكل ضده،

فكان أن بعث في سنة ١٢٢٦ سفارة إلى فردريك يسأله الإتحاد معه ضد دمشق، وعرض مقابل ذلك وثنماً لمساعدته : القدس وعدة مدن فلسطينية كانت بيد المعظم، وصار إذا ما توجهت صليبية فردريك ضد دمشق، فإن التحالف عرض على فردريك منافع كثيرة، وبناء عليه دخل فردريك في مباحثات مع الملك المصري، وجرى تبادل الرسائل وتطور العمل تطوراً كبيراً عندما شرع فردريك في عام ١٢٢٧ بالإقلاع، لكنه أرغم على العودة، وعلى هذا يمكن القول إن التأخير كان مزعجاً بالنسبة للامبراطور مثلما كان بالنسبة للبابا، ذلك أن فردريك كان بالفعل راغباً بالذهاب إلى فلسطين لاسترداد أراضي مملكته هناك، ولم يعبأ فردريك بانتقادات ولوم البابا الساخط ، الذي أعلن أنه لن يتمكن من الذهاب في حملته الصليبية حتى يرفع عنه الحرمان الكنسي، فلقد تابع فردريك بكل هدوء تنفيذ خططه من أجل المغادرة إلى الشرق، وعرض أن يقوم بتنفيذ أية عقوبة يمكن للبابا أن ينزلها به، لأنه أخفق بالمغادرة بالتاريخ الموعد، وبين أنه قد تولى تنفيذ جميع الشروط التي قطعها على نفسه بالنسبة للحملة الصليبية، وأن مرضه لم يكن بيده، وأن المصاعب في برنديزي لم يكن هو سببها، وكانت فوق طاقته، وتجاهل غريغوري شكواه وحاول جاهداً وضع كل عائق في طريقه، واخترع تهماً مزيفة ومثيرة للسخرية ضد فردريك، من ذلك أنه قد دس السم للندغريف لويس، وابتعد تماماً عن موضوع الحملة الصليبية لدى انتقاده لسياسات الامبراطور نحو الدول البابوية ونحو أسقفية صقلية، ودافع فردريك عن نفسه، وأبقى المناقشة حول المسألة القائمة، أي قضية الحملة الصليبية، وتابع القيام باستعداداته من أجل مغادرته للقيام بها، وبينما كان فردريك يحتفل بعيد الفصح في باري، جاءت رسالة من توماس أسيرا، الذي كان نائبه في سورية، أخبره فيها بأن السلطان المعظم صاحب دمشق، قد توفي، وأرسل الامبراطور بناء على ذلك، على الفور قوة مؤلفة من خمسمائة فارس نحو الشرق ، تحت قيادة رتشارد فيلنجر Filanger ، الذي كان

وأُعيت الامبراطورة ايزابل وسط هذه الاستعدادات بطفل، وولدت في ٢٥ - نيسان ١٢٢٨ في أندريا بصبي ذكر منح اسم كونراد، وكانت معاناة الولادة قاسية جداً بالنسبة للامبراطورة ابنة السابعة عشرة، ولقد توفيت بعد عشرة أيام من ولادتها، تاركة كونراد وريثاً لعرشها في القدس، وهكذا انتزع اللقب من فردريك ، قبل أن يشرع بسفره نحو مملكته في القدس، وعندما أُلقي أخيراً في ٢٨ حزيران، كان ادعاءه القانوني الوحيد بعرش المملكة الشرقية ممثلاً بوضعه كوكيل لابنه الرضيع، وزيادة على هذا لقد أبحر على الرغم من الحظر البابوي، الذي منع تحت التهديد بالحرمان الكنسي وعدم المصالحة مع الكنيسة، إذا ما قام بالحملة الصليبية.

ب - الحملة الصليبية: حزيران ١٢٢٨ - أيار ١٢٢٩ .

عندما أبحر الامبراطور، وهو في لجة الحظر البابوي، من برنديزي في ١٢٢٨ ، وشرع بحملته الصليبية التي تأخرت كثيراً، كانت قوته صغيرة، تألفت من أربعين مركباً فقط، فقد كان الجزء الأعظم من جيشه قد تقدم أمامه، لكن وإن أخذنا ذلك بعين الاعتبار كانت الحملة الصليبية الامبراطورية أقل عظمة مما خطط له بالأصل، وبعد ابصار دمار أربعة وعشرين يوماً، اجتاز فيها الأسطول الامبراطوري سواحل كورفو، وسيفالونيا، والمورة، و كريت، وصل يوم ٢١ تموز إلى ميناء ليماسول في قبرص، حيث التقى بتوماس أوف أسيرا وفيلنغر ، وبالين صاحب صيدا، وبعض من أعيان نبلاء المملكة ، وكان يحكم مملكة قبرص آنذاك الملك هنري الأول، وكان صغيراً، وقد ناب عنه جون دي إيبيلين صاحب بيروت، حيث كان يعمل وكيلاً يتولى إدارة المملكة، وكان فردريك يعدّ قبرص بمثابة إقطاعية إمبراطورية، بحكم أن الملك عموري كان قد تلقى لقبه الملكي من هنري السادس في سنة ١١٩٧، وكان قد اعترف بالتابعة للامبراطورية، ولهذا قرر فردريك الضغط من أجل حقه

بالسيادة على الجزيرة، وقد شجعه على ذلك: عموري برلياس ومجموعة من البارونات المضادين للإيبيليين، الذين كانوا قد خرجوا لاستقبال الامبراطور قرب المورة، وقد بينوا له القيمة في الرجال، والمال، والامدادات التي سيؤمنها تملكه لقبرص لحملاته في القارة، وكانت القضية القائمة قضية قانونية، لأنه بموجب القانون الإمبراطوري كان يحق لفردريك بحكم سيادته، توجيه الملك الصغير وريث المملكة لأنه كان تابعاً إمبراطورياً، لكن بموجب قانون قبرص كانت نيابة الملك بيد أليس أم هنري، وهي أقرب أقرباء الملك الطفل، وكانت المحكمة العليا لقبرص قد عينت فيليب دي إيبيلين ليتولى إدارة المملكة لصالح الملكة أليس، أثناء قصور وريثها، وعندما تولى فيليب مسؤوليات حكم المملكة، قام البارونات بناء عليه بتأدية يمين الطاعة لحكمه حتى يصل هنري إلى السن الشرعي، وطالما أن الملكة أليس كانت تتلقى موارد المملكة، فالحكومة مسندة إلى الإيبيليين، ولعله بسبب الخوف من الامبراطور بادعاء حق الإشراف على توجيه الملك القاصر، قام الإيبيليني في سنة ١٢٢٥ بتتويج هنري، وكان هذا عندما سرت أخبار خطط الحملة الصليبية الإمبراطورية في قبرص، وتوفي فيليب دي إيبيلين في عام ١٢٢٧، وانتقلت إدارة المملكة على الفور - بموافقة من المحكمة العليا - إلى أخيه جون صاحب بيروت، وأدى النزاع فيما بين الإيبيليين وبرلياس إلى قيام حزب معارض قوي للإيبيليين، بعدما حاول برلياس تأمين وكالة الملك من خلال الملكة أليس، التي رفضت محاولتها وأحبطت من قبل المحكمة، وكان الحزب المعارض يأمل بأن الإمبراطور سوف يؤكد حقوقه، ويتنزع من الإيبيليين الوكالة لنفسه.

و عندما طلب فردريك من الإيبيليين أن يسلمه الملك و حكومة المملكة، استجاب صاحب بيروت إلى المطالب الإمبراطورية فيما يتعلق بالملك، معترفاً بسيادة الامبراطور على الملك، لكنه رفض الاستجابة فيما

يتعلق بالوكالة، التي استحوذ عليها بموجب سلطات المحكمة العليا، التي هو مسؤول أمامها فقط، فالملكة أليس قد كانت نائبة الملك، و لها حق التمتع بالموارد، و هو - أي الإيليني - له حق الحكومة فقط ، الذي منح إليه من قبل المحكمة، و هو على استعداد لتقديم حساب لمحكمة نيقوسيا حول جميع ما قام به، و قام فردريك عن عمد بتعقيد القضية، بأن طلب بالإضافة إلى ماتقدم تسليمه مدينة بيروت، بحكم أنه كان ملكاً للقدس و الإيليني متملك لها كإقطاعية من إقطاعات القدس، ومن الضروري من أجل توضيح الأمور، أن نميز بعناية مسألة العلاقتين اللتان قامتتا بين فردريك و الإيليني : فيما أن فردريك كان يمتلك السيادة على ملك قبرص، فقد كان بإمكانه أن يطلب الولاء من الإيليني لأنه كان من الاقطاعيين القبارصة، و هذا ما قدمه له الإيليني عن طواعية، لكن فردريك ادعى النيابة عن الملك هنري، التي هي بموجب القانون القبرصي كانت تعود إلى الملكة أليس، و قد أصر على الاعتراف بحقوقه كنائب، الأمر الذي رفض الإيليني الاعتراف به، و لقد رأى فردريك أن حكم الإيليني قد توقف بالضرورة عندما وصل هو، لأنه هو النائب القانوني، و طالب بالإعتراف بحقوقه، و بات من المتوجب على الإيليني تقديم حساب له عن السنوات التي أمضاها بالوكالة، و من جهة ثانية عدّ نفسه الوكيل الإداري للملكة أليس، التي هي النائب الشرعي، وهو مسؤول أمام المحكمة العليا التي منحت له السلطات حتى بلوغ الملك السن القانونية، و بالمحصلة كان هو على استعداد لأن يسلم فردريك شخص الملك الطفل القاصر، لأنه امتلك حق السيادة عليه، لكنه رفض تقديم أي حساب إلا إلى المحكمة العليا في نيقوسيا، و كانت العلاقة الثانية بين فردريك كملك للقدس و الإيليني كصاحب لبيروت، و هنا أبدى الإيليني استعداده لتقديم الولاء لفردريك كملك للقدس، و أن يخدمه مقابل إقطاعه في بيروت الذي هو مستحوذ عليه منه، و طلب فردريك التسليم الفوري للاقطاع

حيث ادعى أنه يعود إلى الأملاك الملكية، و كان الاقطاع قد جرى منحه إلى الإيبيليني من قبل الملك عموري الثاني و الملكة ايزابل، و بموجب قوانين القدس كان التابع محمياً في تملكه لإقطاعه ضد المصادرة القسرية للملك، وواضح في القوانين تمام الوضوح أن التابع يمكن أن يحرم من إقطاعه فقط بموجب قرار من المحكمة العليا للقدس، و تعلق المسألة هنا بجميع امتيازات الحقوق التي تمتع بها ملك القدس، و كان فردريك يحاول أن يفرض امتيازات و أن يمارس أموراً لم يسمع بها فيما وراء البحار، و كان الإيبيليني مصرّاً على التمسك بحقوقه كإقطاعي حسبما هي مضمونة في شرعة المملكة، و على هذا كان الصراع أكبر منه صراعاً بين فردريك و بين صاحب بيروت، فلقد كان صراعاً أساسياً بين نظامين متعارضين: أولهما من جانب القانون الروماني و الامتيازات، و من الجانب المقابل القانون الاقطاعي مع حقوق الأفراد، و كانت قوانين الدول الصليبية قد تأسست في القرن الثاني عشر على قواعد إقطاعية صرفه، و كانت الحقوق الفردية في جميع الأحوال محمية، و لم تعرف قوانين القدس أي شيء حول الامتيازات، و لم تكن فيها مجموعات القوانين الرومانية أو مؤثراتها، فلقد كان بإمكان فردريك الثاني أن يكون صاحب صقلية بلامنازع و الامبراطور الشرعي لألمانيا، غير أنه كان في القدس ملكاً إقطاعياً، خاضعاً للقانون، و غير قادر على فعل أي شيء بدون موافقة المحكمة العليا، التي كانت مكونة من إقطاعيي المملكة، والتي امتلكت السيادة في جميع الأشياء.

ولقد روى فيليب دي نوفار أفضل تفاصيل أخبار هذا الصراع، وأعطى الإيبيليني رهائن مقابل ظهوره في كل من محكمتي قبرص والقدس، و تراجع إلى نيقوسيا، وعندما لحقه فردريك إلى هناك، رفض صاحب بيروت القتال ضد الرجل الذي كان مولاه، و انسحب متراجعاً إلى ديو دامور، متخلياً بذلك عن نيقوسيا لأعدائه، ولو امتلك فردريك

المزيد من الوقت لأمكن القتال من أجل المسألة، ولوجدت حلاً كلياً في صيف ١٢٢٨، لكنه تسلم رسالة أخبرته عن العصيان الذي كان البابا يثيره في إيطاليا ضده، وكان قلقاً لإكمال صليبيته ومن ثم العودة إلى الغرب، ونتيجة لهذا أبرمت معاهدة، وبموجبها جرى إعادة الرهائن الإيلينية إلى قلاع المملكة، وهم البيئات البديهة للحكم، وتم تسليمهم إلى يدي إقطاعي تابع للملك هنري كان قد جرى اختياره من قبل الامبراطور، وقد احتفظ هذا بهم باسم الملك، ووعد الإيليني بمرافقة فردريك في صليبيته، وغادر فردريك قبرص في الثالث من إيلول، بعدما أمضى ثلاثة وأربعين يوماً في قبرص، وتوجه فردريك إلى سورية، وأخذ الملك هنري معه.

وبعدما أبحر مروراً بالبترن، وببيروت، وبصيدا وبصور، وصل الامبراطور إلى عكا، حيث جرى استقباله بحماس كبير من قبل السكان، مع أن رجال الدين رفضوا منحه قبلة السلام، حتى يتصالح مع الكنيسة، وعاشت هذه الصداقة مع السكان لمدة قصيرة فقط، فبعد أيام قليلة من وصول الاسطول الامبراطوري، وصل بعض الرهبان الفرنسيين إلى عكا وهم يحملون رسائل من البابا ضد فردريك، وهي تأمر جميع المسيحيين الطيبين بالابتعاد عنه وبتجنبه، بما أنه محروم كنسياً ولم يتب، وأرسل الامبراطور الكونت هنري صاحب مالطا ورئيس أساقفة باري إلى روما ليعرضاً قضيته أمام البابا غريغوري، وليسعياً لضمان السلام حتى تتمكن الحملة الصليبية من المضي دونها إعاقه، غير أنهما وجدا البابا العجوز متصلباً في رفضه في قبول الاعتذار الامبراطوري.

وفي الوقت نفسه أعاد فردريك من عكا المباحثات مع السلطان الكامل، الذي كان معسكراً في نابلس، وكان توماس أوف أسيرا، وبالين صاحب صيدا هما الرسولان الامبراطوريان، وعاد الشيخ فخر الدين رسولاً من السلطان إلى الامبراطور، وكان فردريك راغباً بشدة في إتمام

التحالف على أساس الشروط التي تقدم بها الكامل في ١٢٢٦، لكن السلطان لم تكن لديه الرغبة الآن في تقديم التنازلات الكبيرة، طالما أن المعظم كان الآن ميتاً، وقد زال الخطر من دمشق، لأنه بعد وفاة المعظم غزا السلطان المصري فلسطين واستولى لصالحه على القدس ونابلس، وبات أقل رغبة في إعطاء فردريك مدناً هي الآن في يده وليس كما كان من قبل — عندما تنازل عنهن — في أيدي منافسه، وكان قد تمكن في آب من عام ١٢٢٨ من نيل معاهدة من الملك الأشرف موسى صاحب الجزيرة، وأخوه أيضاً، اقتسما بموجبها ممتلكات الملك المعظم، وبذلك حرما كلياً الملك الناصر داود، وهو ابن المعظم ووريثه، وعلى هذا كان وضع الكامل قد تمتن كثيراً، وباتت حاجته للتحالف مع فردريك ضئيلة، وكان فردريك من الجانب الآخر، بحاجة كبرى إلى السلطان، لأنه مع القوة الصغيرة التي كانت تحت تصرفه، لم يكن ليأمل بالاستيلاء على أي شيء بقوة السلاح، وكان عليه أن يعتمد على طيب نوايا السلطان نحوه، وعلى إمكانية تأمين أي شيء من خلال المفاوضات في سبيل الوفاء بالشروط التي جرى عرضها من قبل، وازداد وضع فردريك ضعفاً بمعرفة السلطان بالصراع فيما بين الامبراطور والبابا، ولإنعدام الوحدة داخل المعسكر المسيحي، وأكثر من هذا لقد كتب غريغوري مباشرة إلى السلطان يطلب منه أن لا يقدم أية تنازلات إلى فردريك، لهذا كان ما تمكنت الحملة الصليبية من تحقيقه قد جاء بالدرجة الأولى محصلة للإحترام المتبادل الذي قام بين الامبراطور والسلطان، وبفضل الصداقة التي بذل فخر الدين جهوده في سبيل إقامتها، وتأسيسها فيما بين الحاكمين المتشابهين بالعقلية.

وانتقل الكامل من نابلس إلى غزة ولحقه فردريك باتجاه الجنوب، حيث زحف إلى يافا في تشرين الثاني لعام ١٢٢٨، ونتيجة لإصدار البطريك جيروld حرماناً كنسياً ضد الامبراطور، رفض مقدما الاستتارية

والداوية الزحف تحت الراية الامبراطورية، لكنهما قاما بعمل تسوية، بأن زحفا على بعد مسيرة يوم واحد من جيش فردريك وأعلننا أنها كانا لاخدمان في جيش الامبراطور بل في جيش المسيح، وشكل الجيش الصليبي وإن كان صغيراً شيئاً من الرعب بالنسبة للملك الكامل، وصحيح أن الصليبيين كان عددهم صغيراً بالفعل، ولا يمكنهم تشكيل خطر حقيقي على مصر، لقد امتلكوا من القوة ما فيه الكفاية لأن يجعلوا السلطان غير قادر على تجاهلهم، وأيضاً غير قادر على متابعة حروبه في سورية حيث كان يتولى تقليص حجم ممتلكات الدمشقيين، وقد أمل الكامل — لبعض الوقت — بأن يعجز فردريك عن البقاء في فلسطين، وأنه سوف يرغم على العودة إلى الغرب دون أن يتمكن من إنجاز ما أراد إنجازه في إعادة الاستيلاء على القدس، وصحيح أنه قدر تقديراً صائباً رغبة الامبراطور في العودة إلى إيطاليا، هو لم يقدّر كافياً لإصرار فردريك على ان يحمل معه بعض النتائج القيمة لحملة، حتى لا يظهر بمظهر المخفق في أعين العالم المسيحي، وقد التجأ كل من فردريك وغريغوري إلى الرأي العام، وكان على فردريك العودة مع ثمار للنصر كيفما كان قد تم الحصول عليها، ونتيجة لهذا بينما سعى الكامل إلى إطالة أمد المفاوضات، تمسك فردريك بإصراره على تسليمه القدس والبلدات الفلسطينية الأخرى، وكان موقفه لبعض الوقت خطيراً، فقد أخرجت العواصف الاسطول الذي كان يحمل الميرة، ولم يستطع الوصول إلى يافا لبعض الوقت الذي مضى بعد وصول الجيش، وعانى الناس من نقص الميرة والإمدادات، وأصبح الامبراطور يائساً، لكن الحظ ابتسم له أخيراً، فقد قام الملك الناصر داود — الأمير الدمشقي المخلوع — بغزو سورية بغية إعادة الاستيلاء على ممتلكات أبيه التي كان عماء يحاربان في سبيلها، وقد حوَصر في دمشق من قبل الأشرف، وبات الآن هناك خطر يواجهه الكامل فإما أن يتمكن الناصر داود من استرداد أراضيه، أو أن يقرر الأشرف احتلال أكثر من حصته، وصار الآن على الكامل حتى

يحافظ على مكتسباته في سورية أن يبذل غاية جهده حتى يتحرر من الانشغال بالحملة الصليبية، وذلك لكي يتدخل بشكل فعال في الحرب السورية، ونتيجة لهذا كان فخر الدين قادراً على إعداد معاهدة تسلم بموجبها فردريك أكثر مما كان يتوقعه، ويمكنه ضمانه، مما أعطاه القدرة على العودة إلى الوطن وهو جالب إليه «سلام مع مجد»، ويروى بأن الامبراطور قد قال لفخر الدين: «لولا أن أخاف من انكسار جاهي في عيون الفرنجة، ما كلفت السلطان شيئاً من ذلك»، في حين دافع الكامل عن المعاهدة بقوله: «إننا لم نسمح للفرنج إلا بكنايس وأدر خراب، والمسجد على حاله، وشعار الاسلام قائم، ووالي المسلمين متحكم في الأعمال والضياع»، وفي الوقت الذي انتقدت فيه المعاهدة من كلا الطرفين، توفرت لدى المسلمين أرضية أفضل للشكوى والنقد.

وكانت معاهدة يافا هذه التي أبرمت أخيراً في ١٨ — شباط لعام ١٢٢٩ عبارة عن اتفاقية شخصية بين السلطان والامبراطور، وقد أعدت بشكل سري، فما من واحد من الأعيان السوريين استشير لدى إعدادها، وقد غضبوا حيال إبرامها، وقد رست تماماً واعتمدت على النوايا الطيبة لكل من السلطان والامبراطور من أجل فرضها وتطبيقها، وقد عقدت من أجل خاطر فردريك شخصياً، وليس لصالح مملكة القدس، أو الكنيسة المسيحية، فقد كانت هذه غاضبة حسبما مثلها رجال الدين، وكانت المواد الاساسية للمعاهدة كما يلي:

- ١ — يسلم السلطان إلى فردريك أو نوابه مدينة القدس.
- ٢ — تبقى منطقة المسجد بما في ذلك قبة الصخرة بيد المسلمين، الذين يتمتعون بالحربة في ممارسة شعائرهم هناك دونما إعاقة.
- ٣ — للمسلمين الحق بحرية الوصول إلى أماكن الزيارة لديهم في بيت لحم والأماكن المقدسة الأخرى في ديارهم.

- ٤- يسمح للفرنجة بالدخول إلى منطقة الحرم للصلاة، شرط إظهار الاحترام اللائق بالمسجد بيت الله.
- ٥- يمتلك المسلمون محكماتهم الخاصة التي إليها يتقاضون.
- ٦- وعد الامبراطور بالبقاء على الحياد تجاه أي حرب قد تشن ضد السلطان، وأن لا يساعد أحداً ضده.
- ٧- سوف يمنع الامبراطور أي واحد من رعاياه من إثارة حرب ضد السلطان، ويعيق أي إنسان قد يقترح فعل ذلك.
- ٨- تعهد الامبراطور شخصياً بفرض شروط المعاهدة، وأن يمنع أي خرق للمهدنة.
- ٩- تترك طرابلس وأنطاكية وطرطوس وقلاع : صافيتا، والمرقب والكرك (قلاع كانت عائدة لكل من الداوية والاسبتارية) كما هي، حسبما كانت (أي هي غير مشمولة بالمعاهدة)، وينبغي على الامبراطور أن يمنع أي من رعاياه: من سوريين وآخرين، من مساعدة أصحاب هذه المناطق ضد السلطان.
- ١٠- ينبغي إعادة القديس جورج (اللد) والقرى القائمة بينها وبين القدس إلى الامبراطور.
- ١١- ينبغي إعادة الناصرة والقرى الواقعة بينها وبين عكا إلى الامبراطور.
- ١٢- ينبغي إعادة تبين مع أراضيها وقراها.
- ١٣- ينبغي إعادة صيدا وأحوازها.
- ١٤- ينبغي إعادة بيت لحم والقرى التي بينها وبين القدس.
- ١٥- يسمح بإعادة بناء أسوار القدس، ويافا، وقيسارية والقرين

(قلعة فرسان التيتون) من قبل المسيحيين (ذكر المقريري أن مدينة القدس لم تحصن).

١٦ — لا يسمح للمصريين ببناء أي حصن جديد، وإعادة بناء أي حصن قديم طوال أيام الهدنة.

١٧ — سوف يكون هناك تبادل كامل وإعادة للأسرى، بما في ذلك الذين أسروا في حمله دمياط.

١٨ — مدة الهدنة عشر سنوات، وخمسة أشهر، وأربعين يوماً.

ومع أن المعاهدة قد حققت لفرنجة سورية أكثر مما حققته أية حملة صليبية أخرى منذ الحملة الأولى، ومع أنها لاقت القبول من قبل السواد الأعظم من الجيش الصليبي، ومن شعب البلاد، كانت غير مقبولة لدى البطريرك جيروльд مع رجال الدين، وانتقدت المعاهدة بتسويغ أعظم من قبل المسلمين، الذين شعروا بأن السلطان كان مسرفاً جداً بكرمه، ورفض الناصر داود بشكل خاص القبول بأداة تصرف بموجها عمه وأعطى مدناً، شعر بأنها تعود إليه شرعاً، واستغلت هذه الحقيقة من البطريرك جيروльд، الذي ألح على رفض داود واتخذ منه حجة للمعارضة من الجانب المسيحي، كما وعارض البطريرك المعاهدة بشكل رئيسي لأنها سمحت للمسلمين بالعبادة في القدس، وجعلت الامبراطور يتعهد بعدم السماح لأي صليبي بغزو مصر، وهذه الفقرة رأها رجال الدين وعدوها على أنها أكثر الفقرات لامسيحية.

ولم يؤثر رفض البطريرك والناصر داود لقبول المعاهدة أي شيء على الإطلاق، وذلك فيما يتعلق بفردريك والكامل، وكان الامبراطور الآن قلقاً جداً — أما والمعاهدة قد أبرمت — لكي ينهي أعماله ويعود إلى الغرب، وبناء عليه زحف باتجاه المدينة المقدسة، التي دخلها يوم ١٧ — آذار، وجرى في اليوم التالي — أي بعد مضي شهر تماماً على توقيع

الغرب، وبناء عليه زحف باتجاه المدينة المقدسة، التي دخلها يوم ١٧— آذار، وجرى في اليوم التالي— أي بعد مضي شهر تماماً على توقيع المعاهدة— تتويجه لنفسه بشكل مهيب ملكاً على القدس، وكان ذلك في كنيسة الضريح المقدس، ورفض عدد كبير من البارونات إتباع الامبراطور إلى القدس، وكان ذلك بناء على أوامر من البطريرك، وعادوا إلى عكا، مع أن الصليبيين من الغرب، وفرسان التيوتون وعدد كبير من البارونات المحليين قد رافقوه، وبما أن الامبراطور كان ما يزال محروماً فقد جرى احتفال التتويج بدون موافقة البابوية، مع أن رئيس أساقفة كابوا Capua وبالرمو وكذلك عدد كبير من رجال الدين الأدنى مرتبة كانوا بين الحضور، ووضع وقتذاك تاج القدس فوق المذبح في الكنيسة، ومن على المذبح تناوله الامبراطور نفسه، ووضع على رأسه، ثم تكلم فون سالزا باسم الامبراطور، وتوجه إلى الشعب مؤكداً له أن رغبته العظيمة هي التصالح مع البابا وإقامة سلام معه، وسوغ موافقه بالنسبة للثهم التي صدرت ضده.

ثم مالبث الاحتفال أن تحول إلى حزن، فبعد التتويج بأمد وجيز قام رئيس أساقفة قيسارية، بناء على أوامر من البطريرك، فوضع الكنيسة والأماكن المقدسة في المدينة تحت الحرمان، وكانت هذه بالحقيقة ضربة مؤلمة للحجاج الذين ارتحلوا إلى المدينة المقدسة، فهم قد حرّموا الآن من المنافع الروحية التي توفرت هناك، لابل أكثر من هذا، لقد باتوا عرضة للعقوبة لوجودهم هناك، وبعد ما قام فردريك بكل سرعة ببعض الترتيبات الدفاعية عن المدينة المحرومة، انسحب منها، وزحف عائداً إلى يافا، ثم قام في ٢٥— آذار، أي بعد اسبوع واحد تماماً مضي على تتويجه بالعودة إلى عكا.

وأمضى الامبراطور شهر نيسان في عكا، حيث كان لديه عدداً من القضايا عليه ايجاد حل لها قبل أن يغادر البلاد، وتصدر هذه القضايا من

حيث الأهمية ما كان ضد البطريك وضد الداوية، الذين اتهمهم بأنهم حاولوا قتله بوساطة كمين نصبوه له بناء على طلب من البابا، وقد حاصر لمدة خمسة أيام البطريك والداوية في بيوتهم في عكا، حيث نصب آلات الحرب، وقاد عمليات حصار نظامية ضدهم، ورد البطريك على هذا بفرض حرمان لاهوتي على الذين تولوا مساعدة الامبراطور، ووقفوا ضده وضد الداوية، وبشر الرهبان بمضمون هذا المرسوم، وعليهم نزل غضب الامبراطور، الذي أمر بجرهم من فوق منابرهم، وضربهم في شوارع المدينة، مثل اللصوص العموميين، وقام الامبراطور بالوقت نفسه بربط الفرسان التيوتون والبيازنة به أكثر، وجعلهم متعلقين به شخصيا عن طريق عدد من مراسيم المنح الكريمة التي صدرت في عكا في نيسان عام ١٢٢٩، وباع بالوقت نفسه وكالة قبرص إلى عموري برلياس ومعه رفاقه الأربعة، وعين بالين صاحب صيدا، وغارنيير الألماني وكيلين له في سورية، وقد أنهى ترتيباته بكل سرعة، ذلك أنه كان قلقا جداً ومتعجلاً للعودة إلى إيطاليا، حيث كان الجيش البابوي تحت قيادة جون دي بريين يقوم بغزو أبوليا وكابوا، وأقلع الامبراطور يريد الوطن في الاول من أيار، على ظهر اسطول، كان الكونت هنري صاحب مالطا قد جلبه للتو من الغرب.

وتركت مغادرة فردريك لعكا الأوضاع في سورية والمشاكل فيها دونها حلول، حيث ما برح البطريك مع رجال الدين يرفضون القبول بمعاهدته مع مصر، وكان الداوية معادين للامبراطور بشكل علني، ولم تعرض قضية الايبليني للمحاكمة في المحكمة العليا، وهكذا بقيت دونها حسم، وكان وكلاء فردريك في قبرص يسعون جاهدين من أجل تدمير ثروة الإيبلينيين وقوتهم في الجزيرة، وكانت الحملة الصليبية قد انتهت، لكن مؤثراتها على الدول اللاتينية لما وراء البحار لم يكن الشعور بها قد بدأ تماماً.

ج- الحرب الامبراطورية الايلينية حتى طرد الإمبراطوريين من قبرص، ١٢٢٩-١٢٣٣.

كان الزمان الذي جاء مباشرة إثر عودة فردريك من الحملة الصليبية موائماً جداً لسعد الامبراطور ولصالح قضيته، فقد تمكن في الغرب بنجاح من طرد الجيوش البابوية من المملكة الايطالية، ومن ثم نقل الحرب إلى داخل الدول البابوية، وفي تلك الأثناء تمكن بالين صاحب صيدا، الذي كان وكيله، من إحباط محاولة قام بها بعض البداة من المسلمين للاستيلاء على القدس، وضمن القبول بمعاهدة يافا من سلطان دمشق، وجرت مصادرة ممتلكات الداوية في صقلية، وأرغموا في الشرق على التخلي عن مطالبهم نحو صيدا وصور، وكان الحزب المعادي للإمبراطور قد اتخذ وضع الهجوم بعد وقت قصير من مغادرة الامبراطور، لكن محاولته لخلع الامبراطور من عرش القدس قد أخفقت، وأعلن بارونات المحكمة العليا عن أنفسهم أنهم تابعين للملك كونراد وفردريك والده، وتركزت المحاولة حول شخصية أليس صاحبة قبرص التي كانت ابنة ايزابل صاحبة القدس وهنري دي شامبين، فقد مثلت أمام المحكمة تطالب بعرش القدس، على أساس أنها أقرب أقرباء الملكة ايزابل المتوفاة، وقد أقرت بأن كونراد كان ملكاً شرعياً، لكنها أصرت على أنه لم يأت للمطالبة بميراثه في مدة سنة ويوم بعد تسلمه لهذا الميراث، وعلى هذا لقد فقد جميع حقوقه به، وعليه انتقل الميراث إليها، ولم ينكر البارونات بأن القوانين تتطلب وجوب قدوم كونراد إلى سورية للمطالبة بعرشه، لكنهم رفضوا القبول بادعاءات أليس، وعوضاً عن ذلك بعثوا بسفارة إلى فردريك تتألف من جون بيليل Bailleul، وغيوفري لى تور، للطلب بوجوب قدوم كونراد إلى عكا في أقرب وقت ممكن، وغادرت السفارة عكا مع نهاية عام ١٢٢٩، ووصلت إلى فردريك في فوغيا -Fog-gia في أيار لعام ١٢٣٠، ووعد الامبراطور السفارة بدون لبس بأنه

سوف يرسل كونراد في أقرب وقت ممكن، لكن فوق ذلك لم تحصل منه على أي شيء، وتابع في الوقت نفسه وكلاء الامبراطور حكمهم للمملكة، وعلى العموم زادت حكمتهم في إدارتهم من شعبية الحكومة الامبراطورية.

لكن إذا كان الوكلاء الامبراطوريون قد حكموا بعقلانية، ونالوا الشعبية في سورية، على عكسهم تماماً كان حكم البارونات الخمسة الذين ضمنوا الوكالة في قبرص من الامبراطور، ففي مسعاهم لتأمين المبالغ الضرورية لدفعها ثمناً لوكالتهم، فرضوا ضرائب ثقيلة على البلاد كلها، وسلبوا بشكل خاص ممتلكات الإيليين وأصدقائهم، حيث أملوا بإبعادهم نهائياً عن قبرص، وحدث في حزيران ١٢٢٩، أن جون صاحب بيروت عاد من سورية إلى قبرص، وأثار البلاد ضد الوكلاء، وحدثت معركة قرب نيقوسيا في ١٤ - تموز، هزم فيها الإيليني مع مؤيديه برلياس ورفاقه، وأرغمهم على الالتجاء إلى القلاع الشمالية: في ديودامور، وكتتارا، وسيرينا، وبعد أمد وجيز استولى الإيليني على كتتارا وسيرينا، ثم ألقى الحصار على الوكلاء في ديودامور، ومن تموز ١٢٢٩ حتى ما بعد عيد الفصح لعام ١٢٣٠، أبقى صاحب بيروت وأولاده الوكلاء تحت الحصار هناك، وأخيراً استسلموا وتخلوا عن شخص الملك هنري وعن القلاع، وتنازلوا عن كل ادعاء لهم بالوكالة، وهذه الحرب هي التي حدثنا عنها فيليب دي نوفار بالتفصيل، وهي التي فيها تناول بالهجاء رينارد.

وفي الوقت نفسه تابع فردريك بنجاح حملاته ضد الجيوش البابوية إلى حد أن الكرسي المقدس بات جاهزاً للسلام، ووصل الصراع إلى النهاية في تموز ١٢٣٠، بسلام سان جرمانو، وهدأت المشاكل الإيطالية، وجرى استقبال فردريك ثانية في الكنيسة بمثابة « الابن العزيز في المسيح»، وذلك من قبل البابا العجوز، وألغي الحرمان الكنسي، وصدرت الاوامر

إلى بطريك القدس بسحب الحظر الذي فرضه، وأن يقبل معاهدة يافا، وفي الوقت الذي أضعف فيه هذا السحب للتأييد البابوي الحزب المضاد للامبراطور كثيراً جداً، لكنه لم يته مقاومته ولم يحطمها، وتابع البطريك والداوية مع الإيليين مقاومتهم للوكلاء الامبراطوريين، وفي شباط عام ١٢٣١، كتب البابا إلى الداوية يطلب منهم الخضوع، لأن الامبراطور قد تشكى ضدهم في أنهم يقاومون أوامر وكلائه، ويشيرون الحرب ضد شروط الهدنة مع مصر، وأعدّ الامبراطور في الوقت نفسه حملة لإرسالها إلى سورية، حتى تقيم حكمه هناك في البلاد بشكل راسخ، ولتتولى القضاء على العصيان، وأمر وكلاءه بمصادرة أراضي القادة : جون صاحب بيروت، وولدي أخيه صاحبي: يافا وقيسارية، وصاحب طبرية .

ووضع الجيش الذي أرسله الامبراطور إلى سورية تحت إمرة رتشارد فيلنغر، الذي كان المارشال الامبراطوري، وقد أرسل على دفعتين، وتألّفت الدفعة الأولى من ثمان عشرة سفينة تحت إمرة أسقف ملفي Melfi، وقد وصلت إلى رأس غافاتا Gavata قرب ليماسول في أيلول ١٢٣١، وكان الملك هنري في كيتي Kiti (تشيتي Chiti قرب لارنكا) مع صاحب بيروت، وإليه إلى هناك جاء أسقف ملفي، وهو جون دي بيلول، الذي كان سفير المحكمة العليا إلى فردريك، وكذلك أيمنون الألماني حفيد الوكيل غارنيير الألماني، وقد طلبا باسم الامبراطور من الملك هنري أن يقوم بطرد جون دي إيلين من مملكته ومعه أقاربه، وعلى هذا رد الملك بلسان وليم فيزكونت بأنه لا يستطيع طرد الإيليين لأنه تابعه، وهو على هذا يستحق حمايته، أما فيما يتعلق بأقاربه، فإنه - أي الملك هنري - حفيد للإيليين، وبالتالي لا يمكنه نفي جميع الإيليين من ممالكه، ومع هذا الرفض غادر السفيران الامبراطوريان، وبما أنها كانا غير قادرين على إرساء أسطولهما في قبرص، لوجود قوة كبيرة جداً كان قد حشدتها هناك صاحب بيروت، وعسكر بها عند ليماسول، فقد أبحرا

باتجاه بيروت، حيث استوليا على البلدة وشرعا في حصار القلعة، وعندما وصل فيلنغر مع الخمس عشرة سفينة المتبقية من الأسطول، اتجه مباشرة إلى بيروت، ووقعت القلعة الآن تحت الحصار الشديد، ثم إنه ترك شطراً من قواته تحت قيادة أخيه لوثير لمتابعة حصار قلعة بيروت، وتوجه هو إلى صور، التي استسلمت له، ثم ترك أخاه الآخر واسمه هنري، مسؤولاً عن القيادة هناك، ثم تابع زحفه إلى عكا، حيث تولى جمع المحكمة العليا، وقدم مراسيم من الامبراطور تعيينه بموجبها وكيلاً على جميع مملكة القدس .

وتم قبول مراسيم اعتماد فيلنغر وتعيينه من قبل بارونات المحكمة العليا من دون سؤال، وبدأ المارشال حكمه في القدس بالالتفات نحو موضوع استسلام بيروت، وكانت هذه حركة سيئة الفأل، لأن الاستيلاء على بيروت كان معناه إلغاء لأحكام القانون الأكثر رعاية، أي قانون القدس حيث قضى أن لا يعد إقطاع التابع غير شرعي إلا بموجب قرار المحكمة العليا، ولا يجوز لإرادة سيد واحد إعلان اتخاذ مثل هذا الإجراء، وعندما بات واضحاً للبارونات أن فيلنغر ليست لديه نية في عرض القضية عليهم، أدركوا على الفور مدى المخاطر على حرياتهم التي سوف يمثلها حكم الوكيل، وكان بالين صاحب صيدا، وهو الوكيل السالف، وقائد الحزب الامبراطوري في سورية، وهو المتحدث باسم البارونات في الطلب من المارشال إخضاع القضية لقرار المحكمة، والالتزام بقوانين البلاد، وطلب فيلنغر إعطاءه الوقت ليتشاور مع القادة الآخرين من حزبه الذين كانوا في بيروت، وعاد إلى الحصار، وأرسلت إليه وفادة إلى هناك، وذلك حسبما طلب، وذلك حتى يسلم جوابه على مطالب البارونات، لكن المارشال رفض التخلي عن أي مطلب، مدعياً أنه كان يطيع أوامر الامبراطور، واقترح أنهم إذا أرادوا عرض قضيتهم واستئنافها يتوجب عليهم إرسال ممثلين عنهم إلى الامبراطور نفسه، وهو

بلطفه لاشك سوف يعطيهم العدل، ومن أجل حمل هذه الدعوى ذهب بالين صاحب صيدا، ويودس دي مونتبليارد، وغارنيير الألماني في شتاء عام ١٢٣١ إلى إيطاليا حيث كانوا جميعاً حضوراً في كانون الأول يشهدون إصدار فردريك لمرسوم في رافينا .

وكان جون دي إيبيلين في الوقت نفسه يحشد القوات للتفريج عن القلعة المحاصرة، وضمان عون ملك قبرص، وقد بدل هذا سمة الحرب إلى حد ما، لأن دخول مملكة قبرص غير ما كان ثورة بارونات في صراع شبه محلي، وقام بارونات عكا وسكانها، وقد تحرروا من التأثير المعيق لكل من بالين ويودس، ونظموا أنفسهم داخل «كيمونة متعاهدة» وقد منحوا مقدميتها لجون دي إيبيلين، وعهدوا بأنفسهم بالوقوف إلى جانبه، وفي كانون ثاني ١٢٣١، اجتمع جيش الإيبيليني مع جيش القبارصة في فيماغوستا، وعبروا في الربيع التالي إلى سورية للتفريج عن بيروت، ونزلت القوات في ميناء القسطلان قرب في طرابلس ومن ثم زحفت باتجاه الجنوب، وتحلى برلياس وأعوانه عن الجانب الامبراطوري، وبادروا مسرعين لتقوية القوات التي كانت في بيروت وكانت تتولى حصار القلعة، وزحف الإيبيليني والملك هنري على بيروت، واتخذوا مكاناً لهما خارج المدينة، حيث أرسلوا من هناك المساعدة إلى الذين كانوا في داخل القلعة، وعندما بات الإيبيليني قانعاً بأن القلعة تلقت ما يكفيها من نجدات، وليس هناك من خطر مباشر عليها يهددها بالسقوط، قام بتقسيم قواته إلى قسمين، فأرسل قسماً تحت قيادة ابنه الأكبر بالين إلى طرابلس في محاولة مخففة لكسب أمير طرابلس - أنطاكية إلى جانبهم، بينما قاد هو نفسه المتبقي من الجيش وذهب إلى عكا، وتلقى هناك في نيسان ١٢٣١ قسم «الكومونة»، واستولى على الأسطول الامبراطوري الذي كان راسياً في الميناء، واستهدف فيلنغر في الوقت نفسه إحداث البلبلية بإرسال برلياس وبعضاً من رجاله إلى قبرص، حيث عاثوا فساداً في

البلاد التي تركها الإيليني بدون حماية، واستولوا على قلاع الجزيرة، وفقط قلعتا: ديودامور وبوفافيتو Buffavento صمدتا ضدهم، ولكي يقوم بعمل انتقامي خطط الإيليني لمهاجمة القاعدة الإمبراطورية في صور، وهكذا اضطر فيلنغر مرغماً لسحب قواته من حصار بيروت وذلك بغية تحصين المدينة، وزحف القبارصة شمالاً من عكا حتى قلعة إيمبرت، حيث حدث بعض التأخير سببه بطريق أنطاكية، الذي اجتذب الإيليني للعودة إلى عكا، مع وعود بالمصالحة حيث ادعى بأنه يمتلك السلطة لتأمين ذلك وبحته، وترك القبارصة معسكرهم نهياً للفوضى، وفوجئوا وهم على حين غرة حينما تعرضوا ليلة ٣ - ٤ مايس إلى هجوم مفاجيء جاء من صور، وهرب القبارصة بشكل سيء جداً، ونجا الملك هنري بعدما أصيب بالرعب، وتشتت معظم الفرسان في المنطقة المحيطة، وتشجع فيلنغر بهذا النصر والنجاح في المعركة، وبعث على الفور بقواته الرئيسية إلى قبرص لانجاز احتلال الجزيرة بالكامل .

وعندما سمع الإيليني بالمعركة المأساوية، بادر بالتوجه إلى قلعة إيمبرت، حيث تولى جمع قواته الممزقة، وقام «بتراجع استراتيجي» إلى عكا، وأبرم هناك اتفاقاً مع الجنويين الذين زودوه ورجاله بالسفن، كما حصل القبارصة على مزيد من الإمدادات، فسلح رجاله للقيام بهجوم معاكس على قبرص، وعبر إلى هناك إلى فيياغوستا، وكان ذلك في نهاية مايس، واستولى على فيياغوستا على حين غرة، بوساطة هجوم مفاجيء، ثم سارع القبارصة بالزحف نحو نيقوسيا بحثاً عن الأعداء، الذين كانوا مشغولين بحصار ديودامور، وانتقم هناك أغريدية قبرص لأنفسهم وهزيمة قلعة إيمبرت، وأنزلوا هزيمة ساحقة برجال الحزب الإمبراطوري وأرغموهم على الدخول إلى قلعة سيرينا، واحتاج إعادة احتلال الجزيرة من الإيليني عدة أيام فقط، واستقبله السكان القبارصة مع رجاله استقبال المحررين، مع أن رجال الحزب الإمبراطوري امتلكوا بعض

المتعاطفين في الجزيرة، وترك فيلنغر فيليب شنارت Chenart وولتر دي أكوفيفا Acquaviva مسؤولين عن القيادة في سيرينا التي كانت تحت الحصار الشديد من قبل القبارصة، وتوجه ينشد المساعدة في أرمينيا، وأنطاكية وطرابلس، ولم ينجح فيلنغر في ضمان النجدة، وخشي من أن تستهلك الحامية الكبيرة في سيرينا المؤن الموجودة في المدينة مما يسبب سقوطها السريع، لهذا انسحب ومعه برلياس، وصاحب بيسان، وصاحب جبلة، وبعدهما توقف في صور ليتفقد حاميته هناك، ذهب إلى أبوليا ليطلب العون من الامبراطور، وفي الوقت نفسه شدد القبارصة الحصار على سيرينا، التي قطعت الأمل من وصول أية نجدة، فاستسلمت وفق شروط مشرفة في ربيع سنة ١٢٣٣، ويشكل هذا التفريج عن بيروت وإعادة احتلال قبرص الحلقات الأساسية الثانية من الحوادث التي جاءت في تاريخ فيليب دي نوفار.

وفي الوقت الذي كان فيه فيلنغر يسعى بدون نجاح كبير، لضمان السيطرة الإمبراطورية على سورية بقوة السلاح وكذلك على قبرص، كان البابا يسعى لأن يزيل واحداً من أسباب التمزق على الأقل، ولم يتوقف، في الوقت نفسه، البطريك جيرولد الذي كان بطريك القدس، عن معارضة مطامح الامبراطور، ومع أنه لم يقيم بأي عمل معلن في مقاومة وكيل الامبراطور، لقد قدم المساعدة المعنوية للحزب الإيليني، واحتج فردريك بشكل جدي على هذا، وقام غريغوري الذي كان مايزال راغباً بشدة في الحفاظ على الصلح والسلام مع الامبراطور، بالكتابة إلى جيرولد يطلب منه تقديم الطاعة إلى الامبراطور التي هي واجبه، وأن يتوقف عن مساعدة الذين تمردوا عليه، لكن البطريك لم يستجب تمام الاستجابة، وهكذا لم يتوصل الامبراطور إلى الشعور بالرضى، وبناء عليه كتب البابا ثانية في تموز إلى البطريك جيرولد يأمره بالقدوم على الفور إلى روما، جالِباً معه من يمثل كل من الداوية

والاستتارية، حتى يمكنهم إيجاد حل للقضايا التي تثير الاضطراب في القدس، وعندما بدا جيرولد مترددًا بشأن الذهاب، كتب غريغوري إليه من جديد في ٢٦ - تموز، حيث انتزع منه وظيفته كنائب للبابا ما لم يقدم إلى روما في العبور المقبل، وأضفي المنصب الشرعي في سورية على ألبرت بطريرك أنطاكية الذي كان منحازاً لفردريك، وقد وجهت إليه التعليمات بالتشاور مع مقدمي منظمات الفرسان في سبيل استعادة السلام، وإعادة العصاة إلى حظيرة الطاعة .

وصحيح أن ألبرت كان من قبل يسعى في سبيل إعادة السلام قبل معركة قصر إمبرت، بدا الآن غير قادر على تأمين أي حل لقضية الساعة آنذاك، وهكذا باشر فردريك بنفسه العمل في سبيل الحل، فلقد اعتقد أن بإمكانه نيل رضا بارونات سورية بتقديمه لبعض التنازلات لهم فيما يتعلق بقضية الوكيل، وقد بعث برسائل على يد أسقف صيدا، مَحْولاً تعيين وكيل جديد في عكا، ورشح لهذا المنصب واحداً اسمه فيليب دي مو غاستل Maugastel ، وكان صديقاً قريب الصلة من فيلنغر الذي كان مرفوضاً كلياً لدى معظم البارونات، ومع أن بالين صاحب صيدا ويودس دي مونتبليارد أثرا هذا الاقتراح، وسعيا في سبيل تأمين قبول فعلي من قبل المحكمة العليا في عكا، لقد كانت المعارضة قوية جداً، وقد قادها اللورد الشاب لقيسارية، مع مؤيدي الإيلينيين، وبدأ شعب عكا بالشغب، مما عطل اجتماع المحكمة وجعل أسقف صيدا مع اثنين من الوكلاء السالفين يفرون طلباً للسلامة، وقوبلت محاولة الامبراطور بالتصالح برفض حاد، ونال حزب الإيلينيين نصراً نوعياً، إلى حد أن المحكمة العليا قد أعلنت أن بالين صاحب صيدا ويودس دي مونتبليارد هما الوكيلين الصحيحين للملك كونراد، وكانت النظرية التي رست وراء هذا الاجراء هي أنهما قد انتخبا من قبل المحكمة إثر وفاة الملكة إيزابل، وزيادة على هذا قد جرى تعيينهما من قبل فردريك شخصياً في المحكمة

العليا، وأن الذي إتخذ إجراءً في المحكمة يمكن نقضه هناك فقط، ثم إن التعيين بوساطة الرسائل غير مقبول، وسيبقى التعيين القديم قائماً حتى يأتي كونراد شخصياً، ويعين وكلاء جدد، وكان هذا الإجراء عظيم القيمة بالنسبة للإيلينيين ذلك أنه فصل بالين ويودس عن فيلنغر وحزب الامبراطور في صور، وربط مصالحهما جزئياً مع ثوار القبارصة ، وترسخ وضع جون دي إيلين في منصبه مقدماً لـ «كومونة» عكا.

ومع نهاية سنة ١٢٣٣ كان وضع أعوان الحزب الامبراطوري في سورية سيئاً جداً، وجاء هذا محصلة لطرد قواتهم طرداً تاماً من قبرص، ولأن عكا أعلنت الثورة وانتظمت داخل «كومونة» ثورية، وبسبب أن المعتدلين الذين أيدوا بالأصل الجانب الامبراطوري قد باتوا غرباء عن الحامية الامبراطورية وخضعوا لحزب الثوار، وكذلك بسبب رفض التسوية التي عرضها الامبراطور، يضاف إلى ذلك النقص المتزايد في الموارد المادية، وحافظت حامية صور على إخلاصها للامبراطور، وبقي ولائه يحكمون في القدس وفي عسقلان، لكن مع هذا لئن لم تكن القوات الامبراطورية قد طردت نهائياً من سورية، لقد كان من الضروري إقامة سلام ما في الحال.

د - الصراع مع صور، ١٢٣٤ - ١٢٤٣

ومع أن آفاق المستقبل للامبراطوريين كانت في أدنى حدودها مع بداية سنة ١٢٣٤، لم يكن كل شيء قد ضاع إذا كان أمكن إقامة سلام دائم، وعمل ألبيرت بطريك أنطاكية بنشاط ومعه هيرمان فون سالزا، الذي أعيد إلى سورية لمساعدة النائب البابوي، في تأمين معاهدة سلام مقبولة من الحزب المعتدل، الذي بقي مخلصاً للملك كونراد لكنه معاد لفيلنغر، وقد ضم هذا الحزب أكثرية بارونات المحكمة العليا، ونتيجة لذلك تم في أوائل سنة ١٢٣٤ إقامة سلام مبدئي بين يودس دي مونتبليارد والبارونات وسكان عكا من جانب، وفون سالزا والنائب البابوي من الجانب الآخر، وقد أرسل مشروع هذا السلام إلى البابا وإلى

الامبراطور للموافقة عليه، ووافق غريغوري في ٢٢ - آذار - لعام ١٢٣٤، وفي آب التالي بعث فردريك مع البابا رئيس الأساقفة تيري صاحب رافينا بمثابة نائب خاص ليتولى إبرام الاتفاق في سورية، وأرسل البابا في الوقت نفسه رسالة إلى جون دي إيبيلين يأمره فيها بإيقاف عصيانه ضد الامبراطور، وقد طلب منه إقامة سلام على الفور، لكن الإيبيليني ما كان ليهزم بمجرد أمر بابوي، ونجد في هذا المجال وفي مجالات أخرى تشابهاً مدهشاً فيما بين الإيبيليني والقديس لويس صاحب فرنسا، ففي الوقت الذي كانا فيه متدينين شخصياً بعمق، لم يسمح أي منهما للكنيسة بأن تملي عليه ما هو مضاد لما أملاه عليه ضميره وحسن تدبره .

ونتيجة لهذا مرت السنة وانتهت دون قبول الحزب الشائر للسلام، وفي تموز عام ١٢٣٥ كتب البابا غريغوري ثانية الى الإيبيليني طالبا منه الخضوع، وقال البابا بأن الإيبيليني كان يضل الناس في عكا ويعددهم عن خضوعهم الحقيقي للامبراطور، وأنه كان يخطط لخيانة أعظم بالهجوم على صور، وهذا ما ينبغي له عدم القيام به بل يتوجب عليه الخضوع للامبراطور، وأن يقيم سلاماً يحترم حقوق فردريك، وفي الوقت نفسه أرسلت رسائل إلى عكا تأمرهم بعدم مسايرة الإيبيليني في خيائنه، وإلى الداوية تطلب منهم مساعدة فيلنغر ضد الإيبيليني والثوار الذين كانوا يخططون لمهاجمة صور، هذا ولم يكن غريغوري راغباً في اتخاذ إجراءات قاسية جداً ضد عكا، وعندما وضع رئيس الأساقفة تيري المدينة تحت الحرمان الكنسي في محاولة منه لفرض الطاعة، ألغى البابا الحرمان، على أساس أن أهالي عكا كانوا محاطين بعدد من العقائد الأصولية، وهكذا من الممكن خسارتهم خسارة أبدية بالنسبة للكنيسة الرومانية في حالة فصلهم وإبعادهم عن جماعتهم بهذه الوسيلة، ومعنى هذا أن المسيحيين اللاتين فيما وراء البحار قد يجدون ولاءً جديداً في إحدى العقائد الأكثر لطفاً، وشرقية أقل مركزية، غير مثيرة دوماً لقسوة البابا نحو أخطاء

الكاثوليك السوريين، ووضع غريغوري بالوقت نفسه عدداً من الحلول، فكر بأنها ستكون موائمة كقاعدة لسلام دائم : وبموجب ذلك كان سيعترف بكل من فردريك وكونراد على أنها الحاكمين الشرعيين للقدس، وبالتالي سيتملكان جميع السلطات التي امتلكاها قبل بداية الحرب، بما في ذلك حق تعيين الموظفين الرسميين، والإشراف على القلاع، وفرض الضرائب، وغير ذلك، وقد توجب عليهما إطاعة القوانين والعادات القديمة للمملكة، كما توجب حل «كومونة» عكا، وتهديم برج ناقوسها، وإلغاء مجالسها ومجامعها التي انتخبت بعد العصيان وحلها، كما ينبغي إعادة فيلنغر إلى وظيفته كوكيل حتى بداية أول آذار المقبل، ففي ذلك الوقت ينبغي تعيين وكيل جديد، وسبب ذلك أن فيلنغر قد تعرض للتشكيك به بشكل غير عادل من قبل أهل عكا، وينبغي في الوقت نفسه إبرام إتفاق سلام مع الملك هنري ملك قبرص، وتكفل البابا بتأمين أخذ قبرص بالشروط المقترحة والموافقة عليها، وقوبل هذا البرنامج بشيء من المعارضة من قبل ممثلي الامبراطور، أي بيرو ديلا فيجنا والأسقف المنتخب لباتي Patte ، لكن غريغوري تابع العمل حول محاولة السلام متخذاً هذا البرنامج بمثابة قاعدة، وقامت المحكمة العليا في عكا، بناء على اقتراح فون سالزا، بإرسال رسولين هما هنري صاحب الناصرة، وفيليب دي تروي، وكانا كلاهما من فرسان عكا، إلى البابوية، مع تعليمات بعقد معاهدة، وفي شباط ١٢٣٦، كان البابا قادراً على أن يكتب إلى فردريك ، بأن السلام قد تأسس على الخطوط العامة لاقتراحاته، وأدخلت بعض التعديلات الطفيفة على الخطة الأصلية، التي قضت ببقاء فيلنغر في وظيفته كوكيل حتى الأول من أيلول، لكن في تلك الآونة نفسها يتوجب تعيين واحد من الأتباع السوريين للامبراطور، كان قد اختاره يودس دي مونتليارد، ليقوم بواجبات وأعمال الوكيل حتى انقضاء مدة تعيين فيلنغر، وينبغي أن يقوم فيلنغر في أيلول بالتخلي عن الوكالة ومن ثم إسنادها إلى بوهموند صاحب أنطاكية،

الذي سوف يتولى جميع الحقوق الملكية باستثناء الإشراف على قلعة صور، التي توجب وضعها تحت حراسة فرسان التيوتون، وإذا حدث ورفض بوهيموند هذا الشرف، ينبغي منحه إلى مونتبليارد، وأيضاً إذا ما رفض هذا، ينبغي تعيين واحد من الأتباع الإقطاعيين، وسوف يتم العفو تماماً عن جميع الثوار ومساحتهم، باستثناء الإيلينيين : جون صاحب بيروت، وأولاده، وأولاد أخيه وهما: جون صاحب يافا، وجون صاحب قيسارية، فهؤلاء كانوا سوف يمنحون العفو والمسامحة داخل مملكة القدس، لكن بدون ضمان سلامتهم في مكان آخر، وإذا ما رفعت أية دعاوى ضدهم فالمتوجب معالجتها في المحكمة العليا للقدس، لكن البابا كان قد تصرف من دون استشارة البارونات السوريين، وهكذا عندما حملت هذه الشروط المتعلقة بالسلام إلى المحكمة العليا في عكا بواسطة الرسولين اللذين أرسلنا لمناقشة المعاهدة، شعر بارونات المحكمة بالغضب الشديد، حتى كادوا أن يبطشوا بالرسولين التعيسين، اللذين اتهموها بالخيانة، وأنها تصرفا على عكس مآلديهما من تعليمات، ورفضت المعاهدة رفضاً كلياً، ووافقت محكمة عكا على إرسال سفير عام مشترك مع ملك قبرص إلى البابا، لشرح له أسباب معارضتهم للسلام، ووقع الاختيار على الفارس غيوفري لى تور للقيام بهذه المهمة الدقيقة، وقد وصل إلى جنوى في ربيع ١٢٣٧، وقد وجد البابا في فايتربو Viterbo حيث قدم إليه الرسائل المرسلّة من ملك قبرص ومن المحكمة العليا في عكا وهي التي كان يحملها، ولقد وجد البابا راغباً تمام الرغبة في استقباله والإصغاء إلى شكوايهم، وكان سبب ذلك أن المشاكل كانت تفجرت من جديد بين البابا والامبراطور، ولم يعد غريغوري مهتماً بشأن مصالحه فردريك وتقوية وضعه، وبالنسبة حرر غريغوري بكل سرور البارونات المحتجين من المعاهدة، ووعدهم بدعم الكنيسة في الدفاع عن حرياتهم .

وحدث في أثناء سير هذه المباحثات أن فقد البارونات قائدهم الذي

كان قد تولى قيادتهم بحكمة في أثناء معارضتهم للامبراطور ووكيله، فقد مات جون دي إيبيلين صاحب بيروت العجوز في عام ١٢٣٦، وبدأ أن روح الحزب الذي أسسه قد ماتت إلى حد كبير بموته، وفي الغرب كان فردريك مهتماً اهتماماً كبيراً في أن يحاول جاداً استرداد سلطاته في سورية، وقد رضي خلفاء صاحب بيروت بالحفاظ على هدنة مع الوكيل الامبراطوري في صور من سنة ١٢٣٧ حتى سنة ١٢٤١، وترك إخفاق خطة السلام البابوية بالطبع المسائل تماماً كما كانت قبل اقتراح المخطط، وتابع فيلنغر حكمه في صور بوصفه الوكيل الامبراطوري، وبالإضافة إلى هذا، حكم يودس دي مونتبليارد - على كل حال - في عكا بمثابة وكيل لكونراد، وذلك بتأييد المحكمة العليا، وما من واحد من الوكيلين اعترف بالآخر، وادعى كل واحد منهما بأنه الوكيل الحقيقي لكونراد، فقد عمل يودس تحت سلطان تعيين قديم جاء من المحكمة العليا، وعمل فيلنغر في الوقت نفسه في ظل شرعية تعيينه من فردريك، الذي كان هو نفسه الوكيل لكونراد، وبما أن دي مونتبليارد لم يحاول اتخاذ أي إجراء ضد الإيبيلينين، تم قبول حكومة عكا من قبل البارونات الثوار .

وكانت الحوادث الأعظم في تاريخ سورية في هذه الآونة هي التي تعلقت بصليبيتي كل من ثيبوت أوف شامبين، ورتشارد أوف كورنول، وطلب فردريك من الصليبيين تأجيل هجومهم حتى انتهاء موعد هدنته مع مصر، وعرض أن يتولى قيادتهم بنفسه إذا ما قاموا بانتظاره، واعترض البابا على التأخير المقترح، وغادر الصليبيون بدون تأييد الامبراطور، مع أنه عرض بكرم تزويدهم بكميات كبيرة من الميرة والأطعمة، وكانت دمشق ومصر مرة جديدة تتحاربان، وفلسطين تعاني من ثم من الصراع بين القوتين الأعظم، وجرى احتلال القدس لوقت قصير من قبل المسلمين، وأرغمت الحامية الصليبية على الفرار، وكان الدواية يتباحثون مع دمشق من أجل التحالف، والإستراتيجية مع مصر، وقرر الصليبيون

تحت إمرة ثيبوت الهجوم على مصر، وزحفوا جنوباً حتى تنزل بهم هزيمة ساحقة على أيدي المصريين قرب غزة في تشرين الثاني لعام ١٢٣٩ ، وحدث إثر هذا، أنه تحت ضغط كل من الداوية والاسبتارية قبل الصليبيون المضطربة أوضاعهم بتحالف الداوية مع دمشق، وبتحالف الاسبتارية مع مصر، وعندما وصل رتشارد أوف كورنول، أعلن عن حياده وتابع زحفه حتى يتولى تحصين يافا وعسقلان، المدينتان اللتان حولهما إلى حكم وولتر بنينباي Pennenpie، وكان والي فردريك على القدس، ثم إنه جدد المعاهدة مع مصر وانسحب، وكانت هذه الصليبية عملياً بلا نتائج، مع أن الكونت رتشارد الذي كان صديقاً قريباً من الامبراطور، زاد من تحسين السمعة الامبراطورية ومتن وضعها في المشرق، وتابع فردريك في الوقت نفسه إرسال الامدادات والمساعدات إلى فيلنغر في صور، وذلك بغية المحافظة على سلطته هناك، وتم في سنة ١٢٤١، تأمين إعراف بالطاعة من قبل : بالين دي إيلين صاحب بيروت، وفيليب دي مونتفورت صاحب تبين، وجون دي إيلين صاحب أرسوف، وغيوفري دي ايسترين Estrainge صاحب حيفا، وكان هؤلاء قادة الحزب الإيليني القديم، وقد جاء خضوعهم من خلال وساطة الكونت رتشارد، وقد وافق هؤلاء على الخضوع لحكم فردريك إذا وافق هذا الامبراطور على تعيين الايرل سيمون دي مونتفورت أوف ليستر وكيلاً له في المملكة حتى يصل كونراد إلى السن، ومن ثم يقدم لتسلم مملكته، وكان من المفيد توقع ماكان يمكن أن يكون التأثير على تاريخ كل من انكلترا والقدس لو قام الامبراطور بهذا التعيين .

وجاء العمل التالي في الصراع بين الامبراطور والبارونات متمركزاً حول محاولة فيلنغر المخففة في الحصول على السيطرة على عكا، الأمر الذي دفع بالإيلينيين بالشروع بأعمال انتقامية ضد صور، وشجعت خطتهم من قبل مارسيليو جورجيو Marsiglio georgio ، الذي كان الوكيل

البندقي الجديد التعيين، الذي كان متشوقاً لاسترداد بعض الممتلكات المحددة التي عادت لبني قومه في صور، والتي صودرت هناك من قبل الوكيل الامبراطوري، وكان بالين صاحب بيروت وفيليب دي مونتفورت قد وضعاً خططهما للزحف ضد صور، مما يعني تجديد العصيان ضد الامبراطور، عندما اقترح عليهما فيليب دي نوفار خطته، التي يمكنهما بموجبها الحصول بشكل قانوني على صور وبدون إعلان العصيان على حاكمها القانوني، فقد بين أنه في ٢٥ نيسان ١٢٤٣ يكون الملك كونراد قد وصل إلى السن القانونية، وبذلك تنتهي وكالة فردريك عن ابنه بشكل آلي، ومع انتهاء وكالة فردريك تنتهي بدهاة سلطة فيلنغر، ونتيجة لهذا إذا ما انتظر البارونات حتى ما بعد ٢٥ - نيسان، فإن فيلنغر يصبح بدون وضع شرعي في صور، ويمكن وقتها للبارونات طرده بشكل شرعي كامل وبدون ضرر، وبدت هذه النصيحة جيدة بالنسبة لقادة الحزب وقد قبلوها جميعاً، ولكي يكون وضعهم أكثر ضماناً جلبت أليس القبرصية، التي طالبت بالعرش في سنة ١٢٢٩ بحكم كونها أقرب الورثاء الموجودين في البلاد وقد أحضرت ثانية هذه المرة واقتُرحت لتكون وكيلة، وجاءت إدعاءاتها هذه المرة ليس للمطالبة بالعرش نفسه بل بالوكالة حتى يقدم كونراد شخصياً، ويستحوذ مباشرة على مملكته، وتولى فيليب دي نوفار عرض مطالبتها على المحكمة العليا، وقد جرى قبول هذه المطالب، وكان أول عمل قامت به الوكيله الطلب بأن يجري استسلام مدينة صور وقلعتها إليها، المطلب الذي رفض بالطبع من قبل الحامية العسكرية الامبراطورية التي كانت هناك تحت إمرة لوثير فيلنغر آنذاك لغياب أخيه رتشارد الذي كان قد أبحر إلى الغرب للتشاور مع الامبراطور، وقام بعض سكان مدينة صور بإجراء مفاوضات سرية من أجل تسليم المدينة، وإثر هذا زحفت قوات بارونية ضدها، واستولت عليها بالقوة، وتراجع لوثير فيلنغر والحامية إلى القلعة، وحوصروا هناك من قبل الإيلينيين المنتصرين ومعهم أنصارهم، وجاء الآن دور رتشارد

فيلنغر، فهو لم يعرف أخبار الحوادث التي وقعت ، وأبحر إلى ميناء صور دونما انتباه، وهناك ألقى القبض عليه من قبل أعضاء حزب البارونات ، ولم يستطع البارونات تأمين استسلام القلعة مقابل حياة المارشال، لكن مع هذانجح فيليب دي نوفار بضمان استسلام القلعة وإطلاق سراح الأسرى، ومع سقوط صور حقق حزب البارونات انتصاراً كاملاً في شمال فلسطين، وبذلك بات الحكم الامبراطوري منتهياً بالفعل .

هـ - خاتمة ١٢٤٣ - ١٢٤٧ .

وانهى فيليب دي نوفار تاريخه مع سقوط صور، ذلك أنه مع إزاحة الحامية العسكرية الامبراطورية من تلك المدينة، وصل الصراع الامبراطوري - الإيليني إلى نهايته، واستمرت الحاميات العسكرية الامبراطورية بالاستيلاء، على القدس وعلى عسقلان في الجنوب لمدة عام آخر، ففي عام ١٢٤٤ جرى الاستيلاء على القدس من قبل القوات الخوارزمية التركية، وتولى توماس أسيرا، الوكيل الامبراطوري الجديد، الذي بعث به فردريك في عام ١٢٤٢ ليحل محل فيلنغر، إعطاء عسقلان إلى الاستبارية ليتولوا حراستها، وجرى استدعاء رتشارد فيلنغر إلى إيطاليا على الفور إثر سقوط صور، وتعرض هناك للإهانة والسجن بسبب إخفاقه، ونجا أخوه لوثير من الانتقام الامبراطوري بالفرار إلى أنطاكية في عام ١٢٤٧ ، وحل البابا انوسنت الرابعه الملك هنري ملك قبرص من يمينه إلى الامبراطور ووضعه مع مملكته تحت حماية الكرسي المقدس، كما لم يتمكن أسيرا ، الذي كان الوكيل الجديد من المحافظة على نفسه في سورية لمدة طويلة، وهرب أيضاً في عام ١٢٤٨ إلى أنطاكية - طرابلس، وقد طلب البابا طرده من هناك، واستمرت أليس بالحكم على أنها صاحبة القدس وذلك حتى موتها في سنة ١٢٤٦ ، ووقتها خلفها ابنها هنري الأول صاحب قبرص، لكنه لم يتمكن من نيل اللقب الملكي في القدس، لأن الملك كونراد كان ما يزال هو الملك الشرعي، وكان الملك

القبرصي هو سيد القدس فقط حتى يأتي الملك كونراد، ويحصل على عرشه ومملكته، والذي حدث أنه فقط مع زوال حكم أسرة هوهنزوفن إثر وفاة كونرادين في سنة ١٢٦٨، وقتها استطاع هيوغ الثالث ملك قبرص أن يضيف إلى لقبه، وهو ملك قبرص، لقب ملك القدس، عادةً نفسه «الملك اللاتيني الثاني عشر للقدس، وملك قبرص» .

وكان تاريخ مملكة القدس من عام ١٢٤٧، عند الانتهاء الفعلي الكامل للحكم الامبراطوري، وإلى فقدان المملكة لصالح المصريين، تاريخاً عاصفاً بما فيه الكفاية، فقد وقف الداوية ضد الاستتارية، وقاتل البنادقة الجنوبيين، وادعى شارل دي أنجو حقه بالعرش وذلك ضد دعاوى بيت لوزغنان، وتحارب المصريون والمغول من أجل الاستحواذ على سورية، ولقد تورطت الدول اللاتينية في صراعهم هذا، ووسط هذه الفوضى والاضطراب الشديد تفككت أوصال المملكة ببطء، وسقطت مدينة تلو الأخرى في أيدي المسلمين، وفقط في الأيام اليائسة الأخيرة في عكا سنة ١٢٩١، نسي الفرقاء داخل المملكة صراعاتهم وعداوتهم المتبادلة وكراهيتهم لبعضهم بعضاً، واتحدوا، وعبثاً حاولوا ببطولة إنقاذ المتبقي من المملكة، ولكن جاء متأخراً جداً.

هذا من جانب ومن جانب آخر لئن كانت المملكة التي كان الإيبليونيون مع حلفائهم قد قاتلوا في سبيلها بكل عناد في ثلاثينات وأربعينات القرن الثالث عشر قد زالت قبل نهاية القرن، فإن المؤسسات الدستورية التي قاتلوا من أجل الحفاظ عليها قد استمرت بالبقاء في قبرص لمدة قرنين إضافيين، وظلت حقوق الأفراد والحد من سلطات التاج حجر الأساس في المؤسسات السلطوية في قبرص طيلة استمرار حكم أسرة لوزغنان، زد على هذا توجب على البارونات الفلسطينيين الرضى بالأسى لدى معرفتهم بمصير عدوهم القديم، حيث كان هذا المصير أسوأ بكثير من مصيرهم، فقد أنهى فردريك حياته وسط مشاكل

الحرب الأهلية ونحت الحرمان البابوي، أما فخار مملكته في صقلية فقد جرى الاستيلاء عليها من قبل الفرنسي شارل دي أنجو، وغدت الامبراطورية الألمانية فريسة للمتنازعين، وليست أفضل حالاً من الذين إنهاروا في القدس، وتهاوت الواجهة الجبارة لأسرة هوهنز توفن وسقطت حتى قبل سقوط المملكة الشرقية الصغيرة التي كانت قائمة على سواحل البحر المتوسط .

وهكذا كانت الخاتمة خاتمة محزنة، ولعل القارئ يشعر في هذه الأيام بالسرور لأن السيد فيليب دي نوفار لم يعيش ليرى الأوقات الشريرة التي هوت فيها البلاد التي عاش فيها، فقد انتهى تاريخه مع إشارة لنصر، وكما هي الحالة في الرومانسيات الحقيقية ينال جميع الأبطال الجوائز، لكن الأشرار يتعرضون للمذلة والعقوبة، فلقد كتب فيليب تاريخ حرب رائعة فيها انتصارات، كما تحدث عن انتصار القانون، والفضيلة، والتقوى، على الخيانة والجريمة والاعتصاب للسلطة، ولكم كان محزناً لو أن الرجل العجوز قد رأى النهاية المفجعة لجميع جهوده، ولو أنه أرغم على إدراك أن الصراع الذي خاضه مع أبناء عصره باسم الحرية قد أضعف دولتهم وجلب إليها السقوط ضحية حقيقية لتمزقهم الداخلي ولصراعاتهم، ولاشك أن نصر الإيبلينيين الذي أرخ له فيليب قد حفظ الحريات العائدة لمملكة القدس، لكن من المؤكد أنه أسهم في الخسارة النهائية للمملكة نفسها (*) .

* - هذا صحيح لو عزونا أسباب سقوط عكا إلى أسباب داخلية محضة، لكنها سقطت نتيجة لما تمتعت به السلطنة المملوكية من إمكانات متفوقة .

تاريخ الحرب بين الامبراطور فردريك
وبين جون دي إيلين صاحب بيروت

هنا يبدأ التاريخ مع الرواية الصحيحة
حول الحرب التي وقعت بين الامبراطور فردريك
والسيد جون دي إيبيلين، صاحب بيروت

١(٩٧) : ومن أجل فهم أحسن ومعرفة كيف وقعت هذه الحرب، وكيف بدأت وتوالت، وكيف حدث أن بعضاً من القبارصة التحقوا بالامبراطور، بينما التحق الجزء الأكبر بصاحب بيروت، سيقوم فيليب دي نوفار الذي أسهم في جميع الأعمال والاجتماعات، والذي غالباً ما كان محبوباً من قبل الناس الجيدين لروايته الصدق، ومكروهاً من قبل الأشرار للسبب نفسه، سيقوم بإخباركم بالصدق حولها، وسيحدثكم أيضاً عن الرجال وعن الأفعال العظيمة .

٢(٩٨) : ولقد حدث، بإرادة من ربنا، أن هيوچ (١) الملك الطيب لقبرص، الذي كان شجاعاً جداً، قد ذهب إلى الحج في طرطوس (٢)، ومن هناك قصد طرابلس (٣)، حيث كان مريضاً، ثم أنه انتقل من هذا العالم في عام ١٢١٨ وكان ذلك في اليوم العاشر من كانون الثاني، وقد دفن في مشفى القديس يوحنا (٤)، وكانت الملكة أليس (٥) زوجته ماتزال شابة، وقد أنجبت منه ثلاثة أولاد (٦) : ولد ذكر وابنتين، وكان عمر الذكر تسعة أشهر فقط (٧)، وكان اسمه هنري، وقد عرف باسم الملك هنري غراس (٨) Gras، وكانت الملكة أليس المتقدمة الذكر ابنة أخت (٩) مولاي جون صاحب بيروت (١٠)، وكذلك للسيد فيليب دي إيبيلين أخيه (١١) .

٣ : وقدم جميع أتباع الملك الولاء للملكة بمثابة وكيلة، وسأل جميع

الأتباع وطلبوا من السيد فيليب دي إيبيلين، أن يكون وكيل قبرص ليتولى حكم البلاد، وأن يستحوذ على البلاط والأمر على الناس (١٢)، وكان الملك هيوغ نفسه قد تمنى هذا وأمر به عند موته، وتسلم السير فيليب الوكالة، وقد نال منها الكثير من المتاعب والحزن، في حين استحوذت الملكة أليس على الموارد التي أنفقتها حسبما أرادت (١٣)، وحكم السير فيليب البلاد بشكل جيد وبسلام، وبكثير من الجودة والشرف والاخلاص والإنفراج، وكان مولاي صاحب بيروت قوياً جداً في سورية، وقد قدم وقت كل حاجة المشورة الجيدة والعون العظيم لشؤون قبرص .

٤ (١١٠) : وحالما صار هنري الصغير - ابن الملك المتقدم الذكر، ملك قبرص - كبيراً ما فيه الكفاية (١٤)، توجه خاله مع الإقطاعيين الآخرين وسط احتفال عظيم، وتولى ذلك يوستوريو Eustorgue رئيس أساقفة نيقوسيا (١٥)، وهياً كل ما هو لائق لتتولى الكنيسة القيام به أثناء التتويج (١٦)، وكان الامبراطور فردريك غاضباً جداً، تجاه هذين العاملين، عندما سمع بهما، وأعني بذلك الوكالة والتتويج، لأن الملك هنري توجب أن يكون تابعاً إقطاعياً له (١٧)، وقد قال بأن الوكالة له، وأنه ينبغي أن يكون - بموجب إجراءات ألمانيا - وكيل قبرص حتى يصبح الملك في الخامسة عشرة من عمره (١٨)، وبعث الامبراطور عدة مرات إلى الملكة أليس، ملكة قبرص، أن تدعه يتولى وكالة قبرص بنعمة، فذلك سوف يرضيه (١٩)، وقد غضب أكثر نحو التتويج، وقال، لقد توجب أن لا يتسلم الملك هنري التاج إلاّ آمنه، وأرسل في خلال ذلك رسائل مرضية جداً إلى الأخوين : مولاي صاحب بيروت، والوكيل السير فيليب، ودعاها دوماً برسائله بالخالين، لأنها كانا خالين للملكة إيزابل ملكة سورية، التي كانت زوجته (٢٠) .

٥ (١١١) وكان في هذه الأثناء بعض الرجال الشباب في قبرص، وكان اسم أولهم السير عموري برلياس (٢١)، واسم الثاني عموري صاحب

بيسان (٢٢ - ٢٣)، وكان هذان أبناء عم من بيت واحد، وكان اسم الثالث السير جوفيان (٢٤) Gauvian، وكان الرابع هو السير وليم دي ريفت (٢٥)، وكان هذان يتتمان إلى بيت واحد، وكان اسم الخامس السير هيوغ صاحب جبلة (٢٦)، وقد انتسب إلى بيت آخر، وكان قريباً لأبناء مولاي صاحب بيروت من خلال أمهم، وقد اتفق هؤلاء الخمسة، وتآمروا ضد البيت الإيليني، مع أنهم عاشوا في حظوة ذلك البيت وتسلموا منه كثيراً من الممتلكات وكثيراً من الحب، لاسيما من مولاي صاحب بيروت أكثر من أي إنسان آخر، وقد امتلأوا بالتكبر، الذي غالباً ما صدر عن الثراء والدعة، وبما أن كثيراً من الناس لا يمكنهم تحمل الرخاء، فقد قادهم ذلك إلى ما قالوه وإلى ما فعلوه، وتوفرت دوماً الأسباب، وعن هؤلاء سوف تسمع فيما يلي :

٦ (١١٢) وحدث أن مولاي صاحب بيروت جعل من ولديه الكبيرين فارسين في قبرص (٢٧)، وكان أولهما السير بالين، الذي غدا فيما بعد قسطلان قبرص وصاحب بيروت (٢٨)، وكان الثاني هو السير بلدوين، الذي أصبح كافل مملكة قبرص (٢٩)، وفي أثناء تكريس الفارسين كانت هناك حفلة عظيمة وطويلة كانت هي الأعظم والأطول مما قام به أي إنسان في هذا الجانب من البحر، أو عرّفه، وكان هناك كثير من العطايا والانفاق والمبارزات، وجرى إعادة إخراج (٣٠) مغامرات بريتاني والمائدة المستديرة، كما كانت هناك عدة أشكال من الألعاب .

٧ (١١٣) : وفي أحد الأيام بعد تكريس الفرسان، كانوا يلعبون لعبة اسمها Barbadaye (٣١)، وقد حدث آنذاك أن قام فارس توسكاني اسمه تورينول (٣٢) Toringuel وكان من حاشية بيت السير فيليب الوكيل، بطعن السير عموري برلياس كما يفعل الإنسان أثناء الألعاب، وقد قيل بأن السير عموري قد غضب وقال بأنه فعل ذلك بشكل شرير وعنيف جداً، ولهذا توقفوا عن اللعب، وكمن في اليوم التالي للفارس هو

وقواته. وهاجموه بشكل وحشي حتى أنهم جرحوه وبنات مهدداً بخطر الموت، وكان لهذا السير فيليب غاضباً جداً، وأراد مقاتلة (السير عموري)، ووقف جميع حلفائه إلى جانب السير عموري، غير أن القضية لم تؤثر شيئاً على قوة السير فيليب - الوكيل - فقد تدخل مولاي صاحب بيروت - أخوه - فيما بينهم، وفصل فيما بينهم بالقوة، وأمر ابنه السير بالين بأن يأخذ السير عموري من هناك إلى حيث أراد .

٨(١١٤) : ولم يمض وقت طويل حتى غادر السير عموري برلياس قبرص ومضى إلى طرابلس، وبقي هناك كل الشتاء، وذهب مولاي صاحب بيروت من قبرص إلى بيروت وأمر بالبحث عن السير عموري برلياس في أيام عيد الفصح، ثم حمله إلى قبرص وأحضره فجأة أمام أخيه، حيث كان الأخير لا يعرف شيئاً عن ذلك، وقال (مولاي صاحب بيروت) لأخيه بأنه يرغب منه مساعدة السير عموري بكل وسيلة وبكل طريقة، وقال إنه إذا لم يفعل ذلك هو لن يكلمه أبداً، ولن يراه مطلقاً، وأنه سوف يقبل مصالحة مشابهة للتي هي معروضة من قبل السير عموري (٣٣)، وقبل الوكيل بالمصالحة فقد ذهب (٣٤) بعيداً، واستحوذ السير عموري على براءة كبيرة، وكان مؤيداً لكل واحد من اللوردات، وكان رفيقاً وثيق الصلة بالسير بالين وأظهر نحوه محبة كبيرة، وحدث في هذه السنة (١٢٢٥) أو بعيد ذلك بقليل، أن الملكة أليس ملكة قبرص قد غضبت من خالها ومن الإقطاعيين الآخرين، وذهبت إلى طرابلس، وبدون رضا أو موافقة خالها والاقطاعيين تزوجت هناك من بوهيموند ابن أمير أنطاكية (٣٥)، وأعلن جميع الذين كانوا في قبرص وخاصة السير عموري برلياس أنه إذا صار الأمير وكيلاً لقبرص واستحوذ على السلطة هناك سيكون معنى ذلك موت مولاها الصغير ودماره .

٩(١١٥) : وتخلّى السير فيليب دي إيبيلين بعد هذا بأمد وجيز عن الوكالة، وذلك على الرغم من عدم رضا جميع أهل البلاد، وأرسلت الملكة

أليس التي كانت في طرابلس رسالة أمرت بموجبها بأن يكون عموري برلياس الوكيل إلى أن تتمكن من القدوم إلى قبرص، وقبل السير عموري بذلك من دون موافقة أي إنسان في قبرص (٣٦)، لأنهم نظروا إليه نظرة إزدراء كبيرة، واجتمعوا في المحكمة وقال السير فيليب دي إيبيلين بأنه يرى في هذا التعيين إهانة كبيرة بالنسبة إليه ورعونة قصوى في أن يمنح السير عموري وأن يتقبل السيادة عليه وعلى الرجال الطيبين الآخرين في قبرص، وأنه ليس هو الرجل الذي يفعل ذلك، لأن ذلك معاكس لما قاله هو نفسه عندما تزوجت الملكة أليس من الأمير، وقام السير أنسيو Anceau دي بري وقال : إن السير عموري برلياس في كل ما قاله وفعله فيما يتعلق بهذا الأمر هو قد عمل بمشابة خائن، ولو أنه كان حاضراً هناك لقال هذا بوضوح أكبر ولبرهن عليه (٣٧) .

١٠ : وكان السير أنسيودي بري هذا ابناً لابن خال ألماني لمولاي صاحب بيروت ولأخيه (٣٨) أيضاً، وكان رجلاً شاباً، وقوياً وذو بأس، قوي البنية والعظام ونشيطاً وشديداً، جاهزاً للقيام بأي عمل ولإنجازه، وأديباً نحو رفيقه وعدوه، وكريماً بقدر ما استطاع، وأشقرراً وجميلاً، وله بشرة متوردة، وأنف عريض، مع وجه مهيب مربع يشبه النمر (٣٩)، وأحبه الأخوان حباً جمّاً، وهو بالفعل قد استحق ذلك، وكان معلوماً أنه كان في الحرب الأعظم تقديراً بعد الأخوين وأولادهما واللورد الشاب الطيب صاحب قيسارية الذي كان ابن أختها (٤٠)، وعندما سمع السير عموري برلياس بشكل متواتر أن ما قيل بحقه كان قاسياً جداً، غادر قبرص وذهب إلى طرابلس، حيث قرر الانتظار هناك حتى قدوم الامبراطور، الذي جرى الحديث حوله من يوم إلى يوم، وكانت مقاصده أنه بعون الامبراطور سوف يكون قادراً على إخضاع البيت الإيبيليني .

١١ (١١٧) وكان قد حدث قبل بعض الوقت أن تشاجر السير جوفيان Gauvain مع فارس اسمه السير وليم دي لي تور، وأصيب

وليم المذكور بجراحة في الليل هو وواحد من أبناء عمه، وقد قيل بأن هذا قد اقترف من قبل السير جوفيان وأهل بيته، وعوفي الفارس من جراحاته، وجاء إلى المحكمة ومثل أمام الوكيل واتهم السير جوفيان بالخيانة، ودافع (السير جوفيان) عن نفسه، وقدمتا تعهدتهما من أجل القتال، وأنشبا القتال وأقاما السلام على ميدان العراك، وكان السلام مغضباً ومذلاً للسير جوفيان، وقد كبر عليه أن يقوم هذا الفارس بتوجيه التهمة إليه، وبدا له أن (السير وليم) ما كان ليقدّم على اتهمه ويتجرأ على ذلك لولا أنه حصل على تأييد الإيلينيين، وكان (السير جوفيان) حتى بدون هذا الحادث على صلات متنافرة معهم، ولم يكن قريباً منهم كما كان من قبل، ولقد امتلك بعض العذر، وعلى كل حال لمعرفة السير جوفيان بالاخلاص العظيم المتوفر فيهم تجرأ على دخول الميدان، والقيام هناك بالدفاع عن نفسه.

١٢ - وبعدما ترك (السير جوفيان) الميدان قال بأنه لم يفهم اتفاقيات السلام التي عقدت عندما كان في الميدان، وأنه لن يتمسك بالعهود التي قطعها آل بيته، ثم أنه ذهب إلى الداوية وتوجه من هناك إلى عكا، ومن عكا عبر البحر إلى الامبراطور، وقد خدم الامبراطور لبعض الوقت، وبما أنه كان يعرف الكثير عن الطيور، فقد حظي بمكانة عالية في ذلك البلاط (٤١)، وكان الامبراطور على وشك المغادرة لأن الكنيسة قد أمرته أن ينفذ تعهداته التي قطعها على نفسه للذهاب إلى سورية (٤٢)، وتوجه إلى الميناء (٤٣)، ووصلت السفن، وبات العبور جاهزاً تماماً، وأجل الامبراطور جوازه حتى عبور آخر، وذلك حسب ما يرضيه (٤٤)، غير أنه أرسل بعضاً من رجاله في سفن عبر البحر (٤٥)، وهكذا عاد السير جوفيان عبر البحر إلى قبرص.

١٣ (١٢٢): ومع هذه الأخبار الساخنة التي انتشرت وأفادت بأن الامبراطور قادم، وقبل معرفة أنه آخر عبوره، ارتأى السير عموري

برلياس، الذي كان في طرابلس بأنه سيذهب إلى قبرص إلى المحكمة ليسوغ نفسه ويدافع عنها ضد السير أنسيودي بري وضد ما قاله عنه، واعتقد أنه سوف يمنح فرصة أربعين يوماً قبل القيام بالمبارزة وذلك بعد تقديم عهوده وضماناته (٤٦)، وأنه في أثناء ذلك سيكون الامبراطور قد جاء وأنه سوف يربح قضيته، وذهب السير عموري المذكور إلى قبرص، وتوجه على الفور إلى المحكمة، وعرض الكذب الذي قاله عنه السير أنسيو، وتقدم بطلب الدفاع عن نفسه وبضماناته وتعهداته، وتسلم الملك التعهدات وجرى تحديد يوم المبارزة، وأمر بها بعد موافقة المحكمة، وفي خلال أربعين يوماً وصلت السفن العائدة للامبراطور، وكما تحدثنا من قبل، عُرف أنه لن يأتي بعد، ثم سعى البطريك جيروльд، بطريك القدس (٤٧) ومعه الكثير من الناس إلى إقرار مصالحة بدلاً من المبارزة، لكنهم لم يستطيعوا فعل ذلك، لأن السير أنسيو لم يرغب في عقد أي اتفاق، أو القبول بأية اقتراحات للتصالح .

١٤ - وقامت المعركة ، وفيها خسر السير عموري خسارة قبيحة، ففي الصدام الأول كسر السير أنسيو رمحه، واستبقى السير عموري الذي كان ماكراً جداً، رمحه الذي كان مصنوعاً من أحسن الفولاذ في العالم، وقد أمسكه من وسطه، واندفع ليطعن به ثلاث طعنات على واجهة خوذة السير أنسيو، وقد حطم في كل مرة الواجهة وطعنه بالوجه، ولدى الطعنة الثالثة أزاح السير أنسيو جانباً سيفه وتركه من يده، وذلك بعدما سد به ضربات عظيمة على خوذة السير عموري، وأمسك الرمح من سنانته المعدني بيده التي كان ممسكاً بها السيف، وهكذا انتزع الرمح بالقوة من قبضة السير عموري، فقد كان السير أنسيو قوياً جداً، وجذب الرمح بشدة، وفقد السير عموري الرمح الذي كان ممسكاً بوسطه، وعندما جذب السير أنسيو جذبه بعنف كبير حتى أنه ألقى بالسير عموري أرضاً، وكان هذا لابساً درعاً ثقيلة جداً، ولهذا سقط سقطة كبيرة

على الأرض وجرح جراحة قاسية، وقد قام بقدر ما استطاع وهرب عبر الحواجز نحو المكان الذي كان فيه مولاي صاحب بيروت، وراء الحواجز ١٥. وكان قد درب حصانه بشكل جيد جداً حتى أنه لحق به إلى كل مكان، وركض هو نفسه وتبعه فرسه، وأمسك سيفه ووضع نفسه فيما بين الحواجز والفرس، وقام السير آنسيو بكل سرعة بإعادة وضع خوذته، وتناول بقية رحه، وكان السير عموري قد ازداد ألمه وبات مرهقاً نتيجة لما بذله من جهود، ولم يكن هناك أمامه أدنى سبيل حتى يتمكن من امتطاء فرسه ثانية، لأنه كان مثقلاً بدروعه، وكان فارساً صغيراً، وكان الحصان ضخماً وطويلاً ونشيطاً، ثم وضح لمولاي صاحب بيروت وللذين كانوا هناك أن السير عموري لن يستطيع التحمل أكثر، وقد ضغط عليه السير آنسيو عن قرب، ولولا أنه أبعد عن هناك لكان سيترجل لأنه كان مصراً على ذبحه، ودخل مولاي صاحب بيروت إلى الميدان هو وصاحب قيسارية الذي كان قسطلان قبرص (٤٨)، ولم يرغباً بالسماح بالمزيد، وتوفير لديهما هناك بعض الفرسان الذين حجزوا السير آنسيو بالقوة بإمساكهم بمقود حصانه، كما أنهم كانوا قد أمسكوا حصان السير عموري الذي كان مرهقاً إلى حد أنه عجز عن التحرك، ومن ثم تحدثوا عن المصالحة (٤٩).

١٦ : ووقع هذا اليوم السير فيليب دي إيبيلين، وهو أخو مولاي بيروت، مريضاً، وقد أصيب بداء مميت، وقد أخبره أخوه صاحب بيروت بأوضاع المتبارزين، ورغب - وهو الذي كان يشعر بالموت - بإقامة السلام بأي سبيل من السبل، وبعث إلى السير آنسيو ورجاه وتمنى عليه، وضغط بوساطة مولاي صاحب بيروت حتى قبل وأبرم الصلح، وأقيم السلام، وتبين أن المصالحة كانت مذلة للسير عموري، لأنه توجب عليه أن يدفع نصف فدية ودفعات قاسية وحادة، ولكنه مقابل ذلك أنقذ حياته، وغادر السير عموري الميدان هو والسير جوفيان، وبقية الخمسة

الآخرين، وهم : السير عموري صاحب بيسان، والسير وليم دي ريفيت، والسير هيو صاحب جبلة، وبعثوا بشكاوى كثيرة إلى الامبراطور ضد بيت الإيبلينيين، وقالوا عنه كثيراً من الأشياء الشريرة والزائفة (٥٠) .

١٧ (١٢٣) : وفي هذه السنة نفسها، وهي سنة ١٢٢٧ توفي السير فيليب دي إيبيلين، وكان رجلاً جيداً ونبيلًا، وأخاً لمولاي صاحب بيروت، وحدثت وفاته في قبرص بسبب الداء الذي أصيب به، وكان هناك حزن عظيم عليه، وشكل موته خسارة عظيمة لأصدقائه وللبلاد، وكان الحزن عليه عظيماً، وعظيماً توجب أن يكون (٥١) .

١٨ (١٢٦) : عبر في سنة (١٢٢٩) (٥٢) الامبراطور فردريك البحر للقدوم إلى سورية وذلك بناء على أمر البابا غريغوري (٥٣)، وقد وصل أولاً إلى جزيرة قبرص إلى مدينة ليماسول (٥٤)، وكان معه سبعين سفينة وغليون، وسفن نقل الأسلحة وبقية أنواع السفن، وكان الشطر الأعظم من جيشه وأهل بيته وحاشيته ومارشاله وحيوله قد وصلت من قبل إلى عكا (٥٥)، وأخذ السير عموري والسير جوفيان مع مجموعة من أصدقائهما وحاشيتهما سفينة ومراكب مسلحة وتوجهوا لمقابلة الامبراطور، وأبحروا بعيداً حتى سواحل بيزنطة (٥٦)، وما إن التقوا به حتى وجهوا التهم إلى مولاي صاحب بيروت بأنه لم يعاملهم بشكل صحيح، وأشاروا عليه بأسوأ الآراء التي يمكنهم فعلها ضده و ضد ورثته وضد أسرته، وقد روي بأنهم أخبروا الامبراطور أنه إذا ما تمكن من الاستيلاء على قبرص، سيكون بإمكانه تزويد سورية بجميع الضروريات التي سوف يحتاجها هو وآل بيته، وفضلاً عن ذلك سوف يحصل من تلك الجزيرة على ألف فارس .

١٩ : واحتفل بهم الامبراطور احتفالاً عظيماً، وقدم لهم وعوداً كبيرة، وأوضح قائلاً أنه مصدق لهم، وبموجب ذلك كانوا فعلاً مسرورين، وقد وصلوا معه إلى قبرص، ومع هذا بعث الامبراطور برسائل لطيفة جداً إلى

مولاي صاحب بيروت، الذي كان آنذاك في نيقوسيا، يرجوه فيها ويطلب منه بمثابة خال عزيز عليه، أن يأتي للتشاور معه وأن يجلب معه الملك الشاب، وكذلك أولاده الثلاثة وجميع أصدقائه (٥٧)، ثم أرسل إليه رسالة أخرى كانت أشبه بنبوءة بنعمة ربنا، لأنه بعث إليه يقول: إنه هو وأولاده وأصدقائه سوف ينالون الثروة والشرف بقدمه، وهكذا كانوا، والحمد للرب، لكن ليس حسب رغباته، واستقبل رسول الامبراطور استقبالا جيدا في نيقوسيا، وكان هناك سرور عظيم لدى قدومه .

٢٠ : وجمع مولاي صاحب بيروت رفاقه وطلب منهم إبداء الرأي حول الملك الشاب وحوله شخصيا، وأعلنوا جميعا بصوت واحد أنه لاهو ولا أولاده ينبغي وضعهم تحت سلطان الامبراطور، كما لا يصح ولا يجوز لهم ارسال مولاهم الملك إلى هناك، لأن الأفاعيل الشريرة للامبراطور باتت معروفة جدا، وقال مرارا وأرسل تكرارا كلمات ورسائل طيبة، وأتبع ذلك بأفاعيل مرعبة جدا وظالمة، ولهذا أشاروا بأن عليه أن يعتذر بطريقة ما، وقالوا في الوقت ذاته إن جميع أصدقائه وكل قواهم في قبرص كانت تجهز نفسها بسرعة كبيرة، وهؤلاء على استعداد للحاق به إلى سورية في خدمة الرب، وأنهم سوف يخدمونه في سورية بمثابة مولاهم : «وأن هذا كله قد أبدع من قبل أخيك السير فيليب عندما كان حيا»، وكان هذا اجتماعا جيدا وقرارا حسنا بالنسبة له، لأنه كان هناك في سورية الداوية والاستتارية مع رجال جيدين آخرين راغبين بالازدهار والسلام، ثم إن الامبراطور لن يكون قادرا على فرض مشيئته على كل شيء .

٢١ : ورد مولاي صاحب بيروت على هذه المشورة قائلا : بأنهم أشاروا بإخلاص وبحب، غير أنه يفضل أن يؤسر أو يقتل وأن يعاني مما خبأه الرب له، على أن يوافق بأن يكون أي إنسان غير قادر على القول أنه من خلاله ومن خلال أسرته أو من خلال الشعب على هذا الجانب

من البحر، قد جرى تأخير أو إعاقة خدمة الرب في الاستيلاء على مملكة القدس وقبرص (٥٨)، ذلك أنه لا يرغب في أن يقترب ذنباً نحو ربنا، كما أنه لا يرغب أن يقول الناس في العالم كله: «جاء امبراطور روما عبر البحر مع قوة عظيمة، وكان من الممكن له أن يستولي على كل شيء، لكن صاحب بيروت مع آخرين غير مخلصين من رجال ما وراء البحار أحبوا المسلمين أكثر من المسيحيين، ولهذا السبب ثاروا ضد الامبراطور، ولم يرغبوا في استرداد الأرض المقدسة» .

٢٢ (١٢٧) : وهذه الأسباب التي عرضت أعلاه، ذهب صاحب بيروت إلى الامبراطور ومعه جميع أولاده وكل أصدقائه وقوات قبرص كلها من فرسان وسيرجنديّة وأخذوا معهم مولاهم الصغير - الملك هنري - إلى الامبراطور، ووضعوا أنفسهم كلياً تحت سلطانه (٥٩)، وقد استقبلهم باحتفاء عظيم، مع مظاهر من السرور عظيمة، وبدأ أن أعداءهم قد خاب ظنهم، وسألهم الامبراطور على الفور إسداء معروف له، بالقيام بخلع الثياب السوداء التي كانوا ومايزالون يرتدونها بسبب موت السير فيليب دي إيبيلين، أخوهم، ذلك أنه قال بأن بهجتهم بقدمه ينبغي أن تكون بالنسبة لهم أكبر من الحزن على صديقهم وأخيهم، الذي هو الآن ميت، مع أنه كان أعظم الناس نبلاً وشجاعة، وقبلوا تمام القبول هذا الأمر، وشكروه باخلاص، وعرضوا عليه أجسادهم كلها مع قلوبهم وجميع ما يملكون، ووضعوها تحت تصرفه، وقيد أوامره، وشكرهم الامبراطور لهذا بسرور كبير، وقال بأنه سوف يميزهم جوائز كبيرة وثرية .

٢٣ : وأرسل الآن إليهم ثياباً أرجوانية بدلاً من الملابس السوداء، وبعث إلى آخرين بجواهر، وسألهم راجياً بلسانه أن يتناولوا طعام الغداء معه في اليوم التالي، وقد أعدوا ملابسهم بكل سرعة في الصباح التالي، وظهروا جميعاً أمام الامبراطور وقد ارتدوا الملابس الأرجوانية، وقام في الليلة التي تقدمت بفتح باب في جدار الغرفة التي قادت إلى الحديقة،

وكان ذلك بشكل سري ، وكان ذلك البيت الذي أقام فيه بيتاً رائعاً، قد بناه اللورد فيليب دي إيبيلين في ليماسول، وأدخل الامبراطور من خلال هذا الباب الخلفي بشكل سري أثناء الليل ثلاثة آلاف رجل مسلح أو أكثر من السير جنديّة، ورماة القسي العقارة والبحارة، فلقد كان هناك تقريباً جميع رجاله المحاربين الذين كانوا في أسطوله، وقد وزعهم على الغرف والإسطبلات، وأغلقت جميع الأبواب عليهم حتى ساعة الطعام، حيث نصبت الموائد وصب الماء .

٢٤ : وجلس الامبراطور وإلى جانبه صاحب بيروت والعجوز صاحب قيسارية الذي كان قسطلان قبرص، وجلس إلى مائدة أخرى طويلة في المكان الأول : ملك قبرص، مع ملك سالونيك (٦٠)، والمركز حامل الرمح (٦١)، وبقية بارونات ألمانيا والمملكة (٦٢)، وأمر بجلوس جميع فرسان قبرص بشكل يستطيع فيه مولاي صاحب بيروت سماعه عندما يتكلم، ورتب أن يقف ولدي مولاي صاحب بيروت أمامه لخدمته، يحمل أحدهما الكأس ويحمل الآخر الطشت، في حين يقوم الشاب صاحب قيسارية مع السير آنسيودي بري بتقطيع اللحوم أمامه، وتوجب على الأربعة إرتداء أزرق Tunics وقمصان ضيقة من الرقبة حتى الوسط فوق أرديتهم. فهذا - حسباً قيل - كان قانون الامبراطورية وعرفها، وقد خدموه بإرادة طيبة وبنبل، وفعلوا ذلك مرات عدة وقدموا أطعمة متنوعة .

٢٥ : وفي دور الطعام الأخير خرج الرجال المسلحون من أماكنهم التي كانوا قد تمركزوا فيها، واستولوا على القصر وعلى الغرف وعلى البلاط الكبير وعلى الباب الرئيسي وبقية الأبواب (٦٣)، وكان هناك رجال مسلحين بشكل جيد في القصر حيث كان الامبراطور، وكان هناك عدد كبير أمامه يمسكون بالأسلحة بأيديهم، بعضهم ممسك بمقابض سيوفهم وبعضهم بالخناجر، ولاحظ القبارصة ما يجري، لكنهم لم يتفوهوا ولا

بكلمة واحدة، وبذلوا غاية جهدهم لإعطاء مظهر الاسترخاء، والتفت الامبراطور نحو صاحب بيروت وخاطبه بصوت مرتفع قائلاً : أود يا سير جون أن أطلب منك أمرين اثنين، إنك سوف تفعلهما عن طواعية وبشكل لائق إن كنت تعرف ما هو المعقول»، وقد ردّ عليه قائلاً : « قل ما يسرك ولسوف أفعل عن طواعية ما سأراه صحيحاً، أو ما يراه الناس الشرفاء مناسباً » .

٢٦ : وقال الامبراطور : «عليك أن تفعل واحداً من اثنين : إما أن تسلمني مدينة بيروت، لأنك متملك لها بدون حق، أو أن تسلمني كل ما يتعلق بوكالة قبرص والحكم فيها مع جميع ما ربحته وحصلت عليه منذ وفاة الملك هيوغ، أي موارد عشر سنوات، لأن هذا كله حق لي بموجب التطبيقات الألمانية (٦٤)»، ورد عليه صاحب بيروت قائلاً : «أعتقد يا سيدي أنك تهزأ بي وتستخف، ومن المؤكد بالنسبة لي أن بعض الرجال الأشرار الذين يكرهونني قد اقترحوا عليك هذا المطلب، ولهذا السبب تقدمت به، ولكن - وفقاً لإرادة الرب - إنك سيد جيد وعاقل، وإنك تعرف دوماً المدى الذي كنا قادرين به على خدمتك، ولسوف نفعل ذلك عن طواعية، وبذلك إنك سوف لن تصدقهم»، ثم وضع الامبراطور يده على رأسه وقال : «بحق هذا الرأس الذي لبس التاج مراراً، إنني سوف أنفذ إرادتي في هذين الأمرين اللذين طلبتهما منك أو إنك سوف تعتقل وتجعل سجيناً» .

٢٧ : ثم انتصب صاحب بيروت واقفاً وقال بصوت مرتفع وبحضور آمر : « إنني استحوذت على بيروت ومستحوذ عليها بحكم إنها إقطاع لي، لأن مولاتي الملكة إيزابل (٦٥) كانت أختي من خلال أمي، وابنة للملك عموري (٦٦)، وبذلك كانت الوريثة الشرعية لمملكة القدس، وقد قامت هي ومولاها الملك عموري (٦٧) بإعطائي بيروت مقابل وظيفة القسطلان، وكانت بيروت عندما استردها المسيحيون مهتمة

لذلك رفضها الداوية والاستارية وجميع بارونات سورية (٦٨)، وقد قمت بتحسينها والمحافظة عليها بوساطة مساعدات المسيحيين وبفضل عملي، ولقد استخدمت وأنفقت هناك كل ما حصلت عليه من موارد في قبرص، وإذا كنت ترى أنني متملك لها بشكل غير شرعي فسوف أزودك بالبراهين وأتولى مباشرة عرض المسألة على المحكمة التابعة للمملكة القدس، أما فيما يتعلق بما طلبته مني بشأن موارد وكالة قبرص والحكم هناك، إنني لم أحصل قط على أية موارد، وكذلك لم يحصل أخي عندما كان وكيلاً، وذلك باستثناء مشاكل ومتاعب حكومة المملكة، والذي حصل على الموارد هي الملكة أليس - ابنة أختي - وقد تصرفت بهذه الموارد حسب مشيئتها، أما فيما يتعلق باستحواذ الوكالة قانونياً حسب تطبيقاتنا، إذا ما طلبت مني البرهنة على هذا الحق، فإنني سوف أزودك بالبراهين وفقاً لتطبيقاتنا، وبوساطة محكمة مملكة قبرص، وتأكد أنه بالنسبة للخوف من الموت أو السجن إننا لن نفعل شيئاً سوى ما سيطلبه قرار المحكمة الجيد والمخلص مني أن أفعله (٦٩)» .

٢٨ : وغضب الامبراطور غضباً عظيماً ، وأقسم ، وتهدهده وقال أخيراً: « لقد كنت قد سمعت من قبل عندما حكى لي عبر البحر منذ وقت طويل مضى بأن كلما تك هي حلوة جداً، وأنتك من أكثر الناس حكمة، وبارع في جملك، لكنني سوف أريك أن مهارتك وبراعتك وكلما تك لن تفيد شيئاً أمام قوتي»، وقد ردّ عليه صاحب بيروت بطريقة نالت الاعجاب العظيم من قبل جميع الذين كانوا هناك، وخاف رفاقه خوفاً عظيماً .

٢٩ : وكان رده كما يلي: « لقد سمعت يا مولاي منذ وقت طويل مضى ذكر كلماتي الأدبية، وسمعت أنا كثيراً ومنذ وقت مضى عن أفاعيلك، وعندما فكرت بالقدوم إلى هنا، حذرني جميع مستشاري بصوت واحد من الأشياء التي تتولى القيام بها، ومن الأسوأ، لكن لم

أرغب في أن أصدقهم جميعاً، ولا يمكن القول إنني لم أخف منك كثيراً، ومع ذلك قدمت وأنا متيقظ وحذر، وما زلت على استعداد لأن أتلقى منك السجن أو الموت، على أن أرضى بأن يتمكن أحد من القول أي شيء سيء حولنا، أو يكون هناك ضرر بالنسبة لحاجة ربنا والاستيلاء على الأرض المقدسة، أو أن تعاق خدماتك من خلالي أو من خلال أسرتي، أو من خلال الذين في البلاد حيثما كنت، أو أن تصل الأخبار إلى العالم المسيحي، فيقولون: ألم تعرف؟ لقد ذهب إمبراطور روما عبر البحر، وكان سوف يتمكن من الاستيلاء على كل شيء لولا ما فعله الإيبليونيون، أولئك الخونة فيما وراء البحار الذين أحبوا المسلمين أكثر من المسيحيين، لأنهم ثاروا ولم يرغبوا باتباع الامبراطور، ولهذا السبب فقد كل شيء، وهذا كله تماماً الذي رويته لكم قد قلته لمستشاري عندما تركت نيقوسيا لآتي إليكم، وقد جئت مستعداً تماماً لمعاناة كل ما يمكن أن يأتي، في سبيل حب مولانا يسوع المسيح الذي عانى من الآلام ومن الموت من أجلنا، وهو الذي سوف يخلصنا من الموت أو السجن، فأنا أشكره من أجل ذلك، وبه سأظل مرتبطاً دوماً، وبهذا توقف عن الكلام وأجلس نفسه .

٣٠ (١٢٨) : وغضب الامبراطور غضباً عظيماً وتغير لونه مراراً ، وكرر الناس النظر نحو صاحب بيروت، وكانت كلمات التهديد كثيرة، وتدخل رجال الدين والرجال الجيدين الآخرين للمصالحة بينهما، لكنهم لم يستطيعوا بأي سبيل من السبل زحزحة صاحب بيروت عما قاله وعما قرر فعله، وصنع الامبراطور عدة طلبات غريبة وأعمال تهديد، وتم الاتفاق بالنهاية، حسبما كان صاحب بيروت قد عرض، وليس أكثر من ذلك أمكن للقوة تحقيقه : وجوب أن يسلم إلى الامبراطور عشرين من أعظم أعيان إقطاعيي قبرص، الذين تعهدوا بأجسادهم وبمقتنياتهم وبممتلكاتهم بأن صاحب بيروت سوف يخدمه، ولسوف يذهب إلى

محكمة مملكة القدس، ويقدم هناك براهينه، وفقط عندما سوف يظهر في المحكمة سوف يجري تحرير الرهائن وإطلاق سراحهم .

٣١ : وطلب الامبراطور منه ولديه : السير بالين والسير بلدوين (٧٠)، وكل ما قاله لم يرتض به مولاي، ولذلك وافق بالقوة على أن يأخذهما الامبراطور، ثم قال الامبراطور مخاطباً صاحب بيروت : « إنني أعرف تمام المعرفة أن بالين هو الأثير إلى قلبك، وبناء عليه إنني ما دمت مستحوذاً عليه أنا مستحوذ عليك»، وأمر الامبراطور باستدعائهما، وقدماً على الفور، وأخذ أبوهما يمين كل واحد منهما وسلمهما إلى الامبراطور قائلاً : « إنني أعهد بهما إليك، وأدعهما بذمة الرب وبذمتك بوساطة هذا الميثاق : أنني حالما أقدم إلى محكمة مملكة القدس مستعداً للبرهنة على حقوقي، سوف يحرران ويطلق سراحهما، وأنتك سوف تحتفظ بهما وتحرسهما بشرف، وأنتك سوف لن تسبب الضرر لهما أو تعرضهما لأي أذى بالرضا أو بالغضب»، وهنا قال الامبراطور : « وإنني أتسلمهما بذمة إيمان الرب وإيماني، ولسوف يثريان بوساطتي ويتشرفان، إذا أراد الرب»، وبهذا غادر الامبراطور (٧١)، وأمر بوضعهما في داخل أقفاص خشبية (٧٢) واسعة وبشكل بالغ الوحشية، وكان هناك صليب من الحديد قد ربطاً إليه، ولذلك لم يكن بإمكانهما تحريك لأيديهما ولا أرجلهما، وفي أثناء الليل ربط بقية الرجال بالحديد معهم (٧٣) .

٣٢ (١٢٩) : وما أن غادر صاحب بيروت المكان، حتى ذهب أعداؤه إلى الامبراطور وقالوا له : « ما الذي فعلته يا مولاي؟ سوف يذهب صاحب بيروت ويشحن القلاع ضدك، ولسوف يثير البلاد كلها، ولن يتمنع عن ذلك بسبب أولاده، ذلك أن معظم الناس يحبونه وسوف يتبعونه، وأفضل نصيحة هي أن تبعث خلفه على الفور، وأن ترسل إليه رسالة لطيفة، وأن تقول له أنه إذا ما فعل ما تطلبه سوف تعيد إليه ولديه، وما أن يأتي تلقي القبض عليه، فالذي يمتلك الشجاعة يمتلك

قطيعه، وبهذه الوسيلة تصبح صاحب قبرص وما من أحد سواك»، وأمر الامبراطور، الذي فعل الكثير من الشرور صدوراً عن إرادته الذاتية ودونما تشجيع، باستدعائه وجلبه، لكن صاحب بيروت كان متيقظاً ومحروساً بشكل جيد من قبل الذين يثق بهم، والذين كانوا معه في اجتماع التشاور، وكان معسكراً خارج المدينة في خيام، وكان هو ورفاقه معهم خيول وسلاح، ولم يكن لدى الامبراطور خيول في المدينة، لكنه امتلك السيطرة على داخل المدينة بفضل العدد الكبير من الرجال الذي كان لديه .

٣٣ : وعقد صاحب بيروت اجتماعاً وقال إنه يرغب بشحن القلاع وحراسة البلاد لصالح حقوق ورثة الملك هيوج، في حال حدث حادث سوء للملك الذي أخذه الامبراطور وهو متحفظ عليه، ثم إن صاحب قيسارية الشاب، الذي كان ابن أخت لصاحب بيروت ومعه السير أنسيو دي بري — وكان هذان شجاعان جداً ونشيطان — قالوا له : « لا تفعل هذا يا مولاي، بل اذهب إلى الامبراطور وخذنا معك، ولسوف يخفي كل واحد منا مدينة في سوطه، وما أن نمثل أمامه حتى نقتله، وسيكون رجالنا على ظهور خيولهم أمام الباب مسلحين بشكل جيد، وعندما سيكون الامبراطور ميتاً، ما من أحد سوف يتحرك ، وبذلك سوف ننقذ أولاد عمنا»، وغضب صاحب بيروت غضباً شديداً ، وهددهما بالضرب و بالقتل إذا ما تكلمتا حول ذلك ثانية، وقال إن هذا سوف يعدّ عملاً غير شريف إلى الأبد، ولسوف يصرخ المسيحيون في كل مكان : «لقد قتل هؤلاء الخونة فيما وراء البحار مولاهم»، ثم استطرد يقول معللاً: « إنه إذا ما مات وبقينا نحن أحياء وأنقذنا، سيصبح حقنا باطلاً، ولن يتم مطلقاً تصديق الحق والأخذ به، وهو الآن مولانا(٧٤)، ومهما عمل سوف نحافظ على إخلاصنا وشرفنا» .

٣٤(١٣٠) وعندها غادر صاحب بيروت عند حلول المساء، وكانت

الضجة كبيرة في معسكره لدى مغادرته، وسمع الامبراطور الضجة، وخاف من ذلك خوفاً عظيماً، ولهذا تخلص عن المنزل الذي كان فيه، وذهب إلى برج الاستتار الذي كان حصيناً، وقريباً من سفنه، ووضع هناك الرهائن في السجن، وذهب صاحب بيروت مباشرة من ليماسول إلى نيقوسيا، واحتلها مع الذين رغبوا باللاحاق به، وشحن بشكل كبير قلعة عرفت باسم ديودامور (٧٥)، وإليها بعث بالأولاد والنساء العائدين إليه وإلى رفاقه، وبقي هو ورجاله المسلحين في مدينة نيقوسيا، وبعث الامبراطور إلى سورية يطلب جيشه مع خيول وكثير من المرتزقة (٧٦) للقدوم إلى قبرص، وجاء الأمير العجوز صاحب أنطاكية (٧٧)، وصاحب جبلة (٧٨)، وصاحب صيدا (٧٩)، وعدد كبير آخر من الرجال، جاءوا إلى الامبراطور ووصلوه في ليماسول، وفي الوقت الذي كان فيه هناك، كان السير عموري برلياس وجماعته معسكرين في البيت الذي كان سجناً للرهائن، ويحكى أنه أساء إليهم كثيراً وألحق بهم الكثير من الأذى .

٣٥ (١٣١) : وعندما تلقى الامبراطور فردريك ما يكفي من نجدات، ركب وزحف مباشرة إلى نيقوسيا (٨٠)، وأشار المستشارون التابعون لصاحب بيروت عليه أن بإمكانه التصدي له ومنازلته، لكن رجاله الجيدين قالوا إنه لن يفعل ذلك، لأنه لن يقاتل بمشيئة الرب ضد مولاه، وهو لم يرغب قط بالقتال ضده إذا ما أمكنه تجنب ذلك، لأن من عادته البقاء دوماً مستقيماً نحوه عن طواعية، ولقد قام بهذا العمل وهو آسف، ومادام قد بدأ ذلك فلسوف ينهي، وأعطاه مولانا نعماً فائضة من المشاعر والحكمة والشجاعة والشرف، وأظهر نحوه حبه أكثر من أي إنسان في أيامه، أو مثيله في الثروة، وقام الإيليني بتسليم نيقوسيا إلى الامبراطور وذهب إلى ديودامور، التي كان قد شحنها، ولم يتجرأ الامبراطور على اللحاق به، بل بقي لوقت طويل في نيقوسيا مع عدد كبير من الرجال.

٣٦(١٣٢) واقترب الشتاء وتلقى الامبراطور أخباراً من بلاده بأن البابا غريغوري والملك جون صاحب القدس كانا يشنان الحرب ضده في أبوليا(٨١)، ولهذا كان خائفاً جداً، وبادر إلى الإسراع للذهاب إلى سورية، ليعقد هدنة مع المسلمين حتى يمكنه العودة إلى بلاده، ولهذا السبب سارع إلى عرض التصالح مع صاحب بيروت، وهكذا جرت المباحثات وتقدمت بوساطة رجال الدين وآخرين بغية الوصول إلى اتفاقية، وكانت المحصلة أن أقسم الامبراطور وجميع بارونات له صاحب بيروت أنه سوف يبعث إليه على الفور ولديه سالمين وصحيحين في الجسد والأطراف، ولسوف يحتفظ بالسلام معه، ولن يلحق الأذى به أو بشعبه ولن يغرمهم، إذا لم يكن ذلك بموجب أمر صادر عن المحكمتين، كما أنه لن يحمل في نفسه أي حقد تجاه هذه الأمور التي انقضت، ولسوف يمكن الملك هنري شخصياً من تسلم القلاع والمملكة، وبما أن الملك ما يزال طفلاً، فإنه سوف يعين واحداً من أتباعه(هنري) ليتولى حراسة القلاع والمملكة حتى يصل الملك إلى السن التي تؤهله للحكم .

٣٧ : وأقسم صاحب بيروت ورجاله أنهم سوف يسلمون قلعة ديودامور بناء على أوامر ملك قبرص المتقدم الذكر، وأنهم سوف يذهبون مع الامبراطور وسوف يخدمونه طيلة الوقت الذي سيبقى فيه في سورية على حسابهم الشخصي، وهو لن يتحمل أي أذى نحوه أو نحو مؤيديه فيما يتعلق بجميع الأشياء التي مضت، وأصر الامبراطور على وجوب اعترافهم بأن الوكالة عائدة إليه، المطلب الذي ردوا عليه بعدم الموافقة، حتى لو فقدوا رؤوسهم، لأنه فيما يتعلق بالوكالة، فهم قد كانوا رجال الملكة أليس، لكنهم لن يترددوا في إقسام يمين الولاء إلى الامبراطور لأنه المولى الرئيسي لمولاهم الملك هنري، وإنهم سوف يقسمون هذا القسم نفسه بموجب الميثاق التالي : إذا كان قد تقرر في الامتيازات التي وردت في المواثيق التي أقيمت فيما بين والد الامبراطور والملك(عموري) هنري،

بأنه يتوجب على رجال الملك إقسام يمين الولاء، فإنهم سوف يتمسكون بأداء القسم، لكن إذا كان هذا لم يرد بين الامتيازات، فوقتها ينبغي تحليلهم من أداء ذلك (٨٢)، وتعهد الداوية والاستبارية وجميع البارونات والأعيان من كلا الجانبين بالحفاظ شخصياً على هذا السلام، وسلمت قلعة ديودامور وبقية الحصون الأخرى في قبرص إلى الملك، وقام هذا بناء على أوامر الامبراطور وخوفاً منه بتسليمهم جميعاً إلى رجاله الذين كانوا من حزب الامبراطور (٨٣).

٣٨ (١٣٣): وذهب الامبراطور فردريك وأتباعه فوراً إلى فيما غوستا، للاقلاع من هناك (٨٤)، وقدم إليه إلى هناك اسطوله من ليماسول، وأرسل من هناك إلى صاحب بيروت ولديه، اللذان عانيا طويلاً من السجن على اليابسة وفي داخل السفن في البحر، وكانا في حالة مزرية جداً، حتى كان من المؤلم النظر إليهما، ومع ذلك استقبل الامبراطور السيد بالين في بيته وعرض عليه وأعطاه كثيراً، وهو الذي كان شاباً عظيم الشجاعة وفارساً، ونشيطاً وكريماً، وبارعاً، ومقبولاً جداً لدى جميع الناس الذين كانوا على هذا الجانب من البحر، قام بخدمة الامبراطور عن طواعية وبأدب إلى حد أنه كان مسروراً منه، وكان الابن الآخر لمولاي صاحب بيروت اسمه جون (٨٥)، وكان سيداً، وقد احتفظ به الامبراطور طيلة وجوده في سورية، وقال بأنه سوف يعطيه فوجيا Foggia التي هي في أبوليا، ولهذا السبب عرف باسم جون أوف فوجيا (٨٦).

٣٩ (١٣٤): وأقلع الامبراطور مع اسطوله من فيماغوستا في إحدى الأمسيات عند حلول الظلام (٨٧)، وهرب منه في تلك الليلة نفسها أمير أنطاكية العجوز، وتركه على ظهر سفينة حربية حيث وصل إلى إحدى قلاعه التي عرفت باسم نفين (٨٨) Nefin، ثم إنه قدم الشكر للرب على أنه نجا من الامبراطور، لأنه كان قد قدم إلى قبرص بعدما عقد صاحب بيروت السلم معه (٨٩)، وكان الامبراطور قد طلب من

الأمير بأن يأمر جميع أتباعه في أنطاكية وطرابلس أن يقسموا يمين الولاء له، مثلما فعل الذين كانوا في قبرص، وقد عدَّ الأمير هذا كأنه قد مات وسلب ميراثه، ولهذا تظاهر بالمرض والوجع وكان دوماً يصرخ « آه — آه — آه »، وقد فعل ذلك بشكل مؤثر حتى تمكن من المغادرة حسبما سمعت، لكنه ما أن وصل إلى نفين حتى تعافى.

٤٠ (١٣٥): ووصل الامبراطور في سنة ١٢٢٩ (١٢٢٨) إلى سورية مع اسطوله كله ووصل الملك معه، وجميع قبارصته معه، وتوجه صاحب بيروت إلى بيروت، حيث استقبل هناك بسرور عظيم، لأنه ما من أمير قد أحبه رجاله مثلما أحبوه، وقد بقي هناك لمدة يوم واحد، ثم لحق على الفور بالامبراطور، والتقى به في صور، واستقبل الامبراطور استقبالا جيدا في سورية، وقدم له الجميع الولاء، وغادر مدينة صور ومضى إلى مدينة عكا، وقد استقبل هناك بترحاب كبير (٩٠)، ودخل اسطوله الذي تألف من سبعين غليوناً وسفينة إلى ميناء عكا، واتخذ هو لنفسه مقراً في القلعة، ثم أمر بجمع الأتباع الاقطاعيين وطلب منهم أداء يمين الولاء له (٩١) بمشابة الوكيل، لأنه كان لديه ولداً صغيراً اسمه كونراد، وهذا كان الوريث الشرعي لمملكة القدس من خلال أمه التي كانت متوفاه، وترك الامبراطور وجميع رجال سورية عكا، وذهبوا إلى يافا (٩٢)، وعقدوا هناك اتفاق هدنة مع الكامل (٩٣)، الذي كان سلطان القاهرة ودمشق (٩٤)، وكان مستولياً على القدس، وعلى جميع البلاد، وبموجب هذه الاتفاقية كان سيسلم القدس والناصرية واللد إلى الامبراطور (٩٥).

٤١ (١٣٦): وفي وسط هذه الأحداث، في هذه السنة نفسها (١٢٢٩) بعث الامبراطور بالكونت ستيفن صاحب البترون (٩٦) إلى قبرص ومعه اللومبارديين الآخرين، ليتولى الاستيلاء على جميع الحصون وعلى موارد التاج ليتولى استخدامها، وقد قال بأنه الوكيل، وأن تلك كانت حقوقه، وكان القبارصة خائفين جداً وكذلك نساؤهم وأطفالهم وقد وضعوا

أنفسهم تحت رعاية رجال الدين حيثما استطاعوا، وهرب بعضهم إلى خارج قبرص، وخاصة السير جون دي إيلين (٩٧) — الذي أصبح فيما بعد صاحباً ليافا، وقد كان في ذلك الوقت طفلاً — وقد هرب معه أخته مع آخرين من الأسر النيلية، وحدث ذلك في قلب الشتاء، وقد واجهوا أحوالاً جوية صعبة حتى أنهم نجوا بصعوبة كبيرة من الغرق، وقد وصلوا بعون الرب أخيراً إلى طرطوس، واستولى الامبراطور الآن على قبرص، وكان القبارصة في جيشه في غاية الانزعاج، ولو وافقهم صاحب بيروت لتجمعوا واختطفوا الملك الشاب هنري ولتخلوا عن الامبراطور.

٤٢ (١٣٧): وبات الامبراطور مكروهاً من قبل جميع الناس في عكا، وكان مبغوضاً بشكل خاص من قبل الداوية (٩٨)، وكان هناك في ذلك الوقت مقدم الداوية الأكثر شجاعة، الأخ بيتر دي مونتاغيو (٩٩)، الذي كان باسلاً جداً ونبيلاً، وعظيم الإقدام، وحكيماً (١٠٠) أيضاً كان مقدم فرسان التيوتون (١٠١)، ولم يكن شعب السهل (١٠٢) ميالاً نحو الامبراطور، وقد اقترب الامبراطور أعمالاً كثيرة بدت شريرة، واحتفظ ببعض الغلايين مستنفرة تحت السلاح ومجازيفها في أماكنها، وفعل ذلك حتى في الشتاء، وقد قال بعض الناس بأنه رغب في القاء القبض على صاحب بيروت، وعلى أولاده، وعلى السير أنسيو دي بري، وعلى بقية رفاقه، وعلى مقدم الداوية وعلى أناس آخرين، وأنه كان ينوي إرسالهم إلى أبوليا، وقالوا بأنه رغب في احدى المناسبات بقتلهم أثناء اجتماع دعا إليه وجمعهم فيه، لكنهم أصبحوا مدركين لنواياه، وجاءوا بقوة عظيمة لذلك لم يتجرأ أن يحاول قتلهم، ومهما يكن من أمر، لقد عقد هدنة مع المسلمين، حسبما رغب، وذهب إلى القدس (١٠٣)، وتوجه من هناك إلى عكا، ولم يتخل صاحب بيروت عنه، مع أنه كان هناك من نصحه مراراً بالتخلي عنه، لكنه لم يرغب بفعل ذلك.

٤٣ (١٣٨): وجمع الامبراطور رجاله في عكا، وأمر باحتشاد جميع أهل

عكا، وكان هناك عدد كبير من البياضة، الذين كانوا مؤيدين له وميالين كثيراً إليه، وهناك خطب فيهم وأبلغهم بما رغب به، واشتكى في خطابه كثيراً من الداوية.

وقام بمحاصرة بيت الداوية (١٠٤)، وتضرر بيت الداوية أضراراً كبيرة، لأن الدير كان كله بالخارج، غير أن كثيراً من الناس تقاطروا عليه بحرراً وبراً، وإنني لا أعرف كم دام الحصار، لكنه غادره بوضع شرير جداً (١٠٥)، وأعد الامبراطور العدة بشكل سري لعبوره، ودخل إلى غليونه في اليوم الأول من شهر أيار عند الفجر، دون أن يعرف ذلك أحد من الناس، وحين دخل إلى الغليون كان ذلك أمام شارع الجزارين، وحدث هناك أن الجزارين والمسنيين من أهل ذلك الشارع الذين كان وضعهم سيء جداً، أنهم ركضوا إلى جانبه ورموه بالفضلات وبقطع اللحم بشكل مهين جداً.

٤٤: وسمع صاحب بيروت والسير يودس دي مونتليارد (١٠٦)، ضجة الكلام حول هذا، فبادر مسرعين، وأبعدا الناس بالضربات، أي الناس الذين كانوا يرمون هذه الأشياء عليه، وصرخا إليه من جانب البر حيث كانا إلى حيث كان في الغليون بأنهما يدعانه في رعاية الرب، ورد الامبراطور بصوت منخفض جداً بأنه لا يعرف هل هذا سيكون جيداً أم سيئاً، وقال بأنه تارك في مكانه وكيلاً صاحب صيدا (١٠٧)، وغارنيير الألماني (١٠٨)، وكان الامبراطور قد جهز قلعة صور بشكل جيد، وأعطاهما إلى صاحب صيدا ليتولى إمرتها، وجعل الأمور تظهر أنه قد وضع ثقة عظيمة به، وقد اصطحب الامبراطور الملك هنري ملك قبرص معه.

٤٥ (١٣٩): وهكذا غادر الامبراطور عكا، مكروها، وملعوناً، ومرزولاً، ووصل إلى قبرص، وحل في ليماسول، ونصب هناك الملك المتقدم الذكر، أي الملك هنري، وأعطاه زوجة واحدة من قريباته، كانت

ابنة المركز أوف مونتفرات (١٠٩)، وعقد هناك اتفاقات نهائية مع الوكلاء الخمسة ، الذين سمعت بأسمائهم من قبل، والذين كانوا من حزبه، وقد باعهم وكالة قبرص والبلاد بمبلغ عشرة آلاف مارك، وذلك حتى يصل ملك قبرص المتقدم الذكر إلى سن الرشد (١١٠)، وجعلهم يقسمون أنهم لن يمكنوا صاحب بيروت والمتحيزين معه من العودة إلى قبرص، وأمرهم بوجوب طردهم وتجريدتهم من ممتلكاتهم، وقد قبلوا بهذا عن طواعية من الامبراطور، وبناء عليه حوّل إليهم مرتزقة وألمان، وفلمنكيين، ولومبارد توجب عليهم أن يدفعوا لهم، كما التمسوا أيضاً أكثراء بعض المرتزقة من عكا ومن أماكن أخرى، وقام بعض الرجال الذين كانوا من رجال الملك بالالتحاق بهم ووضعوا أنفسهم تحت إمرتهم، بحكم وجود الملك هنري مع الوكلاء، ولأنهم أنفسهم رغبوا بالعودة إلى بيوتهم، لكن القلاع لم تستسلم إليهم إلى أن يدفعوا المال، وسافر الامبراطور فردريك عبر البحر وترك في مكانه رجالاً لتسلم المال وليسلموهم القلاع (١١١).

٤٦ (١٤٠): وكان فيليب دي نوفار وقتذاك في قبرص يقوم بأشغاله الخاصة (١١٢)، وأمره الوكلاء الخمسة بشكل سري، وذلك بعد ما بحثوا عنه في أثناء الليل ورجوه وطلبوا منه بكل مظاهر الصداقة، أن يسعى لإقامة سلام بينهم وبين صاحب بيروت، وقالوا بأن التسوية التي صنعوها مع الامبراطور كانت فقط من أجل استسلام الملك والبلاد وتخليصهم من يديه، وأنهم ما أن يتسلموا القلاع حتى سيفعلوا كل ما يرغب به صاحب بيروت (١١٣).

واتفق فيليب دي نوفار مع الوكلاء الخمسة أنه سوف يقوم بكل سرور بهذه المهمة، وذلك لمعرفته بحكمة مولاه وعفوه، واشترط عليهم أن يقسموا له على الإنجيل المقدس، أنه إذا لم يتمكن من عقد السلام، سوف يأخذونه هو وآل بيته وجميع مقتنياته بأمن وسلام إلى بيروت أو إلى

عكا، وناضل فيليب دي نوفار في سبيل السلام ووجد في مولاه كل ما
رغب به.

٤٧: وفرض الوكلاء الخمسة الضرائب على فقراء الناس في قبرص
وسرقوهم كثيراً حتى تمكنوا من دفع المال وتسلم القلاع (١١٤)، وكان
لديهم في ذلك الحين عدد كبير من الرجال، حتى أنهم عدّوا أنفسهم
أقوياء جداً (١١٥)، ومن ثم وافقوا وقادوهم بحماقة نحو مايلي:

لقد أصبحوا متعجرفين واعتقدوا أنهم سوف يستحوذون على البلاد
ويدافعون عنها، ويتغلبون على مولاي صاحب بيروت وعلى حزبه، ومع
هذا تابعوا الحديث بشكل سري عن السلام مع فيليب، ثم أمروا شعب
البلاد بالاجتماع في بلاط الملك، وذهب واحد منهم شخصياً لإحضار
فيليب ووضع يديه حول عنقه وترجاه أن يذهب إلى الملك، لأنهم رغبوا
في عقد اجتماع خاص معه، وقد ذهب عن طواعية، لأنه وثق وثوقاً كبيراً
بالقسم الذي أدّوه إليه.

٤٨: وعندما دخل فيليب دي نوفار إلى بلاط الملك وجد الأبواب
محروسة بكثافة من قبل رجال من أتباع بيوت الوكلاء الخمسة، وقد
حفظوا الأبواب بشدة حيث لم يسمحوا لأحد بالجواز إلى الخارج، وكان
فيليب خائفاً لكنه لم يظهر أدنى علامة على ذلك، وعندما اجتمع
الجميع وقف واحد من الوكلاء، وكان واحداً خطيباً مفوهاً، واسمه وليم
ريفت، وقد تكلم لمدة طويلة بكلمات جميلة، وقد قال بين أشياء بأن
صاحب بيروت قد فقد بحماقة الملك والبلاد، وأنهم (أي الوكلاء) قد
استردوا بعقلانية كلاهما الواحد ثم الآخر، وقد اشتروا الوكالة، ولهذا
السبب إنهم يطلبون من شعب المكان أن يقسموا لهم على الاحترام، وأن
يقفوا إلى جانبهم وأن يحافظوا عليهم بمثابة وكلاء لهم حتى يصل الملك
إلى سن الرشد، وكان الملك في أيديهم وكان خائفاً جداً، وقد تكلم
الملك بصوت منخفض، وغالباً ما نظر نحو فيليب.

٤٩: وجلب على الفور الإنجيل المقدس إلى ذلك المكان، وقال السير عموري برلياس إلى فيليب دي نوفار «إذهب أنت أولاً قبل الجميع وأقسم، ذلك أننا نرغب بشكل خاص أن تكون أنت الأول»، وانتصب فيليب قائماً وقال: «تحدث إلي ياسيد أولاً على انفراد، أنت ورفاقك»، وقد ردوا عليه جميعاً وقال الخمسة: «بعون الرب، لن نفعل ذلك، لأنه يتوجب علينا أن نفعل كثيراً جداً، إذا ماتشاورنا مع كل واحد من هؤلاء الذين سوف يقسمون، وبذلك ما من شيء سوف ينجز، لكن أقسم، ولسوف نصنع أشياء أكثر لك مما قدمه أولئك الذين خدمتهم حتى الآن، وأي واحد منا تريده سوف يعطيك إقطاعاً لك ولورثتك، ولسوف ندفع كل ديونك (١١٦)».

٥٠: ورد فيليب قائلاً: «إنني عظيم السرور، أنكم عرضتم علي هذا العطاء العظيم على مسامع هذا العدد الكبير من الناس، وتشريفكم لي دليل على تقديركم العظيم، وأنا أشكركم على ذلك وافر الشكر، لكنني غير قادر على فعل ما سألتهموني أن أفعله، لأنني رجل تابع للملكة أليس بموجب وكالتها، وإذا ما وافقت وأقسمت على عدكم وكلاء، عندها أكون قد خرقت تعهداتي»، وعندها صرخوا بصوت واحد: «ليس لهذا السبب إنك ترفض، بل لأنك لاترغب في أن تكون ضد صاحب بيروت»، وقال فيليب: «إنني بمشيئة من الرب، لن أكون ضد صاحب بيروت، لأنني أحبه وأحب أولاده أكثر من أي جماعة أخرى في العالم»، وهنا قال هيوغ صاحب جبلة: «هل سمعتم ما قاله؟ إنني أقترح أن نقوم بشنقه»، ورد فيليب على هذا بقوله إنه لايتفق مع ما قاله السير هيوغ، وكان والده السير برتراند قد تكلم مرارا بشكل أكثر عقلانية، ثم إنهم صرخوا جميعاً، وقال واحد منهم: «خذوه» وقال آخر «اقتلوه الآن على الفور».

٥١ — وازداد اضطراب فيليب نحو هذا وقلقه، ويئس من حياته،

وجثا أمام الملك وكرر على مسامعه العهد واليمين الذي قطعه الوكلاء الخمسة معه، وقدم ضماناته وعرض أن يتبارز —وفقاً لقرار المحكمة— شخصياً ضد واحد من الخمسة، وذلك تماشياً مع ما ادعاه، وقام عدد من أتباعهم، ممن كانوا فرساناً، بتقديم ضماناتهم ضد فيليب، لكنه رفضهم جميعاً بسبب ما قاله، وأصر طوال الوقت على طلب منازلة واحد من الخمسة، ذلك أنه قال بأنه كان من المؤكد معادلاً لهم، وأنه من السهل عليه البرهنة على ذلك، بكفالة عدد من الرجال الجيدين من بلاده الموجودين في قبرص وسورية، وقد أنكر كل واحد منهم ما قاله، لكن مامن واحد منهم عرض ضماناته للمبارزة، وبناء عليه اعتقلوه، ووضعوه تحت الحراسة في واحد من أماكن القصر، وتولى حراسته فرسان حملوا بأيديهم السيوف مجردة، وأعجب الناس كثيراً بما قاله فيليب وبما فعله، وأمر الوكلاء بإحضار قفص كبير، وأمروا بوضعه هناك، لحمله به إلى قلعة ديودامور، وفي الوقت نفسه حرسوه في القصر بشدة طوال الليل، وأدى بقية الناس اليمين للوكلاء.

٥٢ — واجتمع الوكلاء الخمسة على انفراد وتشاوروا، وقالوا: «لقد طلب هذا الرجل المحاكمة في المحكمة، وإذا ما أخذناه بدون ذلك، سيكون ذلك خرقاً، لكن دعونا نطلب منه تقديم تعهدات وضمانات بمبلغ خمسة آلاف مارك من الفضة بأنه سوف يمثل في اليوم التالي في المحكمة، بالشكل الذي هو عليه الآن، ودعونا نقول له إنه إذا ما أقسم هكذا فسوف يحاكم بالمحكمة، وعندما سوف يغادر من هنا دعونا نقتله بحكم أنه عدو خطير لنا، ولنفعل ذلك الليلة»، وهكذا بعدما أعدوا ما أرادوه، طلبوا التعهدات منه، ورد فيليب دي نوفار أنه لا يحتاج إلى تعهد وضمانة، وبحكم كونه تابعاً اقطاعياً هو لا يحتاج إلى تقديم أي شيء من هذا القبيل، ثم إن سمعته وصدقه واقطاعه ضمانته له، فأخبروه بأنهم سوف يؤمنون له حفظاً جيداً لسلامته، وعرضوا عليه أن يضمّنوه

هم أنفسهم، غير أنه شكرهم، وتمنى أنهم سوف يقدمون مثل هذه الخدمة له عندما سيكون بحاجة إليها.

٥٣ (١٥١) — وما أن غادرهم فيليب دي نوفار حتى توجه مباشرة إلى مقر الاستبائية، واستطاع أن يتدبر في تلك الليلة نفسها جمع مائة وخمسين رجلاً مسلحاً، وقد وجد هناك نساء وأطفال الذين كانوا في سورية مع صاحب بيروت، ولولا أن فيليب قدم إلى هناك لقام الوكلاء الخمسة بدخول المكان في اليوم التالي، ولتولوا أسره (١١٧)، وهاجموا في تلك الليلة نفسها البيت الذي كان يقيم به من قبل واستولوا عليه، وقد وجدوا فراشه معمولاً، فطعنوا الغطاء برماح كثيرة وبسهام، وكان هناك رجلان يتوليان حراسة البيت، وقد قتل واحد منهما، وأصيب الثاني بجراحة بالغة.

٥٤ (١٤٢) — واستولى الوكلاء الخمسة في اليوم التالي على جميع اقطاعات مولاي صاحب بيروت واقطاعات رفاقه، وتندبر فيليب ضخم الماء من أحد الصهاريج وكان موجوداً داخل برج الاستبائية، وبذلك تم صنع الكثير من الكعك، وشحن البرج بالمؤن وسلحه بأدوات الرمي، وعندما علم الوكلاء الخمسة بأن فيليب كان موجوداً هناك، حاصروا المكان وشددوا الحراسة من حوله ليلاً ونهاراً حتى لا يتمكن من الخروج منه، ورغب فيليب دي نوفار بالإخبار بما يجري ولا سيما إعلام مولاي بالين دي إيبيلين، الذي كان رفيقه، وعندما شرع بكتابة الرسائل، تولدت لديه الرغبة أن يكتبها شعراً، وبما أن السير عموري برلياس كان الأكثر شراً من البقية، فقد أشار إليه باسم رينارد، ولأنه في جميع قصص رينارد غريمبرت Grimbert، هو الغرير، وهو ابن عمه فقد دعا عموري صاحب بيسان باسم غريمبرت، ولأن السير هيوغ صاحب جبلة له فم ملوي، ويبدو دوماً وكأنه مكشّر، فقد دعا فيليب «القرد».

٥٥ (١٤٣) — وهاهو الكتاب شعراً، الذي أرسله السير فيليب دي

نوفار، عندما كان محتجزاً في مقر فرسان القديس يوحنا في نيقوسيا، إلى
السير بالين دي إيبيلين، الذي كان موجوداً في عكا:

أكثر من مائة ألف تحية يرسل إليك،

أيها السيد اللطيف والصديق، والذي هو الآن أخ جديد.

لسنا الآن بصدد الصليب الأبيض، فلدينا الكثير لنعمله

ذلك أنه قد لا يتمكن أن يغني هذه السنة لساعات أو أن يقوم
بالقداس كاملاً.

أيها الصديق اللطيف، أرضك الآن تمثل اسبانيا،

هناك خمسة وكلاء في جمع واحد فوق سهلها.

لقد أظهروا حباً عظيماً نحوي، وناضلوا في سبيل كسبي

إلى جانبهم، لكنني رفضتهم. بازدراء

وبغضب، وبدون محاكمة قانونية، بل بالقسر

ألقوا القبض علي، ورموني بالأغلال، ولزيادة آلامي

أبدوا نحوي تلك الليلة كل الأعمال الوحشية:

لقد حرسوا الأبواب بقوة، ومامن أحد أمكنه المرور خلال

السلاسل.

وصاحب الوجه الحاد أقامهم هناك، وهو الذي كان متشوقاً

ليفدي بنفسه المملكة كلها.

نا لم أر تلك الليلة أي حيوان متوحش

مثل الذي أدخل رأسه إلى الحقل. وإذا حدث

بمشيئة الرب، وزالت هذه المحنة من حوله
سيقوم عيداً كل سنة لجميع كبار القديسين

وهكذا وضعت خلال تلك الليلة في المحكمة:
الكلام الطيب والتماس العدالة لم يكسبني شيئاً
وعلى الرغم مما قلته، حكموني بلا حق ولا قانون
في داخل القفص أوثقني الخونة بشدة
ثم أرادوا قتلي خيانة أثناء الليل
لكنني أنذرت من قبل واحد، لم يعبأ أبداً بالذي لن
يرضى، وقدم لي نصيحة مخلصه في محنتي.

إنني الآن متدثر برداء من أردية الاستتارية
وإنني لوائق بالرب، في أنني سوف أخرج هذه السنة من هذا
الضييق

وعارف أن بالين سوف يأتي بين بني قومنا
وأنسيو، صاحب الأنف المفلطح، أستدعيه هو الآخر

إن الذي وقف فيما بين الحواجز وبين حصانه
قد حاصرني، وضربني، في داخل مقر الاستتارية بالقوة.

لو أن الرب ترك الشقي يقتل، لتوقف مصدر
الكثير من المآسي التي وقعت في قبرص

لو أنهم عوضاً عن ذلك اتفقوا مع آنسيو صاحب الأنف المفلطح
عندما رمى بنفسه من على ظهر حصانه فوق رأسه
لكان الجميع قد قال: «لك الشكر من الرب والمنة»
ومن ثم نفوهوا غناء بتبريكاته النهائية

★★★

بالين، لاتنس السجن والأغلال طويلاً
السرور قد يخفي ذلك، لكن الأمر معروفاً من قبل حشد كبير

لئن اعتقلوك، لاتأبه بذلك ولا تستح منه
لأن الذي أخذك، اعتقل ملكاً وكوننا سواء
غير أن الذي يزعجني و يؤلمني أنهم جميعاً يقولون:
إن ذلك قد عمله، الذي هو عار بالنسبة للبشرية؛
ويظهر هذا كم هو يخشاك ويخاف من اسمك.

تذكر يا بالين أنه قد حدث في أيامك
أن الذي دفع الفدية ليخرج من الميدان يحكمك الآن كعبد.

يتوجب عليك استدعاء مولاي صاحب نابلس
وخالك الطيب، فلعله سوف يفيدك كثيراً
بحق الرب ادع الفيليين صاحبي نابلس ويبنى
ونخال والدك، مولاي بلدوين اللطيف
الذي لم يحن رأسه لانسان حي، ولم يخفض ذقنه مطلقاً،
ولئن تخاذلت أمام خمسة من الأشرار وتوانيت
ليتولى الرب الذي عاقب قاين ودمره لذنبه
تدميرك ومعاقبتك، مالم تتنصر.
من أجل الرب، ضع حب شؤون عكا جانباً
أنت والسير بدغره، الذي ممجداً ارتدى ثوب النمر
من أجل ثعلب خسيس رماه المهر ولم يستطع ركوبه
والذي يتحرك هنا، حتى أن اللومبارد سايروا هذا الاتجاه....
وإذا كنت تحب النساء، فقد أرادا أسرهن
بوساطة الحصار، كل من رينارد وإلى جانبه غرمبيرت،
الذي نشر أمام مقر الاستتارية علمهم عريضاً.
وقد راقبنا، طوال الليل، وهم مسلحون بنشابهم ورماحهم
ملاك الأراضي، والعدل قد حرمونا وأنكروه علينا
والسيدات وواحد لومباردي فقط في الداخل
وواحد جبان وآخر رعديد، كيف يمكنك التعايش مع هذا؟

لدى رؤيتهما، تذكرت، والرب هو مرشدي،
بقلب محترق غداً بعد عيد الفصح
فكل واحد جعل نفسه ملكاً، لكنه واحد بين أربعة
عفوك يارب، إنها لعبة الأطفال في الجري والاختباء
ملك في يوم، وفي الصباح التالي، كل واحد تجارته باثرة.
أنا بحاجة للضحك لدى رؤيتهم في الوكالة:
هيوج صاحب الفم المكشّر، الذي تنكر لوالديه،
ووليم دي ريفت، الذي يرى في نفسه حكيماً
ورينارد، الذي امتلك الدهاء ليتخلص من المباراة
وعموري وجوفيان اللذان من أصل مختلف
وإذا ماعرفتهم جميعاً، لن يكون أحد أكثر منك غضباً
وإذا ماغنيت أو نظمت حولهم، فهذا ليس عملاً ساخطاً:
إنني عندليب، وقد وضعوني داخل قفص
ينبغي ألا تلومني إذا لم أضع بشكل جيد تماماً
الأوزان الشعرية، ولم أصقل كل بيت منه
وإذا كنت مسجوناً، إنهاء الأغنية هي غاييتي
بشعر دوبيت أو على الأقل بشعر أبيات منفردة

٥٦ (١٤٤) — وتلقي هذا الشعر واستقبل في عكا ببهجة عظيمة،
وصرخ الجميع: «دعونا نذهب على الفور لإنقاذ السيدات واللومباردي»
(١١٨)، وأعدوا أنفسهم بكل سرعة، وكان هناك كثير من الرجال

الجديدين والسفن الممتازة، وقدم صاحب بيروت جميع التجهيزات للسفن وللسيرجندية، كما وجهز الفرسان وأعطى الجميع كل ما يحتاجونه، وقد عبروا البحر ووصلوا إلى كاستري (١١٩) Castrie ، وقاوم الوكلاء الخمسة بشدة عملية الاستيلاء على الميناء، ومع هذا تم الاستيلاء عليه بالقوة، وتراجع الوكلاء الخمسة وعادوا إلى نيقوسيا، حيث كانوا واضعين الملك تحت الحراسة، وبعث صاحب بيروت والناس الذين معه برسائل لطيفة وودودة إلى الملك، لابل حتى إلى الوكلاء الخمسة، قائلين بأنهم قدموا من خدمة الرب (١٢٠)، وأنهم يرغبون بالعودة إلى منازلهم واقطاعياتهم، وأنهم كانوا على استعداد لعمل كل من العمل الصحيح ولفرض حقوقهم، لكن الوكلاء الخمسة لم يتنازلوا بالرد.

٥٧ (١٤٥) — وركب صاحب بيروت وصحبه على تعبئة وزحفوا بصفوف متراصة حتى وصلوا إلى أمام نيقوسيا، وخرج الوكلاء الخمسة من المدينة وأخرجوا معهم شعب المدينة بالقوة، وكان معهم جميع التيركوبليه (١٢١) والمرتزة، وهكذا تفوقوا عددياً بشكل كبير على قوات صاحب بيروت، ووضع رجال الدين أنفسهم بين الفريقين بغية المصالحة، لكن ذلك لم يفد، وقام قادة الأرتال بتقدير بعضهم بعضاً، واستطلعوا قواتهم من هذا الجانب ومن الجانب المقابل، ووضع كل منهم نفسه أمام الذين كرههم أكثر، وهكذا تقدموا جميعاً، وكانت المعركة هي الأسوأ والأشد قسوة بشكل مطلق مما وقع على هذا الجانب من البحر، وكان عدد الفرسان الذين سقطوا هم وخيولهم كبيراً وكذلك الناس الذين قتلوا، وجرت المعركة في أرض محروثة، وكانت هناك ريح غربية شديدة الهبوب، وكان الغبار كثيفاً حتى أن مامن شيء كان يمكن أن يرى، وقتل في هذه المعركة السير جوفيان العجوز صاحب قيسارية، الذي كان قسطلان قبرص، وابن ختن مولاي صاحب بيروت (١٢٢)، وقتل أيضاً السير جيرارد دي مونتاغيو، الذي كان ابن أخ لكل من مقدمي الاستبارية

والداوية، ولرئيس أساقفة قبرص يوستوريو Eustorgue ، لأن حصانه تمدد فوق جسده لمدة طويلة (١٢٣).

٥٨ — وقام أولاد مولاي صاحب بيروت في هذه المعركة بأعمال مدهشة في القتال، وأنجز فوق الجميع السير بالين روائع، وانتخب الوكلاء الخمسة خمسة وعشرين فارساً، كانوا هم الأعظم نشاطاً بين رجالاتهم ليحاولوا قتل مولاي صاحب بيروت، وشطر مولاي صاحب بيروت فم واحد منهم، لأنه لم يكن لديه واقية وجه مثبتة على خوذته، وبضربته له رماه أرضاً مقتولاً، وخلال المبارزة نفسها سقط فرس مولاي صاحب بيروت في الخندق، وارتدى الوكلاء الخمسة قلانس مذهبة ضخمة فوق خوذهم ليطمئئوا بها، ومع هذا قهروا وهزموا بمشيئة الرب، ونجا جميع الوكلاء الخمسة، وفروا أولاً إلى عند هيوغ صاحب جبلة الذي قاد قوات المؤخرة.

٥٩ — وعندما كانت الهزيمة قائمة وكذلك الفرار لبعض الوقت وانجلى الغبار، و بينما كان السير بالين دي ايلين يقوم بأعمال المطاردة بعيداً، وجد مولاي صاحب بيروت نفسه وحيداً في ميدان المعركة، ومعه لست أدري كم من النبالة على أقدامهم، و كان أمامه في الميدان من الأعداء ما لا يقل عن خمسة عشر فارساً، و كانوا هم الأفضل و الذين نشطوا في القتال، و عندما انجلى الغبار عرفوه و عرفهم، و عندما رأى صاحب بيروت أنه كان وحيداً، ترجل ودخل من خلال باب صغير إلى ساحة حيث كانت هناك كنيسة صغيرة، و ذهب سيرجنديته معه، و هكذا دافع عن نفسه بقدر الإمكان و معه سيرجنديته، و طعنوا بالرمح الذين اقتربوا من الخارج لتدمير الجدران و شق طريق نحو الداخل .

٦٠ : و قضى الرب أن وصل و قتل السير أنسيودي بري ممتطياً ظهر حصان كبير وقوي، و كان مغطى بالحديد، و فوق الحديد تجافيف جيدة، ورمى بنفسه عليهم، و أبدى مهارة كبيرة في استخدام السلاح

حتى أنه كسر رمحه، وسيفه، لأبل حتى خنجره قد انكسر، و تلقى ضربات هائلة حتى لم يعد قادراً على استخدام يديه إلا بصعوبة بالغة، و بناء عليه وضع ذراعيه خلال المقود، و عندما جاء بعضهم ليهدم الجدار استخدم مهازية و حال بينهم و بين هدم الجدار، و فعل أشياء عظيمة حتى أن مولاي صاحب بيروت صار صديقه الصدوق طيلة حياته، و حدث بمشيئة الرب أن السير بالين ابنه الذي كان معه عدد كبير من الفرسان، عندما رأى أن والده ليس هناك، عاد إلى الميدان، حيث ما أن رأى خصومه راياته حتى تولاهم الرعب و هربوا نحو مدينة نيقوسيا، و قام السير بالين الذي جاء متقدماً على الجميع بمهاجمتهم بحماس و ضرب حامل رايتهم بشدة متناهية مما أدى به إلى السقوط إلى الأرض، و سقط حصانه معه أيضاً، و أخذ كثير منهم أسرى و قتل أيضاً العديد، لكن عدداً كبيراً نجا لسقوط السير بالين .

٦١ : و اعتصم السير عموري برلياس ، و السير عموري صاحب بيسان و السير هيوج صاحب جبلة في قلعة ديودامور، في حين مضى السير جوفيان و رجاله إلى كنتارا (١٢٤) ، و أوقع فيليب دي نوفار الذي خرج من دار استبارية القديس يوحنا مع رجاله، فيهم أضراراً بالغة، و لاسيما بالذين كانوا في المدينة، و بعث الوكلاء الخمسة المتقدم ذكرهم أعلاه من يجلب هنري الملك الشاب ، قبل أن تبدأ المعركة، و قد حملوه بالقوة ووضعه في قلعة ديودامور، و احتفظوا به هناك و أبقوه بمثابة سجين تحت الحراسة، و وقعت المعركة السالفة الذكر في مكان أمام نيقوسيا في يوم السبت في الرابع عشر من شهر تموز في سنة ١٢٢٩ (١٢٥).

٦٢ : و في اليوم التالي للمعركة حوصرت القلاع، و تولى مولاي صاحب بيروت حصار سيرينا (١٢٦)، و قام أولاده : السير بالين، و السير بلدوين، و السير هيوج (١٢٧)، بحصار قلعة ديودامور، و حاصر

السيرآنسيودي بري قلعة كتارا، التي كان فيها السير جوفيان، و عقد مولاي صاحب بيروت —الذي كان يحاصر سيرينا —معاودة مع اللومبارد الذين كانت القلعة المذكورة بأيديهم، شرطت أنهم إذا لم يتلقوا نجدة خلال مدة محددة، سيقومون بتسليم القلعة له، و هو سيقوم بدوره بالدفع إليهم المال المستحق لهم عن كل من الماضي و الحاضر، و تولى فيليب دي نوفار إعداد هذا الصلح، و تسلم القلعة في الوقت المحدد لصالح مولاه، و اصطحب اللومبارد و قادهم إلى خارج قبرص .

٦٣(١٤٧): ثم نظم فيليب دي نوفار أغنية، و بعث بها إلى القسطلان في عكا، وجاء نظم هذه الأغنية كما يلي :

سوف أقول لكل العالم في أغنية
المتكبر و الأحمق، من درجة عالية جداً
و حيث مامن انسان قد سمع قط أو رأى
مثل و كلاءنا الخمسة الذين ازدروا القانون و الحق.
و قد تجاهلوا العدالة و الحفاظ عليها:
و قد سلبوا زملاءهم و مولاهم
من اقطاعياتهم الموروثة، ثم إنهم ابتهجوا
و لمنع ذلك جاءوا إلى قبرص ثانية

عندما بدون ذنب سلبوا تماماً
أولئك الذين كانوا حجاجاً قدموا عن طريق البحر
من سورية و من عكا إلى كاستري

- ٢٤٤٢ -

ثم بعثوا مباشرة إلى الملك رسالة لطيفة
أنهم قد جاءوا إليه ، على وفاق و اتفاق
عازمين على فعل الحق، و للحق محافظين
و لم يتنازل هؤلاء الوكلاء الخمسة للإصغاء.

دوماً جلب تكبرهم إليهم محنة مخزنة
رجالنا على سهل نيقوسيا
يوم سبت نالوا النصر
و استردوا إقطاعياتهم، و بيوتهم و شرفهم ،بقوتهم
و هلك الخونة القذرين بحد السيف
و ابتغى بعضهم أي مأوى يحصل عليه في أي قلعة

★★★

و أسر بعضهم، و طورد بعضهم الآخر فوق السهل

و كان المقدم و قائد الهزيمة
هو الذي تولى قيادة قوات الساقة
حيث ما أن رأى المقدمة قد هوجمت، حتى على الفور هرب
على ظهر مهره الداكن الذي جرى به بقدر ما استطاع
فقد الحمقى في ذلك اليوم بسبب الخلاف و الخروج

الأرض، و الشرف، و الأقرباء، و الرفاق الذي شاركوهم مصيرهم
و حمل هؤلاء و الساذجين وصمة العار معا:
و الأفضل لهم الآن أن يتحولوا إلى رهبان وسط عارهم و آلامهم

شاهدنا في ذلك اليوم سقوطاً مدمراً من ارتفاع شاهق
و لتدمير عجرفتهم المجنونة و باطلهم
هرب صاحب الوجه المشوه مجللاً بالعار
وآخرون كثر منحطين و فرسانا خونه
إلى داخل ديودامور وهناك تخفوا،
و احتجزوا هناك سجيناً مولاهاهم الشرعي
احكم جيداً : أولا ينبغي شنقهم بحبل السجان و قتلهم؟
لقد اعتقلوه، و بذاته سجنوه

هؤلاء الأشرار الذين ينبغي تمزيقهم أثاروا
بعض رجال حمقى ليعتقدوا، بوساطة الخيانة
أن مولاي اقترف جريمة هائلة
بحصاره الملك و بازدرائه الحق .

★★★

تحول الرعاة الآن إلى ذئاب يزمجرون ويزأرون

ومادام خال الملك يحميه، إنه كله باطل
أن تأخذه من الحفظ لبيعه ثانية
امض أيتها الأغنية الموجهة وطيري كالسهم
واحملني حتى إلى سورية أخباراً مني
إلى القسطلان الذي يجننا بإخلاص
وأخبريه أن عملنا يسير بشكل صحيح
الشكر لخالقنا وإلى ربنا
سوف يضحك كثيراً لدى رؤيته أن لينغير قد اعتقل
أنا مرسل إليك لسانه وأنفه لقطعهم قطعتين

٦٤ (١٤٨) وذهب صاحب بيروت إلى حصار قلعة ديودامور، وعسكر
عند نبع التين، وكان أولاده فوق، أمام القلعة، وقامت القلعة في موقع
حصين جداً، فوق أعلى الجبال، واحتاج حصارها كاملاً إلى عدد كبير
من الرجال، لأنه كان بإمكان الإنسان أن يخرج منها من أماكن كثيرة
غير بابها، وكان في داخلها حامية كبيرة من الرجال على الخيول وعلى
الأقدام، فقد هرب إليها معظم الذين نجوا من المعركة، ولقد حدث
قتال شديد أمام الأسوار، وغالباً ما كان أمام الباب، ومع هذا كانت
معاناتهم الشديدة من المجاعة، وهكذا أكلوا خيولهم، وبسبب أن الذين
كانوا بالخارج شعروا بالأمان، تجول الفرسان ذهاباً وإياباً في البلاد حسبما
رأوه مناسباً، ومن ذلك حدث أن صاحب بيروت ذهب إلى كتارا لرؤية
آلة حصار عظيمة Trebuclet (١٢٨)، كان السير آنسيودي بري قد
أنشأها، وفي الوقت نفسه انتشر أولاده الثلاثة المتقدم ذكرهم أعلاه
وتوزعوا في المنطقة، لهذا بقي عدد قليل من الفرسان يتولون الحصار،
وأدرك الذين كانوا بالداخل هذا، وقاموا بإنقضاض عنيف تمكنوا به من

إنزال الهزيمة بالذين كانوا يحاصرونهم، واستولوا على معسكر الفرسان وعلى الأطعمة التي كانت فيه، ولو أن هذا لم يحدث لما استطاعوا الصبر كما فعلوا .

٦٥ (١٤٩) : وكان السير بالين في نيقوسيا مع عدد قليل جداً من الفرسان، لأن الموسم كان شتاءً، وكان الفرسان في بلادهم، وكانوا متراخين يقومون بأعمال الرياضة، ولدى سماع السير بالين بالأخبار جاء، واسترد المعسكر، وتابع المطاردة حتى باب السور، وحطم رمحه على حديد باب السور، وكان معه عدد ضئيل من الرجال الأشداء لهذا كانت المعركة مدهشة، ولم يكن هناك تدمير في كل الحرب مثل الذي أحدثه القتال في ذلك اليوم، وكان هناك قتال شديد من على الجانبين، وقدم أبوه صاحب بيروت الذي كان قد ذهب لرؤية الآلة التي كانت قيد الإنشاء أمام كتاراء، وذلك لدى سماعه بالأخبار، وكذلك فعل أخواه، وقدما من حيث كانا، وجاء جميع شعب البلاد مسرعاً، ثم تم الاتفاق بوجوب بقاء السير بالين هناك لمدة شهر، ومعه مائة فارس، مع عدد مناسب من الجنود الرجالة، وتوجب أن يكون أخاه في الشهر التالي، وهو السير بلدوين الذي كان حكيماً جداً ونشيطاً، مع مائة فارس أيضاً، وأن يكون هناك في الشهر الثالث السير هيوج، الذي كان واحداً من أفضل الفرسان، وكان قوياً ومرضياً في جميع أنحاء العالم، وبما أنه تقرر وجوب وجود واحد من الأخوة هناك، كان بإمكان الآخرين الذهاب إلى حيث شاءوا، ولكن عليهم العودة كل منهم في شهره .

٦٦ : واستمر الحصار لمدة عام تقريباً (١٢٩) وفق هذه الطريقة، وكان هناك في كل يوم قتال واستخدام للسلاح، وكان فيليب دي نوفار قد أصيب بجراحة في إحدى المرات أمام باب السور، كما أصيب بجراحات خطيرة عديدة، من طعنات الرماح، ورمايات النشاب، والحجارة، وطعن في أحد الأيام بسنان رمح خرق تماماً خلال ذراعه،

ونفذ في قميص سابخته وفي جسده، وبذلك انكسر الرمح على طرفه، وبقي القسم المكسور مع السنان في ذراعه، وصرخ الذين كانوا في الداخل قائلين: «مغنيكم قد مات، لقد قتل»، وأمسكه أعداؤه من وسطه، لكن مولاه وقاه وأنقذه بنشاط عظيم، ونظم في المساء مقطوعتي دوبيت على شكل أغنية، وغناها بصوت مرتفع، وبذلك عرف الذين كانوا في القلعة وتيقنوا أنه لم يمت .

٦٧ (١٥٠) وفيما يلي الشعر الذي نظمه السير فيليب دي نوفار، عندما جرح أثناء الحصار أمام قلعة ديودامور :

لقد جرحت، لكن شفتاي لا يمكن إغلاقهما بإحكام
حول السير رينارد وجماعته -

الذين من أجله انزلقوا وغرقوا بالعار
في داخل مالكروز Malcreuse، مأواه الأثير
لكن إذا كان الخوف من أجل نفسه قد أقنع رينارد
ما الذي فعله الإقطاعيون الآخرون التعساء ؟
والسيرجنديه ؟ لماذا يبعوا ؟ ما هو ربحهم ؟
مثل شياه جعلهم يبقون منتظرين
بالنسبة لرينارد يمكنه أن يجلب محناً خيانية
أكثر من غائثلون، الذي باع فرنسا خيانة وخساسة
لقد ملأ وكره ليقترف الدنس
مشبعاً بأمل أن يحكم البلاد وأن يضرب .
وعليهم صب هزواً كلمات سلام .

ياللعار، لخدمة خائن هكذا ضلوا !

في الخارج، لخدمته ذاقوا ألماً مبرحاً

في الداخل، بهلوانيتهم أوصلتهم إلى حبل المشنقة .

٦٨ (١٥١) : وعانى الذين كانوا في قلعة ديودامور من المجاعة كثيراً (١٣٠)، حتى أنهم احتفلوا في عيد الفصح (١٣١) احتفالاً عظيماً على حمار ضئيل قد أمسكوه، وإلى هذا الحمار أشار فيليب دي نوفار في قصيدته عن رينارد، وقال بأنهم باركوا الحمل ذي الأذنين الكبيرتين وأكلوه في عيد الفصح، وهذا ما يمكن أن تجده فيها، وضغط السير آنسيو الذي كان يحاصر كنتارا على القلعة بشدة وعن قرب، حتى كان مذهلاً أن تصدق الذي فعله، ورمت الآلة التي كانت لديه هناك جميع الأسوار تقريباً، لكن الصخور كانت قوية جداً تعذر التسلق عليها وتجاوزها، وتحمل الذين كانوا في داخلها مصاعب جمة وخسائر كبيرة، حتى أنهم ألقوا بأرديتهم وبأسلحتهم عندما هربوا خلال الطرقات ساعة مغادرتهم لميدان المعركة، ذلك أن ميدان المعركة كان على مسافة خمس عشرة مرحلة عن القلعة .

٦٩ : وحدث في إحدى الليالي أن ذهب فيليب دي نوفار مع السير آنسيو ليقوما بالحراسة، وسمعا حديث الذين كانوا داخل برج صغير مهدم، كان قد بقي من القلعة، وكان من دون ذلك هو على دراية بأوضاعهم، ولذلك نظم أغنية جاءت كما يلي :

حرس في الليلة الماضية حتى ظهور الصباح

بصعوبة قرب الأسوار، وحيداً، ومن دون أحد قريب

وسمعت من أعالي برج عويلهم واضحاً

أولئك الذين في كنتارا، امتلأوا حزناً وأسى

توجه واحد من الجماعة لآخر بالحديث
وقال: «وأسفى يا إلهي ما الذي سوف نفعل ؟
ليلعن الرب رينارد، لما اقترفه بحقنا من خيانة
ورسائل لاكستري المكتوبة الزائفة
التي وصلت إلينا قبل الفجر» .
« نحن فريسة الحزن وعميق الأسى »
هذا ما أجابه به الآخر، وأنا أسمع بشكل واضح :
«نحرس بالليل وفي النهار بدون توقف
نحن نتعب، مع قليل من الطعام، وثيابنا رثة، وزادنا قليل
نحن نعد لرامي الحجارة قذائفه للرمي
نصينا هو الألم، نحن نرمي، ونجر، وننجر :
إذا كنا سنظل نعاني من هذا القدر طويلاً
أتمنى أن يأخذك الموت هذه الليلة ويأخذني
قبل حلول الفجر» .
وسمعت آخر يقول: «يا رفاقي ويا آلي
سوف تنهمر من أجلنا كثيراً من الدموع المريرة
بعد قليل سنموت، أفراننا زلزلت ودمرت
تحت الضربات من قاذفات الحجارة والآلات
لقد دمروا أسوارنا، وأبراجنا، وبيوتنا أيضاً .

كيف سنحمي أنفسنا، إذا هاجمونا من جديد؟
وبات رجالنا وسلاحنا بندرة مأساوية
لن تعطنا الأسوار المزيد من الضمان
دعونا نهرب من هنا قبل الفجر» .
«الفرن والطاحون دمرا وزالا من الوجود
والبقاء هنا سيكون حماقة واضحة .
كامن لنا بقصد الخيانة والخداع
وكلاء ديودامور الذين جعلوا الصدق كذبا
لقد سرقوا بخيانة مطلية بالسواد
الملك، الذي أقسموا على تسليمنا
إياه، ثم جعلونا نقاتل في نيقوسيا
وكان ذلك موتاً لنا، ولهم أمان
آه، أمل أن لا يروا الفجر مطلقاً»

«العون الموعود قدومه يوم عيد الفصح تأخر كثيراً،
ما أخشاه أننا تعطلنا، وفقدنا الأمل .
عندما رأينا الامبراطور للمرة الأولى، كان اليوم
يوم أسى، ينبغي أن نطلب النعمة، أو ندفع لذلك غالياً»
ثم تابع يقول : «هل يمكننا إيجادها، فهذا صحيح،

لكن قليلاً من النعمة سوف يعطونا، إذا ما التمسناه
والأفضل بكثير هو أن نهرب إلى تركيا
لكن الحراس هناك يراقبون عن قرب
كل الليل حتى الفجر» .

عندما رأى جوفيان حالة رجاله يمثل هذه الحالة البائسة
تغيرت نواياه، ومن ثم بدل خططه
فخاطبهم وهو يتنهد قائلاً: «أيها السادة الأمثال، قد لا
أجد لنفسي رسولاً، من هنا
يتقدم بجرأة ويحمل رسالة ويتقدم بها

★★★

في سورية وقبرص ما يزال هناك
من سوف يحزن لموتنا حزناً عظيماً جداً»
وعند هذا انبلج ضوء الفجر .
وعندما سمعت نواحهم بكل وضوح
عدت مسرعاً نحو سيرجنديتنا رسولاً
ومن ثم أخبرتهم، وأنا جزلان مسرورا
بأن الآلام والخلاف استبدا بكتنارا، بكل وضوح
وبما أن واحداً من قادتي سألني التبيان

★★★

هكذا توليت، قص أخبار التعاسة

التي سمعتها، عندما وقعت، وأعلنت عن نفسها بصوت مرتفع

ثم أشرق في كل مكان ضوء الفجر

٧٠ (١٥٢) : وقد حدث في أثناء الحصار أن السيد الشاب صاحب قيسارية - الذي قتل ابنه في معركة الوكلاء الخمسة أمام نيقوسيا - قد وضع ومركز رجاله في المنطقة المجاورة فوق صخرة حادة كانت قريبة جداً من القلعة، وجعلهم يرمون من هناك خلال النهار وأثناء الليل، وكان لديه واحد من أبرع الرماة بالقوس العقارة، وكان قد أبصر السير جوفيان عندما كان يتجول في القلعة، وهكذا راقبه بشكل متواصل بكل تيقظ ونجح في قتله بوساطة نشابة، وكان ابن عمه السير وليم دي ريفت قد ذهب إلى أرمينيا طلباً للمساعدة، وقد توفي هناك، ثم أصبح قائداً كتشارا فيليب شينارت (١٣٢) Chenart الذي كان أخاً للسير جوفيان من خلال أمه، وكان شاباً متسرعاً وبلا خبرة، وأخفى الذين كانوا في الداخل خبر مقتل السير جوفيان، لكن رامي القوس العقارة كان متأكداً من قتله له .

٧١ : ولم يعد بإمكان الذين كانوا في القلعة التحمل أكثر، ولهذا أقاموا سلاماً، وافق عليه مولاي صاحب بيروت بترحيب من أجل ضمان سلامة الملك، ذلك أنه خشي أن يحمل في الليل إلى خارج القلعة ويودع في أحد الأماكن ومن ثم يرسل إلى أبوليا، وسلم الذين كانوا في الداخل أخيراً الملك، الذي كان ابن أخت لصاحب بيروت، وسلموا معه أخته والقلاع إليه، وأقسموا أنهم لن يقفوا ضده أو ضد أولاده، أو ضد الذين هم من حزبه بشكل مطلق ودائم، وأقسم (صاحب بيروت) وأولاده لجميع رجال حزبهم (لأن يأمر) (١٣٣)، بحفظ سلام مشرف معهم، وتم

الاتفاق أيضاً على أن تقوم أسرة السير جوفيان بمغادرة قبرص، بسبب أنه قتل القسطلان، لكن يتوجب الاحتفاظ بإقطاعياتهم (١٣٤)، وأن يرافقوا بأمن وسلام حتى مغادرتهم البلاد، وأبرم هذا السلام الراهب الاسبتاري الشجاع الذي اسمه الراهب وليم دي تينر **Teneres** (١٣٥)، وكان وشيخ الصلات بمولاي صاحب بيروت، وكان السرور عظيماً عندما خرج والمملك من القلعة، وكانت البهجة عارمة، وقدمت هدايا كبيرة وأعطيات، ولم يحضر السير آنسيو، وفيليب دي نوفار، والفارس الذي هوجم، وكان اسمه تورينول، ولم يرغبوا أن يكونوا هناك، كما أنهم لم يتحدثوا قط مع أعدائهم المتقدم ذكرهم أعلاه، لكنهم قبلوا السلام، نزولاً عند إرادة مولاها .

٧٢ - وبينما كان السلام قيد الإعداد ، أرسل فيليب ليسافر، وكان هكذا في ليماسول داخل سفينة حيث توجب عليه الذهاب بمثابة رسول إلى بلاد ما وراء البحار، إلى البابا وإلى ملك فرنسا، وإلى ملك إنكلترا، وإلى ملوك إسبانيا الخمسة (١٣٦)، ليخبرهم، ثم يكرر إخبارهم، وليقدم شكوى ضد الشرور العظيمة والآثام التي اقترفها الامبراطور فردريك والناس الذين كانوا في حاشيته في قبرص وفي سورية (١٣٧)، وما أن تم إبرام السلام حتى رغب فيليب في صنع أغنية منظومة تتعلق به، غير أن صاحب بيروت لم يرغب بذلك، لكن بعد شيء من التردد أذن بحكاية واقعة رينارد التي ذكر بها أسماء عدة وحوش، وقد أشار إلى صاحب بيروت تحت اسم زنجريم **Zengrim**، وإلى أولاده باسم ذئابه، وإلى السير آنسيو دي بري باسم الدب، وإلى نفسه باسم الديك شانتيكلير **Chanticleer**، وإلى السير تورينول باسم السنور تيمبرت **Timbert**، وجميع هؤلاء الوحوش هم من حزب زنجريم في حكايات رينارد، وأطلق على السير عموري (برلياس) اسم رينارد ، وعلى السير عموري (صاحب بيسان) اسم غرمبيرت الغرير، وعلى السير هيو اسم القرد، ولقد دعاهم

من قبل على هذه الشاكلة، كما تذكرون، وهؤلاء الوحوش هم حزب رينارد في حكايات حولهم أنفسهم .

٧٣ : وهذه هي القصيدة حول رينارد وتبيان كيف أن زنجريم قد هزمه :

ظل رينارد في حالة حرب لمدة طويلة جداً
أحرقت البلاد وأحدثت فيها الخراب
وقد قام بالكثير من المغامرات
جلبت له المرارة والآلام
ودنا رينارد مراراً من تلقي ضربة مميتة
عندما كمن له زنجريم الذئب وانتظره
وحاصره داخل مالكروز Malcreuse
وهو حصن قوي كان قيد استعمال رينارد
دون أن يكون لديه ما يأكله أو يملأ به الكأس
ووصل إلى حالة صعبة جداً
ولولا أن نبيلاً تولى المباحثات
لواجه رينارد منيته مع رفاقه
غير أن الرب الذي يرسل جميع التبريكات الطيبة
قضى بوجوب إنهاء هذا الصراع
وأن يتخلص رينارد من مآسيه وآلامه .
ومع هذا لم يكن متأكداً من السلام

وظل موسوماً بالضعف والمرض .
وكان رينارد، وغرمبيرت والقرد أيضاً
هناك، ولم يكن من جماعة أخرى أحد :
والذي أحصي مع رينارد في الداخل، مجرد ثلاثة
فقد تخلى عنه رفاقه بالسلاح
وعندما وضع السلم حداً لرعب الحرب
هذا بحق وبكل تأكيد يمكن للمرء
أن يسميه بأقذر أسماء الخيانة
مرة واحدة فقط عانى رينارد من مثل هذه الجرائم
بينما هو نفسه كذب أكثر من مائة مرة .
وجماسته الثلاثة الذين دونت أسماءهم هنا
لم يكونوا على وفاق بين بعضهم بعضاً ولا مع أحد،
بل عقد سلامهم مع زنجريم لوحده
ومع الذئاب الذين ينتمون فقط إليه ويعودون
وهؤلاء الذئاب، كما بينت لك
لم يحققوا كل ما أرادوا تحقيقه
وعندما أرغموا بالقوة على الوصول إلى نهاية
للصراع، رينارد لن يكون مطلقاً صديقهم .
لأنه عندما لعب دور المعالج، كان هو السبب

في وقوعهم في مصيدة بين فكي الذئب
وعندما رماهم في وكر الذئاب :
كانوا سيتألمون كثيراً، ما لم يدفع لذلك غاليا .
بالنسبة لهم أن ينشدوا التعويض لائق وصحيح
الرب يمقتهم لأنهم لم يحبوا انساناً قط!
ظل جالساَ هناك مع مقاصد قتالية حادة،
لم يقم سلامه مع أي انسان .
مولاي الدب، و تيمبرت السنور أيضاً،
قد وعدا بضربه، و بإلقائه إلى الحضيض
و فوق هذا، السير شانتيكليز الديك
الذي هو على رقعة الشطرنج مثل الصخرة تماما،
مرارا مرّ خلال مملكته و اجتاز
و غنى بصوت مرتفع في أغانيه عن مصائد الذئب
و غنى بشعر منظوم لكل من أراد الإصغاء
و حكى كيف جرى قذف جراء الذئب
و أعاد السير شانتيكليز شحذ مهامه
و لو أن أي بارون، هكذا أعلن
سيتجراً بالهجوم على رينارد و الانقضاض عليه
هو— شانتيكليز — سوف يساعده، و يضرب بشده

رينارد الآن في البلاط، كما يمكنك أن ترى،
مبتهجاً، فخراً سوف ينال مع الاحترام .
و من زنجريم اقرب كثيراً :
و تطور به الحال حتى كاد أن يصبح ابن عمه
و قدم التحية لأبناء الذئب واحداً تلو الآخر
و عانق كل واحد منهم عندما التقاه .
و عمل رينارد أعمالاً كثيرة حتى يثير البلاط،
و كان يضحك متصنعا، و يؤدي حركات مبتذلة
و كان لدى توليه رواية حكاياته، غالباً ما كان يسمي
و يعيد تكرار ذكر مجده و عاره :
و كانت كلماته مليئة بالحرب و صوت القتال :
و كان يهذبهم و يشذبهم، و يضيف جراحاً إلى الجراح .
و ألقى الدب عليه نظرة ثابتة
و نظر إليه السير تيمبرت السنور شزرا
و تساءل ما الذي سيقترفه من جديد.
و على سؤاله أجابه شانتيكليز قائلاً : «الآن سوف نرى
فيما إذا كان السير رينارد سيجعل منا أضاحي»!
و تنبه رينارد المرتجف لهذا كله و لاحظته،
و كان يخاف من الدب، الذي في أيام خلت

جعلله يرتعد خوفاً، و يشعر بالويل.
و بتذكرة بسيطة تراه أخذ يرتعد خوفاً .
و من ثم بدأ يتشاور مع ابن عمه غرمبيرت،
و صرخ : «يا بن عمي، الويل لي، إنني على أبواب الموت» !
وازداد ارتفاع ضغطه، و تحول لون وجهه إلى أصفر فاقع:
و كان مرضه المميت اسمه الرعب .
و طلب رينارد مع أهل بيته و ابتغى الراحة
و إلى جانبه و معه ذهب غرمبيرت الغرير
و ذهب أيضاً القرد، أعني السير كوينترو
و ذهب السير ريناردين النمر أيضاً
و إلى هناك قدم مالبرانش و بيرسيهي
و مثلهما هيرملاين، زوجته النبيلة :
لقد جاءوا فرادى وجماعات و اندفعوا إلى جانبه هائجين:
«أخبرنا ياسيدي، ما الذي حل بك الآن من ويلات»؟
و أجابهم قائلاً : «أنتم ترون حالي ، لذا لا تتوقفوا
و اذهبوا الآن و أحضروا لي الكاهن بدون تأخير»!
و عندما سمعت هذه المجموعة الخبيثة كلماته
اعتقدت بدون أدنى شك أنه يقول الحقيقة،
و أنه بشأن موته هو مرعوب تماماً ،

و أن سيدهم الديوي سيكون ميتاً.
لكن هذا كله كان غشاً و خداعاً،
و على الانسان أن يحرس نفسه بعناية أعظم
ذلك أننا نفتقر بلا إرادة إلى ذلك الفن الذي يتقنه
و نحن نعلم، حتى يقلع كل ريشنا من جلدنا
بأن رينارد مخادع حتى بقلعه لريشه
فهو ماهر جداً بكل نوع من أنواع الغش والسرقة،
وهو يفكر ويمعن النظر بكل الشرور
ويبدع مؤامرة ذات خداع هائل،
لأنه بتظاهره بالاعتراف
سينال المغفرة، ويطلب المسامحة
من جميع الناس، بما أنه على وشك الموت
ومن الآخرين الذين يخشون العار أو الخطأ
لابل حتى من الدب الذي ألقاه أرضاً وداس عليه
والذي سدد إليه ما يستحقه وبشكل عادل
أما بالنسبة لتيمبرت ولشانتيكليز أيضاً
نحن نريد أذاه عن قصد معلن، ونبغي سقوطه
وهو يعرف تمام المعرفة أنه مالم يستل سخيمة نفسيهما
طريقه في الحياة لن يكون سليماً ولالينا

بل سيشتهي كثيراً الوقت والمكان
فعندما سيتمكن ثانية من الاستقرار،
سوف يعيد إشعال النار عن طواعية
وذلك عندما سيحصل على الوقت والمكان حسب رغبته .
وهكذا كان ما قاله: « أحضروا لي الكاهن»
كما وطلب إحضار جسد ربنا
وحضر المخلص الآن، لكن كما يمكنك أن ترى
كان السير رينارد معلماً متمرساً بكل أنواع الخداع
والتف صعبه من حوله تماماً ودعموه
وشرع يتكلم حتى يجعل اعترافه بهيجاً :
«أيها المولى، إنني بحضورك المقدس أعترف -
فمنك يأتي كل نوع من أنواع الخير -
إنني أعترف، وأقول بأن زنجريم
لم أحبه قط، ولن أحبه مطلقاً
وعندما أديت اليمين منذ زمن مضى، الرب يعلم
إذا حدث وتفوقت وامتلكت السيادة
ليس بنيتي أن أقدم له معروفاً ثانية
ولن أضفي شيئاً من المعروف على أي من رفاقه
على أنني أكره بمرارة أبناءه الذئاب وأمقتهم

وكذلك أسرته من أساساتها،
ولقد أبديت لهم هذا فيما تقدم من أيام
لكن أرجوك لاتستشري هذه السنة.
فأنا واقع في بؤرة من الشر، وجلب ذلك لي العار،
وقد أخفقت بكل شيء آخر، وأعلن عن توبتي
سيدي الآن زنجريم، الذي سيكون
الرعب والأسف هما مصيري .
وها هنا الآن أيها السادة سيادتي :
وهنا في الحقيقة إخفاق خداعي وسقوطه .
ومعه أولاده الذئاب الصغار في الأمام وفي الخلف .
ويبدو كأنها لم أعرفهم أنا قط .
وبما أنني منذ الآن لن أستطيع إيذاءهم أكثر
من أجل الرب، أتخلّى وأغادر، لأن قواي الآن لاشيء
وشيء واحد لدي، يعطيني راحة كبرى
هو أنهم سوف يحافظون على سلمهم معي بشكل جيد
لكن هل لدي الوقت والمكان وفقاً لرغبتني،
فقد أحرقت نفسي معهم بنار ملتهبة
وأنا بالنسبة لكثيرين قد اقترفت آثاما بغیضة
ومع هذا إنني لم أفلح بآثامي كلها وأحقق رغبتني

ويبقى الرب الذي يعرف قلبي وتفكيري الباطني،
يمكن أن يغفر لي الآثام التي اقترفتها .
بحق الرب، ضربني مولاي الدب ورماني أرضاً
وترك على ظهري العار والشنار مشهوران .
ولئن كنت قد اقترفت بحق تيمبرت كثيراً من الأذى
هو اقترف أولاً بحقي كثيراً من الشرور
ولو جاء شانتكلير إلى هنا بناء على أمرك :
وبحق الرب، لقد سار راكباً خلال أرضي كما يريد :
ولأن أكون متصالحاً معه، سأكون مبتهجاً،
لأن كل ما أعطاه لي كان مجرد آلام كبيرة
إنني أسأحهم، دعهم الآن يتولون مسأحتي
بهاتين اليدين اللتان صفقتا هنا كما ترى .
وإذا لم يكن لدي قوة غير ما سلف وأعطيتني
بناء عليه لن أستطيع إثارة الحرب عليهم أكثر
ومع هذا لئن لم أستطع إمساكهم بأية حيلة
لقد جعلتهم يعرفونها برضا من كل قلبي
وبسرعة أرسلوا رسالة إلى الديك، يقولون فيها
بوجوب قدومه لتقديم المساحة على الفور .
ورد الديك قائلاً : «باسم الرب، دعوه يعرف

أنه إذا مات، فهو معفى من كل لوم
وعلى كل حال، إنني أعرف جيداً علته
فهى لاشيء سوى خداع دنيء، وشرور .
ولو أن مولاي زنجريم حكيماً،
لتعامل معه بالطريقة نفسها والخداع
فقد اعتاد البازيار الاغريقي مع النسر أنه :
إذا ما أطعمه مباشرة وبدون تمييز
سوف يغدو متكبراً ومتعجرفاً مع الجميع،
دعه أولاً يقدم إجابة للنداء .
ويؤلمني كثيراً أنه بسلوكه الشرير
قد نجا عشرات المرات من المصيدة .
أشياء غريبة أثناء عيد الفصح بناء على أوامره
قد اقترفت، عندما تجرأ وبارك وقدس
ومن ثم التهم الحمل ذي الأذنين الطويلتين .
وعلى هذا ليس هناك خطر، ولاسبب للخوف
والآن إذا لم نراقبه ونرصده بأعين حذره
سوف يغشنا ثانية بخداعه»
ولم يتمكن المراسل أن يجعله يقول أكثر،
وهكذا عاد إلى رينارد بدون تأخير

وحكى له كلمة كلمة
الجواب، والرأي الذي سمعه .
وبناء عليه قال رينارد للشهاس :
«إنني سأموت الليلة، أو عند انبلاج الفجر .
وإذا ما تمكنت من النجاة من هذا الانهيار،
يمكنني تحقيق الراحة والهدوء .
لقد سوحت وسوف أسامح الجميع، الرب يعرف
الوقت الذي سوف أبعث فيه من هذه البقعة .
حللني يا سيدي، أرجوك باسم الرب،
لقد أذنبت كثيراً من الذنوب، يا لعاري
حتى لو أنني عشت مائة سنة
لن أستطيع إلقائهم جميعاً في أذنيك»
وأعطاه الراهب التحليل الآن والغفران
لكن ذلك كان على شرط فقط
أن يأتي إليه إذا ما عاد صحيحاً .
وأجابه قائلاً : «سأفعل، وسأذهب إلى آخر أيضاً
هو الذي سوف يتألم كثيراً عندما سيسمع،
لقد وعدت، ولسوف أذهب، وأقول كلمة» .
وبناء عليه تنازل الراهب وأعطاه الغفران

وحصل على ذلك في ساعة مرض
وغادر يسوع، وبقي رينارد حيث هو
مليئاً بالخداع وبفن الشر .
فللشيطان في داخله جزء جبار :
وفيه شرور عظيمة تحت جلده،
لقد كان وسيكون، مادام حياً
خائناً غارقاً في مفاسد دنسة
حتى تذهب روحه الدنيئة والتعيسة .

٧٤ (١٥٤) : بعد عقد المصالحة أعطى صاحب بيروت الجيد
وأولاده كثيراً من الحاجيات الجيدة، والتشريفات العظيمة، ومبالغ كبيرة،
إلى أعدائهم، وأعطوهم خيولاً وملابساً، وأسلحة، وهدايا أخرى، وطلبوا
صحتهم وقد ارتدوا الملابس نفسها، ومتعوا نفوسهم مع بعضهم، ولم
يبقوا في نفوسهم شيئاً مما كان، غير أن أعداءهم اهتموا برغباتهم المجنونة
واعتنوا بها، وما لبثوا أن أظهروا ما في نفوسهم حالما كانوا قادرين على
ذلك، وكان فيليب قد توقع بشكل جيد وصوّر في قصيدته عن رينارد ما
حدث فيما بعد، وتعمد عموري برلياس بقصد شديد وبذل جهوداً كبيرة
لأن يكون بصحبة صاحب بيروت وأولاده وللمشاركة باحتفالاتهم، ودعا
السير بالين بأخيه، وغالباً ما تحدث عن المعركة التي وقعت وعن
الحصار، ولهذا لم يوثق به، لأنه أن يتذكر الانسان عاره بشكل كبير في
ذلك دناءة وانحطاط .

٧٥ : وفي أحد الأيام كان الحضور في البلاط كثيفاً، وكان السير
عموري برلياس وصحبه كلهم هناك بين الحضور ، وكان آخر من دخل
إلى البلاط معاً السير آنسيو دي بري وفيليب دي نوفار، وتورينول، ونظر

السير عموري متمعناً وعن قرب، فوجدهم يتشاورون مع بعضهم، ولذلك استبد به خوف عظيم، وبناء عليه قال بأنه مريض جداً، وأنه محتضر، وبناء عليه خرج من البلاط هو ورجاله، وتوجه إلى بيته، واعترف هناك فوراً وتناول القداس قائلاً إنه قد سامح جميع الناس، وبوده أن يطلب رحمة الرجال الثلاثة المذكورة أسماؤهم أعلاه، لأنه يخاف منهم خوفاً عظيماً، لأنهم لم يكونوا حضوراً أثناء المصالحة، ولم يقسموا على قبول المصالحة حتى الآن، وقد بعث برجال دين إليهم يلتمسون منهم القدوم إليه، وهم لم يرغبوا بالذهاب، لكنهم ردوا عليه أنه إذا ما مات سوف يكون مسامحاً من قبلهم، وقد حدث هذا قبل نظم القصيدة المذكورة من قبل، ولهذا السبب ذكر فيليب هذه القضية في القصيدة .

٧٦ (١٥٦) : وأرسل السير عموري وحزبه رسالة إلى الامبراطور - كما قيل - حدثه فيها عما وقع، وبعثوا بأعذار كثيرة بشأن المصالحة التي صنعت، وبعثوا إليه يخبروه أنهم ما يزالون يملكون لإقطاعاتهم، وفي حوزتهم جزء كبير من البلاد، وأنه إذا ما أرسل إليهم قوة صغيرة سوف يتولون ثانية إخضاع أولئك الذين كانوا هم أعداءه وأعداءهم، وقد قيل بأنهم راسلوه مراراً، وقد وجدوا في النهاية الذي نشدوه (١٣٨) .

٧٧ (١٥٨) : وحدث ذلك في سنة ١٢٣١ أنه عندما تصالح الامبراطور فردريك مع الكنيسة واسترد جميع ما فقدته من أبوليا (١٣٩) ، أن قام هذا الامبراطور، أي فردريك ، الذي كره سورية (١٤٠) وقبرص كراهية كبيرة، فأرسل إلى قبرص وسورية جيشاً كبيراً من باروناته من أبوليا وصقلية، مع جميع الذين كرههم كراهية كبيرة وخاف منهم، وقد قيل توفر في هذا الجيش ستمائة فارس بدون نقص، ومائة من السادة الخيالة، وسبعائة من الجنود الرجالة، وثلاثة آلاف من البحارة المسلحين، وأسطول كبير وجيد من السفن، وسفن النقل، وكذلك اثنين وثلاثين من الغلايين، وكان قائد هذا الجيش هو رتشار فيلنغر، الذي كان مارشال

الامبراطورية (١٤١)، وسمع مولاي صاحب بيروت بهذه الأخبار، وكان آنذاك في عكا (١٤٢)، وقد سمع بقدوم هؤلاء الرجال من رجال سفن الاسبتارية والتوتون التي قدمت إلى عكا (١٤٣)، فبادر لدى سماعه بذلك فجمع قدر ما استطاع من الناس، وأخذ معه شطراً كبيراً من حاميته العسكرية، الأمر الذي أسف له فيما بعد .

٧٨ : وقدم إلى قبرص، واستدعى على الفور جميع الناس إلى حمل السلاح، وقد قدموا إلى ليماسول، وكان أول القادمين ابنه السير بالين ومعه قواته (١٤٤)، وفي الساعة التي وصلوا فيها، وصل أسطول اللومبارد إلى قبرص إلى رأس غافاتا Gafata، القائم قرب ليماسول (١٤٥)، وكان الملك هنري الشاب ملك قبرص ومولاي صاحب بيروت على الطريق، وعندما سمعوا بالأخبار بادرا مسرعين إلى هناك، ولهذا عقرت خيول كثيرة، ومع ذلك عندما قدما مسرعين جداً، وعندما احتشدوا مع بعضهم، كان هناك عدد كبير من الناس على الخيول وعلى الأقدام، وقد انتظموا بصف رائع، وتوفر هناك من الأصدقاء ومن الأعداء حوالي الخمسمائة فارس، وكان هناك أيضاً أعداد كبيرة من السادة الخيالة والتوركبلية .

٧٩ : وخاف اللومبارد منهم، ولم يتجرأوا على النزول، ولأن الشاطئ كان مدافعاً عنه بشكل جيد لم يتمكنوا من السيطرة لاعلى الأرض ولا على الماء، وجرى تبادل العديد من الرسائل بين الطرفين (١٤٦)، وحافظ مولاي صاحب بيروت دوماً على الاستقامة أمامهم، وتكلم بتواضع كبير، حتى أن رفاقه غضبوا من ذلك، وتشاور اللومبارد والسير عموري برلياس مراراً فيما بينهم، وكان ذلك في أثناء الليل، وكان ذلك معروفاً بشكل جيد، وكان من الممكن إخضاعه للاستجواب بسبب ذلك لو توفرت الرغبة بذلك، لكن السيد النبيل لم يسمح بذلك، وقال من الممكن أنه كان يتحدث خيراً، أو أنه كان يتحدث شراً، وأنه رغب

باقتراف الشر، فإنه لن يفعل ذلك حتى يتضح تماماً أنه حنث بيمينه وخرق المصالحة، لأنه (أي الإيليني) إذا ما أراد اتخاذ إجراء بناء على معطيات هي كلمات فقط، فسيقال بأنه حنث بيمينه، لأنه هنالك فرق كبير بين الكلام وبين الأفعال، ولم يستطيعوا زعزعته عن قراره، ولهذا تقرر بالفعل وجوب قتل (برلياس) في خيمته في الليل أثناء وجوده في فراشه، وخشي صاحب بيروت من هذا الأمر، ولهذا أخذه إلى بيته ليقيم، وأمر بحراسته هناك بشكل جيد .

٨٠ (١٥٩) : وعرف اللومبارد أنهم لن يتمكنوا من النزول إلى الياسة بسلام، لهذا انتظروا وقتاً مناسباً (١٤٧)، وغادروا من هناك خلال الليل وذهبوا مباشرة إلى بيروت، وأخذوا المدينة على حين غرة، واستسلم الأسقف إليهم، وكأنه كاهن جبان (١٤٨)، وحاصروا القلعة (١٤٩)، وشدّدوا الحصار عليها عن قرب، ووجدوها تفتقر إلى الرجال، لأن صاحب بيروت لم يتخذ حذره تجاه هذا، وحمل الجزء الأكبر من الحامية العسكرية إلى قبرص، وقد عرف اللومبارد بهذا عندما كانوا في قبرص، ولهذا السبب قرروا الذهاب إلى بيروت، وكانت القلعة مزودة باللحوم بشكل جيد، وبالخمور وبالسلح، لكن عدد الرجال فيها كان قليلاً، وكان لدى اللومبارد العديد من الجنود والمهندسين، والخشب الصالح للبناء والحديد والرصاص، وكل ما هو ضروري لصناعة الآلات الحربية، ولهذا صنعوا من الآلات ما هو كبير وما هو صغير، وهاجمت هذه الآلات القلعة بشدة .

٨١ : وكان معهم خائن اسمه دنس، وكان قائداً عسكرياً لدى صاحب بيروت، وسيداً لكل القلعة، ويعرف تمام المعرفة نقاط الضعف عند الناس، وقد بين لهم كيف يركزون الآلات حيث يكون هناك ضرراً أعظم، وقد نال بالنهاية جزاءً وافياً، حيث علق من رقبتة وشنق بمشابة خائن، وأطبق المحاصرون على القلعة، لأن المدافعين عنها كانوا قلة، وتم

الاستيلاء على خندق القلعة، الذي كان واحداً من أجمل الخنادق في العالم، وأقاموا عند قاعدة الخندق شارعاً مغطى تماماً مع برج عظيم من الخشب، ولغموا القلعة في كثير من الأماكن، وبنى اللومبارد خارج القلعة في مكان يدعى كوفور Chaufor قلعة من الحجارة، فوقها قلعة من الخشب كانت أعلى من القلعة وقد كشفتها كلها، وسببت أضراراً عظيمة للذين كانوا في الداخل، وهذه الخطة نفسها جرى إرسالها من قبرص، مع نصيحة بوجوب أن يفعلوا ذلك، لأن الخائن الذي بعثها كان يعرف أن صاحب بيروت كان يخشى كثيراً من هذا المكان المرتفع (١٥٠).

٨٢ (١٦٠) : ووصلت الأخبار إلى قبرص، بأن القلعة تحت الحصار، وأن الشتاء كان قاسياً، وجاء صاحب بيروت إلى البلاط، ومثل أمام الملك هنري الشاب، الذي كان مولاه وكان بالوقت نفسه ابن أخته، وامتلاً البلاط بعدد كبير من الناس، من أصدقاء وأعداء، ونهض ووقف على قدميه - كان من عادته أثناء الجلوس وضع ساقيه على بعضهما - ولأنه كان يعرف ما الذي عليه فعله، فقد تكلم بصوت مرتفع، وتوجه نحو هدفه بقوله: « سيدي، إنني لم أحاول قط أن أمتن عليك من أجل خدمات أسرتي نحو أبيك ونحوك، والآن لا بد أنني الآن محتاج لأن أفعل ذلك، ولسوف أقارن نفسي - مع أنني قد لا أكون جديراً بذلك - مع وليم أوف أورانج، الذي عندما احتاج إلى نجدة حفيده في كانديا Can-dia، امتن على مولاه الملك لويس من أجل الخدمات التي قدمها له » (١٥١) .

٨٣ : « ويمكنني أن أقول، ولدي الكثير من الضمانات من أجل ذلك والشواهد أنه بوساطتي وبوساطة أسرتي صار والدك سيداً وتملك البلاد، ولولا أننا أيدناه لكان قد حرم من الميراث أو مات، وعندما نزل به قضاء الله، كان عمرك تسعة أشهر فقط، وقد رعيناك، أنت وبلادك - شكراً للرب - حتى هذا اليوم، ولم نتخل عنك أبداً عن طواعية، ولم

نتركك لوحداك لأن دوق النمسا أراد حرمانك من ميراثك (١٥٢)، وكنت مرتين في وضع سيء أو أسوأ، ولو رغبتنا أن نتخلى عنك وعن مملكة قبرص، وعن مملكة سورية لأمر الامبراطور بإعطائنا ملكية بيروت بسلام» .

٨٤ : « والذي حدث الآن أن اللومبارد قد استولوا على مدينتي، وهم يحاصرون قلعتي ويطوقونها عن قرب، وهي مهددة بالفقدان، وبذلك نكون أنفسنا وجميع رجالنا السوريين قد جردنا من أملاكنا، وبناء عليه أتوسل إليك، فأستحلفك بالرب وبشرفك، ومن أجل خدماتنا الكبرى، ولأننا من دم واحد، وقد تغذينا من أرض أم واحدة، وأرجو منك أن تأتي معنا، كما ألتمس الشيء نفسه من الآخرين الذين هم هنا بين الحضور، بحكم أنهم أخواني وأصدقائي المقربين، وأتمنى أن تقوموا شخصياً مع قواتكم بالذهاب معي للتفريج عن قلعتي»، وهنا توقف صاحب بيروت عن الكلام، وجثا وكأنه يريد أن يقبل قدمي الملك، فانتصب الملك واقفاً على قدميه، وجثا الآخرون جميعاً، وقال الملك، وقال الآخرون كلهم أنهم يوافقون عن طواعية، وأنهم يضعون أجسادهم وما يملكون تحت تصرفه وفي خدمته (١٥٣)، وشكرهم صاحب بيروت كثيراً، ثم انتصب واقفاً هو وجميع الآخرين على أقدامهم، لأنهم كانوا ما يزالون جاثين على أقدامهم .

كيف قدم صاحب بيروت ومعه القبارصة من نيقوسيا إلى فيياغوستا للعبور إلى سورية

٨٥ (١٦١) : وتمت الرحلة بدون إبطاء، وحدث هذا في حوالي موعد عيد الميلاد (١٢٣١)، وبسرعة وصلوا إلى ميناء فيياغوستا، وكانت الأحوال الجوية سيئة جداً، وقاسية إلى أبعد الحدود، حتى أنهم اجتازوا سهل فيياغوستا بكل صعوبة وفقدوا أشياء كثيرة على الطريق، ومكثوا مدة طويلة في الميناء بسبب سوء الأحوال الجوية، وانطلقوا أخيراً

لدى انتهاء موسم الاضطراب، ومع موعد تحول القمر (١٥٤)، ولم يدعوا ولا قائداً واحداً في قبرص، وتكلم الناس حول هذا كثيراً، وأعلم فيليب دي نوفار صاحب بيروت بذلك، وقال له هناك كلام كثير حول هذا، وقد ردّ عليه بقوله: «إذا لم أبدأ الآن، أعرف تماماً أن القلعة ستفقد وسيتبع ذلك خسارة البلاد كلها، ولئن منحني الرب نعمة العبور، كل شيء سوف يتم استرداده، وسيكون هناك مجد عظيم، وإذا قدر الرب أن أموت، ليكن ذلك على الطريق، لأنني أفضل أن أموت قبل أن أعرف خسارتي، وليس بعد ذلك، وأفضل ذلك دوماً - بقضاء الرب ورضاه - على أن يحدث في أيامي فقدان لأرضي أو لبلاد مولاي» .

٨٦: «ويلومني بعضهم لعدم تركي قائداً واحداً في قبرص، سوف أخبرك لماذا (١٥٥)، ربما قد أترك الشخص الذي يمكن أن يربح كل شيء حيث نحن الآن ذاهبون، ولقد حدث مراراً، أنه برجل نبيل واحد قد نيل كل شيء، وبفقدان رجل نبيل واحد تم خسران كل شيء، ونحن ذاهبون وفق طريقة، وإلى مكان يقتضي أن يكون كل واحد منا على ظهر السفن، وإذا ما انتصرنا، لن تحتاج قبرص إلى قادة، وإذا ما خسرنا، سينتهي كل شيء معنا، والقائد الذي سيكون في قبرص، سيصمد هناك لوقت قصير، ولسوف يهلك بعد ذلك، لأنني لا أعرف مكاناً في كل العالم المسيحي يمكنه أن يجد فيه ملاذاً، ولهذا السبب لا أرغب ببقاء واحد من أسرتي أو ممن يحمل اسم إيبيلين، وإذا ما انتصرنا فكل واحد سينال نصيبه في المجد والمرباح، وإذا ما خسرنا سوف نموت جميعاً في سبيل الرب، وفي سبيل حقوقنا في أملاكنا، فهنا ولد معظم أقبائني، وهنا سوف يموتون» .

٨٧: وأصغى فيليب دي نوفار جيداً، وبرغبة لهذا التعليل، وتركه وابتعد عنه وكرر كل ما سمعه لكثير من الناس الذين كانوا ينتظرونه في الخارج، وبناء عليه قال كل واحد وردد بأعلى صوته: «ما قاله صواب،

هذا الرجل النبيل، دعونا نذهب في سبيل الرب»، وحاول الأعداء الذين سميتهم من قبل (١٥٦)، وهم الذين كانوا معهم تحت غطاء المصالحة والحب، وسعوا جاهدين بوساطة الخداع تسييب التأخير، وفكروا بالاعتصام في قلعة كاستري Castrie التي عادت ملكيتها للداوية، وغالباً ما روي هذا لصاحب بيروت، وأشير بضرورة إلقاء القبض عليهم، لكنه لم يرغب قط في أن يفعل ذلك، وقال دوماً بأنه يرغب بالانتظار حتى تظهر شرورهم وتبات معروفة وواضحة، ووقتها سوف يقدم مولانا العون للحق .

كيف عبر القبارصة البحر بأمن وسلام ووصلوا إلى ميناء القسطلان في طرابلس

٨٨ (١٦٢) وغادر الجميع معاً أثناء الليل، ما بين أصدقاء وأعداء، وكانت الأحوال الجوية سيئة والأمطار غزيرة، فهذا ما قضاه الرب، وقد ساقتهم الأحوال الجوية إلى ميناء القسطلان في طرابلس (١٥٧)، وقد وصلوا إلى ذلك الميناء بأمن وسلام وهرب من هناك الأعداء الذين ذكرت أسماؤهم من قبل مع حاشيتهم، وكان تعدادهم ثمانين فارساً، وقد ذهبوا للانضمام إلى الحزب الآخر، أي إلى بيروت للإلتحاق باللومبارديين (١٥٨)، وعبر معظم الجيش عن استيائه، وانزعج بعض الناس كثيراً، وخاف عدد كبير من الشعب بسبب ذلك، وأقام مولاي صاحب بيروت احتفالاً كبيراً مظهراً رضاه بالذي حدث، وقال بأنه الآن يشعر هو بالأمان وبأن رجال شعبه قد تخلصوا من الخونة وتحرروا منهم، وبين أنه يفضل أن يواجههم بالقتال، وأن يجدهم أمامه لاخلفه، لأنه كان ينتظر طوال الوقت الذي تبعوه فيه، أن يقوموا بضربه ما بين كتفيه، والآن بما أنهم غدروا تجاه مولاهم، وبما أنهم تخلوا عنه في الميدان، وكانوا حائثين للعهود نحوه ونحو رجاله، لم يعودوا هم القوم الذين كانوا بالضرورة يخشاهم، ولهذا فإنه يرى في هذا العمل مربحاً كبيراً له، وخسارة عظيمة

للحزب الآخر .

٨٩ : وانطلق الآن صاحب بيروت وجماعته عبر البر وأسطولهم عبر البحر، ووصلوا في اليوم الأول إلى البترون، وتلقوا هناك أضراراً بالغة لحقت بسفنهم، لأن الميناء كان سيئاً، وقد دفعتهم الأحوال المناخية السيئة وجرفتهم، ولهذا غرقت غالبية سفنهم أو جنحت، وكانت البقية في حالة سيئة جداً، ومع هذا انطلق الناس من هناك، وركبوا وساقوا وسط الأمطار والأحوال الجوية السيئة، وساروا خلال شعاب منزلقة خطيرة، وعلى حواف وديان فائضة بالمياه على أطرافها، وعبروا ممر الكفار، وبممر نهر الكلب (١٥٩)، الذي كان خطيراً جداً حتى يمكن عبوره، وهكذا ناضلوا حتى وصلوا بالقوة والحكمة إلى نهر بيروت، وعبر الذين كانوا في قلعة بيروت عن سرور عظيم وأضاءوا إضاءات كبيرة عندما رأوهم، وكانوا بحاجة كبيرة للنجدة، لأن القلعة كانت قد لغمت إلى حد أنها أخذت تتساقط إلى قطع، وسببت لهم قلعة كوفور أضراراً هائلة (١٦٠) .

٩٠ (١٦٣) : وانتشرت الأخبار في أرجاء سورية بأن صاحب بيروت قد جاء للتفريج عن قلعته، وما أن سمع بهذا ابن أخته صاحب قيسارية الشاب، وكان وقتذاك في عكا، حتى وعد بمنح إقطاعيات، وقدم أعطيات كريمة، فحشد جيشاً بقدر ما استطاع، وقدم مسرعاً لتقديم العون إلى خاله وإلى أولاد خاله (١٦١)، وجاء بطريق القدس، وكذلك مقدما الداوية والاستتارية، وصاحب صيدا، وقسطلان المملكة للتوسط للمصالحة (١٦٢)، ولدى المرور من أمام صور كان هناك اشتباك فيما بين صاحب قيسارية والحامية العسكرية للمدينة، ذلك أن صاحب صيدا كان قد سلم صور إلى اللومبارد بناء على أوامر من الامبراطور (١٦٣)، ودفعهم صاحب قيسارية حتى أدخلهم إلى قلب أبواب المدينة، ونظر إلى قدومه بسرور عظيم من قبل الجيش، وأن هذا القدوم مفيد جداً، وتحدث اللوردات الخمسة المتقدم ذكرهم عن السلام،

لكن ذلك لم يتحقق (١٦٤)، واستمرت الأحوال الجوية السيئة لمدة طويلة، وكان في المعسكر عوز عظيم للأطعمة وللشعير، لهذا أكلت الخيول كلها تقريباً القصب فقط، وتوفر القليل من الخيام ، ذلك أن معظمها قد فقد في الأسطول الذي تحطم أمام البترون، وكان اللومبارد يشعرون بالراحة والاطمئنان، وتوفر لديهم الكثير من الأطعمة والحاجيات مع بيوت مريحة داخل المدينة .

٩١ (١٦٤) : وخرج اللومبارد في صباح أحد الأيام باكراً، وتقدموا على شكل صفوف قتالية، وزحفوا حتى طرف النهر، الذي كان عريضاً جداً هناك، ولولا أنه كان عريضاً إلى هذا الحد ما كانوا ليخرجوا من المدينة على هذا الشكل، ومكثوا طوال النهار هناك على هذه الشاكلة، وذلك حتى حلول الظلام، حيث أرغموا على العودة، وتحسنت أحوال المناخ، ومال نحو الهدوء، وانخفضت مياه النهر، وبناء عليه عبر جيش الملك هنري وجيش صاحب بيروت النهر، وزحفوا حتى وقفوا أمام مدينة بيروت، على شكل صفوف معبأة، وقد انتشروا حتى الخندق، وجرى هجوم ضعيف أقلع به الذين كانوا في المدينة، لكنهم ردوا بكل عنف وصدوا عائدين إلى داخل المدينة، ورتب الذين كانوا في داخل المدينة أنفسهم أمام الحصار، وتقاسموا مهام الدفاع، وتمركز الأعداء الذين تخلوا عن الملك وعن مولاي صاحب بيروت، والتحقوا بالحزب الآخر - أي اللومبارد - في أحد جوانب المدينة حيث كان هناك برج كبير، ولهذا السبب غالباً ما دعي هذا البرج فيما بعد باسم «برج الخونة»، وذلك صدوراً عن خيانة أولئك الذين تخلوا عن مولاهم في ميدان المعركة .

٩٢ : واتخذ اللومبارد احتياطات للحراسة كبيرة من جانب البر، وكذلك من جانب البحر، حتى لا يتمكن أحد من الدخول إلى القلعة، وأعدوا غلايينهم، وربطوهم بسلسلة عظيمة من الحديد، وصفوهم بشكل جيد جميعاً من حول القلعة في داخل البحر، وتركوا ممرّاً واحداً

ضيقاً يمكنهم الدخول منه والخروج، وفتش صاحب بيروت في كل ليلة عن رجال تحت السلاح، أمكنه أن يرسلهم سباحة إلى القلعة، وغطس بعضهم تحت الغلايين، وسبحوا عراة حتى دخلوا إلى القلعة حيث وجدوا هناك اللباس والسلاح والطعام بكميات عظيمة، فالحاجة توفرت في داخلها إلى الرجال فقط للقتال وإلى القادة، وكان عدد الذين عبروا إلى القلعة ليس كافياً حتى يتمكنوا من الدفاع عن القلعة، وبناء عليه أعد صاحب بيروت خطة في أن يقوم أحد المراكب خلال الليل بالعبور، ووضع في داخله واحداً من أولاده، الذي كان يدعى السير جون أوف فوغيا، وذلك للسبب الذي سمعته من قبل، وقد أصبح فيما بعد صاحب أرسوف (١٦٥)، وقسطلان مملكة القدس، وكان وكيلاً عدة مرات (١٦٦)، وكان حكيماً ولائقاً، وكان مع جون هذا مائة من الرجال المسلحين، وفرساناً وسيرجنديّة، وسادة، وكانوا جميعاً من آل البيت الإيليني وأتباعه.

٩٣ : وغضب ابنه الأكبر بالين غضباً شديداً، لأنه كان أسن من أخوانه، ووجه النقد لأبيه لأنه لم يدعه يذهب، وقال بأنه الوريث (ولي العهد) وهناك سبب عظيم بالنسبة له لأن يذهب هو وليس الآخر، وغالباً ما عرض السير بلدوين نفسه وكذلك فعل جميع الآخرين، وكانوا غضاباً جداً لأنه لم يرغب بارسالهم، وقد رد عليهم بأنه يحتاجهم أكثر في الخارج وليس في الداخل ، لأنه كان ينتظر المعركة من يوم إلى يوم، وهكذا جعلهم يهدأون، وما أن علم الأتباع الآخرون في الجيش بخطة العبور حتى بادروا إلى هناك متسابقين، وكانوا من الكثرة بمكان إلى حد أن المركب طفا بصعوبة، وأمر صاحب بيروت هؤلاء جميعاً بالمغادرة، وشكرهم شكراً عظيماً، وكان أفراد أسرته والغرباء مرعويين جداً من العبور بين الغلايين والدخول إلى القلعة، ومن ثم تولي الدفاع عنها، ووضح في هذه القضية مثلاً وضح في قضايا أخرى أن ما من إنسان

أحب شعبه مثلما فعلوا، وكان المركب مليئاً بالناس حتى أن الماء وصل إلى حوافه، وعندما وصلوا إلى مدخل الطريق الضيق الذي ذهب اللومبارد من خلاله إلى غلايينهم، لاحظهم الذين كانوا في الغلايين وعرفوهم، فأصدروا صرخات مدوية، ووجهوا نحوهم رمايات كثيرة .

٩٤ : وبفضل الرب اجتازوا الممر، ونجوا من الغلايين، ووصلوا إلى صخرة تحت القلعة، ونجوا من الغلايين، ولم يعرف الذين كانوا في القلعة شيئاً عن قدومهم، ورموا عليهم بالحرايب، وأمطروهم بالنشاب، لذلك عانوا كثيراً، لكنهم في النهاية عرفوهم واستقبلوهم بفرح عظيم، مع أنوار هائلة، وكانوا عندما صدرت الأصوات العالية من الغلايين وقت عبورهم من بينها، ألقى صاحب بيروت بنفسه على الأرض على شكل صليب باتجاه الشرق، وصرخ : رحمة يارب، وعندما رأى الأنوار على القلعة، وشارات دخولهم، قدم بتواضع شكره للرب، وفعل جميع الذين كانوا في الجيش مثلما فعل، وبعدما دخل ابن صاحب بيروت إلى القلعة ومعه عدد كبير من الرجال الجيدين، شرعوا بالدفاع عن أنفسهم بفعالية أعظم، وحفروا ممرات لغم مضادة للغامي العدو وأعادوا الاستيلاء على الخندق بالقوة، وأحرقوا الشارع الذي صنعه اللومبارد وغطوا به الخندق، وبعد هذا قام الذين كانوا في القلعة بأعمال انقضاض شجاعة، وربحوا أشياء كثيرة من الذين كانوا بالخارج، وأحرقوا عدة آلات حصار .

٩٥ (١٦٥) : ثم تيقن صاحب بيروت وعرف أن قلعته باتت في وضع دفاعي جيد، لكنه لم يكن قادراً مع الرجال الذين كانوا بصحبته على رفع الحصار، وإنزال الهزيمة بأعدائه، الذين كانوا متفوقين عشرة لواحد، ولم يكن يخشى عددهم، وكان راغباً في قتالهم، غير أنهم كانوا داخل المدينة التي كانت محصنة بشكل جيد ولها أسوار ممتازة، وكانت لديهم السيادة على البحر، لذلك فكر في قرارة نفسه بالذهاب إلى عكا

ومن ثم تأمين عدد كبير من الجنود الرجالة مع أسطول كبير، حيث لم يكن لديه أسطول، كذلك بعث بابنه السير بالين إلى طرابلس مع الملك الشاب هنري، وفوضه تماماً للترتيب لزواج وعقده فيما بين أخت الملك وابن الأمير (١٦٧)، وبإعطائه إقطاعيات كبيرة في قبرص وقت الزواج، وذلك في سبيل أن يقوم الأمير بمساعدتهم بفرسان وبسفن وبرجال تحت السلاح، وكان الحديث حول هذا الزواج قد بدأ منذ زمن طويل مضى، وهكذا نفذ ما فكر به، لكنه جعل الذين في القلعة يعرفون بذلك حتى لا يضطربوا لذهابه، وأنه يمكن أن يعود في أقرب وقت ويجلب معه خلاصهم، وأجابوه بأن عليه الاحتياط أثناء ذهابه باسم الرب وليكن مطمئناً أنهم سوف يدافعون عن أنفسهم بشكل جيد بعون مولانا وعون أنفسهم، وهكذا فعلوا .

٩٦ (١٦٦) : وعندما غادر مولاي صاحب بيروت، وترك الحصار، انطلق ابنه السير بالين إلى طرابلس، وذهب معه السير وليم فيزكونت (١٦٨)، الذي كان رجلاً عاقلاً، وبناء على الرأي الشخصي لمولاي صاحب بيروت، كان هو الذي بدأ المباحثات من أجل هذا الزواج، وكان قدولد في طرابلس، وفيليب دي نوفار، الذي لم يفارق قط (بالين) ذهب إلى هناك، كما فعل آخرون كثير، وكانت العوائق التي اجتازوها والممرات الصعبة كثيرة، وكذلك عبروا كثيراً من الأنهار العريضة، وقد مروا أمام جبلة، التي عادت بملكيتها إلى الحزب الآخر، وزحف الجنود طوال الليل خلال الجبال، ومع هذا فبفضل الرب شقوا طريقهم، ووصلوا إلى طرابلس، حيث عسكروا خارج المدينة في بيت الداوية، الذي دعي باسم مونتكوكو Montquocu، واحتفى بهم أمير طرابلس وأولاده كثيراً، وكان ذلك في البداية، وتباحثوا في كل يوم حول الشروط وحول موثاق الزواج، وأيضاً حول المساعدة التي طلبها صاحب بيروت .

٩٧ (١٦٧) : وبات معروفاً في ذلك الحين في طرابلس أن جيش

القبارصة قدغادر بيروت، حيث توفر عدد كبير من الناس قد اعتقدوا بأن كل شيء قد ضاع، وهكذا بردت حرارة مباحثات الزواج بشكل ملحوظ غير أنها استمرت، وركب السير بالين في أحد الأيام ومعه جماعته وساروا نحو «تلة الحجاج» (١٦٩)، لمقابلة الذين كانوا يتولون أعمال الإعداد للزواج، ولدى عودتهم وجدوا باب مونتكوكو Mont- quocu مغلقاً في وجوههم، وقال رجال الداوية لهم بأن سبب هذا تجنب التعرض للاهانة من قبل الناس المؤيدين للامبراطور، وبعث السير بالين رسالة طلب فيها المأوى في بيت فرسان الاستارية، وكذلك من البوليو Beaulieu الذين كانوا رهباناً سسترشانيين (١٧٠)، وأيضاً من الذين شغلوا تلة الحجاج، التي عادت ملكيتها إلى أسقف بيت لحم، وقد ردت كل فئة من هؤلاء مثلما جاء ردّ الداوية، وكان في طرابلس فارساً شغل وظيفة نائب أسقف طرابلس آنذاك، وقد تولى إسكانهم في حظيرة للأبقار عادت ملكيتها لكنيسة الأسقف المذكور، وكانت تعرف باسم مخزن الأسقف، وكانت قائمة خارج باب طرابلس، وجرى إعداد البيت للسير بالين وتنظيفه وفرشه بقدر الممكن .

٩٨ : وحدث الآن أن مقدم اللومبارد، كان يعرف تماماً سبب وجود السير بالين أمام طرابلس، فصنع رسائل مزيفة كأنها مرسلّة من الامبراطور، وكتبت هذه الرسائل في صور على رقّ إسلامي، وقد ختمت بختم الامبراطورالذي كان لديه، وجاء في هذه الرسائل بعد تقديم أعلى أنواع التحيات، أنه يرجو من أمير طرابلس وأولاده بحكم كونهم أقرباء أعزاء، ورجالاً مخلصين، أن لا يمنحوا الملجأ إلى أعدائه وأن لا يقدموا أية قوة أو أي عون، وبعث الأمير وأولاده هذه الرسائل إلى فيليب دي نوفار، مع مذكرة أخرى مكتوبة جاء فيها كلمات قالت في تراكيها: «الأناس الطيبون لا يميلون إلى الشر»، وجاء في نهاية هذه المذكرة ملاحظة فيها رجاء لفيليب دي نوفار أن يري هذه الرسائل إلى السير بالين ورجاله،

وأن يبين عذرهم، وكان قد حدث أن قام أمير طرابلس فيما مضى بمنح إقطاع إلى فيليب المذكور، وقد منحه إياه بمبادرة منه وكرم، ذلك أنه كان كريماً مع كل إنسان، وقد أحبه فيليب وقدر عالياً مبادرته نحوه، غير أنه لم يرغب بالاحتفاظ بالاقطاع، ولا الخدمة من أجله، ولم يكن لهذا معجباً بما طلب منه، ومع هذا قرأ الرسائل لمولاه وأخبره بجميع هذه الأشياء، وقام بدون معرفة مولاه بنظم مقطوعة بسيطة وبعث بها إلى الأمير هي التالية :

أيها الناس الأشرار الموسومون بالجن

أنا لن أقبل به، مهما كان الثمن

وأن يقول الناس لا، عندما يتحدثون عنكم ...

٩٩ (١٦٨) : وعانى السير بالين وصحبه في مخزن أسقف طرابلس من كثير من الآلام والحزن، والأذى، ولم يكن بإمكانهم المغادرة، لأن الطريق قد أغلق أمامهم وكان محروساً بشكل جيد من كل من البر والبحر، ولهذا كان أن بعث إلى سلطان دمشق (١٧١) يطلب منحه مع رفاقه أماناً ومساعدة حتى يتمكنوا من المرور خلال بلاد الكفار، ومن ثم يذهب إلى عكا، ومنحه السلطان ما طلبه بترحاب، لكن الأمور التي وقعت فيما بعد جعلت ذلك غير محتاج إليه، وكان السير برتراند بورسلين زوج والدة السير عموري (١٧٢) مع مجموعة من الرجال العائدين للسير هيوج صاحب جبلّة موجودين في بلاد طرابلس، وغالباً ما اعتادوا على السير وهم على ظهور خيولهم حول مقر السير بالين ورفاقه، وكانوا آنذاك يشيرون بأصابعهم إشارات تهديد (١٧٣)، ذلك أنهم كانوا ينتظرون من يوم إلى يوم وصول غلايين اللومبارد، وأملوا أنهم سوف يتمكنون وقتها من أسر السير بالين ورجاله، وقتلهم في ذلك المقر، وهكذا عانى السير بالين وصحبه من هذا التهديد.

١٠٠ (١٦٩) : وحدث أنه عندما قام جيش القبارصة بمغادرة بيروت، أن أعلن اللومبارد بأن جيش قبرص قد فرّ، وبناء عليه بعثوا إلى قبرص السير عموري برلياس، والسير عموري صاحب بيسان، والسير هيوچ صاحب جبلة ورجاهم، والكونت رتشارد الذي كان من اللومبارد، وقد استولى هؤلاء على جزيرة قبرص فيما عدا قلعة ديودامور، حيث اعتصم أخوات الملك وشعب البلاد، وبعد هذا استولوا على سيرينا، وقبل أن تسقط سيرينا كان السير بالين دي إيبيلين قد أعد بشكل سري جداً، أن يقوم الجنوبيون، الذين قدموا إلى طرابلس في مركبين طويلين، بالالتحاق بخدمته وأن يصبحوا من رجاله، وقد أعطاهم إقطاعيات، وعقدوا معه ميثاقاً بأنهم سوف ينقلونه إلى قبرص، ووافقوا على أنه إذا ما استطاع المغادرة سوف يتمكن من غلبة الذين كانوا في قبرص وإخضاعهم، وعلم أمير طرابلس بالأمر، فاعتقل الرجال والسفيتين بالقوة، ومنع مغادرتهم (١٧٤).

١٠١ (١٧٠) : ولسوف تسمع الآن أخبار مولاي صاحب بيروت، الذي كان قد ذهب إلى عكا، وقد تولى عرض الأمور، وأظهر منطقاً عظيماً إلى شعب البلاد، الذي خاف من تسلط اللومبارد، وأن ذلك سوف يجلب الدمار إليهم، وبناء عليه جعلوه مقدم «كومونة» عكا (١٧٥) والتحق الجنوبية عن طواعية ورغبة به، ودفعهم إلى هذا حبهم الشخصي له، ولأن الامبراطور فردريك كان قد بعث بأوامر إلى سورية قضت بوجوب اعتقالهم شخصياً مع بضائعهم (١٧٦)، وبذل صاحب بيروت جهوداً عظيمة حتى تمكن من تأمين أسطول كبير (١٧٧)، ووصلت أخبار هذا إلى اللومبارد، فبادروا إلى إحراق آلاتهم وتخلوا عن حصار بيروت، وهربوا مجلّين بالعار، من هناك، إلى صور .

١٠٢ (١٧١) : وعندما باتت هذه الأخبار معروفة في طرابلس، وجد السير بالين المزيد من الأصدقاء، وحصل على أمان العبور، وبناء

عليه سافر من هناك وتوجه إلى بيروت، فوجد المكان قد تعرض لتخريب كبير، ولهذا حزن وشعر بأسف عظيم، لكنه استقبل ببهجة عارمة وبتحيات حارة، وانتظر هناك أوامر مولاي صاحب بيروت، أي أوامر أبيه .

١٠٣ (١٧٢) : وأقلع الملك هنري وصاحب بيروت وجميع جيش القبارصة من عكا باتجاه قلعة ايمبرت (١٧٨) ، وقد سمعوا بأخبار التفريج عن بيروت، ولذلك أقاموا هناك وانتظروا للتشاور حول ما ينبغي أن يفعلوه (١٧٩) ، ووصل إليهم في اليوم التالي بطريك أنطاكية الحائن، الذي كان من اللومبارد (١٨٠) ، وكان قد اجتاز بمدينة صور، وتحادث هناك مطولاً مع اللومبارد، وجعل من المفهوم من قبل الملك هنري وكذلك من قبل صاحب بيروت، أنه يمتلك صلاحية كاملة وتفويضاً من قبل اللومبارد، لإقامة صلح فيما بينهم، وأن الصلح الذي يعد له سيكون لتمجيد الملك وصاحب بيروت والقبارصة والسوريين ، ويتمشى مع رغباتهم، وقام الرجال النبلاء، الذين لم يرفضوا قط مصالحة معقولة، وهم الذين أقاموا المصالحة من قبل عن طواعية في وقت امتلكوا فيه التفوق، لقد قام هؤلاء باتباع البطريك إلى عكا، وقد تشاوروا معه وتناقشوا، كما لحق به بعض خيرة رجال الجيش وأفضلهم، وكان جزء كبير من الجيش مايزال في عكا، ولم ينطلق بعد لالتحاق بالذين تقدموهم، وكان الأسطول مايزال بالميناء بسبب الأخبار التي سمعوها عندما وردت من بيروت .

١٠٤ (١٧٣) : وكان الملك هنري قد بقي في قلعة ايمبرت داخل معسكره مع عدد قليل من الرجال، ومع هذا كان معه الأولاد الثلاثة لمولاي صاحب بيروت أي: السير بلدوين، والسير هيوغ، والسير غي، الذي صار فيما بعد قسطلان قبرص (١٨١) ، وكان غي هذا رجلاً نبيلاً وشجاعاً، كما كان هناك السير جون دي إبلين، الذي غدا فيما بعد

كونت يافاء، وكان وقتها فارساً جديداً، له من العمر سبع عشرة سنة فقط، وكان هناك أيضاً السير آنسيو، الذي كان قائداً للجيش في مكان مولاي صاحب بيروت، وكانوا معسكرين بشكل سيء، واحد هنا، وواحد هنا، دون أن يخشوا أحداً، وفي الحقيقة كانوا قد قالوا بأنهم ذاهبون للاستيلاء على صور .

١٠٥ : وتجسس اللومبارد الذين كانوا في صور عليهم، وعلموا أنهم كانوا معسكرين بشكل سيء، وأنهم كانوا يتكونون من حفنة من الرجال فقط، ولهذا انطلقوا من صور وقت حلول الظلام، وجلبوا معهم شعب صور بالقوة، وكانت الأحوال الجوية جيدة في البحر، وقد جاءوا على ظهر اثنين وعشرين من الغلايين، ونزلوا عند قلعة إيمبرت، وهاجموا جيش القبارصة خلال الليل ووجدوهم نياماً وغير مسلحين (١٨٢)، وكان بعض الرجال قد أخبروا السير آنسيو بأن اللومبارد كانوا قادمين، لكنه لم يصدقهم، كما أنه لم يتنازل بنشر الخبر، ولهذا يستحق لوماً كبيراً، ولم يكن هناك رجال مثلهم فوجئوا فدافعوا عن أنفسهم أحسن منهم، فقد قام أولاد مولاي صاحب بيروت: السير بلدوين، والسير هيو، والسير غي بأعمال قتالية إعجازية، وقد جرح السير بلدوين هناك جراحة خطيرة، وكذلك ابن أخته السير جون، الذي كان شاباً، فقد قام هناك بأفاعيل جلبت له شهرة عظيمة طوال حياته كلها، وأظهر السير آنسيو شجاعة رائعة، ومرد ذلك إلى الشجاعة التي توفرت لديه، ولأنه كان القائد، ولأنه عدّ نفسه مجرمًا، لأنه سمع بالأخبار، ولم يقم بنشرها، ونجا الملك وهو عريان تماماً تقريباً، وقد وضع على ظهر فرس، وهرب من هناك إلى عكا (١٨٣) .

١٠٦ : ولم يخسر القبارصة طوال الليل معسكرهم، وقاتلوا خلال الليل كله، وكان بعض القبارصة يقاتلون على الأقدام، وبعضهم على ظهور الخيل لكن بدون سرج، وحمل بعضهم دروعاً، وكان بعضهم الآخر

عراة، وكان هناك عدد كبير منهم بدون سلاح تماماً، وكان بعضهم على ظهور خيول بدون مقاود، وبعضهم بلا رماح، وآخرون بلا سيوف، ومع هذا وجهوا ضربات عنيفة للومبارد وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وعند بزوغ فجر النهار نزل الذين كانوا في الغلايين، وأظهر ضوء النهار كم كان عدد القبارصة قليلاً، وهكذا تم الاستيلاء على المعسكر، ومن ثم نهبه كله، وكانت هناك خسارة كاملة لجميع الخيول، باستثناء الخيول التي كانت مركوبة، فهذه نجت، وقد أسروا أربعة وعشرين فارساً، وقتلوا عدداً صغيراً، وكان عدد الجرحى كبيراً، وجرى الاستيلاء على المعسكر كله وعلى غالبية الأسلحة، ووقف فرسان القبارصة الذين دافعوا عن أنفسهم بشكل جيد، على رابية صغيرة تبعد حوالي رمية سهم زنبورك عن المعسكر، ورآهم اللومبارد بكل وضوح، غير أنهم لم يقتربوا منهم .

١٠٧ (١٧٥) : ووصل الملك هنري إلى عكا، ولدى سماع صاحب بيروت للأصوات خرج ومعه الذين رغبوا باتباعه (١٨٤)، وهم يشعرون بالحزن وبالأم، وكان أول عمل قاموا به هو استقبال الملك، حيث شكر صاحب بيروت الرب على وصوله، ثم تقدموا لاستقبال الرجال الآخرين الذين كانوا فارين، وعندما رآه (صاحب بيروت) هؤلاء، تخلوا عن الطريق (١٨٥)، وبدأ واحد من السيرجندية يقول بأنه سيذهب ليرى فيما إذا كان أحداً من أولاد مولاه بين الفارين، واعترض عليه مولاه قائلاً: «لا تفعل ذلك، سنجدهم كيفما كان الحال، فهم لن يتجرأوا على الفرار بعيداً، وهم لن يأتوا إلى المكان الذي من الممكن أن أكون به»، وبعد مسافة قصيرة إلتقى (صاحب بيروت) بواحد من سيرجنديته القدامى الذي كان هارباً: ويكى هذا الرجل وقال له: «لقد تم فقدان جميع أولادك الرائعين، وهم الآن موتى»، وقال الرجل النبيل مجيباً له: «وماذا في ذلك، أيها الجبان الدنيء؟ وهكذا ينبغي أن يموت الفرسان وهم يدافعون عن أجسادهم وشرفهم»، ومضى في طريقه إلى الأمام مسرعاً، وعندما

وصل إلى قلعة إيمبرت رأى الذين كانوا وقوفاً فوق الرابية، وما أن رآه هؤلاء حتى نخزوا خيولهم وساروا خلف اللومبارد الذين كانوا وقتذاك ينسحبون .

١٠٨ - وما أن رأى اللومبارد الذين كانوا قادمين من عكا حتى شرعوا بالفرار، وعبروا مسرعين الشعب الجبلي لممر البوليان (١٨٦)، وهناك وجد صاحب بيروت رجاله، الذين انقضوا على كافة قوات اللومبارد، ولقد رأى وأدرك أن ذلك القتال وتلك المطاردة، لن تحققاً شيئاً، لأن أعداءه كانوا قد دخلوا بالممر ولديهم كثير من الرماة ورماة القسي العقارة، ولهذا استدعى رجاله، وحمد الرب كثيراً أنه وجدهم أحياء، وأنهم تصرفوا بشكل جيد ودافعوا عن أنفسهم دفاعاً جيداً، ووجد هناك جميع أصدقائه الأعزاء باستثناء ابنه السير هيو، وقد وجده في بيت عسكري قديم كان في القلعة، ذلك أن فرسه كان قد قتل قرب ذلك البيت، وكان قد دخل هو وفارس آخر كان رفيقه إلى قلب هذا البيت، وحصناه بالحجارة حتى سمعا أصوات المنقذين، وكان من المعتقد أنه قد قتل أو أسر، ولذلك كان السرور عظيماً عندما وجد هناك .

١٠٩ (١٧٦) : وذهب اللومبارد إلى صور مع غنائم عظيمة، لأن الذين كانوا في الغلايين والذين كانوا على الأرض قد حملوا كل ما وجدوه، ولأنهم أخذوا أشياء تفوق الحصر - معظم الخيول، والأسلحة، والتجهيزات التي عادت إلى القبارصة - بات موقفهم المضي في حملتهم، وأن أعداءهم لن يستطيعوا التعافي في قبرص، كما لن يتمكنوا من العبور إليها إلا بعد وقت طويل، ولهذا رتبوا القيام بشطر قواتهم، فقد تركوا حامية في مدينة صور، وعبروا على الفور إلى قبرص مع قوات كبيرة للاستيلاء على الجزيرة وقد أعانهم على ذلك أحوال مناخية موائمة فوق سطح البحر، وقد حدث هذا في سنة ١٢٣٢ (١٨٧) .

١١٠ (١٧٧) : وما أن بات اللومبارد في قبرص حتى استسلمت

قلعة كنتارا إليهم، وقد حدث من قبل استسلام برج ميناء فيماغوستا إلى السير عموري صاحب بيسان، وإلى السير هيوج صاحب جبلة، وكذلك استسلام قلعة سيرينا إليهم، وهكذا لم يبق من جميع قلاع قبرص تابعاً لصاحب بيروت أو للملك هنري، غير قلعة ديودامور فقط، فإلى ذلك المكان كان قد توجه كل من أختي الملك (١٨٨)، والسير أرنيس صاحب جبلة (١٨٩)، الذي كان في ذلك الوقت وكيل الخازن (١٩٠) (Secrete، وكان هناك أيضاً فيليب دي كافران (١٩١) Caffran، الذي كان القسطلان، والتجأ إلى المكان نفسه عدد صغير من الفرسان، و سيدات و فتيات، و كلهن تجمعن هناك قبل أن يمتلكن الوقت لتجهيز أنفسهن، و كان مع الجميع أناس من بقية الشعب الذين امتلكوا زاداً قليلاً من الطعام، والأشياء الأخرى التي احتاجوها. (١٩٢)

١١١: غير أن معظم سيدات و فتيات و أطفال قبرص قد أخذوا على حين غرة، و لم يكونوا بالتالي قادرين على الذهاب إلى ديودامور، و هكذا التجأوا إلى الكنائس و بيوت الدين الأخرى، و كانت هناك كثرة كثيرة قد التجأت إلى الجبال، و هناك اختبأت أو في الكهوف، و ارتدت هذه السيدات ثياب الراعيات، و أولادهن ثياب أولاد الرعيان، و توجهت هذه النساء نحو العمل على قطف سنابل القمح التي توفرت هناك، و على هذه السنابل عاشوا هن وأولادهن وسط شقاء عظيم من المؤلم روايته، و التجأت اسشيف دي مونتيليارد (١٩٣)، التي كانت و قتناك زوجة السير بالين دي إيبيلين ابن مولاي صاحب بيروت، التجأت هي و أولادها إلى مقر الاستبارية، و عندما سمعت بأن اللومبارد قد وصلوا تملكها خوف عظيم، فارتدت ثياب واحد من صغار الرهبان، و تخلت عن أولادها و اقطاعها، و صعدت إلى قلعة عرفت باسم بوفافيتو، و قد استقبلت هناك من قبل فارس عجوز اسمه غيونايرت دي كوني (١٩٤)، الذي كان مقيماً هناك لصالح الملك، و قد زودت

نفسها، و هكذا شحنت بوفافيتو بالأطعمة، و كانت القلعة قبل ذلك لا تمتلك شيئاً.

١١٢: و قدم اللومبارد مسرعين إلى نيقوسيا، و قد اقترفوا هناك كل الآثام و المفساد و الشرور التي عرفوها و كانوا قادرين على اقترافها، و اقتحموا الكنائس و بيت الدواية مع بيت الاستبارية، و جميع البيوت الدينية، و سحبوا و جروا إلى الخارج السيدات و الأطفال الذين تعلقوا بالمذابح و بالكهنة الذين كانوا ينشدون القداسات، و حدث في تلك الأثناء أنهم قاموا في أحد الأماكن فانتزعوا من يدي الكاهن جسد ربنا، و رموا بالقربان المقدس على الأرض، و قد وضعوا السيدات و الأطفال في عربات و على ظهور الحمير بشكل مهين جداً، و بعثوا بالجميع إلى سيرينا للسجن هناك، و التقطوا بالخطا طيف الذين رفضوا الذهاب على الفور، و كان اللومبارد قد استولوا على سيرينا، و جلبوا إلى هناك كميات كبيرة من المؤن، ذلك أنهم أرسلوا بغلايينهم و بمراكبهم إلى ذلك المكان كل ما وجدوه على طول سواحل قبرص.

١١٣(١٧٩): و توجه اللومبارد مع الخونة الآخرين لحصار ديودامور، و قد طوقوها و ضغطوا عليها عن قرب، ذلك أنهم عرفوا أن الذين كانوا فيها كانوا مزودين بقليل من المؤن، و قد بعثوا إلى الحصار، و الضغط على القلعة بلا هوادة، أكثر الناس عداً لكل من الملك و صاحب بيروت، و هكذا بعثوا بها لا أعرف عدده من طواقم رماة القسي العقارة، و حاشي الأيمان و الخونة الذين فروا من جيش القبارصة و قصدوا جبلة، عندما مرّ جيش القبارصة أمامها، و هو على طريقه للتفريج عن بيروت. (١٩٥)

١١٤(١٨١): و أكمل الآن الملك هنري السنة الخامسة عشرة من عمره، (١٩٦) و بات قادراً على التصرف حسب رغباته بحكم كونه سيداً قد وصل إلى السن القانونية، و وعد بناء عليه بمنح عدة أقطاعيات للذين كانوا معه، و وعد الجنويين بإعطائهم امتيازات إعفاء و محكمة في

مملكة قبرص (١٩٧)، إذا ما استمروا بصحبته فقط حتى يصل إلى قبرص، و مثل صاحب بيروت، الذي كان آنذاك مقدم «كومونه» عكا، حسبما أوردنا خبر ذلك من قبل، أمام البطريك جيروльд، بطريك القدس، و كان ذلك بحضور الملك هنري و عدد كبير من الرجال الذين كانوا هناك وتشكى للبطريك، الذي كان أيضاً النائب البابوي، (١٩٨) بسبب الأضرار التي ألحقها اللومبارد بالملك و به شخصياً، فيما يتعلق بالمسألة التي رويت أخبارها أعلاه، وكان من بين المسائل التي تولى عرضها هو أنه ذكر الناس وأخبرهم كيف أن اللومبارد كانوا قد استولوا على اسطول الملك بأجمعة، عندما جاء الملك من قبرص، لأن الملك كان قد أرسل السفن التي نجت من البترون إلى قبرص، فهولاء قد استولوا على هذا الاسطول، و على جميع السفن التي بقيت، و استولوا كذلك على مملكة قبرص، لابل أكثر من هذا لقد حاصروا أختي الملك في إحدى القلاع، و يرغب الملك بالذهاب للتفريج عنهما، لكنه لا يمتلك اسطولا يلبي حاجته، و هناك الاسطول الذي قدم به اللومبارد ، و هو موجود في ميناء عكا، و لهذا فإنه يطلب من البطريك، بحكم كونه النائب البابوي، أن يأمر بالترخيص له بأخذ سفن الاسطول الراسية في ميناء عكا، لأن أصحابها من المحرومين كنسياً، ومن الذين هاجموا قلاع المسيحيين، والذين انتزعوا من الملك اسطوله و مملكته.

١١٥: ورد عليه البطريك الطيب بأنه لا يرغب بالتدخل بمسائل الحرب و السلام، لكنه قال بأنه رأى في إحدى المناسبات في بلاده عندما كان صيادون يصطادون فرائسهم، وكانت الحيوانات كثيرة، كانوا يجلبون كلاب صيدهم، ويشيرون بأيديهم، ويقولون لهم: « اذهبوا وخذوها»، و عندها ركض الفرسان و السيرجندية و البوليان (١٩٩) الذين كانوا في الميناء، نحو البوارج و السفن الصغيرة التي وجدوها في الميناء، ثم

قصدوا سفن الاسطول، واستولوا بالقوة على ثلاث عشرة سفينة منها، بمشيئة الرب، أما السفن الأخرى وما بقي من سفن الأسطول فقد هرب الجميع إلى صور (٢٠٠)، و جند الملك هنري و صاحب بيروت أكبر عدد من الناس قدروا على تجنيده (٢٠١)، و لهذا أقدم صاحب قيسارية الشاب على بيع جزء من بلاده في قيسارية، وكذلك فعل مولاي جون دي إيلين، الذي صار فيما بعد كونت يافا، حيث باع قرية كبيرة امتلكها و كانت في عكا (٢٠٢)، وأقرضوا المال إلى الملك، وقام عدد كبير من بوليان الميناء بتجهيز أنفسهم بسرعة و انطلقوا (٢٠٣)، هذا و لست أدري كم عدد السفن المسلحة التي امتلكوها، هذا وقد أعطاهم الملك اقطاعيات مقابل الخدمات التي قدموها له في البحر .

١١٦ (١٨٢) : وأقلعوا من عكا للقيام برحلتهم (٢٠٤)، وقد مروا أمام صور بسفنهم، وخرجت سفن اللومبارد التي قدمت من قبرص لمحاربتهم، وأطلقت أشعتها للريح، لكنها لم تتجراً على الاقتراب من الجيش، ومع ذلك ظلت هذه السفن تتابع إبحارها بالاتجاه المعاكس للريح، وظلت ترصد الفرصة لإلحاق الضرر بهم، ووصل جيش القبارصة إلى أمام صيدا، وإلى هناك جاء السير بالين الذي قدم من طرابلس إلى بيروت مع الجماعة التي سمينها أعلاه (٢٠٥)، كما ووصل إلى هناك أخوه السير جون صاحب فوغيا ومعه أيضاً جماعته التي سمينها أعلاه، وهي التي كانت معه في قلعة بيروت، و...صاحب صيدا (٢٠٦)، وقد أعطاهم الملك هنري ملك قبرص كثيراً من الإقطاعيات.

١١٧ (١٨٣) : وأبحر القبارصة من ميناء صيدا، أمام تيار الرياح، ووصلوا إلى قبرص، ونزلوا في لى غري (٢٠٧) Gree، وإقتربت في تلك اللحظة غلايين اللومبارد منهم وكانت تجري بالاتجاه المعاكس للريح، وبعثوا أثناء الليل إلى البحر من يتجسس لمعرفة مكان جيش اللومبارد، وقد علموا بشكل مؤكد أن الجيش مع جميع قواتهم موجودة في

فياغوستا، وأن غلايينهم راسية في الميناء .

١١٨ (١٨٤) : وزحف جيش القبارصة إلى أمام فيياغوستا، وكان اللومبارد في المدينة ولديهم أعداد هائلة من الرجال، وذلك من الفرسان والرجالة سواء، وكان لديهم الكثير من الخيول والسلاح مما كانوا قد استولوا عليه في قلعة إيمبرت مع ما كانوا وجدوه في قبرص، وكان معهم الخونة الذين تخلوا عن الملك عند ميناء القسطلان، وذلك حسباً رويناً من قبل في هذا التاريخ، كما كان معهم رجال آخريين حصلوا عليهم من طرابلس وأرمينيا، وتوركبلية جنودهم من قبرص، وبناء عليه كان من المقدر بشكل صحيح أنه كان لديهم ألفي فارس في جيشهم، وكان لدى الملك هنري وصاحب بيروت مائتين وثلاثة وثلاثين فارساً .

١١٩ (١٨٥) : وعندما وصل جيش الملك هنري إلى أمام فيياغوستا، ابتعد قليلاً عن اليايسة، وراقب صاحب بيروت الأوضاع فرأى أن الساحل كان مشحوناً بشكل جيد بالرجال ضده، وكانوا جميعاً مسلحين، وأنه إذا ما حاول النزول إلى اليايسة سوف يتعرض إلى مخاطر شديدة، ولاحظ وجود جزيرة أمام اليايسة حيث كانت هناك مخاضة يمكن للإنسان أن يجتازها إلى اليايسة عندما تكون المياه في أدنى درجات انخفاضها من جانب اليايسة، وذلك عندما يكون البحر هادئاً، ونزل جيش القبارصة في هذا الجانب مع خسائر فادحة بسبب الصخور التي كانت هناك، وبأدروا على الفور مسرعين نحو رأس الجزيرة المقابل لليابسة، حيث توفرت المخاضة، ومركزوا هناك عدداً من الرجال المسلحين ليتولوا حراسة المخاضة حتى يكونوا جميعاً قد غادروا السفن، وتهيأوا تماماً.

١٢٠ : وأطلق رجال الامبراطور الجروح باتجاه ذلك المكان، وقدموا كل ما استطاعوه من مقاومة، واستخدموا القسي العقارة، وكان هناك الكثير من رميات الحراب والنشاب من على الطرفين، ومع ذلك رسا القبارصة

ونزلوا إلى اليابسة صغيراً وكبيراً وفق ما أرادوا، وكان بإمكانهم مع خيولهم المعسكرة على الجزيرة، وقد تولوا الحراسة طوال الليل بشكل جيد، وركزوا اهتمامهم على المخاضة التي يتوجب عبورها إلى أرض الجزيرة القبرصية، وأرسلوا بعد منتصف الليل بوارج ومراكب صغيرة مسلحة إلى الميناء، وبادروا من هناك مسرعين إلى واحد من أماكن المدينة، وكان الجيشان عظيمًا، ثم ألقى اللومبارد النار بجميع سفنهم التي كانت في الميناء، وتخلوا عن المدينة وهجروها، وامتطوا خيولهم ومضوا إلى نيقوسيا، وبادر جيش الملك بالزحف مسرعاً، واستولى على مدينة فيماغوستا في أثناء الليل .

١٢١ (١٨٦) : وقام في الصباح التالي الملك وقبارصته بتسليح أنفسهم، وإعداد خيولهم، وامتطوها وعبروا المخاضة إلى أرض الجزيرة وهم على تعبئة، وكانوا يتوقعون مواجهة مقاومة أثناء عبور المخاضة، لكنهم لم يواجهوا أي شيء من هذا النوع، وهكذا وصلوا إلى مدينة فيماغوستا، وأقاموا هناك لمدة يومين أو ثلاثة ليريحوا أنفسهم، وكان اللومبارد قد تركوا برج البحر مشحوناً بالرجال، وتعامل الملك معهم ومنح القادة إقطاعات، وبذلك سلموا إليه برج ميناء فيماغوستا، وقدم إليهم إلى هناك ثلاثة رجال قدموا أنفسهم إلى الملك، وكانوا هم الذين يتولون حراسة كنتارا لصالح اللومبارد، وقد أعطاهم الملك الذي طلبوه، وبالمقابل سلموا إليه كنتارا مع بوفافيتو (٢٠٨)، وسامح صاحب بيروت وأولاده واحداً منهم، اسمه همفري دي مونيارى Monaire، وكان قد سبب لهم شروراً كثيرة، وكان الذي تدبر استرداد كنتارا وبرج فيماغوستا وأعد لذلك هو فيليب دي نوفار.

١٢٢ : وبقي ملك قبرص ثلاثة أيام (٢٠٩) في فيماغوستا، عالج في أثنائها الأمور مع قائد الجنويين (٢١٠)، الذي كان اسمه السير وليم دي لى أورت Ort، وكان هو بالوقت نفسه قنصل الجنويين، ورجلاً ثرياً (

(٢١١)، وقد منحه الملك كل الذي أراده وطلبه: فهو قد منح إلى الجنويين في جميع أرجاء قبرص امتيازات إعفاءات ومحكمة، باستثناء النظر في ثلاثة أمور قضائية تعلقت بالقتل، والاغتصاب الجنسي والخيانة (٢١٢)، وأعطاهم داراً في نيقوسيا، ومحكمة ذات صلاحيات بحرية (٢١٣)، وقلعة اسمها دسبوير (٢١٤) Dspoire وضمنوا تعهداتهم للملك بيمين أقسموه، وكذلك فعل الملك لهم، وتعلقت هذه التعهدات بالعون، وشروط التحالف (٢١٥)، هذا وكان ما منحهم الملك هنري إياه له استمرارية دائمة وكان ذلك عن طواعية ورغبة منه ومن مولاي صاحب بيروت، وصعد الجنويون ثانية إلى ظهور سفنهم، وذهبوا إلى ليماسول، وكانوا هناك عندما علموا بأخبار المجد الذي منحه ربنا فيما بعد إلى ملك قبرص وإلى رجاله، وعندما علموا بهذا ذهبوا إلى جنوى، وكانت سفن اللومبارد طوال هذا الوقت في مياه قبرص وكانت مدركة لما كان يحدث، غير أنها لم تتجرأ قط على لمس السفن .

١٢٣ : وعندما باتت سفن (الجنويين) في أعالي البحار، جاءت سفن اللومبارد إلى سيرينا، التي كانت ما تزال بأيدي اللومبارد (٢١٦)، وكان جيش اللومبارد عندما غادر فياغوستا قد أحرق الحظائر والمخازن والسهل كله، وقد سبب هذا أضراراً بالغة، لأن معظم الحبوب كانت في المخازن، وقد حطموا جميع المطاحن في لى كويتري Quetrie (٢١٧) لابل إنهم دمروا حتى المطاحن اليدوية في نيقوسيا، وذلك بقدر ما استطاعوا، ولدى سماع القبارصة بهذه الأخبار شعروا باطمئنان عظيم، وقالوا إنه لمن الواضح تماماً لو أنهم خططوا للاستمرار باحتلال البلاد لما فعلوا ذلك، وقد منح ربنا نعمة لامثيل لها للقبارصة، ذلك أنهم كانوا قليلين جداً بعددهم من الرجال إلى حد أنه بدا بالنسبة لهم أنهم ما أن يلقون اللومبارد سوف يهزمون من قبلهم لاحالة .

١٢٤ (١٨٧) : وغادر الملك هنري وصاحب بيروت ومعه قومه

فيماغوستا ، ووصلوا خلال عدة أيام إلى نيقوسيا بعد ما لحقت الأضرار الكبيرة بتجهيزاتهم وبمعداتهم، وبعدما تبقى معهم عدد قليل من الرجال، وتخلّى اللومبارد عن المدينة، وعسكروا في الوادي فيما بين جبلين عاليين على الطريق إلى سيرينا، وكان موقع معسكرهم جيداً وحصيناً إلى حد أن ما من واحد كان قادراً على الوصول إليهم إلا عبر طريق ضيق فوق جبل عظيم، وكان الممر هناك مدافعاً عنه بشكل ممتاز، كما أنه لم يكن بإمكان القبارصة التفريج عن قلعة ديودامور ونجدها إلا عبر هذا الطريق نفسه، وامتلك اللومبارد كل ما احتاجوه في جانب سيرينا، في حين كان المتبقي من أغذية في قلعة ديودامور يكفي ليومين فقط .

١٢٥ (١٨٨) : ودخل الملك هنري وصاحب بيروت مع رجالهم إلى نيقوسيا حيث وجدوا القليل مما كانوا بحاجة إليه، وكان هناك نقص شديد بالخبز، وكان صاحب بيروت قلقاً جداً لأن رجاله قد تشتتوا بشكل أحق وعسكروا في أرجاء المدينة، وخاف من أن يقوم أتباع اللومبارد بمهاجمة رجاله أثناء الليل، لذلك قام في وقت العشاء باستنفار الجميع وقال بأن اللومبارد في طريقهم إليهم، وبناء عليه خرج الجميع ووقفوا خارج نيقوسيا (٢١٨)، وما أن أصبح الرجال خارج المدينة وقد تعبأوا واصطفوا للقتال، حتى أعلن لهم صاحب بيروت بأن اللومبارد قد تراجعوا وذهبوا، ثم قام باسم الملك بمنع كل واحد من الجيش من دخول المدينة، وقد اختار أفراد الجيش بقعة خارج المدينة (٢١٩)، حيث توفرت حدائق على أحد الجوانب وخنديق صغير، وعسكروا هناك تلك الليلة، وتحرزوا كثيراً بالحراسة، وأقاموا مراكز رصد وإنذار جيدة، ذلك أنهم تذكروا بشكل جيد قلعة إيمبرت .

١٢٦ (١٨٩) : وفي صباح اليوم التالي، الذي كان يوم ثلاثاء (٢٢٠)، انطلق القبارصة، ووافق هذا اليوم مرور أكثر من خمسة أسابيع على وقوع حوادث قلعة إيمبرت، واقترح الملك وصاحب بيروت مع

مستشاريهم وجوب ذهابهم إلى السهل الواقع دون معسكر أعدائهم، فإذا ما انحدر اللومبارد نحوهم، فتلك كانت رغبة القبارصة بإنشأ القتال، وإذا لم يفعلوا فإنهم سوف يعسكرون في قلعة اسمها أغريدي، قائمة قرب مكان واقع عند سفح الجبل، فمن هناك يمكنهم أن يبعثوا خلال الليل التطمينات والمعونة إلى الذين في ديودامور بواسطة رجال يسرون على الأقدام عبر عمر ضيق ومنزلق قائم فوق القلعة، وتنفيذاً لهذا الاقتراح زحف القبارصة حتى وقفوا فيما بين اللومبارد وأغريدي (٢٢١)، وما أن رأى اللومبارد من الأعلى كيف أن القبارصة كان عددهم قليل، وكيف أن تجهيزاتهم كانت فقيرة حتى استخفوا بهم، ورأوا أنه من العار تجنب الإقتال معهم، وصرخوا جميعاً بصوت واحد: « عليهم، عليهم، دعونا نذهب ونأسرهم » .

١٢٧ : ثم تخرج صاحب بيروت، وجثا على ركبتيه، وحمد ربنا، أن الأعداء انحدروا نحو الاقتتال، لأنه كان يعرف كما قال بأن ذلك معناه سيكون تحرير (شعبه)، وأن ذلك خير ما يمكن أن يحدث لهم، وقد صلى بخشوع وطلب من ربنا أن يمنح في ذلك اليوم المجد والنصر إلى الملك وإلى حزبه، وقد نذر في تلك الساعة بشكل سري - الأمر الذي نفذه فيما بعد - أن ينتسب إلى واحد من البيوت الدينية، وقام بتعبئة صفوف قواته بشكل مبدع، وكان ابنه السير بالين دي إيبيلين قد قاد دوماً في هذه الحرب الصف الأول من القوات، وقد جعله في هذه المرة يأتي ويقف أمامه، وطلب منه أن يقسم على إطاعة أوامر الكنيسة المقدسة، ذلك أنه كان تحت الحرمان الكنسي بسبب زواجه، وقد ردّ عليه أن ليس بإمكانه الاستجابة لهذا الطلب، ورد عليه الرجل النبيل وقال: « بالين لدي ثقة وإعتماد على الإيثار بالرب أكثر من الاعتماد على فروسيته والثقة بها، وبما أنك على غير استعداد للاستجابة لطلبي، اترك الصف، لأنه إرضاء للرب، سوف لن يكون رجلاً محروماً قائداً لقواتنا»، فهذا ما كان قد قاله

وهذا ما جرى تنفيذه .

١٢٨ : وأقام قائداً للصف الأول من القوات السير هيو ابنه، وجعل السير آنسيو دي بري قائداً للصف الثاني بعده، والسير بلدوين دي إيبيلن قائداً للصف الثالث، وصاحب قيسارية الشاب قائداً للصف الرابع، وهو صف ساقه الجيش، ذلك أنه لم يمتلك صفوفاً أكثر (٢٢٢) .

وكان في صف الساقه هذا الملك، وصاحب بيروت، وابن أخته الشاب السيرجون وعدداً كبيراً آخر ممن رغبوا في أن يكونوا في الصف الأول، وأمر صاحب بيروت ابنه السيربالين أن يكون معه في ساقه الجيش، وقال له: «باسم الرب»، غير أنه فعل عكس ذلك، حيث تخلص من مكانه، وذهب إلى الصف الأول حيث كان أخاه السير هيو والسير آنسيو، فقدم لهما النصيحة، وأراهما الذي عرف أنه مفيد ونافع، ثم إنه تركهما ووضع نفسه أمامهما على الطرف، وكان معه عدد قليل من الرجال، لأنه كان آنذاك خمسة من الفرسان فقط هم الذين يتكلمون معه، فقد أقسم الآخرون جميعاً على احترام أوامر الكنيسة المقدسة، ومن أولئك الخمسة كان فيليب دي نوفار واحداً منهم، وكان الآخر هو ريموند دي لي فليس Flace، فهذان كانا من أتباعه، وقد تسلما إقطاعهما منه، وكان بيتر دي مونتوليف Montolif هو الثالث، وكان مدفوعاً له ومعطى أشياء من قبله، وكان الاثنان المتبقيان هما روبرت دي مومني Maumeni، ويودس دي لي فيرتي Fierte، وكان هو الذي رباه وجعله فارساً (٢٢٣) .

١٢٩ (١٩٠) : وعندما اقتربت مقدمة قوات أول مجموعة من اللومبارد من كتلة مولاي صاحب بيروت والملك، اندفع السير بالين نحو بقعة خطيرة جداً، مشكلاً من صخور وحجارة، ومضى إلى قتال الآخرين فوق في وسط الممر، وقد أعاقهم كثيراً، وقام بأعمال قتالية رائعة، إلى حد أن ما من إنسان كان قادراً على دخول هذا الممر أو مغادرته

وجوازه، وصبر كثيراً وتحمل إلى درجة أن جميع الذين رأوه يشهدون أنهم عاجزين عن التصديق أن رجلاً واحداً قد استطاع قط أن يفعل مثل هذه الأفاعيل، وكثيراً ما ضغط عليه بعدد كبير من الرماح، حتى أنه ما من واحد صدق أن بإمكانه النجاة مطلقاً، ورآه الذين كانوا في الأسفل مع الملك وعرفوه وميزوه تماماً من خلال سلاحه، وصرخ كل واحد منهم إلى مولاي صاحب بيروت قائلاً: «آه يامولاي، دعنا نعاون السير بالين، لأننا نرى أنه سوف يقتل فوق في الأعلى»، وأجابهم (صاحب بيروت) بقوله: «دعوه لوحده، الرب سوف يعينه، فهذا يرضيه، وسوف نمتطي خيولنا، ونمضي مباشرة إليه، ذلك أننا إذا ما انحرفنا جانباً يمكن أن نخسر كل شيء، وكان القتال شديداً على كل جانب في تلك الساعة، واستمر طويلاً، وسقط وقتذاك العديد .

١٣٠ : وقاد الكونت وولتر مينبو (٢٢٤) Manepeau الرتل الأول من قوات اللومبارد، وقد قاتل بقسوة متناهية، وصمد لجميع صفوف الملك، وانقض عليهم بشدة وحدة ومر من خلالها وتجاوزهم بعيداً، لكن دون إحداث أضرار كبيرة، وأراد بعض الذين كانوا في صفوف الملك مهاجمته، لكن صاحب بيروت منعهم بحكمة، وحظر أن يقوم أي واحد من الالتفات إلى طرف ما، أو الانحراف إليه، ووجب متابعة حملة الفرسان، لأن الفرسان يحملون بالعادة باتجاه مباشر، وتخلي عن القتال، وانحرف نحو الرتل الرابع الكونت وولتر والسير جو فري دي موسي (٢٢٥) Mosie، ابن متسلم العدالة، وكان معها جميع قواتهما (٢٢٦)، وقد هربا من هناك حتى كاستريا (٢٢٧)، دون القيام بأية أعمال أخرى، وكان الكونت بيرارد دي مينوبي (٢٢٨) Menope، الذي قاد الرتل الثاني فارساً مجرباً وتحت إمرته مقاتلين جيدين، وقد حمل بشكل فعال جداً، وضعضع الرتل الأول من قوات القبارصة، لكن عساكر السير بلدوين ساعدوهم بثبات وتصرف الكونت بلدوين بشجاعة

وحكمة، وقام بأعمال قتالية عظيمة .

١٣١ : وجارى السير آنسيو دي بري الكونت بيرارد، وأمسكه من خوذته، وحرفه نحو اليسار، ولقد كان قوياً جداً ولديه حصان ممتاز، ولذلك اقتلع الكونت بالقوة من على سرج حصانه، ورماه أرضاً، وصاح «اقتل، اقتل»، ثم وصل وقتها إلى ذلك المكان ما بين الخمسين إلى الستين من السيرجندية، وهم يسرون على أقدامهم، وكان هؤلاء قد بعثهم القبارصة من قبل إلى أغريدي لإقامة المعسكر، وقد قطعوا رأس الكونت بيرارد، ومعه رؤوس سبعة عشر فارساً من حاشيته وآل بيته، كانوا قد ترجلوا لإقامته، وسرت كلمة «اقتل، اقتل» بين صفوف الجيش، وصرخ الجميع «اقتل، اقتل» .

١٣٤ : وكان في هذه المعركة فارس بين اللومبارد، قيل بأنه كان ألمانياً، وكان مغطى هو وفرسه بمعدن مذهب، وقد قام بعدة حملات، ونفذ أفاعيل قتالية عديدة، وكان قوياً جداً ونشيطاً، لذلك لم يستطع أحد قهره وإسقاطه، لكن في النهاية قتل حصانه، وألقى المقاتلون الرجالة أنفسهم عليه وقتلوه، وكان عدد كبير من فرسان القبارصة قد عبروا في حملاتهم عن بسالتهم، وكان عدد الرجال كبيراً بين اللومبارد الذين خاضوا منازلات مريرة، وكانوا بالفعل رجالاً عظماء، وعلى جميع الأحوال قام الرب بمعجزات عظيمة، لأنه قتل من بين صفوف القبارصة فارس واحد فقط، كان قد ولد في لومباردي ونشأ في قبرص وفيها رسم فارساً، وظل كلامه كلاماً لومباردياً، حتى أنه لم يكن بإمكانه أن ينادي الملك بكلمة Vaillance، بل صرخ Baillance، ولهذا السبب قتل، حيث ظن أنه من اللومبارد (٢٢٩) .

١٣٣ (١٩٥) : ومنح الرب مجداً عظيماً وأظهر نعمة كبيرة إلى الملك هنري وإلى صاحب بيروت وإلى حزبه، حيث تمكنوا في ساعة واحدة من النهار من إلحاق الهزيمة بأعدائهم الأقوياء وساقوهم بعيداً

وطردوهم، وقد فرجوا عن ديودامور التي كانت محاصرة، وقاموا بمحاصرة سيرينا التي التجأ إليها اللومبارد، وهرب السير جنديّة الذين كانوا يحاصرون ديودامور لصالح اللومبارد، وفروا من هناك، لكنهم لم يتجرأوا على الفرار باتجاه سيرينا خشية من القبارصة، الذين كانوا يتولون حصارها، ولهذا تشتتوا باتجاه بليسي Plassie (٢٣٠) ومن ثم انعطفوا باتجاه نيقوسيا، ولم يتجرأوا على دخولها في النهار، بل أرادوا دخولها في الليل على أمل العثور على ملاجئ في بيوت الرهبانيات الدينيّة .

١٣٤ : وحدث آنذاك أن فيليب دي نوفار، كان قد عاد إلى نيقوسيا للقيام ببعض الأعمال التي أمره بالقيام بها الملك هنري وصاحب بيروت، وقد علم بأن السيرجنديّة قادمون، فحشد ما أمكنه من الرجال، وخرج للتصدي لهم خارج المدينة، وقبل منتصف الليل بقليل إنقض فيليب دي نوفار عليهم ومعه رجاله فقتلوا وأسروا ثلاثمائة أو أكثر من السيرجنديّة، والذين نجوا منهم بسبب أن الوقت كان ليلاً، وجدوا مأوى لأنفسهم في الكنائس وبيوتات الرهبانيات الدينيّة، وأمر فيليب أن يمثل أمامه قادة السيرجنديّة الثلاثة الذين كانوا قد تخلّوا عن الملك وعن صاحب بيروت أمام جبلة، ذلك أنهم كانوا خونة وحائثين باليمين ، فأمر بهم فمزقوا (٢٣١)، وكان بوده القيام بشنقهم، لكنه لم يمتلك الفرصة، لأن ما توفر لديه من الرجال كان قليلاً جداً من حوله، وكان عدد الأسرى هناك كبيراً جداً .

١٣٥ (١٩٦) : وصار معلوماً في اليوم التالي أن الكونت وولتر دي مينبو Manpeau وابن متسلم العدالة وجماعتهما قد التجأوا إلى خندق قلعة كاستري، لأن الداوية رفضوا استقبالهم في الداخل، لأنهم كانوا قد قاموا من قبل باقتحام بيتهم وجروا إلى خارجه السيدات والأطفال، حسبما تحدّثنا عن هذا من قبل في سياق روايتنا، وبناء عليه بعث الملك وصاحب بيروت إلى هناك السير جون الشاب، الذي صار فيما بعد

كونت يافا، مع مجموعة من الفرسان بصحبته، وقد عثر عليهم داخل الخندق، فأخذهم أسرى، وجلبهم إلى نيقوسيا، ووضعوا هناك بالسجن مع الآخرين الذين أخذوا أسرى في يوم المعركة، وقد عهد بالإشراف عليهم جميعاً إلى فيليب دي نوفار، فهو الذي تولى حراستهم، وكان لديه في هذا السجن مائة وخمسة وأربعين سجيناً، وكان عدد كبير قد مات بسبب الجراحات، وكان ممن مات هناك السير هيوغ دي سورل Sorel، والسير انتي دي شيلين Ente de cheligen، والسير غنت دي كور Gent de cors، غير أن السير فيليب أوبيسون Obuissou قد تعافى من جراحاته الشديدة (٢٣٢).

١٣٦ (١٩٧) : واستمرت أعمال الحصار أمام سيرينا، وكان الذين في داخلها رجالاً عظماء جداً، وكان لديهم جميع سفنهم التي جاءوا بها إلى قبرص، ولديهم أيضاً اثنين وعشرين من الغلايين، وقد عمدوا إلى تعيين قائد يتولى حماية القلعة وأسوارها هو فيليب شينارت (٢٣٣)، الذي كان أخاً للسير جوفيان من جهة أمه، وقد تركوا فيها خمسين فارساً، وضعوهم تحت قيادة شخصية من أبوليا اسمه وولتر أكوفيفا (٢٣٤)، وكان السير رتشارد فيلنغر الوكيل قد ذهب إلى أرمينيا مع عدد كبير من الرجال طلباً للعون، كما بعثوا إلى أنطاكية و طرابلس، و قالوا إنهم سوف يقدمون ثمانية و يقاتلون مجدداً ضد القبارصة، و كان في أرمينيا مرض كبير فيما بينهم، و قد عادوا إلى سيرينا دون انجاز أي شيء، و قالوا هناك العديد من الرجال في البر و البحر، و سوف هؤلاء يستهلكون معظم أطعمة القلعة، و لهذا السبب عاودوا الصعود إلى ظهور سفنهم و غلايينهم، و أبحروا عائدين إلى صور، و ذهب مع وكيلهم فيلنغر السير عموري برلياس، و السير عموري صاحب بيسان، ابن عمه، و السيرهيوغ صاحب جبلة، و بقي فيلنغر (٢٣٥) وكيلاً في صور، أما هؤلاء الثلاثة فقد ذهبوا إلى أبوليا يطلبون العون من الامبراطور.

١٣٧ (١٩٨): و بقي فيليب شينارت القائد في سيرنيا، و معه خمسين فارسا وحوالي الألف رجل من المشاة: من رماة الزنبورك و البحارة، وكان لدية هناك عدداً كبيراً من صناعات الآلات الحربية، و قد صنع بوساطتهم عدداً من أبراج القتال، وآلات رمي الحجارة و المجانيق، و تمكن من حماية القلعة بشكل جيد لوقت طويل، و كانت زوجة الملك في القلعة، و هي التي عرفت باسم الملكة اللومباردية، لأن الامبراطور كان قد أعطاه إياها، و ظلت واقفة إلى جانب الحزب الامبراطوري، و قد توفيت داخل القلعة، و بعد ما توفيت حملها الذين كانوا في سيرنيا إلى الخارج، و أعلنوا أنها الملكة و أنها الآن ميتة، و استقبلها الملك و صاحب بيروت، و أقاما مناحة كبيرة من أجل موتها، و أمرا بحملها معلقة إلى نيقوسيا على أيدي فرسان ساروا على الأقدام، ثم أمرا بتنظيم موكب مع جميع شعب نيقوسيا لمرافقتها داخل المدينة حتى الكنيسة الكاتدرائية لنيقوسيا حيث دفنت هناك، و بعد هذا عاد الملك و صاحب بيروت لمتابعة حصار سيرنيا، و جلبا إلى هناك قوات عسكرية كثيرة .

١٣٨ (١٩٩): وأمر الملك هنري بعقد اجتماع عام لبلاطه ، و قد م شكوى إلى محكمة بلاطه ضد السيرعموري برلياس، و السيرعموري صاحب بيسان، و السيرهيوج صاحب جبلة، و ضد جميع أتباعه الذين وقفوا ضده في المعركة، منذ أن وصل إلى السن القانونية، (٢٣٦) و تم حرمان هؤلاء بموافقة عامة من قبل أعضاء المحكمة، و أعلن عن أن الحرمان يشملهم شخصياً و يشمل ممتلكاتهم، و قام الملك بإعطاء إقطاعياتهم إلى الذين خدموه و ساعدوه، و انزعج القبارصة كثيراً لعدم امتلاكهم لغلايين حتى يتمكنوا من حصار القلعة من جهة البحر، و ترددت غلايين اللومبارد فيما بين سيرنيا و بين صور، و قضى الرب بوصول ثلاثة عشر من الغلايين عائدة إلى الجنوبيين، و قد وصلت عبر البحر إلى لياسول خلال عبورين، فقد وصل في العبور الأول أربعة من

الغلايين، و في العبور الثاني تسعة، و توجه صاحب بيروت مسرعاً إلى لياسول، و احتفظ بهذه الغلايين مقابل الأجر المالي من قبل الملك، و جلبهم إلى سيرينا .

١٣٩ : و من ثم حوصرت القلعة من جهة البحر و من جهة البر، و ذلك بوساطة هذه الغلايين و الذين أمكن تأمينهم من قبرص، و جرى بناء الكثير من الآلات في الخارج، و ذلك من قاذفات للحجارة، و مجانيق، وآلات كبيرة، كما جرى بناء برجين عملاقين من الخشب، مع سواتر متحركة كثيرة، لتدفع ضد الأسوار و لتقترب منها، و كانت هناك حملات كثيرة في النهار وفي الليل، وكانت هناك منازل قتالية في كل من الداخل والخارج، و قد جرح العديد من على الطرفين، لأنه قد توفر هناك عدد كبير من القسي العقارة، و تم دفع البرجين الخشبيين حتى وصلا إلى الخندق، و امتلك الذين كانوا في الداخل عساكر أفضل من الرجالة مما كان في الخارج، و هكذا تمكن هؤلاء الذين كانوا في الداخل بالقوة من إلقاء النار في البرجين، و قاوموا مقاومة فعالة جداً ، خشية منهم من الايداع بالسجن، أو مواجهة الموت، وامتطى الفرسان في الخارج خيولهم، واندفعوا بها حتى الخندق، وهناك ترجلوا ودخلوا إلى البرجين الخشبيين اللذان كانا يحترقان، و قد أطفأوا النار بالقوة وأنقذاهما، وأعادوهما إلى الخلف، وقد جرح هناك عدد كبير من الفرسان.

١٤٠ : و تحادث الذين كانوا في داخل القلعة خلال الليل مع قائد السيرجندية الذين كانوا في الخارج وكان اسمه مارتن روسو Rous-seau ، و قد أعطوه كثيراً، و وعدوه بإعداد معاهدة معهم ليقوم بخيانة الذين كانوا في الخارج، و قد اتفق معهم وأعد أنه سيرى الوقت الذي يكون فيه الجيش منهكاً جداً، فعند ذلك سوف يحمل الذين في الداخل أسلحتهم و يخرجون منقضين بقوة، و وقتها سيتولى مارتن هذا وسيرجنديته قتل كل من يستطيعون ممن هو بالخارج، و لسوف يقتلون

بكل سهولة السير هيوچ والسير آنسيودي بري، اللذان كانا معسكران على مقربة من القلعة أكثر من الآخرين، و غالباً ماتوليا تفقد حراسة السيرجنديته قرب الأسوار و ملاصق لها، و تمكن مارتن روسو هذا من إلحاق أضرار بالغة، لأنه كان من أكثر الناس معرفة بصاحب بيروت وبأولاده ، و كان معهم خلال معظم مدة الحرب، و قد أحسنوا إليه كثيراً ووثقوا به ، و كانت إمرة الحرس حول القلعة موكولة إليه كلياً، و لذلك أرسل إلى القلعة ماأراده و تلقى منها ما رغب به.

١٤١ : و بفضل من ربنا جرى كشف أمر هذا الخائن بوساطة رجل جاء من داخل القلعة، و حدث في تلك الساعة أن ذهب مارتن روسو إلى نيقوسيا للحصول على قسي عقارة و تجهيزات أخرى رغب في ارسالها إلى داخل القلعة، و بعث صاحب بيروت فيليب دي نوفار فألقى القبض عليه يوم عيد الفصح من أيار،(٢٣٧) وألقى أيضاً القبض على معلم صانع للقسي العقارة، و كان من أتباع الملك، وقد شارك بهذه الخيانة، و كان قد بعث إلى الذين في داخل القلعة من خلال الجيش كثيراً من القسي العقارة و أسلحة أخرى، و حملها فيليب دي نوفار إلى الجيش الذي كان معسكراً أمام سيرينا، وقد اعترفا بالخيانة أمام محكمة كاملة، وقد حكم عليهم (أي على الخونة جميعاً) بالإغراق أو بالشنق، أما مارتن روسو فقد قذف على أسوار القلعة بوساطة آلة رمي كبيرة، ثم بادر الذين كانوا خارج القلعة إلى نصب آلاتهم أمام الأسوار بدون إبطاء.

١٤٢ (٢٠٠) : وحدث في أحد الأيام لسوء حظهم العظيم، أن أصيب السير آنسيودي بري بجراحة، وكان آنذاك يدفع بنفسه إحدى الآلات ويحث الآخرين على دفعها، وجاءت إصابته بوساطة رمية سهم عقار، كان طوله قدمان، وقد سحب السهم ورماه بعيداً، واعتقد بأنه تخلص من الرأس المعدني، لكن لسوء حظه بقي هذا الرأس في طرفه، وقد فقد الكثير من الدماء، لكنه لم يرغب بأن يعلن ولا كلمة عن إصابته

حتى يتم دفع الآلة كما ينبغي، ثم لاحظ الذين كانوا إلى جانبه إصابته وأدركوا مداها فساعدوه حتى عاد إلى مقره، وقد نزف كثيراً حتى صار لونه مثل لون الثلج، وتقاطر جميع أفراد الجيش نحو مقره وكذلك فعل جميع رفاقه، وهم يشعرون بالحزن الكبير، وكان فوق هؤلاء الرجال جميعاً صاحب بيروت، الذي دعاه باسم «أسده الأحمر»، وقد امتلك السبب لذلك، فقد كان (السير آنسيو) قد اهتم أكثر من سواء ونشط في سبيل مصالح الجيش، وكان أهلاً بالمكانة العالية أكثر من غيره، وقد حملوه إلى بيته في نيقوسيا، حيث تمدد في فراشه لمدة نصف سنة أو أكثر، ولم يمكن العثور على الرأس المعدني حتى اليوم الثالث قبل موته، وهكذا نفذ فيه قضاء الرب، وسبب موته حزناً عظيماً للملك وللرجال الجيدين في قبرص أيضاً، وفي اليوم الذي مات فيه كان صاحب بيروت في سورية، ذلك أن قلعة سيرينا كانت قد استسلمت، ولسوف تسمع الآن كيف حدث ذلك.

١٤٣ (٢٠١) : وكما سمعت أمر الملك ورجاله ببناء عدد كبير من آلات الحرب، وبعث بهذه الآلات أمامه، متخذاً الاستعدادات للهجوم القبرصي، وقاتل السير بالين دي إيبيلين ورجاله أمام القلعة، وهاجم صاحب بيروت وأولاده الأسوار من جميع الجوانب، وباتت آمالهم عالية بالاستيلاء على القلعة، لأن الآلات تمكنت من إضعاف الأسوار كثيراً، وكان الذين في الداخل رجالاً منظمين ومقاتلين جيدين، وكانوا ينجشون من السجن أو الموت، ولهذا دافعوا عن أنفسهم دفاعاً عظيماً وبفعالية كبيرة، وقاتل الذين في الخارج بشبات كبير، وكان هناك عدد كبير قد أصيبوا بجراحة ، وتلقى أولاد صاحب بيروت هناك كثيراً من الإصابات البالغة، وفي الوقت نفسه كان بين الذين في الداخل قتلى كثيرين وجرحى، وكان المهاجمون يتوقفون عن القتال مع حلول الظلام وينسحبون.

١٤٤ (٢٠٢) : ولام صاحب بيروت نفسه كثيراً وانتقدها، وقال بصوت مرتفع مسموع بشكل واضح: «يالأسف، لقد أصابني سوء الحظ هذا، في هذا الوقت، وياحزني من الشيء نفسه الذي حدث مرة لرجل من أهل بيتي، فعندما كان الملك عموري، داخلاً إلى مصر، أمر وقتها السير هيوج دي إيبيلين (٢٣٨)، بمهاجمة مدينة بلبس واقتحامها، وهي المدينة التي كان محاصراً لها، وأجابه (السير هيوج) بأنه سيذهب ويقوم بالهجوم، وعندما وصل إلى الخندق نخس حصانه وحمل، فاندقت رقبة الحصان، وانكسرت ساق عمي، وبادر وقتها جميع رجال الجيش إلى إنقاذه، ونجم عن هذا أضراراً بالغة، لأن عدداً كبيراً منهم قتلوا هناك وجرحوا، وحمل بعد ذلك على الخندق السير فيليب (٢٣٩)، صاحب نابلس الذي كان فارساً جيداً، وكان بالوقت نفسه خاله (عمه)، فلقد حمل بعد حفيده، وهكذا حدث الشيء نفسه، ونجا هذا من الموت بصعوبة بالغة».

١٤٥ : « ثم كان بفضل الرب وإرادته أن تم الاستيلاء على المدينة، ومن ذلك الحين اتخذ الملك عموري ورجاله قراراً إلزامياً بأن لايقوم أي فارس أثناء أدائه لخدمة تتعلق بالاستيلاء على مدينة أو قلعة أو أي مكان، بالقفز إذا لم يستطع حصانه حمله، باستثناء الحالات التي يكون فيها محاصراً أو يدافع عن نفسه (٢٤٠)، وأنا التعيس سيء الحظ الذي يعرف القرار الذي اتخذ لكل واحد من بيتي، قد عرضت اليوم نفسي وأولادي وأصدقائي للموت في الحملة على هذه القلعة التعيسة، التي سوف تستسلم في أحد الأيام من قبل نفسها بسبب المجاعة»، وواساه الذين كانوا هناك وقالوا: «لا تشغل يامولاي بالك ولا تزعج نفسك بهذه الأمور، فالذين قتلوا في الداخل أكثر مما خسرت»، واستمر الحصار وقتاً طويلاً، وكانت النفقات التي بذلت هناك كبيرة جداً، وكانت المبالغ التي دفعت إلى السيرجنديّة وإلى الغلايين عظيمة، وكانت الضرائب التي

فرضها الملك عالية جداً، ذلك أنهم ما كانوا ليشعروا بالأمان ما لم يستولوا على سيرينا .

١٤٦ (٢٠٥) : وسمع الامبراطور فردريك الأخبار من سورية، ولانعرف فيما إذا كان لم يملك الفرصة للقدوم إلى سورية، أو أنه لم يرغب بذلك، المهم أنه لم يقدم، غير أنه أرسل أسقف صيدا إلى سورية، مع رسائل على درجة عالية من اللطف والإطراء، قائلاً أنه ليس لديه أية مشاعر سيئة نحوهم لما فعلوه، ووعد بالعفو عنهم وأن يمنحهم نعمه، وطلب منهم أن يكونوا مخلصين له ولابنه، زد على هذا أنهم إذا لم يرغبوا بوكيله الموجود في صور في أن يكون وكيلهم، إنه سيوافق على الفور أن يكون واحداً من رجاله من أهل البلاد وكيلاً لهم في عكا، وأن يكون رتشارد فيلنغر في صور، وجاء في هذه الرسائل واضحاً سمة المرشح ليكون الوكيل، فقد كان فارساً كان موجوداً في صور، واسمه فيليب موغاستيل Maugastel (٢٤١)، وكان قليل التقدير، وقيل كان يصنع وجهه مثل امرأة، وأنه كان وثيق الصلة بوكيل صور، وقد خيل للامبراطور أنه بهذه الوسائل يمكن أن يريح إلى جانبه الناس في سورية، وأن يبعدهم عن تقديم العون إلى صاحب بيروت وإلى القبارصة، وهو طبعاً ما أن سيملك الفرصة سوف يقترب أسوأ ما يمكنه، (٢٤٢) .

١٤٧ : وبعد ما قام أسقف صيدا، الذي جاء إلى عكا بالتباحث حول عدد من الأمور وبعد إجراء ترتيبات كثيرة، اتفق صاحب صيدا والقسطلان (٢٤٣)، حول هذه الأمور، وجعلوا الناس يأتون إلى كنيسة الصليب المقدس، حيث وجد الإنجيل، وبينما كانوا ينتظرون القيام بأداء اليمين، حدث أن صاحب قيسارية الشاب، الذي كان ابن أخت مولاي صاحب بيروت، كان قد جاء من قبرص لقضاء أعمال خاصة به، فسمع بهذا الشيء، فجاء مسرعاً إلى عكا، ودخل في الساعة التي كان اليمين سيتم أخذها بها إلى الكنيسة الكاتدرائية للصليب المقدس، وأمر بضرب

ناقوس « الكومونة »، وعندما سمع رهبان القديس أندرو صوت الناقوس ،
بادروا إلى حمل السلاح (٢٤٤)، وصرخوا جميعاً: «إقتل، إقتل» .

١٤٨ : فرآهم أسقف صيدا فهرب خوفاً منهم إلى بيت أسقف عكا،
وتخفى في البيعة، ولولا قدوم صاحب قيسارية، لكان أسقف صيدا قد
قتل في ذلك اليوم، وكذلك صاحب صيدا، والقسطلان أيضاً، غير أن
صاحب قيسارية استرد الهدوء، وقادهما معه إلى خارج المكان، وبادر على
الفور إلى إعلام خاله صاحب بيروت بجميع هذه الأشياء، وكان آنذاك
في قبرص مشغولاً بحصار سيرينا (٢٤٥)، وعلى الفور تخلى صاحب
بيروت عن الحصار، وعين مكانه ابنه الأكبر السير بالين، ورغب الملك
هنري أن يصطحب معه فيليب دي نوفار، لكن السير بالين لم يسمح
بذلك .

١٤٩ : وذهب صاحب بيروت إلى عكا، وأجرى ما لزم من ترتيبات،
وأمر بتجديد أيان جميع البوليان، وأنه من جديد هو المقدم، وبعث
أسقف صيدا إلى صاحب بيروت يلتمس منه باسم الرب ولأجله ولأجل
شرفه وللمنفعة أن يسمح له بالقدوم إليه ليتحدث معه، ورد عليه
صاحب بيروت أنه باسم الرب عليه أن يقدم، وأرسل إليه (الأسقف)
وجلب إليه إلى هناك، وما أن مثل (الأسقف) بحضرة الإيبليني حتى تولى
قراءة رسالة من الامبراطور، بعث فيها (الامبراطور) بتحياته وتطميناته .

١٥٠ (٢٠٧) وقال الأسقف: « لقد ورد في هذه الرسائل وجوب أن
تصدقني، فقد بعث إليك الامبراطور رسالة يقول فيها إنه نادماً كثيراً لما
جرى بينك وبينه، وأنه سوف يتصرف في المستقبل نحوك ونحو الذين
يتعلقون بك بأن تصبحوا أغنياء، وذوي أساسات ثرية، لكنه يتمنى
عليك الاستجابة لنقطة واحدة فيها تشريف له، بها لن يكون بمقدور
الناس القول بأنك قهرته، والتشريف الذي يطلبه منك أن تقدم إلى
مكان يبدو أنه خاضع له ومن أملاكه، وأن تقول ببساطة مطلقة، وفق

الطريقة التالية أووفق طريقة أخرى: « إنني أضع نفسي تحت رحمة الامبراطور بحكم أنه مولاي»، وعلى هذا رد مولاي صاحب بيروت قائلاً: « سيدي الأسقف، عندما أنتهي من كلامي سوف أجيب على طلبك، لكن قبل ذلك سوف أضرب لك مثلاً، وهو حكاية كتبت في كتاب حكايات رينارد، وهي بتقديري سوف تنطبق تماماً على هذه المناقشة التي افتتحتها» .

١٥١: «لقد حدث في غابة كانت كثيفة الأشجار، ومليئة بجميع أنواع الحيوانات، أنه كان هناك أسداً عظيماً، وقد كان شاحباً جداً، ومريضاً، ومضطرباً، وكان في أحد الأيام مستلقياً أمام مدخل كهفه، فرأى يمر أمامه مجموعة كبيرة من الوعول الفتية العائدة لذلك الموسم، وقال الأسد لحاصه أهل بيته: إذا أنا لم أكل ذلك الوعل الشاب الذي سار أمام الآخرين سوف أموت، فهذا ما أخبرني به الأطباء، لذلك بعث إلى الوعل وتوسل إليه باسم الرب أن يقدم ويتحدث معه، لأنه مريض جداً، وهو يموت، واستجاب الوعل وذهب إليه لأنه مولاه، وما أن دخل إلى الكهف حتى بادر الأسد مسرعاً للإمساك به، وقفز عليه وضربه على رأسه بكفه فمزق جلده حتى مادون جبهته، وكان الوعل قوياً وسليماً، وكان الأسد ضعيفاً ومريضاً، لذلك وقع إلى الخلف نتيجة ضربته التي سددها، وهرب الوعل ورأسه ينزف وقال بأنه لن يدخل إلى بلاطه ثانية، وفي الوقت نفسه تعافى الوعل من جراحاته» .

١٥٢: « وحدث بعد هذا بأمد طويل، أن الأسد بعث إلى الوعل وقال أنه بعون الرب قد فكر باستقباله بكل ترحاب وسرور عندمدخل بيته وهو يريد أن يعانقه، وأنه لسوء حظه حدث أن لمست مخالبه رأسه، وأن ذلك حدث على الرغم منه، وبسبب ضعفه ووقوعه أصابته مخالبه، وترجاه الآن باسم الرب أن يأتي إليه، ولقد بذل كثيراً من الالتماسات وترجاه طويلاً حتى أنه ذهب إليه ثانية، وخرج الأسد لاستقباله، وقفز

للإمساك به، وأصابته مخالبه وجرحته حتى ذيله، ولقد أصابه في ظهره كله، وكان هناك في الظهر جرحين عميقين، وقفز الوعل بكل عنف لإصابته بالجراحة، وكان الأسد ما يزال ضعيفاً، وسقط نتيجة لضربته، وهرب الوعل، وإثر هذا ظل مريضاً من جراحاته، لمدة عام تقريباً.

١٥٣ : «وفي نهاية العام أرسل الأسد إليه ثانية واحداً من باروناته، وأقسموا له كثيراً وتوسلوا أكثر إلى حد أن الوعل خدع وقدم مجدداً إلى البلاط، وكان الأسد قد تحسن وأنشأ حول نفسه حاشية خاصة به، وأخذ أفراد الحاشية الوعل وقتلوه، وأصدر الأسد أوامره بوجوب سلخه، ووضع التوابل له وتنظيفه لأنه رغب في أكله، وأكل الحيوانات من اللحم، أما أمثال زنجريم ورينارد فقد شغلوا أنفسهم بإعدادهم، وأدخل رينارد فمه وبوزه في داخله وأخذ القلب وأكله، وقد خاف بقية الحيوانات من هذه الفعلة كثيراً، ولاحظ الأسد ذلك، وحاول - كخائن - بذل غاية جهده لتسويغ عمله بوساطة كلماته، فقال: لاتظنوا أيها السادة أنني قد قتلت هذا الوعل غدرًا أو خيانة، بل إنني فعلت ذلك لشفاء نفسي، ذلك أن جميع الأطباء قالوا بأنني لا يمكن أن أعيش إذا لم آكل قلب هذا الوعل».

١٥٤ : «ولم يتمكنوا من العثور على القلب لأن رينارد كان قد أكله، وأقسم الأسد بأن رينارد قد فعل ذلك، لأن لحيته كانت ملوثة بالدم، وأشار الجميع نحوه بأصابعهم، وحكم الجميع بوجوب موت رينارد لفعلته هذه، وأعلن رينارد على مسمع الجميع بأنه كان مطيعاً لأوامر الملك، ووضع نفسه تحت حكم المحكمة، وهناك قال رينارد: أيها السادة قدم الوعل مرة إلى البلاط، وذهب عائداً مبتعداً برأس ينزف، وجاء مرة ثانية وغادر بجرحين بليغين في ظهره، وجاء بالمرّة الثالثة ليموت وهو ضعيف ذليل مثل الذين بلا قلب، لأنه لو كان لديه قلب لما جاء للمرّة الثالثة، ويقول المثل: الشيء المفقود هو الذي لا يمكن إيجاده، فالوعل لم يكن لديه قلب، وأنا لم أكله، وذقني ملوثة بالدم

بسبب سلخي له وفتحي لجسده، وأنا ألتمس من كل واحد هنا في هذا المكان، باسم الرب، ومن أجل نفسه، أن يحكم علي، وهنا قال الجميع بصوت واحد بأن الوعل لم يمتلك قلباً، وهكذا جرى إطلاق سراح رينارد» .

١٥٥ : وتابع صاحب بيروت يقول : « وأنا أقول لكم يا سيدي الأسقف إن الذي حدثكم به مثل ينطبق عليّ تماماً وعلى الامبراطور، فهو الأسد وأنا الوعل، وقد تولى خداعي مرتين، وكانت المرة الأولى في ليما سول، وقد عدت منها برأس ينزف، وكانت المرة الثانية عندما تركت قلعة ديودامور، وجئت إليه، فقد قام على الرغم من جميع الاتفاقيات وضدها فاحتفظ بالقلع وبقبرص جميعها، وباع الملك وقبرص إلى أعدائي، ومثل هذا الجرحين البليغين في ظهري، وإذا ما قمت الآن بوضع نفسي تحت رحمته، أعتقد أنني سوف أقتل مثلاً حصل للوعل، ولسوف يحكم عليّ بشكل مؤكد أنني كنت بلا قلب، ولهذا أقول لك أيها السيد الأسقف، وبودي أن يعلم جيداً بأنه سوف لن يضعني تحت سلطانه، فضلاً عن هذا، إذا ما حدث لسوء الحظ، ومثلت أمامه، وهو يمتلك القوى كلها، وأنا ليس لدي لأولاد، ولا أصدقاء، ولا قوة تتجاوز إصبع يدي الصغير، فبهذا الأصبع سوف أدافع عن نفسي حتى الموت» وهكذا أنهى كلماته .

١٥٦ (٢٠٩) : وكان صاحب بيروت قد أسس نفسه وأوضاعه بشكل جيد في سورية، وقد ترك في سورية محله ابن أخته صاحب قيسارية، وعاد على الفور إلى قبرص، ودام حصار قلعة سيرينا لمدة أكثر من عام، وعانى الذين كانوا في الداخل من أشياء كثيرة، وعرفوا أنه من غير الممكن وصول عون إليهم من عند الامبراطور، وعرفوا بأن وكيل صور كان يقوم بإبرام معاهدة، ولهذا تحدثوا عن المصالحة، وتولى أرنيس صاحب جبلة وفيليب دي نوفار إبرام الصلح، ونتيجة لذلك سلموا

القلعة والأسوار وجميع الأسلحة والمؤن والعتاد الذي جلبوه ووجدوه في الداخل (٢٤٦) .

١٥٧ : وحررهم فيليب دي نوفار، وأمن لنقلهم ما احتاجوه من غلايين ومراكب ، وجعلهم يذهبون إلى صور آمنين سالمين هم ومقتنياتهم، وقضى الاتفاق أنهم ما أن يصبحوا في صور، حتى يتوجب على صاحب بيروت المضي إلى عكا، وأن يأخذ جميع الأسرى الذين أسروا في المعركة ومايزالون أحياء، وعليهم تسليمه جميع رجاله الذين أسروا في قلعة إيمبرت، والذين كانوا في صور، وتم تنفيذ ذلك حسبما قيل، فقد أخذ الأسرى معه إلى عكا (٢٤٧)، وكان قد جرى الإعداد من قبل بوجوب أخذ الأسرى من كلا الطرفين إلى وسط الطريق بين صور وعكا، وهنا جرى تبادل أسراهم فيما بينهم، وعاشت قبرص إثر هذا بسلام، لكن سورية بقيت في أوضاع سيئة، لأن السير رتشارد فيلنغر وأخوانه وعدد كبير من اللومبارد قد بقيوا في صور (٢٤٨) .

١٥٨ (٢١٢) : وبعد أربع سنوات من عقد المصالحة، وكان هذا في سنة ١٢٣٦ ، قام مولاي جون دي إيبيلين بالاعتراف، فقد كان السيد الجيد لبيروت، الذي أدرك جيداً فضل ربنا عليه ونعمته حيث منحه مجداً وتشريفاً عظيماً، وجاء اعترافه بسبب الوحش الذي انقض علىه، وقام بهذا الاعتراف بشكل نظامي حيث عجب الناس كثيراً من ذاكرته العظيمة، وقد تاب من جميع ذنوبه ونال المسامحة، وقد تاب من كثير من الأشياء التي لايعدها الناس ذنباً، وقد سدد جميع ديونه لأنه امتلك في ذلك اليوم مداخيل كبيرة، وذلك بالاضافة إلى إقطاعاته، وأعطى الجميع في سبيل الرب، وفي سبيل خلاص روحه، وأعطى ذلك بيديه مع ذكرى طيبة، ولقد منح الكثير من الإقطاعات إلى أولاده، وأمر بأن يكونوا تابعين لأخيهم الأكبر، ومتملكين للاقطاعات منه .

١٥٩ : وبعد هذا جعل من نفسه راهباً من رهبان الداوية، وذلك

حسبها كان قد نذر، وقد عارض أولاده ذلك معارضة كبيرة، وشعر جميع شعب البلاد بأسف عظيم، لهذا السبب، لكن ذلك لم يجد شيئاً، لأنه دخل في رهبانية الداوية على الرغم من معارضتهم، وقد فعل ذلك بكل هدوء، وحمل نفسه وتوجه إلى عكا، ولم يبق طويلاً في هذه الرهبة، وبموته ختم حياته بشكل يجعل الانسان يندهش ويصعب عليه أن يصدق حقيقة ما شهدته وتلمسه، وعندما كان يحتضر ويسلم الروح طلب إحضار صليب ووضعه أمامه وحمل فيليب دي نوفار الصليب، وأمسكه بيديه واضعاً إياه أمامه، وقد قبل قدمي ربنا يسوع المسيح، وقال بقدر ما استطاع: « في عهدتك، وأمرك، أضع روحي»، وهكذا أسلم الروح إلى الرب، ولم يتغير جسده لدى موته، وإذا كان الإنسان يؤمن بأن الأرواح الطيبة تذهب أمام الرب، يمكن للإنسان أن يكون متأكداً، بأن روحه قد مضت من هناك إلى الفردوس، وبقي الآن ابنه السير بالين الذي تحكم بذاته وبتصرفاته وكان نشيطاً، صاحب بيروت في مكانه، ولقد توفر لديه أخوان طيبون، وأولاد عم وأولاد خال، وأصدقاء جيدون ساعدوه مساعدة مفيدة .

١٦٠ (٢٢١) : وكان اللومبارد وقتذاك في صور، وقد عاشوا هناك لبعض الوقت بهدوء وسلام، ونجح رتشارد فيلنغمارشال الامبراطور وقتها، وضمن، واجتذب إلى حزبه رهبان مشفى القديس يوحنا، كما كسب اثنين من أهم برجاسية عكا، وكان لهما سلطات واسعة ونفوذ قوي على شعب المدينة، وكان اسم أولهما جون فالين Vaalin، واسم الآخر وليم دي كونشي Conches، وحدث في ذلك الوقت في عكا أنه لم يكن هناك فيها أحد من حزب الإيلينيين، فيما عدا واحد فقط كان اسمه السير فيليب دي مونتفورت (٢٤٩)، وكان قد قدم عبر البحر عندما جاء ملك نافار إلى عكا، وقد تزوج من سيدة نبيلة من البلاد، عرفت باسم سيدة تورون (٢٥٠) (تبنين)، ولزواجه منها دعي باسم صاحب

تورون، وكان عن طريق أمه ابن خال لواحد ألماني اسمه السير بالين الأصغر، صاحب بيروت، وابن خال أيضاً لأخوانه (٢٥١) .

١٦١ : وكان السير بالين دي إيبيلين صاحب بيروت قد عاد في ذلك الحين من جيش ملك نافار، بعدما أمضى فيه وقتاً طويلاً، وبعدها صنع لنفسه اسماً عظيماً، وقد أقام إقامة مؤقتة في بيروت، وكان أخواه : السير غي والسير بلدوين - اللذان حققا فيما بعد مكانة هامة جداً - آنذاك في قبرص، وكان أخوهما السير هيوچ، وكذلك صاحب قيسارية الأصغر قد انتقلا من هذا العالم، وسبب انتقالهما هذا حزناً وخسارة كبيرة لجميع أصدقائهما وإلى المملكتين، وكان أخوهما السير جون صاحب فوغيا آنذاك في أرسوف (٢٥٢)، ويودس دي مونتيليارد القسطلان، وهو الذي تزوج من ابنة خالهما (٢٥٣)، وهو الذي تسلم منصب الوكيل في عكا (٢٥٤)، لقد كان آنذاك في قيسارية هو والداوية في الجيش مع قسم من فرسان المملكة، ولهذا كله كان بإمكان رتشارد فيلنغر هذا، أن يقوم بمغامرته وهو كبير الاطمئنان .

١٦٢ (٢٢٢) : وهكذا كان أن حدث مايلي: بعدما تجسس وكيل صور السير رتشارد فيلنغر، واكتشف الكثير، ورتب الأمور مع البرجاسيين، المشار إليهم أعلاه، انطلق وجاء بشكل سري إلى عكا، وكان ذلك خلال الليل، وقد دخل إليها من باب خلفي مموه كان موجوداً في السور، وقاده هذا الباب إلى حديقة المشفى، ومن هناك مضى مباشرة إلى مقر فرسان مشفى القديس يوحنا، وتم استقباله هناك، ومكث لمدة يوم وليلة، وما يزال الباب الخلفي يدعى «باب مدخل الشيطان»، وذهب البرجاسيان المتقدم ذكرهما إلى مقر فرسان الاستتارية، وتشاورا معه، ثم مضيا بعد ذلك يتجولان في شوارع المدينة يبحثان عن من سوف يقسم لهما، وقد جعل كل الذين أبدوا الرغبة في تصديقهما يقسمون أن يكونوا قيد أمر الوكيل الذي جاء من صور.

١٦٣ : وكشفت أخبار أفعالهما من قبل واحد من الذين أقسموا لهما، وبذلك عرف فيليب دي مونتفورت بأخبارهما، وكان هناك هياج عظيم في المدينة، وقد انطلق حاملاً سلاحه ومعه أكبر عدد من الرجال استطاع تجنيدهم، وقام الجنويون والبنادقة الذين لم يجبوا الامبراطور أو أتباعه، فتسلحوا على الفور، وخلال ساعة من الزمان حصنوا شارعهم، ونشط السير فيليب دي مونتفورت فاستطاع إلقاء القبض على البرجاسيين، ووضعهما بالأغلال، وبعث على الفور بخبر هذه الأوضاع إلى صاحب بيروت، وجاء صاحب بيروت مسرعاً، وجلب معه جميع قواته وعدداً كبيراً من سيرجندية الجبال، ولقد قدم مسرعاً جداً ومرت أمام أبواب صور، وعلم رتشارد فيلنغر الوكيل - الذي كان متخفياً في عكا في داخل مقر الاستبارة - بقدوم صاحب بيروت، وباعتقال صديقه، فهرب على الفور أثناء الليل من خلال الباب الخلفي المموه، وعاد إلى صور، وقام بجهد قليل للتصدي لصاحب بيروت، وقد أخفق في ذلك .

١٦٤ : وعندما دخل صاحب بيروت عكا، غدت المدينة على الفور خاضعة لسلطانه، وقد فهم بأن الاستبارة كانوا طرفاً في هذه العملية، فحاصر المشفى من جميع الجهات وضغط عليها عن قرب عظيم، وألحق بها أضراراً فادحة، وقد تمكن من أن يفعل ذلك بسهولة لأن المقدم الأخ بيتردي فيلابرايد (٢٥٥) Villebride، وهيئة قيادة الاستبارة كانوا آنذاك في المرقب بسبب الحرب التي كانت ناشبة آنذاك مع سلطان حلب (٢٥٦) من أجل السيطرة على تخوم المرقب ومدينة جبلة، وعلم آنذاك صاحب بيروت بأن رتشارد فيلنغر الوكيل، قد هرب من مقر الاستبارة وذهب إلى صور، وعاد القسطلان ورجال بلاده الذين كانوا في قيسارية من الجيش وصاروا تحت إمرة صاحب بيروت، وهكذا مكثوا مدة طويلة في عكا .

١٦٥ (٢٢٣) : وحاصر صاحب بيروت بيت فرسان القديس يوحنا

في عكا لقراية ستة أشهر (٢٥٧)، وهكذا ما من إنسان سمح له بالدخول إلى البيت والخروج منه من دون أن يكون قادراً على أن يفعل أي شيء أكثر، لأنه وجد أيضاً في البيت عدد كبير من الرجال الجيدين الذين كانوا يدافعون عن أنفسهم فيه، وكان في البيت عدد ضئيل من الاستبائية لأن المقدم وهيئة القيادة كانوا بعيدين مسافرين، حسبما ذكرناه أعلاه، وبناء عليه قرر المقدم وهيئة قيادة الاستبائية واتفقوا على إيقاف حملتهم ومن ثم العودة إلى عكا، وفعلوا ذلك وعسكروا خارج المدينة في الكروم الجديدة.

١٦٦ : وتدخل الأصدقاء المشتركون وتوصلوا إلى عقد صلح فيما بين الاستبائية وصاحب بيروت، ومن ثم جرى التخلي عن حصار الاستبائية، حيث أعلن صاحب بيروت عن نفسه مخطئاً جداً بحق الاستبائية بسبب قيامه بهذا العمل وترجى من أجل المسامحة، وأعلن أمام الناس، بأن بعض الناس الذين لا يحبون الاستبائية جعلوه يفعل ما فعله بإعطائه صورة وبجعله يعتقد بأن الأشياء التي رغب رتشارد فيلنغر القيام بها في مدينة عكا مع جميع الاضطرابات التي تمت، قد جرى ترتيبها من خلال بيت الاستبائية، وبفضل مساعدته وتأييده، حيث كان رتشارد فيلنغر باقياً في داخل بيت الاستبائية، ولهذا السبب حاصر هذا البيت، وبناء عليه إنه يمتلك الامكانيات العظمية للأسف .

١٦٧ : ثم قال مقدم الاستبائية لصاحب بيروت : « عليك يا صاحب بيروت أن لاتصدق أن يقوم بيت الاستبائية بمثل هذا العمل الخطير الكبير أو أن يكون شريكاً، عندما تكون هيئة قيادتنا بعيدة عن عكا، وعلى مسافة عظيمة، وحسبما كنا مشغولين خارج المرقب، ولقد كنا قد تركنا عدداً قليلاً من الرهبان في البيت في عكا، وذلك كما يعرف كل واحد، لابل حتى في هذه الحالة من المؤكد أن أخواننا الذين كانوا آنئذ في البيت لا يمكن أن يشاركوا بأية صورة بمثل هذه الأشياء، ولهذا

السبب ينبغي عدم اتهام بيت الاسبتارية بأية تهمة قذرة، أو أن يوصموا بمثل هذا العار الكبير حتى يحاصروا لمثل هذا السبب، وعلى كل حال، بما أن المسائل قد سويت بما حقق الرضا لكل من الطرفين، فإن هذه الأشياء التي مضت يتوجب نسيانها كلياً.

كيف غادر رتشارد فيلنغر صور ليذهب عبر البحر

١٦٨ (٢٢٤) : وحدث في هذه الآونة أو قبل ذلك بوقت قليل أن أرسل الامبراطور فردريك رسالة إلى السير رتشارد فيلنغر، الذي كان وكيله في صور، بوجوب حضوره إلى عنده، ذلك أنه يرغب في أن يرسل إلى سورية واحداً يحل محله، وغادر السير رتشارد المتقدم الذكر وسافر من صور، وكان معه أخوه السير هنري، وابن أخته جون أوف سورنتو Sorrento، وزوجاتهم وأولادهم وحواشيهم وآل بيوتهم (٢٥٨)، وقد صعدوا جميعاً ظهر سفينة كبيرة، وسافروا عليها، وعندما غادر رتشارد فيلنغر ترك أخاه لوثير في مكانه، ومعه ما يكفي من الرجال والسلاح، فهو كان سيتولى حكم مدينة صور، لأنه كان مارشال مملكة القدس من جهة الامبراطور (٢٥٩)، وكان سكان صور يكرهون اللومبارد كراهية عظيمة، ولهذا جاء أربعة منهم (٢٦٠) إلى صاحب بيروت وعرضوا عليه تسليم مدينة صور إليه، وأعدوا معه الترتيبات، وقد عقد مجلساً استشارياً هناك حول الموضوع مع السير فيليب دي مونتفورت، صاحب تورون، ومع فيليب دي نوفار الذي كان وثيق الصلة به وقريباً جداً منه، وقرر الاجتماع مايلي : أن يتوصل إلى اتفاقية مع هؤلاء الرجال، ثم تلقى اليمين من هؤلاء البرجاسية الأربعة من أهل صور .

١٦٩ (٢٢٥) : وفكر فيليب دي نوفار ملياً في هذه المسألة خلال الليل، ثم إنه ذهب إلى مولاه، صاحب بيروت وقال له: «لقد فكرت يامولاي حول شيء يحميمك من الملامة، فأنت تعرف أنك أنت مع الآخرين من أهل مملكة القدس قد أديت يمين الولاء للامبراطور على

أساس أنه الوكيل عن ابنه الملك كونراد، ولقد حافظت بأمانة وصدق على يمينك دوماً بينما حافظ هو بشكل سيء على يمينه كما هو واضح (٢٦١)، وأعلمك أن الملك كونراد قد وصل إلى السن القانونية (٢٦٢)، ولهذا السبب قد تحررت أنت من الامبراطور، ولسوف يكون من المفيد جداً أن يعرف هذا الوضع كل إنسان قبل أن تستولي على صور أو قبل أن تأخذ منه الوكالة، فوقتها يظل الناس ينادون بمنع الامبراطور وبحرماته من صور كوكيل، ولسوف تكون قادراً أن تمتلك سيلاً جيداً ومشرقاً إذا ما رغبت بمثل ذلك» .

١٧٠ : «لأن العادة في مملكة القدس إن أكثر الناس شرعية في وراثة السلطة، هو الأكثر ظهوراً، ويتسلم هذا الميراث السلطوي بحق حتى يأتي واحد أكثر شرعية منه بوراثه السلطة، ولديك في هذه المدينة السيدة الملكة أليس، أم الملك هنري، التي هي ابنة أختك الألمانية، وهي أكثر الناس شرعية ظهوراً في مملكة القدس بوراثه السلطة، لأنها ابنة الملكة إيزابل، التي هي نفسها الوريث الشرعي للمملكة بحكم كونها ابنة الملك عموري، وصحيح أن الملك كونراد منحدر من الأخت الأكبر، وأنه لو كان حاضراً لاستحق الميراث، لكن حتى يقدم هي الوريث الشرعي الأكثر ظهوراً (٢٦٣)» .

١٧١ : «ولهذا السبب أشير عليك أن تقوم بجمع رجال مملكة القدس، وأن تمثل الملكة أليس أمامهم، وأن تطالب بمملكة القدس بموجب الحق المبين أعلاه، وحسبما بينت كيف يمكن التخلص من الامبراطور والانفصال عنه، وبهذا تعد الترتيبات لوصول الملكة إلى سلطاتها، وعندما تطالب بصور، إذا لم تُسلم إليها، أو لم تخضع لأوامرها، أو تدخل في خدمتها، سوف تقوم - إن شاء الرب - بموجب الاتفاق الذي عقده مع أهل المدينة، بالاستيلاء على مدينة صور بحق شرعي كامل وبشرف ومجد لذاتك، ولسوف تطرد اللومبارد من سورية» .

١٧٢ : وعندما سمع صاحب بيروت هذا العرض المنطقي، كان مسروراً جداً به، ووافق تماماً عليه، وبعث على الفور وراء مولاي فيليب دي مونتفورت صاحب تورون، وتولى فيليب دي نوفار - بناء على أوامر مولاه صاحب بيروت - فأعاد على مسامع صاحب تورون حكاية جميع ما قاله من قبل، ووافق (صاحب تورون) على الفور، وأشار بالقيام بهذه المحاولة، وكان واثقاً بها، وقد توفرت لديه أسباب جيدة لذلك، وكانت كافية بالنسبة له، لأنه كان عاقلاً جداً، وصاحب رأي صائب، وقد أخبرا على الفور فيليب دي نوفار بوجود ذهابه إلى الملكة أليس وإلى السير رالف دي سوا سون Soissons، الذي كان باروناً فرنسياً، وكان زوجها (٢٦٤) .

١٧٣ : وأخبرها فيليب دي نوفار بما رغب به الشخصيتان المذكورتين أعلاه، واللذان كانا معاً أبناء خال ألمان للملكة أليس، ولقد ابتهجوا لهذا الترتيب كثيراً، وقالوا لفيليب دي نوفار بأنها يرغبان في أن يكون هو السكين، وهما اللحم، حتى يستطيع أن يقسم ويوزع كيفما يشاء، وبحث فيليب في المسألة، وذهب وعاد حتى تم إعداد كل شيء وترتيبه، وكانت عقود الاتفاقات المبرمة كثيرة، وكان بين الأشياء التي جرى الاتفاق عليها وأدوا الأيمان حولها، أن يقوم صاحب بيروت وكذلك صاحب تورون بالسيطرة على جميع قلاع المملكة وتجهيزها وشغلها، حتى يأتي الملك كونراد إلى هناك، وكانا قادرين على القيام بهذا، وهو ما ينبغي القيام به، وقام فيليب دي نوفار بالتعاون مع برجاسي اسمه فيليب دي بوديون Bauduyn، الذي كان عاقلاً، ووثيق الصلة مع صاحب تورون، ولقد قاما فيما بينهما برسم خطوط الاتفاقيات ومن ثم كتابتها بشكل سري جداً، حتى أن ما من كلمة واحدة قد عرفت في أرجاء البلاد .

١٧٤ (٢٢٦) : وتدبر صاحب بيروت وصاحب تورون عقد اجتماع لجميع إقطاعيي عكا وأعيانها، في بيت بطريك القدس (٢٦٥)، وكان

الجنويون والبنادقة والبيازنة هناك (٢٦٦)، وجميع الرهبانيات الدينية العائدة للمدينة أيضاً، وقدمت الملكة أليس زوجها مع رالف دي سواسون إلى الاجتماع، وتولى فيلب دي نوفار الذي كان مستشارهما دعواهما، وطرح بكل وضوح جميع الأسباب والإدعاءات التي سمعتها من قبل، وخلاصتها : إن الملكة أليس الوريث الشرعي الأكثر ظهوراً، وهي التي تستحق تسلم سلطان مملكة القدس، وبناء عليه إنها قد طلبت ومعها زوجها، أن يقدم الحضور الولاء والخدمات المتعلقة بالمملكة، ثم إنهما عرضا الحفاظ على الاستخدامات الجيدة وعلى العادات الطيبة للمملكة .

١٧٥ : واعتزل الذين كانوا من أهل المملكة جانباً، واستدعوا فيليب دي نوفار للتشاور معهم، وسألوه الرأي والاجتهاد الممكن اعتماده للقيام برد، وقد أوضح لهم جميع الأسباب التي تقدم وسمعتها، وبين كيف أن الملكة أليس هي أكثر الورثة الشرعيين ظهوراً للسلطة، وكيف أنهم انفصلوا عن الامبراطور فردريك وتحرروا من التبعية إليه، لأن ابنه كونراد قد وصل إلى السن القانونية، ونصحهم بشكل جيد وأشار عليهم بوجوب وضع الملكة أليس في موقع المتسلم لسلطة مملكة القدس، لأنها أوضح الورثة الشرعيين حقاً بالمملكة، وأنه يتوجب عليهم تقديم الولاء والخدمات إليها، بشرط أنه ما أن يقدم الملك كونراد إلى مملكة القدس، حتى يبادروا إلى التخلي عن الارتباط بالملكة أليس، ووقتها يحولون إليه وينقلون كل ما هم مدانون به إليه ومتوجب عليهم نحوه.

١٧٦ : ووافق الحضور جميعاً على رأي فيليب دي نوفار، والتمسوا منه أن يقوم شخصياً بتقديم جوابهم إلى الملكة أليس، وقد تولى تنفيذ ذلك على الفور وبكل رغبة وطواعية، وقد قيل له بمثابة إيماء بأنه طالما هو نفسه عرض المطالب والإدعاءات، وقدم أيضاً الجواب، عليه أن يعطي القرار، وإثر هذا جعلت الملكة أليس متحركة بمملكة القدس، وكان

أول من قدم لها الولاء صاحب بيروت، وتلاه صاحب تورون، ومن بعدهما جميع الفرسان الآخرين العائدين لعكا، وقد حدث هذا في سنة ١٢٤٢ (١٢٤٣).

١٧٧ : وبفضل ما حدث نال فيليب دي نوفار التشریف والثروة، لأن الملكة أليس أعطته مائة دينار إسلامي بمشابة إقطاع، وأمرت بتسديد جميع ديونه التي بلغت ألف مارك فضي، وصار فيليب الوكيل والمعلم في كل شيء (٢٦٧)، وتمكن بنجاح أن يجمع الإيجارات حتى أنه استطاع في ثلاثة أيام أن يدفع إلى المرتزقة وللغلايين التي كانت ذاهبة إلى حصار صور، لأن الملكة أليس كانت قد طالبت بصور، ورفض اللومبارد استسلامها، وحشد السير رالف سواسون، زوج الملكة أليس المتقدمة الذكر هو ومولاي صاحب بيروت وصاحب تورون عدداً كبيراً من المرتزقة والغلايين المسلحة، وجلب فيليب دي نوفار سفينة كبيرة لهؤلاء السادة، وكانت مشحونة بشكل جيد بعدد من الرجال المسلحين، وذهب الجنويون والبنادقة إلى هناك، وتوفر هناك عدد كبير من الرجال.

١٧٨ : وانطلق الجيش في أثناء الليل وزحف براً وبحراً، وحاصر صور، ورتب صاحب بيروت الأمور بأن تحدث مع بعض الذين كان قد اتفق معهم على تسليم المدينة، حسبما ذكرنا من قبل، وهؤلاء لم يتمكنوا من المتابعة وفق الطريقة التي تم الاتفاق عليها لتسليم المدينة، غير أنهم أخبروه بوجود باب خلفي قرب شارع الجزارين، على الجانب باتجاه البحر، وأنه إذا ما أراد المرور مع جيشه على طرف الشاطئ، وأن تتمكن غلايينه من الاقتراب من سلسلة الميناء، فوقتها سيفتحون الباب الخلفي، ويفكون سلسلة الميناء، وهكذا يمكنه الدخول بأمان، وعندها سيقوم الذين في داخل صور من حزبه بحمل أسلحتهم والثورة على رجال الامبراطور، وعندما سمع صاحب بيروت بهذه الخطة وعد بتنفيذها، غير أنه أصر على أن يقوم الذين بالداخل بالتخلي عنه، وأخبره

البرجاسية بردهم أنهم سوف ينفذون الخطة بدون إحباط .

١٧٩ : وعباً صاحب بيروت جيشه وصفه على اليابسة وفي البحر، ورتب إشارات بينه شخصياً وبين الذين كانوا على اليابسة، وردد البرجاسية الذين تحدثوا مع صاحب بيروت كل ما حدث على مسامع البرجاسية الآخرين، الذين كانوا متفقين معه، وعندما رأوا أن الفرصة قد تهيأت أعطوا الإشارات، وعندما رؤيت هذه الاشارات أعطى صاحب بيروت نداء إلى السلاح، وأصدر إلى الذين كانوا على ظهور الغلايين الأوامر بالاقلاع، وبدخول الميناء مهما كان الثمن، حتى وإن كلفهم التنفيذ فقدان حياتهم، ثم إنه ركب وزحف هو ورجاله (٢٦٨) إلى المكان الذي كان رفاقه ينتظرونه فيه قرب الباب الخلفي بجوار شارع الجزارين، وكان البحر عالياً، ووقعت الخيول على الصخور، وكان عدد كبير من الناس، لهذا عرضة لخطر الموت، وسقط الذي حمل العلم في البحر، وكان فارساً شاباً، وابناً لفيليب دي نوفار اسمه بالين، ونال اسمه هذا من صاحب بيروت الذي كان عرابه، وقد وصل إلى الأسفل وتمكن من استرداد العلم ومن ثم رفعه خفاقاً في البحر، وحمله بعد هذا حتى الاستيلاء على المدينة .

١٨٠ : ودخل صاحب بيروت ورجاله إلى المدينة عبر الباب الخلفي بكل ثبات، وكادوا أن يتعرضوا للقتل من قبل الذين كانوا في الأبراج مع المدافعين عن المدينة، ودخل الذين كانوا في الغلايين أيضاً بكل شجاعة، وعندما رآهم الرجال الآخرون من الجيش، ممن لم يكن يعرف ما هذا، بادروا بالركض في جميع أجزاء المدينة، وصعد السير رالف دي سواسون على الأسوار بكل شجاعة وإقدام (٢٦٩)، ولحق صاحب تورون بصاحب بيروت من خلال الباب الخلفي، وعندما رآهم أهل المدينة وقد دخلوا بمثل هذه الأعداد، انقضوا على اللومبارد وعندما سمع لوثير فيلنغر، واستوعب ما كان يحدث وينجز، سلح نفسه، وغادر البيت

حيث كان، ومضى يركض إلى القلعة، وركض الذين كانوا بالمدينة من الأبوليين، متسابقين بين بعضهم بعضاً إلى القلعة، وقتل عدد كبير ممن كانوا هناك واعتقلوا، وقد فقدوا كل ما امتلكوه في المدينة .

١٨١ : وهكذا جرى الاستيلاء على مدينة صور، التي كانت من أحصن المدن في العالم، وانطلق الذين استولوا على المدينة، وشغلوا أنفسهم بحصار القلعة، وشدّدوا عليها الحصار، وضيقوا عليها الخناق، لأنه توفر عدد كبير من الرجال أثناء الحصار، وكذلك أعداد كبيرة جداً من الجنود الرجالة (٢٧٠)، وتم صنع عدد من الآلات وأبراج الحجارة، التي تولت قصف القلعة، وأرهقت الذين كانوا في الداخل إلى الحدود القصوى، وتولى السير لوثير فيلنغر الدفاع عن القلعة بنشاط عظيم، ذلك أنه كان فارساً نشيطاً، وقائداً للذين كانوا في الداخل، وكان هؤلاء مجموعة جيدة من المقاتلين قادرين على الدفاع عن القلعة، لذلك لم ينل الذين كانوا في الخارج منهم شيئاً .

١٨٢ (٢٢٨): وبينما كان الذين خارج القلعة يتولون حصار القلعة، حدث حادث عظيم لهم حسباً ستسمع عنه، وبه أنجزوا مقاصدهم فيما يتعلق بالقلعة المذكورة، فقد منحهم الرب نعمة لاتقدر، وكنا قد تحدثنا من قبل عن رتشارد فيلنغر الذي غادر صور، هو وأتباعه على ظهر سفينة كبيرة، توجهت تريد أبوليا، وقد سباقته الأحوال الجوية إلى سواحل برباري، وجنحت سفينته، وتعرضوا جميعاً إلى خطر الموت غرقاً (٢٧١)، وكان هو ومن معه قد حشروا أنفسهم في القارب المرافق للسفينة مع الكثير من مقتنياتهم التي كانوا يحملونها، وكان قبل هذا قد أخذ سفينة من المسلمين، مما يدعوهم المسلمون قراقي Karaque (٢٧٢)، ووضع فيها واحداً من أصدقائه الجيدين، واسمه بيتردي غريل Grail الذي كان برفقته وكان رجلاً عظيماً ورائعاً في الحرب، وقد ساعده كثيراً في النزول من السفينة إلى القارب، ومن ثم في القراقي، والقيام بجمع شمله

وشمل حاجياته.

١٨٣ : ولم يتجرأوا على ركوب البحر المفتوح، لأن مركبهم كان صغيراً، مع أنه كان من السهل عليهم الذهاب إلى صقلية، لكن الأحوال الجوية كانت معاكسة لهم كثيراً، لذلك عادوا يسايرون سواحل سورية، فهذا ما أراده الرب، وقضت إرادة ربنا بقيام الأحوال الجوية بدفعهم من شواطئ برباري حتى ميناء صور، ولم يكونوا قد علموا بالأخبار، وقد وصلوا خلال الليل، وهم مثل الذين خيل إليهم أنهم وصلوا بأنفسهم بسلام إلى بيوتهم، حيث أنهم لم يعلموا شيئاً عما حدث في مدينة صور، لأنهم لو علموا بشيء من هذا القبيل لذهبوا إلى طرابلس أو إلى أرمينيا، وقد وصلوا وأنزلوا أشرعتهم مباشرة إلى جانب السفينة الكبيرة التي اشتراها فيليب دي نوفار وجهازها لحمل السادة عندما جاءوا إلى الحصار، وقد سألوا إلى من تعود السفينة، ومن هذا عرفهم الذين كانوا على السفينة وألقوا القبض عليهم واستولوا على بضائعهم، وحملوهم إلى السفينة.

١٨٤ : ووصلت الأخبار إلى صاحب بيروت بأن رتشارد فيلنغر قد وصل إلى الميناء، وتولى هو إخبار صاحب تورون، وذهب هذان الاثنان إلى رالف دي سواسون، وقامت ضجة كبيرة في جميع أرجاء المدينة، وركض جميع الناس إلى الميناء، وأقلع كثيرون في بوارج ومراكب أخرى واتجهوا نحو «القراقي» المذكورة، وتوقف السير رالف دي سواسون وصاحب بيروت عند السلسلة وبعثا صاحب تورون وفيليب دي نوفار إلى السفينة، وقام هذان باعتقال رتشارد فيلنغر وجماعته كلها وكل ما كان معه من بضائع وثروات أخرى، وذلك بدون أية مقاومة جاءت من قبله أو من قبل أي واحد من رجاله، لأنهم لم يكن لديهم قوة، وحملوهم إلى اليايسة، حيث بعثوهم إلى مسكن السير رالف دي سواسون، وضربهم الأطفال والنساء بالحجارة حتى كادوا أن يقتلوهم هم والذين تولوا

قيادتهم .

١٨٥ : وطلب صاحب بيروت تمكينه منهم ليضعهم في السجن، بحكم أنهم أعداء الألداء الذين دمروا قلعته في بيروت، وسبوا له أذى عظيماً، ولم يرغب السير رالف دي سواسون بتسليمهم له، وقال فيليب دي نوفار: «باسم الرب يامولاي، امنحهم له، لأن فيلنغر سوف يخاف خوفاً عظيماً منه، فيقوم الآن بتسليمك القلعة» وبناء على ذلك أعطاهم له، وبعثهم إليه، وصنع صاحب بيروت سلاسل من الحديد مثل التي كان الامبراطور قد صنعها له عندما اتخذ سجيناً عنده ورهينة في ليماسول، وكان فيلنغر مرعوباً منه كثيراً ومن جماعته، ثم جاء السير جون دي إيبيلين، الذي صار فيما بعد كونت يافا، للمشاركة بحصار قلعة صور، واجتمع القادة للتشاور، ثم أخبروا السير رتشارد فيلنغر وجماعته بأنه يتوجب عليهم ترتيب استسلام القلعة، وإلا فإنهم سوف يشنقونه من رقبته أمام الذين كانوا في القلعة .

١٨٦ : وبعث السير رتشارد فيلنغر إلى أخيه السير لوثير الذي كان قائد القلعة، وأخبره بأوضاعه، وما من أحد يعرف فعلاً بالذي أخبره إياه وبالجواب الذي حمله الرسول، لكن الذي عرف تماماً أنه رد على الذين كانوا بالخارج أن بإمكانهم أن يفعلوا بأخيه ما يشاءون وكذلك بابن أخيه، ذلك أنه لن يسلم القلعة، مطلقاً، ثم نصبت أعمدة ذات شعب خماسية، ووضعت فوق برج مرتفع كان قريباً من مواجهة القلعة، وجرى اقتياد السير رتشارد فيلنغر مع أخيه وابن أخيه إلى هناك، وكانوا قد غطوا أعينهم بأربطة، ووضعوا حلقات حول رقابهم، وجرى تعليقهم إلى الأعمدة بوساطة حبال ربطت حول أقدامهم، والذي كان يحتاجه الإنسان هو أن يشد نهاية الحبال، ووقتها سوف تنشد الإنشوصات، وتنغلق وساعتها سيبقى كل واحد معلق من رقبته .

١٨٧ : وراهم السير لوثير في هذه المحنة، فحزن كثيراً وأشفق عليهم،

وصرخ عالياً (٢٧٣)، وأرسل فيليب دي نوفار إلى هناك، وجرى الإعداد إلى استسلام تم بوساطته، على أساس تسليمهم للقلعة، واستلام فيليب دي نوفار لها، وقد أقسم لهم، وجعلهم يقسمون بأن يتم تحرير السير رتشارد فيلنغر وإطلاق سراحه مع جميع أصحابه، وأن ترد إليه كل الأشياء التي أخذت منه، وأن يجري استسلام الأسرى سالمين جميعاً، ولسوف يتم إعطاء الذين في القلعة الأمان وأن يمكنوا من الذهاب حيث شاءوا مع مقتنياتهم، وأن يصاحبهم رجل من الإيلينيين، ويقودهم حتى مأمهم أينما كان هذا المأم حسب رغبتهم، وجرى الاتفاق في هذا العهد على أن يُدفع إلى المرتزقة كل ما يعود إليهم، وأن يعوضوا عن جميع الخسائر التي تعرضوا إليها في المدينة، عندما هربوا بشكل غير متوقع إلى القلعة .

١٨٨ : وقد مكث فيليب دي نوفار وقتاً طويلاً في القلعة للقيام بإعداد الاتفاقيات حتى أن الذين كانوا في الخارج اعتقدوا أن الذين كانوا في الداخل قد قتلوه، ولذلك تمنع السير بالين بصعوبة بالغة وضبط نفسه عن قتل السير رتشارد فيلنغر وجماعته كلها، وأمر صاحب بيروت بالين ابن فيليب دي نوفار وقال له: «إذا وجدت والدك قد قتل، اقتلهم جميعاً بيدك» .

١٨٩ : وعندما أكمل فيليب دي نوفار هذه الاتفاقيات، وعقد هذه العهود مع الذين كانوا في القلعة، خرج من القلعة، وروى أخبار جميع ما صنعه، وتمت الموافقة على ذلك كله، وجرى تنفيذه بسرور عظيم، وإرادة طيبة، ورغبة كبيرة، وزيد على ذلك عطاءات كثيرة لم يكن فيليب قد أتى على ذكرها في الميثاق، وخرج الجميع في الصباح التالي من القلعة، وأعطى فيليب دي نوفار القلعة إلى صاحب بيروت وإلى صاحب تورون الذي كان عليه القيام بحراسة الحصن، وذلك وفقاً لما جاء في المواثيق التي عقدت في عكا بين الملكة أليس وبينهما، وقاد السير جون دي إيلين

اللومبارد الذين كانوا هناك إلى المكان الذي رغبوا بالذهاب إليه، وهكذا اجتث عش شر اللومبارد وأطيح به ورمي جانباً، وهكذا لم يعودوا يمتلكون أية قوة في سورية أو في قبرص، وعلى هذه الصورة جرى الاستيلاء على مدينة صور وعلى القلعة في سنة ١٢٤٢ (١٢٤٣) (٢٧٤) . (

(وعاش ملك قبرص والبيت الإيليني بعد هذا مدة طويلة بمجد عظيم، وحكموا مملكتي قبرص والقدس، واحتفظوا بهما بأحوال جيدة، مرفوقة بشكر جميع الناس، ذلك أنهم عرفوا كيف يحافظوا على حقوق كل واحد بوساطة إخلاصهم، وحسن أخلاقهم وكرمهم نحو الجميع، لكن بما أن الحكاية طويلة جداً لأن يحاول الانسان أن يحكي كل الذي فعلوه في حياتهم، سوف أسكت مؤكداً لكم أنه لا يوجد في العالم المسيحي بيتاً أكثر شجاعة من البيت الإيليني) (٢٧٥) .

— ٢٥٢٥ —

الملاحق

الملحق الأول

فقرات من الجزء الأول من كتاب « تاريخ أعمال الحرب »، اعتقد كوهلر أنه مقتبس من الترجمة الذاتية لفيليب دي نوفار، وقد تولى نشره تحت عنوان: « قطعة من ترجمة ذاتية »

١ (٨٢) : حدث أن كان في سنة ١٢٢٣ لتجسيد مولانا يسوع المسيح في مملكة القدس فتاة اسمها إيزابل، ابنة الملك جون دي بريين، وقد كانت الوريث الشرعي لمملكة القدس وسيدة لها من خلال أمها الملكة ماريا التي كانت حفيدة الملك عموري، ملك القدس .

٢ (٨٣) : وكان لهذه الفتاة النبيلة التي أرغب بالحديث عنها، والتي كانت الوارث الشرعي لمملكة القدس، أخت تزوجت من ملك قبرص، الذي كان اسمه هيوج، وكانت تعرف باسم الملكة أليس .

٣ (٨٤) : ووجد في هذه الآونة على هذا الطرف من البحر رجل نبيل كان اسمه جون دي إيبيلين، وقد كان صاحباً لبيروت، وكانت لديه في مملكة قبرص موارد عظيمة جداً أتت من قلاعه ومن ممتلكاته الأخرى، وكان صاحب بيروت هذا شجاعاً، وقاسياً جداً، ونشطاً، وعبقرياً، وأديباً، وصاحب أخلاق حميدة تجاه جميع الناس، ولهذه الأسباب كان محبوباً جداً، ومشهوراً في كل مكان، وكان فوق كل شيء حكيماً، وواسع المعرفة، ورجلاً عالي التقدير، ومخلصاً تجاه الرب .

٤ (٨٥) : وكان لصاحب بيروت أخاً اسمه فيليب دي إيبيلين، الذي امتلك أيضاً موارد كثيرة وإقطاعات، وكان مثله شجاعاً، ونشطاً، وكان هذان السيدان خالان للفتاة المتقدمة الذكر، أي ملكة القدس، ولأختها الملكة أليس ملكة قبرص .

٥ (٨٦) : ولقد حدث في هذه السنة (١٢٢٠) أنه جرى تنصيب فردريك - الذي يعرف باسم يتيم أبوليا - امبراطوراً من قبل البابا هونوريوس، وشرع يحكم بمثابة امبراطور في هذه الآونة، متمتعاً بقوة كبيرة، وشهرة عظيمة، كما وحدث في هذا الحين (١٢٢٢) أن ذهب الملك جون دي بريين إلى البلاط في روما، أي إلى البابا، الذي كان اسمه هونوريوس، واتفق معه أن يقوم البابا المذكور بترتيب زواج الفتاة المتقدمة الذكر، أي إيزابل ملكة القدس، التي كانت ابنته، من الامبراطور فردريك المتقدم الذكر، كما تقدم وأخبرتكم .

٦ (٨٧) : وكان قبل هذا قد بعث الامبراطور رسلاً إلى الملك جون وإلى بارونات مملكة القدس، للإعداد لزواجه من الفتاة المذكورة التي كان قد سمع بأخبارها، غير أنه عندما مضى رسل الامبراطور إلى سورية، كان في الوقت نفسه، قد ذهب الملك جون إلى بلاط روما، وهكذا لم يعرف أي طرف شيئاً عن أخبار الطرف الآخر، وضمن الملك جون موافقة البابا على الزواج المذكور كما سمعتم .

٧ (٨٨) : وتمت الموافقة على الزواج، وأكمل من على الطرفين، وبناء عليه أعدّ الامبراطور مجموعة من الغلايين وسلحها، وذلك بغية الذهاب إلى سورية لجلب الفتاة المذكورة، أي ملكة القدس، وأناب الامبراطور عنه رجلاً عاقلاً وله مكانته، هو أسقف باقي، وإليه أعطى الامبراطور خاتمه، فبذلك الخاتم كان الأسقف سيقوم بتزويج الفتاة المذكورة من الامبراطور، ونالت القضية موافقة الكنيسة المقدسة، وانتدب الامبراطور عدداً من فرسانه والأعيان لديه للسفر على متن الغلايين المذكورة، لمرافقة السيدة المذكورة لدى قدومها، وبعث الامبراطور بهدايا جيدة من أجود المجوهرات إلى السيدة المذكورة، وإلى خاليتها، وإلى أقربائها الآخرين، وأقلعت الغلايين وقدمت إلى مدينة عكا .

٨ : وصدف أن كان في تلك الأيام بارون بيروت النبيل وصاحبها، في

عكا، حيث استقبل أسقف باقي وفرسان الامبراطور الآخرين بكل تشريف وترحاب عظيم، لأنه كان من أعظم اللوردات أدباً، وكان معتاداً تماماً على مثل هذه الخدمات، ويعرف جيداً كيف يقوم بأدائها، وأمن الإقامة لهم، مع الخدمات الجيدة ووافر الحاجيات، وجمع كل البارونات الذين كانوا في عكا، وقد تلقوا رسائل البابا، والامبراطور والملك جون، وأعطوا الأخبار اهتماماً جيداً، واحتراماً عظيماً، وأبدوا سرورهم وغبطتهم نحو أخبار الزواج المذكور .

٩ (٨٩) : وقام صاحب بيروت مع أخيه الذي قدم من قبرص، وأيضاً جميع بارونات سورية وقبرص وفرسانها، والعامّة والبرجاسية والآخرين من الناس بارتداء ثياب الفرح، وأعدوا الأشياء الأخرى اللائقة للاحتفال بمثل هذا الزواج النبل، وهذا التتويج الرفيع جداً، وقد بعثوا بالفتاة المذكورة إلى صور، وهناك جرى تزويجها وتتويجها من قبل سمعان رئيس أساقفة صور، واستمرت الاحتفالات خمسة عشر يوماً، وفي رقص وغناء ونشاطات اجتماعية، وفي تبادل ثياب الفرح ومنح الثياب، وأشكال أخرى كثيرة من أشكال الاحتفال .

١٠ (٩٠) : وعندما انتهت الاحتفالات في مدينة صور، وسط كثير من الأبهة كما هو لائق ومناسب لمثل هذا الزواج الهام بين هذه الملكة النبيلة ملكة القدس وشخصية عظيمة هي شخصية الامبراطور، قام صاحب بيروت الذي هو خالها وأخوه مولاي فيليب دي إيبيلين والآخرين من أقربائها بتعيين بعض الأشخاص للإرسال مع الملكة حتى تصل إلى الامبراطور ورتبوا أن يكون الذين سيرافقونها هم : سمعان رئيس أساقفة صور، والسير بالين صاحب صيدا، وهو ابن خال ألماني للملكة المذكورة، وذلك مع فرسان آخرين وأعيان وسيدات ووصيفات، وقد رافقوها حتى أوصلوها إلى الامبراطور فردريك، لكن خالها صاحب بيروت وبعض البارونات الآخرين اكتفوا بمرافقتها حتى قبرص فقط .

١١ (٩١) : وعندما حل اليوم الثامن من شهر تموز لسنة ١٢٢٤ (١٢٢٥) حملت الملكة المذكورة نفسها إلى الغلايين العشرين المتقدم ذكرها، التي كان الامبراطور قد أرسلها، ولدى مغادرة الملكة رافقتها أختها (عمتها) الملكة أليس، ملكة قبرص والسيدات الأخريات إلى الشاطئ وهن يبكين، وكأنهن قد شعرن أنهن لن يرينها مرة ثانية، كما حدث بالفعل ولم يرينها، ولدى مغادرة السيدة المذكورة نظرت نحو البلاد وقالت: «أدعك بحفظ الرب، يا سورية الجميلة، لأنني لن أراك مرة أخرى»، وما تنبأت به هو الذي حدث .

الملحق الثاني

فقرات من الجزء الثاني من «تاريخ أعمال الحرب» كان كوهلر قد حذفها لدى إعداده لطبعته لنص فيليب دي نوفار

(٩٩): مضى في هذه السنة نفسها (١٢١٨) جيش سورية بوساطة البحر، إلى دمياط، وانتزعها من أيدي المسلمين، وجاء بعد هذا (١٢١٩) من روما إلى عكا المعلم بيلاغوس، أسقف ألبانو، ونائب البابا، وأمير الرومان.

(١٠٠): واستولى في سنة ١٢١٩ بوهيموند صاحب أنطاكية على أنطاكية وانتزعها من ابن أخيه روبن، بوساطة مؤامرات وليم فارابل Far-abel.

(١٠١): ومات في هذه السنة نفسها ليون ملك أرمينيا (كليكية).

(١٠٢) وتوج امبرطوراً في هذه السنة (١٢٢٠) في روما فردريك ملك صقلية، وكان ذلك في كنيسة القديس بطرس، وبوساطة البابا هونوريوس الثالث، وأظهر فردريك هذا نفسه عندما كان شاباً، وقبل أن يصبح امبراطوراً، على أنه رائع جداً، لكنه بعدما صار امبراطوراً بذل غاية جهده في سبيل ائداء الكنيسة المقدسة والخط من شأنها، وفي سبيل تدمير الرجال النبلاء، وقد رفع من شأن الأقتان والرجال ذوي الأصل الدنيء، واعتنى باللصوص ودافع عنهم وكذلك عن القتل وعن آخرين، لأن مثل هذه الأشياء فعلها هو نفسه أكثر من هؤلاء الآخرين الذين دافع عنهم، وأكبر مما استطاعوا أن يفعلوه، فقد كان شريراً بلا حدود، حتى أنه لم تتوفر أية شفقة لديه، وكان خائناً وشريراً، ولا يمكن الوثوق بأي من أيمانه أو وعوده التي قطعها على نفسه، وكان متمنعا دوماً، لا بل نشيطاً جداً في عدم فرض احترام الايمان الكاثوليكي، وقد قام دون أن يوفر أحداً أو يصون كرامة الناس أو الكنيسة، أو الجنس، أو السن،

بتعذيب الأرامل، والأطفال، والمسنين، والضعفاء، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة ورجال الدين بشكل هائل، وبطريقة لم يسمع بمثله من قبل، فقد حرم هؤلاء من قبله من حياتهم ومن مقتنياتهم، أما النسبة لمسألة الجنس فإنه قد خالف الطبيعة، لذلك تفوق في دعارته على نيرون، وكانت أفعال عهره تفوق الاحصاء، وكذلك أفعال الزنا لديه، فقد كان سدوميا في جميع الأحوال، وقد سجن ابنه هنري، ملك ألمانيا، وهكذا فإنه مات بالسجن، حسبما ستجد خبر ذلك فيما يلي، وقام أخيراً البابا هونوريوس المتقدم الذكر بحرمانه كنسياً، وقاتل ضده كثيراً، حسبما ستسمع حول ذلك فيما بعد.

(١٠٣): استعاد المسلمون في سنة ١٢٢١ دمياط من المسيحيين، وأخذ في هذه السنة وكيل أرمينيا روبن المتقدم الذكر إلى طرسوس، ووضعه في السجن، حيث توفي، وماتت في هذه السنة كونستانس امبراطورة ألمانيا.

(١٠٤): وعاد في سنة ١٢٢٢ النائب البابوي بيلاغوس المتقدم الذكر إلى روما، وذهب معه الملك جون، ملك القدس، والبطريرك رالف، والراهب غورين دي مونتاغيو، مقدم الاستبائية، وتحادث الملك جون المذكور مع البابا حول زواج ابنته من الامبراطور، وذلك بمباركة من البابا هونوريوس الثالث.

(١٠٥): وتزوج في هذه السنة فيليب بن بوهيموند أمير أنطاكية من ابنة الملك ليون ملك أرمينيا، وتسلم المملكة كلها، وأخذ الوكيل بعدها ووضعه في السجن حيث مات.

(١٠٦): وكانت في هذه السنة هزة أرضية كبيرة في قبرص، دمرت بافوس Paphos.

(١٠٧): وعاد في سنة ١٢٢٣ البطريرك رالف، بطريرك القدس من روما إلى عكا.

(١٠٨): ومات في هذه السنة الملك فيليب ملك فرنسا، وتزوج ابنه لويس ملكاً على فرنسا، وأخذ في هذه السنة لى روشيل La Rochelle.

(١٠٩): وجاء في سنة ١٢٢٣ (١٢٢٥) إلى عكا أسقف باقي، وحمل الخاتم إلى ايزابل ابنة الملك جون، ملك القدس، وذلك لصالح الامبراطور فردريك، ومات في هذه السنة (١٢٢٥) البطريرك رالف بطريرك القدس، واختير بعده جيرولد بطريركاً للقدس.

(١١٦): وجرى في سنة ١٢٢٥ تنويج ايزابل ابنة الملك جون ملك القدس في صور، وعبرت بعد هذا البحر لتتزوج من الامبراطور فردريك، وقد ذهبت إلى هناك مع سمعان رئيس أساقفة صور ومع بالين صاحب صيدا.

(١١٨): وجاء في سنة ١٢٢٦ (١٢٢٧) من عبر البحر الكونت توماس، من جهة الامبراطور فردريك، وصار وكيلاً في عكا.

(١١٩): وبدأت في هذه السنة أعمال بناء قلعة مونتفورت (القرين) من قبل رهبان فرسان التيوتون، وهي قلعة في سورية في مملكة القدس، ومات في هذه السنة (١٢٢٦) الملك لويس ملك فرنسا، وجرى بعده تنويج ابنه لويس، الذي أدار المملكة بتقوى وسلام طوال حياته.

(١٢٠): ومات في سنة ١٢٢٧ البابا هونوريوس الثالث المتقدم الذكر، الذي شغل كرسي روما لمدة عشر سنوات، وستة أشهر، وثلاثة وعشرين يوماً.

(١٢١): وصار بعده البابا غريغوري التاسع، وهو قد ولد في شامبين في مدينة أنيان Anaine، وقد اختير في سبتيسوليوم Septisolium في اليوم الثامن من آذار بعد عيد القديس جورج، وقام بتطويب القديس فرانسيس، والقديس أنثوني، والأخوة الصغار، والقديسة ايزابل الألمانية، التي كانت زوجة اللاندغريف، وقد اختصر مختلف مصنفات المراسيم،

وأضاف أوامره، بحيث أن أشياء كثيرة كان مشكوكاً بها باتت جلية، وتولى حرمان الامبراطور فردريك كنسياً مرتين وفي مناسبتين، وشن الامبراطور الحرب لمدة طويلة ضده، وقد شغل كرسي روما لمدة أربعة عشر عاماً وستة أشهر وثلاثة أيام، وقدم في هذه السنة من روما إلى عكا البطريك جيروld بطريك القدس، الذي كان نائباً عاماً للبابا، وجاء أيضاً دوق ليمبورغ Lemburg ، وأسقف وينشستر، وأسقف اكسيتز، والسير جوفيان الذي خدم الامبراطور لبعض الوقت، حسبما تحدثنا من قبل، وقد جاء انذاك عائداً من عبر البحر إلى قبرص.

(١٢٤): وتوفي في هذه السنة (١٢٢٧) الراهب غورين دي مونتاغيو، مقدم فرسان القديس يوحنا.

(١٢٥): وبنيت في هذه السنة قلعتا قيسارية وصيدا، وتوفي في هذه الآونة كورودين (الملك المعظم عيسى) سلطان دمشق.

(١٥٧): وبنى في سنة ١٢٢٩ البطريك جيروld برجين في يافا مقابل عسقلان، كما أعيد بناء كنيسة الضريح المقدس، وجاء بطريك أنطاكية إلى عكا بمثابة نائب لبلاط روما، وانتزعت بعد هذا نيابة البابا من بطريك (القدس) بوساطة الامبراطور فردريك الذي تشكاه إلى البابا، ولهذا ذهب إلى روما واسترد استلام وظيفة النيابة البابوية طوال بطريكيته.

(١٩١): وعندما طال أمد القتال كثيراً، لم يعد بإمكان الأبوليين التحمل أكثر، فقد تلقوا خسائر كبيرة وأضراراً فادحة، لذلك تخلوا عن أرض المعركة، ومضوا متعبين عبر الممر إلى سيرينا، ولاحقهم القبارصة، وطاردهم، وظلوا يتشابكون معهم ويتبادلون الطعن والضرب معهم حتى أبواب سيرينا، حيث أعادوا تجميع أنفسهم بعد صعوبات جمّة، وبعد ما ربح القبارصة المعركة، واستولوا على الميدان، وطاردهم حسبما سمعتم، عادوا إلى مكان كان عبارة عن أرض منخفضة عند سفح

الجليل، وهناك عسكروا.

(١٩٢): ورأى رتشارد فيلنغر قائد جيش اللومبارد أنه قد حوصر، وأن ليس لديه ما يكفي من الرجال أو الطعام، لذا عقد اجتماعاً للتشاور وبعث إلى بافوس لجلب السفن التي كانت هناك، وعندما جاءت السفن إليه، انتخب الرجال الذين أرادهم أن يبقوا في سيرينا، وصعد هو والآخرون ظهور الغلايين، وتوجهوا إلى أرمينية (كليكية)، ووصلوا إلى طرسوس، واستقبلهم هناك الملك هيتوم وأبوه قسطنطين، ورحبوا بهم ترحيباً كبيراً، وقد مكثوا مدة طويلة في تلك البلاد، وأصابهم الطاعون هناك، ولذلك مات عدد كبير منهم، ووقع عدد أكبر مرضى، وعندما رأوا أنهم لا يمكن لهم الاستمرار أحياء في تلك البلاد، لذلك غادروها وقدموا إلى صور.

(١٩٣): وما أن ذهب الذين سمعت عنهم، وغادروا سيرينا للتوجه إلى أرمينيا حتى عسكر الملك هنري ورجاله قرب أسوار سيرينا، وهكذا أقاموا ملاصقين للأسوار إلى حد أن مامن انسان كان قادراً على الخروج أو الدخول، ونتيجة للمعركة التي وقعت قبيل قليل بقي الملك هنري يتمتع بسلطانه بسلام ودوننا ازعاج، وكذلك فعل الرجال الذين كانوا معه، واستمر الحصار أمام سيرينا حتى ما بعد عيد الفصح، وقد انتهى أخيراً بقيام الملك هنري باطلاق سراح جميع الأسرى الذين أخذهم في صور، والذين أخذوا في قلعة ايمبرت، وكذلك جميع السيدات اللاتي اعتقلن في نيقوسيا في الكنائس وفي بيوت الرهبانيات، عند قدوم (اللومبارد) إلى البلاد، وبذلك جرى تسليم قلعة سيرينا إلى الملك وإلى صاحب بيروت في سنة ١٢٣٣.

(١٩٤): وفي هذه الآونة، أي أثناء استمرار الحصار أمام سيرينا، حدث للملكة أليس زوجة الملك هنري، وابنة مركزيز أوف مونتفرات، والتي كانت تعرف باسم اللومباردية، لأن الامبراطور كان قد أعطاه

إياها، وكانت قد وضعت نفسها في قلعة سيرينا مع الأبولين، وتحت إمرة الامبراطور، حدث أن أصيبت بداء عضال، وبذلك ماتت، وعندما ماتت قام الذين كانوا في داخل سيرينا بالباسها كما ينبغي إليباس الملكة، ثم طلبوا الأمان لارسال رجل ليتحدث مع الملك، وجاء الذي حصل على الأمان إلى الملك، وأخبره أن زوجته الملكة قد انتقلت من هذه الحياة، وأن الذين كانوا في الداخل يرسلون إليه رسالة أنه إذا ما تفضل وتسلمها للقيام بدفنها بما يتناسب معها كملكة، وأنه ينبغي أن يفعل ذلك لها لأنها زوجته، ووافق الملك، وأعطيت هدنة بأن لايقوم باطلاق النشاب أو رمي الحراب من الخارج أو من الداخل في أثناء حمل الملكة إلى معسكر الملك، ثم وضعها الذين كانوا في سيرينا خارج القلعة، وتسلمها الذين كانوا من معسكر الملك، وحملت بعد ذلك إلى نيقوسيا في موكب عظيم على أيدي الفرسان وهم جميعاً يسيرون على الأقدام، وأدخلت بكل تشريف إلى كاتدرائية كنيسة القديسة صوفيا، وتولى رئيس الأساقفة يوستوريو دفنها.

(٢٠٣): وذهبت الملكة أليس ملكة قبرص في سنة ١٢٣٢ إلى فرنسا لاسترداد مقاطعة شامبين.

(٢٠٤): وتعرض البطريك جيروльд للتهمة في روما من قبل الامبراطور فردريك، وانتزعت منه سلطة نيابة البابوية، وبناء عليه ذهب إلى روما واسترجع النيابة البابوية لتكون في بطريكته بشكل دائم.

(٢١٠): ثم عادت الملكة أليس ملكة قبرص سنة ١٢٣٥، بعدما استردت مقاطعة شامبين، وقد وصلت من بلاد ماوراء البحر إلى عكا سالمة وصحية.

(٢١١):: ذهب في سنة ١٢٣٦ صاحب بيروت وابن أخته جون صاحب قيسارية وفرسان الاسبتارية وفرسان الداوية لحصار مونتفيراند،

وقدموا للاستتارية مجداً كبيراً، وخدمة عظيمة، وعادوا بعد ذلك إلى قبرص مع كثير من البهجة، وكانوا في سلام عظيم، وحالة جيدة.

(٢١٣): وحدث في هذا الموسم في سنة ١٢٣٩، أن بدأت في مملكة فرنسا حركة صليبية عظيمة للذهاب إلى الارض المقدسة، وذهب عدد كبير من الصليبيين عبر مرسيليا، وذهب آخرون عبر برنديزي، وكان في هذه الحركة ثيوت ملك نافار، الذي كان كونت شامبين، وهيوج دوق بيرغندي، وبيتر دي دروكس Dreux الذي دعي باسم بيتر موكليرك Mauclerc ، كونت أوف بريتاني، وجون دوكس أوف ماكون، كونت أوف فورز Forez وكونت أوف نيفر Nevers، وهنري كونت أوف بارلى دوك Duc ، وعموري كونت أوف مونتفورت، وعدد كبير آخر من الأعيان، ومن هؤلاء ذهب كونت أوف بار، وكونت أوف مونتفورت وجماعتهما من مرسيليا، وعرفت هذه الصليبية باسم صليبية البارونات، لأنه وجد بها عدد كبير جداً من البارونات حسبما سمعت، وعندما قدم هؤلاء البارونات ووصلوا إلى عكا في يوم عيد القديس جاييل (صنجيل)، الذي يقع في اليوم الأول من شهر ايلول، كان هناك حوالي الألف من الفرسان، وقد عسكروا في أرجاء المدينة وخارجها على السابلون Sabe- lon، وعقدوا هناك مؤتمراً، واتفقوا على الذهاب نجدة إلى عسقلان، وركبوا وانطلقوا إلى يافا، ومعهم شعب البلاد، وعندما وصلوا إلى هناك أخبرهم جاسوس بأن هناك ألف من الترك معسكرين في غزة، وأن اسم أميرهم وقائدهم ركن الدين، وعندما سمع الصليبيون بهذه الأخبار اتفقوا على أنهم يحتاجون إلى أربعائة فارس لهذا الغرض، وبناء عليه انطلق كونت أوف بارلى دوك، وكونت عموري أوف مونتفورت، وبالين صاحب صيدا، ويودس دي مونتليارد، وجون دي إيبيلين صاحب أرسوف، وغادروا يافا في مطلع الليل، وساروا وبذلك كانوا عند الفجر تقريباً قرب غزة، وتسלحوا، وزحفوا على شكل أرتال إلى المكان الذي

كان فيه الترك، وعندما رأهم الترك ركبوا خيولهم وتراجعوا نحو رابية صغيرة، وعقد هناك ركن الدين اجتماعاً مع رجاله حول ما الذي ينبغي عليه القيام به، وقد أشاروا بوجوب الابتعاد عن هناك وضرورة المغادرة لأنه ليس لديه ما يكفي من الرجال للقتال ضدهم، وأجابهم ركن الدين بأنه سوف يغادر في الوقت المناسب له، غير أنه سوف يبعث برجاله المسلحين بشكل ثقيل ليكتشفوا أوضاع الأعداء وأحوالهم، ثم إنه نفذ مقالته، وأرسل مائتين من أتراكه ليتناوشوا معهم، وحدث أنه ما أن وصل المناوشون إلى الصليبيين حتى بدأوا بالتراجع، وهنا شرع الصليبيون بالدوران ومن ثم الاصطدام ببعضهم بعضاً، ورأى ركن الدين الاضطراب والفوضى السيئة للصليبيين، وبناء عليه انحدر من الرابية حيث كان، وزحف بسرعة كبيرة نحو موقع القتال، وما أن وصل حتى انقض هو ورجاله بجرأة متناهية، وضربوا في وسط الفرنجة، بسبب المظهر السيء الذي رأوه، وأوقعوا فيهم أضراراً بالغة، وهكذا خضع الصليبيون بشكل فوضوي، وبدون اتفاق بالرأي إلى الهزيمة، ونجا منهم الذين استطاعوا الفرار، وأسر المسلمون هناك عموري كونت أوف مونتفورت، وقتل هناك هنري كونت أوف بارلى دوك، وكان هناك عدداً كبيراً من الفرسان الذي قتلوا أو أسروا، وتم فقدان جميع الداوية والاسبترارية وبقية الرجال، كما أن معظم العتاد والتجهيزات فقدت، ووصل الذين نجوا من القتال إلى عسقلان، ووجدوا هناك ملك نافار وكونت أوف بريتاني، وجيشهما كله، وما أن وصلوا إلى هناك حتى استبد بهم خوف عظيم، وشعروا جميعاً، وبدا لهم أن المسلمين باتوا على الابواب ولسوف يأسرونهم جميعاً، ولذلك ما أن حل الظلام وباتت الدنيا ليلاً حتى انطلق كل منهم نحو يافا بدون نظام أو تلقي أوامر وبدون انتظار بعضهم بعضاً، وتراجعهم على هذه الصورة وكأنهم مهزومين تركوا كميات كبيرة من الأطعمة والتجهيزات، وعندما وصلوا إلى يافا مكثوا هناك لبعض الوقت فقط، وفي الحقيقة غادروها إلى عكا وساروا

بدون توقف حتى وصلوا إلى هناك، وقد مكثوا هناك لمدة طويلة دون أن يقوموا بأي شيء مفيد، وكان من بين الذين نجوا من هذه المعركة بين آخرين من رجال البلاد، بالين صاحب صيدا، وفيليب دي مونتفورت، وجون دي إيبيلين، صاحب أرسوف، ويودس دي مونتيلارد، وعدد كبير آخر من الحجاج.

(٢١٤): وكان في هذه الآونة رجل دين في طرابلس اسمه «وليم»، وكنيته «دي شامبين»، غير أنه كان قد ولد في طرابلس، وكان على معرفة عظيمة بصاحب حماة، وقد خدمه مراراً، وقد جاء إلى جيش ملك نافار، وقال للبارونات بأن سلطان حماة قد أرسل إليهم رسالة، بأنهم إذا مارغبوا بالقدوم إلى بلاده، حيث يتمكن من نيل قوة الصليبيين وعونهم، فإنه سوف يضع في أيديهم قلعته وسيصبح مسيحياً، وحول هذا الموضوع بعث إليهم رسالة يترجاهم فيها ويقول كل شيء يتوقف عليهم، إذا ما رغبوا بالوصول إلى هذه الغاية، وبناء عليه غادر الجيش عكا وزحف على طول الساحل حتى وصل إلى طرابلس، ووقف هناك، وعسكر رجاله أمام المدينة في أسفل تلة الحجاج، وبعثوا من هناك برسلاً إلى سلطان حماة برفقة رجل الدين وليم المتقدم الذكر لمعرفة فيما إذا كان يرغب بالاستمرار في الأشياء التي أرسل رسالة من أجلها وإكمالها، واصطنع السلطان معاذير بأن طلب عقد موثيق، وشغلهم لبعض الوقت بالكلمات، غير أنه في النهاية تخلّى عنهم وخذلهم في كل شيء، مثله مثل انسان لم يفعل شيئاً سوى أنه هزأ بهم، والعذر الذي قدمه هو أنه تراجع من خلال خوفه من صاحبة حلب، أم السلطان، التي كانت في حالة حرب معه، فقد كانت هذه السيدة متملكة للسلطة في حلب، لأن ابنها، سلطان حلب، كان دون السن القانونية، وعندما بات الصليبيون مدركين للخداع وللغش الذي مارسه سلطان حماة، وبعدما مكثوا لبعض الوقت أمام طرابلس، حيث احتفى بهم بوهيموند أمير أنطاكية احتفاءً عظيماً،

واحتفل بوجودهم، غادروا وعادوا إلى عكا، غير أن جون كونت أوف ماكون مات في طرابلس، ودفن هناك في واحد من بيوت الرهبانيات الدينية.

(٢١٥): وعندما عاد حجاجنا إلى عكا، لم يمكثوا هناك وقتاً طويلاً حتى ذهبوا للإقامة في بيت الرعاية في حيفا بغية تمكين خيولهم من الرعي، وعندما لم يعد هناك مرعى، ذهبوا للإقامة قرب نبع الصفورية، وفيما هم هناك جاءهم رسول من عند سلطان دمشق للبحث معهم من أجل إبرام هدنة، وكان اسم هذا السلطان الصالح، وكان ما يزال صاحب بعلبك، وهو ابن سيف الدين العادل، وتطورت الأمور على الجانبين، وهكذا أعدت الترتيبات بين السلطان والصليبيين، وتخلّى بوساطة هذه المعاهدة عن قلعتي بلفورت وقلعة صافيتا لصالح الداوية، وسلم كذلك جميع الأراضي العائدة للقدس، وهي التي بحوزة الفرنجة، وذلك امتداداً من الساحل إلى نهر الأردن، وعقد الصليبيون ميثاقاً معه بأنهم سوف لن يعقدوا معاهدة أو يقيموا صلحاً مع سلطان القاهرة بدونه وبدون موافقته، وأنهم سوف يذهبون للعسكرة في عسقلان أو في يافا مع قواتهم كلها، للحيلولة دون سلطان مصر، ولمنعه من المرور خلال تلك الأراضي والبلاد عموماً، ومن ثم الذهاب إلى سورية، وكان على السلطان المتقدم الذكر العسكرة على مقربة منهم حيث ينبع نهر يافا، وأقسم على جميع هذه المعاهدات التي سمعتم عنها، جميع بارونات الجيش، كما أقسم عليها السلطان مع جميع أمرائه، وبموجب هذه الموافقة سلم إليهم قلعة بلفورت وكذلك أراضي صيدا وطبرية .

(٢١٦): وعندما اكتمل التحليف على المعاهدة، كما سمعتم، ذهب الصليبيون للعسكرة قرب يافا ومعهم سلطان دمشق، وصاحب حمص أيضاً، وقد عسكروا عند نبع النهر مع جيشهم كله أيضاً، وجرى الإعداد لهذه المعاهدة التي سمعتم عنها وإبرامها من قبل الداوية، وبدون موافقة

فرسان مشفى القديس يوحنا، وبناء عليه رتب فرسان القديس يوحنا لأن يعقد سلطان مصر معاهدة معهم ومع جزء من الصليبيين ، وحلف على هذه المعاهدة ملك نافار، وكونت بريتاني، وعدد كبير آخر من الحجاج، دون إقامة أي تقدير لليمين الذي حلفوه وعقدوه مع سلطان دمشق، وهكذا عقدت تلك المعاهدة وفق الطريقة التي سمعتم عنها وغادر يافا وذهب إلى عكا كل من ملك نافار، وكونت بريتاني والحجاج الآخرون الذين حلفوا على هذه المعاهدة مع سلطان مصر، وفي عكا أمنوا سفناً لعبور البحر إلى بلدانهم، أما مقدم الاستبارية الراهب بيتر دي فيلابرايد، الذي حلف على هذه المعاهدة، ولم يحلف شيئاً إلى سلطان دمشق، فقد غادر يافا مع فرسانه كلهم، وقد ذهب إلى عكا، وبقي هناك، وبقي رجال البلاد والداوية وكونت نفري وجزء من الحجاج، في يافا، ولم يرغبوا في خرق المعاهدة ولا الانسحاب من الموائيق التي عقدوها مع سلطان دمشق، وأوجد هذا بين صفوف الصليبيين حالة تمزق وعدم اتفاق، ذلك أن بعضهم ارتبط بمعاهدة، وبعضهم الآخر بمعاهدة أخرى .

(٢١٧) : ومات في هذه السنة السير بالين صاحب صيدا .

(٢١٨) : وفي ذلك الوقت الذي كان فيه الحجاج في عكا، تزوجت الملكة أليس، ملكة قبرص من نبيل فرنسي كان اسمه سير رالف دي سواسون، وكان هو أخ لكونت أوف سواسون .

(٢١٩) : ومجدداً وصل إلى عكا في سنة ١٢٤٠ اللورد رتشارد أوف كورنويل Cornwall وكان أخاً للملك هنري ملك إنكلترا، وقد قاد كوكبة ممتازة من الفرسان، وقد حملوا معهم مقتنيات كثيرة، وأقام عندما جاء إلى عكا في بيت مشفى فرسان القديس يوحنا وبعدما أقام هناك لبعض الوقت جهز فيه رجاله وألبسهم، ذهب إلى يافا وأقام مع الصليبيين الآخرين الذين كانوا هناك، وفيها هو هناك ضغط عليه

الداوية حتى يأخذ بمعاهدتهم ومواثيقهم مع سلطان دمشق، وأن عليه أن يحلف عليها، وطلب منه الاستتارية وحثوه على الأخذ بمعاهدتهم مع سلطان مصر، وتحدثوا معه في عكا كثيراً حتى أنه لم يرغب بالوقوف إلى جانب ضد الآخر، ولهذا قال إذا ما رغب الصليبيون الذين كانوا في يافا بالمعسكرة في عسقلان، فهو على استعداد لتحسين القلعة، وعقد بارونات الجيش والداوية والاستتارية والتوتون مؤتمراً للتشاور، وقالوا إن ما اقترحه يتماشى مع المعاهدة التي عقدها مع سلطان دمشق، وهي مربحة للصليبيين، وعلى هذا توافقوا، وانطلقوا من يافا، وعندما أمنوا العمال وكل ما يحتاجونه للعمل، ذهبوا إلى عسقلان، ولدى وصولهم إليها، وضعوا تجهيزاتهم، وانطلقوا نحو العمل، وتمت أعمال تحصين قلعة عسقلان، وفق طريقة الملك رتشارد ملك إنكلترا، الذي هو عم للكونت رتشارد هذا، الذي تولى الآن تحصينها، وأكمل تحصينها وجعلها على خير ما يمكنه، ومن ثم بعث إلى القدس فارساً اسمه وولتر بينينباي Pen-nenpie، الذي كان وكيلاً هناك للامبراطور فردريك، وكان يحكم القدس وفقاً للمعاهدة وللشروط المبرمة مع سلطان مصر، وما أن وصل وولتر بينينباي هذا إلى عسقلان، حتى سلم الكونت رتشارد القلعة إليه، وجعله حاكماً لها مسؤولاً عن حمايتها لصالح الامبراطور، وبعدما صنع الكونت رتشارد أوف كورنول هذا، وافق على المعاهدة المعقودة مع سلطان مصر، وتمكن بذلك من إطلاق سراح الكونت عموري أوف مونتفورت والفرسان الآخرين الذين كان ركن الدين قد أسره لدى إلحاقه الهزيمة بالصليبيين عند غزة، وبعدما عمل هذا كله عاد الكونت رتشارد إلى عكا، وأمن سفنه وعاد إلى بلاده في هذه السنة نفسها، وكان حينها ذهب جيش الفرنجة ذهب سلطان دمشق، وعسكر إلى جانبهم، وبعدما أمضى الحجاج وقتاً في يافا، وأعني الحجاج الذين مكثوا بعد ذهاب الآخرين، رغبوا الآن في العودة إلى بلدانهم، وبناء عليه ذهبوا إلى عكا، وأمنوا هناك سفنهم، وسافروا عائدين، وقام الصليبيون الآخرون

كلهم بالعودة آنذاك إلى عكا .

(٢٢٠) : وشرع في سنة ١٢٤١ جون دي إيبيلين صاحب بيروت بتحسين قلعة أرسوف .

(٢٣٠) : ووضع رتشارد فيلنغر نفسه في سفينة مع مقتنياته وأناسه وبقية رجال الامبراطور الذين كانوا في القلعة، وعبر إلى أبوليا، وبمجرد وصوله وضعه الامبراطور بالسجن هو وهنري وجون أوف سورنتو Sor-rento ابن أخته، وقد بقيوا في السجن مدة طويلة حتى أطلق سراحهم بواسطة الكونت ريموند أوف طولوز، وذلك حسبما ستسمعون حول ذلك فيما بعد .

(٢٣١) : وذهب لوثير أخو رتشارد فيلنغر المتقدم الذكر إلى أمير أنطاكية، الذي استقبله بترحاب كبير، ومنحه زواجاً نبيلاً، وسيدة ثرية في أنطاكية، حيث عاش بشكل جيد حتى موته .

(٢٣٢) : وطلب رالف دي سواسون من السير بالين صاحب بيروت ومن السير فيليب دي مونتفورت، صاحب تورون، منحه مدينة صور لنفسه وللملكة أليس زوجته، ذلك أنه رغب في نيلها بالطريقة نفسها التي نال بها بقية الأشياء العائدة لملكة القدس، وأجاباه أنها لن يسلماه إياها، ولن يوكلاها له، بل سوف يتوليا حمايتها حتى يعلما إلى من عليهما تسليمها، ورأى السير رالف آنئذ أنه لا يمتلك قوة ولا سلطة وما هو إلا مجرد خيال، ونتيجة لهذا الاستخفاف والإهانة التي واجهها في هذه القضية، تخلى عن كل شيء، وترك الملكة زوجته، وذهب إلى بلاده، وقال بعضهم بأن هذا الطلب قد تقدم به السير رالف سواسون والملكة أليس أمام قلعة صور قبل الاستيلاء عليها، لكن سواء أكان ذلك قبل الاستيلاء أو بعده، لم ينالا أبداً ما طلباه .

كيف ذهب الكونت ريموند أوف طولوز إلى روما يطلب

التحليل من البابا غريغوري

(٢٣٣) : وذهب في هذه الآونة الكونت ريموند صاحب طولوز إلى روما، فهو كان متهاً بالهرطقة ومحروم كنسياً لهذا السبب، واستهدف تطهير نفسه وإلغاء حرمانه كنسياً وتحليله من قبل البابا غريغوري، واستقبله البابا بلطف بما فيه الكفاية، وبعد كلام كثير رسم البابا وجوب تحليله، وعهد بأعمال تحليله إلى رئيس أساقفة القديس نيقولا أوف باري، الذي كان آنذاك في روما، وكان رئيس الأساقفة هذا كاهناً عظيماً، ورجلاً حكيماً، وواحداً من الرجال النبلاء للملكة، ذلك أنه كان أخاً ألمانياً للسيررتشارد فيلنغر، الذي سمعت الحديث عنه من قبل، وقد أصبح على صلة وثيقة مع كونت طولوز، وعدّ الكونت نفسه مداناً له .

(٢٣٤) : وحدث أن استأذن كونت طولوز من البابا المذكور وودعه ليذهب ويرى الامبراطور، لأنه امتلك - كما قال - رغبة عظيمة لأن يعمل على إيجاد اتفاق ما بين البابا وبين الامبراطور، وعندما حان الوقت لمغادرته روما ترجاه رئيس أساقفة باري كما طلب من عدد من الكرادلة أن يترجوه ليعمل على إطلاق سراح أخويه وابن أخته الذين كانوا في سجن الامبراطور، ووافق الكونت بترحاب ووعد أن يفعل كل ما يمكنه، وعند ذلك ذهب الكونت إلى أبوليا واستقبل بترحاب عظيم وعومل معاملة مشرفة من الامبراطور، وبقي هناك لبعض الوقت، وتباحث مراراً هو والامبراطور، حول ما كان يرضيهما، أما بشأن المصالحة فيما بين الامبراطور والكنيسة فإنه لم يكن قادراً على فعل شيء، لذلك تخلى عن الموضوع، ثم إنه طلب من الامبراطور منحه هدية حسب طلبه، ووافق الامبراطور، وعلى هذا طلب منه رتشارد فيلنغر مع أخيه وابن أخته الذين كانوا في السجن، وأزعج طلب الكونت هذا الامبراطور كثيراً، وود كثيراً لو أن الكونت توقف عن هذا الطلب، واتهم السير رتشارد فيلنغر وصحبه بتجاوزات عظيمة وجرائم كان قد اقترفها بحق امبراطوريته،

وفعل هذا كله لعل الكونت يتوقف عن القيام بهذا الطلب، ولكن الكونت ما كان ليتخلى عن طلبه مهما كان الأمر، وتمسك به بقوة حتى أمر الامبراطور بإخراجهم من السجن، وأعطاهم إلى الكونت، على شرط أن يغادروا مملكته تماماً، وشكره الكونت، ثم قام الكونت بتوديع الامبراطور وعاد إلى بلاده، آخذاً معه السير رتشارد فيلنغر مع أخيه وابن أخته، وأعطاهم هناك إقطاعية فرسانية جيدة، وقد مكثوا هناك حتى جاء الوقت الذي خلع فيه فردريك من قبل البابا أنوسنت الرابع، ومات وهو محروم كنسياً حسبما سوف تسمع حول ذلك فيما بعد .

(٢٣٥) : وانتهى هذا الكتاب في يوم الأربعاء في اليوم التاسع من نيسان من سنة ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين لتجسيد المسيح .

(٢٣٦) : وقد كتب من قبل جون لى ميج Miege سجين مولاي عموري دي ميمار Mimars، والموقوف في قلعة سيرينا .

الملحق الثالث

اقتباسات تتعلق بصليبية فردريك الثاني من :

Breve chronicon de rebus siculis a robert guiscard
temporibus Inde AD Annum 1250"(Huillard - Bre-
holles, Historia diplomatica Friderici Secundi (897 - 904)

في سنة ١٢٢٧ لتجسيد ربنا، وفي شهر أيلول، وفي أوله، قام السيد
الامبراطور باستعدادات عظيمة، ورغب في عبور البحر مع الجيش
الصليبي الذي كان يقوم في ذلك الحين بحشده من جميع أرجاء العالم في
برنديزي، ولأنه هوجم بالمرض لم يستطع العبور، ومع ذلك لم يؤخر إرسال
الجيش، بل أرسله مع بطريك القدس، الذي كان مسرعاً يود الوصول
إلى سورية بمثابة نائب للبابا وللكنيسة الرومانية، لكنه هو نفسه قد
مكث مريضاً في أوترانتو، وهي مدينة في أبوليا، وقام في الشهر التالي،
وهو تشرين الثاني، في السنة نفسها، البابا غريغوري، الذي خلف البابا
هونوريوس، بجمع كل أساقفة إيطاليا، بعد مضي ثمانية أيام على عيد
القديس مارتين، في هذا الشهر نفسه، في روما، في كنيسة القديس
بطرس، وهناك تولى حرمان الامبراطور فردريك كنسياً لأنه لم يذهب،
وقام الجيش الصليبي الذي عبر إلى سورية في العبور نفسه ببناء قلعتي
صيدا، وقيسارية .

وفي سنة ١٢٢٨ لتجسيد الرب، وفي شهر نيسان، في مطلعته، ولدت
الامبراطورة إيزابل التي هي زوجة الامبراطور فردريك، وابنة الملك جون،
ولداً ذكراً كانت قد حملت به من زوجها الامبراطور فردريك، وحدثت
الولادة في أندريا، وهي مدينة في أبوليا، وعندما علم الامبراطور - أبوه -
بولادته، وكان آنذاك في ترويا Troya وهي مدينة في أبوليا، منحه اسم
كونراد، وعلى كل حال انتقلت أمه بعد ولادته بعشرة أيام إلى الرب،

وكان ذلك في مدينة أندريا نفسها، وحضر مراسم دفنها جميع أساقفة مملكة صقلية، وذلك بسبب أن الامبراطور نفسه كان يرغب في العبور إلى سورية، حتى يتمكن من الوفاء بعهده، وفي الحقيقة انطلق السيد الامبراطور من ميناء برنديزي، وكان ذلك في شهر حزيران التالي من هذه السنة نفسها وفي الخمس عشرة نفسها، وحدث هذا بعدما جمع بعض السفن من مملكته الصقلية، وعندما انطلق كان معه أربعين من الغلايين، وكان ذلك عشية عيد القديس بطرس، أي في شهر حزيران المذكور أعلاه (٢٨ حزيران)، ووصل في اليوم التالي، وهو يوم عيد القديس نفسه إلى أوترانتو، وهي مدينة في أبوليا، ثم غادرنا أوترانتو في مساء ذلك اليوم، ووصلنا في اليوم التالي إلى جزيرة رومانيا التي تدعى أوثرون (Othronos) (فانو Fanu)، وغادرنا من هناك في اليوم التالي (١ - تموز) في حوالي الساعة السادسة، ووصلنا إلى جزيرة وقلعة تدعى كورفو، وتأخرنا هناك حتى المساء، ثم أبحرنا، ووصلنا في اليوم التالي بعد غروب الشمس إلى ميناء غويسكارد، واسترحنا هناك تلك الليلة، ووصلنا في حوالي الساعة السادسة من اليوم التالي إلى جزيرة سيفالونيا، التي كان فيها الكونت لورد مويان Maione، الذي كان من أبوليا، وغادرنا ذلك المكان عند حوالي غياب الشمس، وقد ثار البحر كما هو المعتاد، ووصلنا في اليوم التالي (٤ - تموز) في حوالي الساعة التاسعة إلى مودون Modon، وانتظرنا هناك حتى الصباح، وقد غادرنا من هناك قرابة إشراق الشمس، ووصلنا مع المساء إلى ميناء بورتوكاغلاي portocagle، وبعد المكوث هناك طوال الليل، غادرنا في الصباح ووصلنا في مساء اليوم نفسه إلى جزيرة سيرجو Cerigo، وتأخرنا هناك حتى فجر اليوم التالي حيث غادرنا وأبحرنا نحو كريت، ووصلنا إلى هناك إلى الجزيرة نفسها في حوالي ساعة صلاة العشاء أو قرابة المساء، وكان ذلك إلى مكان يدعى سودا Suda، ومكثنا هناك طوال الليل، وفي الصباح التالي، أي في الثامن من تموز من الخمس عشرة نفسها، ثم شرعنا في العاشر من الشهر نفسه

بالإبحار حول سواحل هذه الجزيرة نفسها، ووصلنا في اليوم الحادي عشر في حوالي الساعة الثالثة إلى إحدى مدن هذه الجزيرة، وتدعى كانديا (الخندق)، وقد نزلنا دونها وبقينا هناك طوال اليوم واللييلة، وفي اليوم التالي، أي أن تقول في الثاني عشر من تموز، غادرنا كريت وأقلعنا داخل البحر، ووصلنا في الثالث عشر من هذا الشهر الذي هو شهر تموز إلى جزيرة رودس، ولأننا كنا منهكين بعض الشيء استرحنا هناك طوال ليلة يوم الرابع عشر، وأبحرنا من هناك في ذلك اليوم نفسه، أي أن تقول في الرابع عشر من شهر تموز، ووصلنا إلى المدينة التي اسمها رودس، وكان ذلك في حوالي الساعة التاسعة، ولم ننزل إلى اليابسة، ومع ذلك مكثنا هناك في الميناء النهار كله مع الليل، وغادرنا في الصباح، وأبحرنا على طول ساحل مقاطعة ليكيا Lycia، ووصلنا في المساء إلى مدينة باتارا التي ولد فيها نيقولا معترف الرب، وبقينا هناك طوال الليل، وغادرنا من هناك في الصباح (١٦ - تموز)، ورأينا في حوالي الساعة الثالثة مايرا Myra المدينة التي تميز فيها القديس نيقولا خلال معجزاته الربانية، وحيث كان أسقفًا، ووصلنا بعد الساعة التاسعة في اليوم نفسه إلى فينيقيا، حيث وجدنا ماء بارداً جداً بكميات عظيمة، قادماً من أنهر كبيرة، ومكثنا هناك ذلك اليوم واليوم التالي (١٦ - ١٧ تموز)، وأرحنا أجسادنا بعض الشيء، وشرعنا بعد هذا في يوم الثامن عشر من الشهر نفسه بعد إشراق الشمس بالابحار نحو جزيرة قبرص، وعبرنا البحر في اليوم العشرين من الشهر نفسه ووصلنا إلى الجزيرة، ووصلنا في اليوم التالي إلى ليماسول وهي مدينة في تلك الجزيرة، وبعد اليوم الثاني أو اليوم الثالث جاء الملك هنري ملك الجزيرة مع جميع فرسانه إلى عند الامبراطور في ليماسول، ذلك أنه بالنسبة للامبراطورية التي هو من أتباعها يتوجب عليه نحوه أداء الولاء، وفي الحقيقة حدث أنه منذ كان الملك طفلاً أن استولى بعض الناس من جزيرته على كل مقتنياته، ولهذا السبب طلب الامبراطور منهم وجوب تقديم حساب

حول بلاد الملك، وخشي هؤلاء أنه لن يكون بمقدورهم تقديم حساب كامل، لذلك قاموا في اليوم الخامس أو السادس ليلاً بمغادرة خيامهم حيث تركوها وما فيها من حاجيات، وانسحبوا سرّاً بدون أن نعرف، وقد ذهبوا إلى نيقوسيا، وهي إحدى مدن الجزيرة، وشرعوا في أعمال تحصين لثلاث قلاع موجودة في الجزيرة نفسها قائلين: «لن يبدو ظهورنا أقل من ظهور الامبراطور»، وعلى كل حال عندما رأى الامبراطور هذا بقي في لياسول حتى يوم السابع عشر من شهر آب التالي، وذلك في الخمس عشرة الأولى، ثم إنه مضى إلى مدينة نيقوسيا المذكورة أعلاه، والتحق بنا أمير أنطاكية النبل، وبعد البقاء هناك لعدة أيام جاء الذين عصوا عليه، وركعوا عند قدمي الامبراطور، وبعدما قام هكذا بتنظيم المملكة وتلقى أيمان الولاء من الجميع، قمنا في اليوم الثاني من شهر أيلول في الخمس عشرة الثانية، بأخذ الطريق إلى سورية، ووصلنا في اليوم الخامس من الشهر نفسه إلى البترون، ثم اجتزنا بيروت، وصيدا والصرفند، ووصلنا قبل الفجر إلى ميناء صور، ولم نمكث هناك طويلاً، بل وصلنا في ذلك اليوم إلى عكا، ووجدنا هناك الجيش الصليبي الذي تولى بناء قلعتي صيدا وقيسارية، وعندما نزلنا هناك، بدأ الامبراطور يبحث إلى أين يذهب مع جيشه، وبعث في الوقت نفسه سلطان مصر الذي جاء من مصر، والذي كان آنذاك مقيماً في شكيم، التي تدعى الآن باسم نابلس أميراً كبيراً إلى الامبراطور مع هدايا فاخرة، ووعد بوساطة هذا الرسول نفسه أن يرد إليه الأراضي المقدسة التابعة للقدس مع جميع ممتلكات تلك المملكة، وجميع الأسرى الذين لدى ابن أخيه، وبناء عليه أعاد الامبراطور هذا الرسول نفسه، وبعث معه رسوله الخاص، وبوساطة هذا الرسول بعث إلى السلطان كثيراً من الهدايا، وأعد الامبراطور بالوقت نفسه العدة للزحف مع جيشه لإعادة بناء يافا، ووصل الجيش في السادس عشر من تشرين ثاني من الخمس عشرة الثانية نفسها إلى يافا، وبدأ بكل نشاط بإعادة بناء قلعتها، ومن خلال المباحثات بين السفراء

الذين بذلوا الجهد في سبيل إقامة سلم بين الامبراطور والسلطان، أمكن في شهر آذار (شباط ١٢٢٩) تحقيق الوصول إلى اتفاق ومن ثم تنفيذه، أي أن تقول بأن السلطان نفسه أعاد بسلام وهدوء إلى الامبراطور مدينة القدس والأجزاء الأخرى العائدة لهذه المملكة، وفي اليوم الثامن عشر من شهر آذار نفسه، وفي يوم الأحد آنذاك جرى غناء: «ابتهجي يا قدس الرب، وكونوا كلكم مبتهجين يا من تحبونه»، وتم تنفيذ هذا، ودخل الامبراطور نفسه مع الجيش الصليبي كله إلى المدينة مبتهجين، والذي كتب هذا كان شخصياً هناك، ولم ينحرف عن طريق الحق، وقدم روايته بناء على ما رآه ومن معلوماته المؤكدة، زد على هذا، إنه عندما تتم قراءة التاريخ والعودة إليه مراراً نجد أنه منذ أيام الامبراطورين هرقل وكونراد، ما من امبراطور دخل إلى تلك المدينة إلا الامبراطور فردريك هذا، كما ويقرأ كيف أن الصليبيين احتفظوا بها بسلام وهدوء حتى مجيء الوقت الذي تقدم ذكره أعلاه، وهو وقت احتلال الخوارزمية لها،....، ثم عاد الامبراطور فردريك في شهر نيسان، في الخمس عشرة المذكورة أعلاه، إلى مدينة عكا، حيث سمع بأن الجيش البابوي قد غزا مملكة صقلية، واحتل البلاد كلها حتى كابوا Capua.... ثم أقبل على سطح البحر الامبراطور المذكور أعلاه، وكان ذلك في الأول من أيار من الخمس عشرة المذكورة أعلاه، وأبحر مع سبعة من الغلايين المسلحة، كان الكونت هنري صاحب مالطا قد جلبهم معه في ذلك الحين من مملكة صقلية، وقد وصل إلى ميناء برنديزي في العاشر من حزيران .

(١٢٣١) : وقد بعث مارشاله اللورد رتشارد فيلنغر مع جيش من فرسان المملكة إلى جزيرة قبرص، ولم يستطع النزول هناك لأن اللورد جون صاحب بيروت وقف ضده مع جيشه الكبير، وقد ذهبوا إلى بيروت في سورية ونزلوا في بلاد هذا اللورد جون نفسه، ولقد استطاعوا السيطرة على المدينة غير أنهم أخفقوا في الاستيلاء على القلعة، وعندما جاء شهر

أيار من هذه السنة (١٢٣٢)، أبحر جون صاحب بيروت هذا نفسه من قبرص إلى مدينة عكا مع جيشه، وانضم إليه جميع سكان عكا، وبعدما جمع جيشاً استطاع أن يرفع الحصار عن بيروت، وقام اللورد رتشارد هذا نفسه بركوب غلايينه وصحب سفنه التي كانت معه، وذهب إلى جزيرة قبرص، التي كانت متروكة بدون مدافعين، وتمكن بوساطة جيشه من الاستيلاء عليها كلها لصالحه وأخضعها لإرادته ولحكمه، وقام صاحب بيروت بعد هذا بحشد جيش، فعبر البحر وجاء إلى قبرص مع الجنويين، واقتتل الطرفان قرب نيقوسيا مع جيوشهما، وهزم اللورد رتشارد مع جيشه، ووقع ما لا يقل عن أربعمئة من فرسانه بالأسر أو قتلوا، ونجا اللورد رتشارد من خلال فراره مع بعض الفرسان التابعين له، وتراجعوا إلى غلايينهم التي تركوها على مقربة من شاطئ البحر هناك، وعادوا بوساطة هذه الغلايين إلى صور، التي كانت بيد اللورد رتشارد، وكان قد حصنها لصالح الامبراطور .

المحلق الرابع

روايات معاصرة حول الاعتراف بالملكة أليس وبالاستيلاء على
صور

أ: رواية مرسيليو جورجيو الوكيل البندقي (Tafel und
Thomas (Urkun den) Zur Alteren Handels- und
I 1,354-356 staatges chichte Der Republik venedig)

(تشرين أول ١٢٤٣)

روى مرسيليو جورجيو، الوكيل البندقي في سورية أخبار عدد من
الوقائع التي وقعت في ذلك المكان وفق تسلسلها، وذلك من أجل أي
واحد يريد أن يدخل ضمن أحكام كومونة البنادقة، حتى يتمكن من
حماية نفسه والاحتراز لها، ولكي يستطيع تدبر هذه الأعمال المتعلقة
بمجد وازدهار وصلاح السيد الدوج وكومونة البندقية، ولهذا تدبرت أنا
مرسيليو جورجيو، الوكيل البندقي في سورية أمر تدوين ماسوف يظهر
أدناه كتابة.

ذلك أنني عندما دخلت سورية للمرة الأولى، وجدت اللومبارد،
الأشرار جداً، الذين كانوا مستولين على صور لصالح السيد الامبراطور
فردريك، وكانوا يتصرفون وكأن جميع الموارد التي ينبغي أن تكون لكومونة
البنادقة جميعها في داخل مدينة صور وفي خارجها هي حق لهم وملك،
وبذلك حرمونا من كل شيء كلياً، ولقد رغبت في أن أعرف من الوكيل
الذي كان هناك عن الامبراطور المذكور لماذا كان يفعل هذا، ورؤية فيما
إذا كان من الممكن له إعادة ذلك إلينا، وقد بعثت إليه برسل فرفض
الاستماع إليهم، لابل رفض حتى رؤيتهم، وهذا لاشك هو الأسوأ، كما
جعلني أعرف من خلال قوم أدنياء أنه لا يثق بي خاصة، ولا يثق بالبنادقة
الآخرين بالأشخاص وبالأشياء، وبناء على هذا إنه إذا ما أراد أن

يؤذيني شخصياً أو يؤذي البنادقة الآخرين، يمكن أن يعد بمثابة خائن، ورأيت إثر هذا أن الوكيل المذكور كان يوجه جهوده كلها في محاولة الاستيلاء على مدينة عكا من أجل حرماننا وطردها مع جميع الآخرين المرتبطين بالكنيسة الرومانية، وبدأت بحكمة في محاولة إقناع اللورد فيليب دي مونتفورت، الذي كان صاحب تورون، مع آخرين اعتقدت أنهم كانوا قادرين على القيام بأعباء مثل هذه المواجهة الهامة، واستطعنا في النهاية أن نحتفظ بعكا، ومن ثم إعادة الاستيلاء على صور، وقام الذين كانوا بالحقيقة يمعنون التفكير حول هذه الأشياء التي حدثتكم عنها، والذين كانوا يقلبون الرأي في عقولهم عما يمكن أن يحدث لهم، قاموا بالموافقة على الأمور التي اقترحتها عليهم.

وقام البارونات المتقدم ذكرهم، وقد رأوا المخاطر التي يمكن أن يتعرضوا لها في عكا من وكيل الامبراطور، وكانوا واثقين من المعاهدات المعقودة مع الجنويين، قاموا بالإعداد للمشروع التالي ومن ثم القيام بتنفيذه: يتوجب على ملكة قبرص التي اسمها أليس أن تطالب بمملكة القدس من رئيس أساقفة صور، الذي كان نائب البطريك ومن جميع الأساقفة الآخرين في المملكة المذكورة، ومن بيوت الرهبانيات النظامية، ومن كومونة مدينة عكا، ومن كومونتي البنادقة والجنويين، ومن جميع الآخرين بموافقة صامته على أساس أنها وحدها فقط في المملكة، كانت وفقاً للعادات هي الأكثر شرعية من أي إنسان آخر كان في ذلك الوقت موجوداً في المملكة، ورأى الأساقفة والبارونات مع الآخرين الذين تقدم ذكرهم أعلاه، بعد مشاورتهم مع بعضهم بعضاً بكل دقة، أن ما طلبته الملكة أليس كان حقاً، ولذلك وافقوا على التماسها على أنه مطلب شرعي، وأقسمت الملكة المذكورة — وفقاً للعادات — بين يدي رئيس أساقفة صور والبارونات أنها سوف تحكم المملكة وفق الطريقة التالية: إنها سوف تحافظ على عادات المملكة فيما يتعلق بالبارونات، وبالفارسان

وبجميع الشعب، وستحافظ أيضاً على أوضاع الكنيسة وأحوال الدين،
ولسوف ترعى امتيازات الأفراد وتحافظ عليها، ولسوف تحفظ بشكل
خاص وتبقي بشكل سليم المعاهدة والامتيازات مع دوج البندقية
وكومونة البنادقة، وبعدما حلفت الملكة قام زوجها واسمه رالف دي
سواسون فأقسم مثلها، وبعد إقسام الملكة هي وزوجها، قدم كل
البارونات، والفرسان وشعب المملكة الولاء للملكة ولزوجها، وذلك وفقاً
لعادات المملكة، وكان هذا هو اليوم الخامس منذ بداية شهر حزيران من
السنة المذكورة أعلاه.

وبعدما تم انجاز جميع ماورد ذكره أعلاه، قامت الملكة المذكورة، وقد
استحوذت على حكم المملكة، وطلبت مني تسليح واحد من الغلايين
على حسابها، بما أنها ترغب به من أجل مقصد الذهاب للاستيلاء على
صور، على أساس أنها بلادها التي من مسؤولياتها المطالبة بها والحصول
عليها، ورتبت معنا أن نعيد الاستيلاء على حصتنا، وبناء عليه اجتمعنا
للتشاور، ورددت عليها بنفس رغبة بأننا سوف نمنحها الغليون، لكن
ليس كما سألت على حسابها، بل على حسابنا كلياً، وكان هذا بسبب أن
السيد الدوج وكومونة البندقية لم يعتادوا على القيام بأية خدمة
لأصدقائهم على حساب هؤلاء الأصدقاء، بل على حسابهم هم كلياً،
هذا وطلبت منها ومن البارونات مايلي: إنه بمشيئة الرب سوف نحصل
على تملك البلاد مع البارونات، ووقتها سوف تعيد إلينا — تماشيا مع
اليمين — كل ما كان قد صودر وانتزع مما كنا نمتلكه في صور في كل من
الداخل ومن الخارج وفي كل مكان أخرج من المملكة كلها، وأنها سوف
تحافظ على امتيازاتنا كاملة دونما نقص، وردت السيدة الملكة واللورد
رالف زوجها، وكذلك رد صاحب بيروت واللورد فيليب دي مونتفورت،
بأن ذلك سوف يكون خدمة عظيمة، ووعد كل واحد وفقاً لما وعدوا به
وحلفوا على ذلك — ذلك أنهم كانوا مرتبطين بتحالف معقود فيما بيننا

وبينهم، وكان قد أقيم لدى قدوم الامبراطور— وتعهدوا بمواثيق الفروسية بأنه إذا ما أعطاهم الرب البلاد سيعيدون تنظيم الأمور الادارية وسوف ينفذون هذه الأشياء، وذلك حسبما طلبت، وقمت أنا بناء عليه، وقد وثقت بوعودهم وباخلاصهم وصدقهم، فأعطيتهم الذي طلبوه مني، وذهبت معهم على الطريق البري، وكان معي ثلاثين فارساً مسلحين بشكل جيد، وكان هذا في التاسع من الشهر المذكور.

وبعد ما وصلنا إلى صور، استولينا على المدينة في نهاية اليوم الثالث، وكان هذا بمعاونة بنادقتنا الذين كانوا برجاسية فيها، وأعدنا الاستيلاء على القلعة في نهاية اليوم الثامن والعشرين بعد جهد كبير، لأننا أنشأنا هناك آلة حصار، ومالبثنا أن استولينا عليها، وما كنا لنستولي عليها لولا أن وكيل الامبراطور الذي كان ذاهباً إلى أبوليا قد جنحت به سفيته في ممر جبل بارشي Barche، وقد عاد بالركب الصغير العائد للسفينة التي أبحر فيها، ورجع إلى صور، وهكذا اعتقلناه، وقد أنشأنا منصة فوق برج مرتفع مواجه للقلعة، وأعلننا أننا سوف نشنقه، وارتعب الذين كانوا في القلعة من عزمنا على شنقه، وسلموا القلعة وفق الشروط التالية: إنهم سوف يحصلون على حريتهم، وبعدها اكتمل الاستيلاء على المدينة وعلى القلعة، أخذت الملكة طريقها إلى صور، وقد جئت إليها عبر الطريق الرئيسي وطلبت منها ومن البارونات وجوب أن يعيدوا إليّ جميع الأشياء التي وعدوا بها، وأن يجعلونا نتملك الأشياء التي انتزعت منا، وقد ردت الملكة عليّ مع البارونات بأن لديهم الرغبة بفعل ذلك بكل سرور، وأنهم متمسكون بما وعدوا به، لكنهم سألوني الانتظار حتى يعودوا إلى عكا، من أجل أن يتمكنوا من ايضاح الأمور لرجال المملكة، وبذلك يحولون ضد أي تحرك شرير يعزى إليهم، وبذلك سوف يكون ضماناً عظيماً لنا، وقالوا بأنهم على يقين أنه بالنسبة لهذه القضية لن يكون هناك أي عمل معارض من قبل أي انسان، ولا يمكن أن يكون، ولمعرفتي بأنه لن يكون

هناك من سوف يعارضهم، كما قالوا، فقد وافقت.

(ثم تابع مرسيليو يعدد جميع الممتلكات والامتيازات التي عادت إلى البنادقة في صور وعكا وفي جميع أرجاء مملكة القدس).

ب: رواية جون دي إيبيلين صاحب يافا حول «الوثائق المتعلقة بالوصول إلى وكالة المملكة ونيابتها» قوانين القدس: ٣٩٩/٢ - ٤٠

عندما وصل الملك كونراد إلى السن الشرعية بعث برسائل وبرسل لوضع رجل محله، وبناء عليه اجتمع رجال الاقطاع، وكان بين الحضور يستوريو، رئيس أساقفة نيقوسيا، الذي كان آنذاك نائب البطريرك، وقد قالوا مايلي: إذا كان يرضي الملك كونراد أن يقدم لتسلم سلطاته، سوف يستقبلونه بمشابة سيدهم الشرعي، ذلك أن أحكام المملكة المذكورة وممارساتها لا يمكن أن تدار بالرسائل وبالرسل، وهم لن يتمكنوا من فعل ذلك له، لأن هذا الأمر سيكون معاكساً لأيمانهم ولإخلاصهم، وبالنسبة له الذي هو سيدهم، وسوف يرتبط بهم بالثقة والاخلاص، هم متأكدون بأنه لا يرغب مطلقاً بالعمل وفق أي طريقة يبدون هم فيها أو يكونون مقترفين لعمل أي شيء زائف أو معاكس لأحكام وممارسات المملكة المذكورة التي متوجب عليه حكمها والحفاظ عليها، ولأنه قد بدا لهم أنه لايعرف جيداً الممارسات المذكورة، فإنهم قد أخبروه بها، غير أنهم سوف يحمون المملكة وفقاً لممارساتهم حتى يتفضل ويأتي، وكان عندما وصل الملك كونراد إلى السن الشرعية، اجتمع رجالات المملكة، ومثلوا بحضرة يستوريو رئيس أساقفة نيقوسيا، والذي كان النائب البطريركي في نيقوسيا في الوقت نفسه، وذلك حسبما أخبرتكم من قبل، وبينوا بأحاديثهم كيف أن مولاهم الملك كونراد قد وصل إلى السن القانونية، وبما أنه وصل إلى السن القانونية، لم يعد والده الامبراطور فردريك وكيل البلاد، ذلك أن أحكام وممارسات مملكة القدس، وكذلك مملكة قبرص هي كما يلي: عندما يصل الوريث الشرعي إلى السن القانونية يفقد الأب

وكذلك تفقد الأم حقوق الوكالة، ولهذا السبب فقد الامبراطور فردريك حقوق الوكالة، وبودهم تنصيب رجل يتولى السلطة وفقاً لمقتضيات ممارساتهم، وبما أن السير بالين، صاحب صيدا متوفى فقد اختاروا القسطلان السير يودس دي مونتبليارد، ليتولى الاشراف على السيادة، لأن لا ابن عمي صاحب قيسارية ولا أنا رغبتنا بهذه الولاية لأسباب محددة خاصة، وعندما عرفت ابنة عمتي الملكة أليس بأن الامبراطور قد فقد الوكالة بوصول ابنه إلى السن القانونية، تدبرت جمع كل الأعيان التي أمكنها الحصول عليهم، وذهبت إلى الاجتماع بحضور رئيس الأساقفة المتقدم الذكر، وكان بين الحضور مقدم الداوية، الراهب أرماند دي بيرغورد، وقنصل جنوى، ووكيل البندقية، وطالبت بمملكة القدس من خلال ابنة أختها الامبراطورة ايزابل، على أساس أنها الوريث الأكثر ظهوراً بشرعيته، وقد طالبت بحقها في الاجتماع، وقالت بما أن حفيدها الملك كونراد قد وصل إلى السن القانونية ولم يقدم شخصياً للدخول إلى مملكته، إنها أقرب وريث ينبغي أن يدخل إلى المملكة، وهي أقرب وريث في خط الأسرة المتداولة لحكم المملكة، وهي جاهزة للبرهنة على ذلك، إذا ما رغب الاجتماع بذلك، أو إذا ما اعتقد أنه من الضروري قيامها بالبرهنة على ذلك، وبناء عليه رجت وطلبت عدم تسلم الرسائل التي أرسلها الملك كونراد، أو التي سوف يرسلها، وعدم استقبال الرسل الذين أرسلهم أو سوف يرسلهم، لأن ذلك سوف يكون مضاداً لأحكام المملكة المذكورة وممارساتها، التي لا يمكنهم بأي حال من الأحوال الوقوف ضدها، واجتمع الأعيان للتشاور، ووافقوا جميعاً على قبول الملكة أليس، باستثناء القسطلان فقط، الذي رغب بعدم قبولها وتسلمها السلطة قبل إرسال رسالة إلى الملك كونراد بأن عليه القدوم، أو أن خالته سوف تقبل ملكة، ورأى صاحب بيروت ورأيت أنا وكذلك ارتأى الآخرون أنه ليس من الضروري الإرسال له، وبذلك دخلت الملكة أليس إلى السيادة، وقدم لها الولاء على أنها الوريث الشرعي الأكثر ظهوراً،

وأقوى أصحاب الإدعاءات بالعرش أمام الاجتماع الذي أخذ شكل محكمة البلاط، وذلك باستثناء الملك كونراد، ثم حركت قضية جميع العطاءات التي منحها الامبراطور وألغيت حتى أن وظيفة كافل المملكة التي منحت إلى السير ريموند صاحب جبلة قد ألغيت، لأن ما من شيء قانوني عمل خارج إطار أحكام وممارسات المملكة ولهذا السبب ألغيت هذه الأشياء، وبعثت الملكة أليس المذكورة رسالة إلى قبرص إلى ابنها الملك هنري وإلى أقربائنا الذين بادروا فقدموا أولاً، ثم ذهب صاحب بيروت، والسير رالف دي مونتفورت صاحب تورون، والسيرجون دي إيبيلين صاحب أرسوف، وأنا، وفرسان عكا، عبر البر مع السير رالف دي سواسون، زوج الملكة المذكورة، وذلك للاستيلاء على صور وانتزاعها من السير ييتير Ytier (لوثير) فيلنغر الذي كان هناك لصالح الامبراطور، وقد استولينا عليها، ووضعها أعيان المملكة تحت حماية صاحب بيروت، ووضعوا قلعة عكا تحت حماية صاحب تورون ومعه السير نيقولاس أنتيوم Antiaume، لأنه ينبغي على الأعيان حراسة الحصون العائدة للمملكة عندما يكون الورثة تحت السن القانونية، أو عندما يكونون خارج البلاد، ولم يدخلوا بعد إلى مملكتهم كما ينبغي أن يفعلوا، كما أننا لم نقبل بوضعهم تحت أمرة السير رالف دي سواسون المتقدم الذكر لتوفر مخاطر محددة قد تنجم عن ذلك.

ج: من هرقل: ٤٢٠ / ١ / ٣٣

عندما كان الحجاج في عكا، تزوجت أليس، أم ملك قبرص من رجل نبيل فرنسي، كان اسمه رالف دي سواسون، وكان هو أخ الكونت سواسون، وبعد زواجه منها تقدم بناء على موافقة جزء من رجال المملكة وطالب لزواجه الملكة، بحماية مملكة القدس والسيادة عليها، وقد طالب بذلك لأنها كانت أكثر الورثة شرعية بين ورثة الملك عموري جدها، وذلك بين الموجودين في البلاد، أو كانوا موجودين منذ وفاة الامبراطورة

ايزابل، التي كانت زوجة الامبراطور، والتي لها ولد كان في أبوليا، وهو قد كان الوريث الشرعي للملكة، لكن بما أنه لم يكن حاضراً، ولم يحضر من قبل، كانوا على استعداد لاستقبالها بمثابة سيدتهم، ويوكلون إليها المملكة لتتولى حمايتها، وسوف يربطونها بها باستثناء حقوق الملك كونراد وامتيازاته، وكونراد هو ابن الامبراطورة ايزابل، التي هي ابنة أختها، وهذا ما تم صنيعه، وعندما نال رالف دي سواسون السيادة وفق الطريقة التي سمعتم بها، أمسك بالسلطة بشكل ضعيف جداً، لأن الذين تمت توليتهم من قبله — والذين كانوا أقرباء زوجته — امتلكوا سلطة أكبر وصلاحيات أعظم مما تملكه، لذلك بدا بأنه مجرد خيال، ولهذا الحال، وبسبب الازلال والاهانة التي تعرض لهما، تخلّى عن كل شيء، وترك زوجته، وذهب عائداً إلى بلاده.

- ٢٥٦١ -

الحواشي

- 227 -

١- كان هيوج دي لوزغنان، ملك قبرص (١٢٠٥ - ١٢١٨) ابن عموري دي لوزغنان ملك قبرص، واسشيفي دي إيبيلين، ويقدم كتاب هرقل (ص ٣٦٠) وصفاً لشخصه ولأخلاقه، وقد عدّ ملكاً قديراً، مع أنه كان في الثالثة والعشرين من عمره عندما مات، وقد مضت السني المبكرة من حكمه تحت وصاية وولتر دي مونتيلارد، زوج أخته بورغوني Borgogne، وتنبع أهميته في التاريخ من مشاركته في الحملة الصليبية الخامسة.

٢- كان مزار بيعة سيدتنا في طرطوس واحداً من أكثر الأماكن المقدسة شعبية في سورية، فقد كان هدفاً لعدد كبير من الحجاج، وكانت طرطوس تابعة لكونتيه طرابلس، لكنها أصبحت منذ ١١٧٠ تابعة لفرسان الداوية، وما تزال كنيستهم التي بنيت حسب النظام القوطي واحدة من أجمل الأبنية الصليبية المتبقية في سورية.

٣- عاد الملك هيوج من عكا عبر طرابلس، حيث ذهب مع أندرو صاحب هنغاريا وجون دي برين، إلى الحملة الصليبية .

٤- نقل الجسد فيما بعد إلى المشفى في نيقوسيا، حيث بقي بشكل دائم.

٥- كانت أليس أوف شامبين، ملكة قبرص، ابنة هنري أوف شامبين وإيزابل بلانتغنت صاحبة القدس، وتزوجت إيزابل بشكل متتابع من همفري صاحب تورون، ثم من كونراد دي مونتفرات، ثم من هنري دي شامبين، وأخيراً من عموري دي لوزغنان، وكانت مريم صاحبة القدس ابنتها من خلال كونراد، وأليس من خلال هنري، وتم نيل الموافقة الكنسية على السماح بزواج أليس من هيوج الذي كان ابن زوج أمها الرابع.

٦- البنات كن: مريم التي تزوجت من وولتر الرابع أوف برين،

وإيزابل التي تزوجت من هنري صاحب أنطاكية الابن الصغير لبوهيموند الرابع.

٧- نقرأ في الأعمال «شهرين» حسب نصحيح كوهلر.

٨- هنري الأول صاحب قبرص (١٢١٨ - ١٢٥٣).

٩- كانت إيزابل صاحبة القدس، وأم أليس أختاً غير شقيقة لجون وفيليب دي إيبيلين، بحكم أن أمها كانت مريم البيزنطية التي تزوجت أولاً من عموري الأول ملك القدس وبعد موته من بالين دي إيبيلين.

١٠- كان جون دي إيبيلين، صاحب بيروت، ابن بالين دي إيبيلين صاحب نابلس، وكذلك مريم البيزنطية، وجون هو بطل تاريخ فيليب دي نوفار، وكان جون قد جعل قسطلان القدس من قبل هنري دي شامبين، وقد حمل هذا اللقب من سنة ١١٩٤ إلى ١٢٠٠، عندما استبدل وظيفة القسطلان بإقطاع بيروت، وقد تزوج من هلفيس أوف نفين Helvis of nefin، وقد أنجبت له ولداً، توفي شاباً بعد وفاتها، ثم تزوج بعد وفاتها من ميليساندا صاحبة أرسوف، التي رزق منها بخمسة صبيان، أشير إليهم في تاريخ فيليب، وكان صاحب بيروت العجوز واحداً من كبار الحقوقيين في بلاد ما وراء البحر، كما كان واحداً من أساتذة نوفار، وقد كان جون صاحب بيروت أثناء كون مريم صاحبة القدس دون السن القانونية هو وكيل القدس من ١٢٠٦ إلى ١٢١٠.

١١- كان فيليب دي إيبيلين - أخو جون صاحب بيروت - صاحب بيرستيرونا Peristerona في مقاطعة ميسورا Messorea القبرصية (ماس لاتري: ٣ / ٦٠٨ - ٦٠٩)، وقد تزوج من أليس دي مونتليارد الذي كان أبوها وكيلاً أثناء صغرسن هيوغ الأول،

وقد ولد لهما جون دي إيبيلين صاحب يافا، ومصنف Livre des assises de la haute cour، وقد امتلك فيليب قصراً في لياسول، احتله فردريك الثاني عندما توقف في قبرص أثناء كون هنري الأول صغيراً، وتنبع مكانته في التاريخ من أنه كان وكيل قبرص في أثناء صغر سن هنري الأول.

١١- قدم كتاب هرقل (ص ٣٦٠ - ٣٦١) رواية تختلف بعض الشيء عن هذه الحادثة: «عندما تسلمت (أليس) الولاء، وضعت في مكانها للإشراف على المملكة خالها - أخو أمها - الذي كان اسمه فيليب دي إيبيلين، وقد فعلت ذلك بحماقة، ذلك أنها عندما حاولت التراجع، لم تستطع فعل ذلك، كما ستسمع».

وتبعاً لقوانين كل من القدس وقبرص يمكن انتقال الوكالة على وريث قاصر إلى الحي من الأبوين، حيث لا يمكن لميراث المملكة الضياع من خلاله (قوانين القدس: ١ / ٦٠٩ - ٦١٠)، وكانت المحكمة العليا دوماً جاهزة للمحافظة على حق الوكالة وترتيب الأفضل لها، وخرجت في هذه الحالة على الحكم العام، بإعطاء أليس كلاً من الوصاية على ابنها مع موارد المملكة، ولأن العادات المقبولة قضت بأن لا توكل أمور الوريث إلى الشخص نفسه الذي سيكون وكيل الدولة، وأعطى الوكيل بالعادة أمر الإشراف على الحكومة مع التمتع بالموارد، مع طلب حساب دقيق عندما يسلم الوكيل وظيفته، ولقد أعطيت أليس في هذه الحالة الوكالة والموارد، والوصاية على الوريث، غير أن الإيبيليني قد جرى تعيينه وكيلاً للوكيل لإدارة المملكة، وسواء أكان تعيين فيليب من قبل المحكمة نفسها، أو من قبل أليس بحكم كونها وكيله، فإن اليمين الذي أعطي للإيبيليني قضى حتى يصل هنري إلى السن القانونية، وهذا لا يمكن نقضه بأمر أليس، ويحتاج إلى أمر من المحكمة (إنظر لي

مونت :الملكية الإقطاعية في المملكة اللاتينية في القدس ص ٤٩ -
(٥٤) .

١٣ — قال أمادي (ص ١١٨) بأن أليس قد أعطت عشر موارد قبرص
إلى الكنيسة وذلك بموافقة البارونات .

١٤ — قال هرقل (ص ٣٦٧) بأن هنري قد جرى تنويجه في سنة ١٢٢٨ ،
عندما كان في الحادية عشرة من عمره لمدة ثلاث سنوات، وهذا
يجعله قد تتوج في الثامنة من عمره في سنة ١٢٢٥ .

١٥ — يورستوريو، رئيس أساقفة نيقوسيا (١٢١٧ - ١٢٥٠) وكان أخاً
لفولق أسقف لياسول، وبيتر دي مونتاغيو، مقدم الداوية،
وغورين دي مونتاغيو مقدم الاستارية، أما جيرارد دي مونتاغيو،
فكان فارساً قبرصياً، وزوج اسشيفي دي مونتليارد، الذي قتل في
معركة نيقوسيا سنة ١٢٢٩، كان حفيده (انظر ماس لاتري: «تاريخ
الوثائق اللاتينية في جزيرة قبرص» «وثائق الشرق اللاتيني: ٢ /
٢١٤ — ٢٢٩، ديلا فيلا لى روكس، «الاستارية في الأرض
المقدسة» ص ١٣٧، وفيما يلي فصل ٥٧) وكان يورستوريو واحداً
من أعظم رؤساء الأساقفة الذين عرفتهم نيقوسيا، وقد عمل الكثير
لإغناء رئاسة أسقفية نيقوسيا وتقويتها .

١٦ — جرت العادة بتتويج ملوك قبرص في كنيسة القديسة صوفيا في
نيقوسيا، التي كانت الكاتدرائية الرئيسة في قبرص، وجرى تتويج
ملوك القدس ، طوال بقاء مملكة القدس في القدس أو في صور،
وبعد سقوط المملكة، وعندما بات ملوك قبرص أيضاً ملوكاً
للقدس، جرى تتويجهم ملوكاً لقبرص في نيقوسيا، وملوكاً للقدس
في فياغوستا، في الكنيسة الكاتدرائية للقديس نيقولا، وكانت
كاتدرائية القديسة صوفيا في نيقوسيا أيضاً المكان المفضل لدفن

ملوك قبرص.

١٧ — عندما اشترى غي دي لوزغنان قبرص من رتشارد ملك إنكلترا، احتفظ لنفسه بلقب ملك القدس، ولم يمتلك أخوه عموري، الذي خلفه في قبرص، أي لقب ملكي، ولذلك طلب من الامبراطور هنري السادس أن يمنحه التاج الملكي مقابل الاعتراف بالتابعة إلى الامبراطورية، ووضع التاج على رأس عموري من قبل الأسقف كونراد أوف هيلدزهييم Hildesheim، العامل باسم هنري السادس، وكان ذلك سنة ١١٩٧، وليس هناك من اعتراض على حق ادعاء الامبراطور بالسيادة الشرعية على قبرص، وكان جون دي إيبيلين نفسه على استعداد تام للاعتراف بسيادة فردريك على الملك هنري، وجاء الاعتراض عندما بعث فردريك بتوماس دي أكينو، كونت أسيرا، وكيلاً لعكا.

١٨ — جاء في نص «الأعمال»: «في السنة الخامسة والعشرين من العمر»، وصحح كوهلر ذلك من أمادي ص ١١٨، وفي حين اختلف سن الرشد في أوروبا في القرن الثالث عشر، كان على العموم سن الخامسة عشرة أكثر شيوعاً من الخامسة والعشرين، وكان سن الخامسة عشرة هو السن القانوني في كل من القدس وقبرص، أما بالنسبة «لعادات ألمانيا» التي طالب بها فردريك استناداً إلى ملاحظاته عن الـ Sachsenspiegel و Schwabenspiegel، وذلك استناداً لما جاء في كتاب (غولهيروموز - Guilhiermoz) أطروحة حول أصل النبالة ص ٣٩٣ - ٤٢٥، فقد أراد فردريك أنه عندما يصل الوريث إلى سن الثانية عشرة يمكن أن يوضع تحت عناية Avoue، يتولى خدمة إقطاعه حتى يصل إلى سن الحادية والعشرين.

١٩ — غيرت طبعة RHC (ص ٦٧٢) هذه الفقرة بحيث أصبحت: «أنها

ينبغي أن تلتبس في أن يدعها تستحوذ على الوكالة بنعمة»، وهذا التعديل غير مسوغ في النص، ومع الاقرار أنه أكثر منطقية في القراءة.

٢٠ — كان الايلينيون أحوالاً كباراً لايزابل صاحبة القدس، ذلك أنهم كانوا أخوة غير أشقاء لجدتها من جهة أمها - الملكة إيزابل صاحبة القدس.

٢١ — كان عموري برلياس، الرجل الشرير في حكاية نوفار ابناً لرينو برلياس الذي كان فارساً من بواتو، استقر في قبرص، وكانت أمه إيزابل لى روكس دي بيسان، وهي وريثة إقطاعي «عربي وزكنين» في القدس، وقد تزوجت إيزابل فيما بعد بيرتراند بورسليت الذي كان حليفاً لأبنائها، وكان عموري قد تزوج من قبل سنة ١٢١٧، أغنس ابنة بيرتراند صاحب المرقب، ويبدو أنه تمتع بثقة أليس صاحبة قبرص، وكان واحداً من أكثر أعضاء المحكمة العليا في قبرص نفوذاً .

٢٣ (٢٢) — كان عموري صاحب بيسان ابن وولتر صاحب بيسان وداوس Douce بورسليت، حاجب قبرص ١٢١٨ — ١٢٢٠، وكان أبوه خال إيزابل صاحبة بيسان، أم عموري برلياس، وعلى هذا كان العموريان أبناء خال، وقد ذهب عموري برلياس إلى أبوليا بعد هزيمة الحزب الامبراطوري في قبرص، وأصبح صاحباً لـ « تريكاريكو Tricarico، وقد تزوجت أخته من بلدوين دي إيبيلين .

٢٤ — كان جوفيان دي شنشي Chenchi (أو دي روسي Rossi - تبعاً لأمادي) زوج إرمالين Ermaline دي سواسون، وأخاً غير شقيق لفيليب شينارت Chenart، وذلك حسبما أكده نوفار،

وقليل هو المعلوم عنه باستثناء رواية نوفار، وقد ظهر اسمه في مراسيم فردريك الثاني لعام ١٢٢٦ باسم «جوفيانوس دي سيبرو Cipro»، وقد وقع تحت رئيس أتباع الامبراطور (H - B. 11.536) 38 -)، وكان هذا عندما كان منفياً في قبرص .

٢٥ — كان وليم دي ريفت أخاً لجيمس دي ريفت الذي تزوج من إيزابل دي سواسون، أخت إرمالين دي سواسون التي تزوجت من جوفيان دي شنشي، وكان على هذا قريباً بعيداً من جوفيان، والقربة جاءت فقط من خلال الزواج، وينبغي عدم مزجه بوليم دي ريفت الأصغر، الذي أثنى نوفار عليه كثيراً على أنه محامي استئناف عظيم في المحاكم، وكان وليم الأصغر ابن كل من جيمس وإيزابل، وأهمية وليم موضوع البحث هنا فقط لأنه كان واحداً من الوكلاء الخمسة في ظل فردريك الثاني .

٢٦ — كان هيوغ صاحب جبلة ابن برتراند صاحب جبلة، ودولت الأرمنية، أخت الملك ليون الأول «وكتاب أسر ما وراء البحار» الذي هو مصدري لمعظم تفاصيل أنساب هؤلاء، غامض جداً، وغير مؤكد بالنسبة لهيوغ، غير أن إ.ج.ري، قد صحح المادة في مقال في (١٨٩٥) R.O.I ص ٣٩٨ — ٤٢٢. وقال: كان هيوغ والد برتراند الابن الثالث لوليم الثاني وحفيداً لهيوغ الأول صاحب جبلة وميليساندا صاحبة أرسوف، وزوجة جون دي إيبيلين.

٢٧ — امتلك جون صاحب بيروت خمسة أولاد هم: بالين، وبلدوين، وهيوغ، وجون، وغي، وقد ظهوروا جميعاً في رواية نوفار.

٢٨ — كان بالين دي إيبيلين، صاحب بيروت (١٢٣٦ — ١٢٤٧)، وقسطلان قبرص (١٢٣٦ — ١٢٣٩) ووكيل القدس (١٢٤٦ — ١٢٤٧) قد تزوج من استشيفي دي مونتيلارد، أرملة جيرارد دي

مونتاغيو، وقد تعرض للحرمان الكنسي لزوجته منها بسبب وجود درجة من القرابة تحظر ذلك، وكان بالين هو السيد المباشر لفيليب دي نوفار، وعلى هذا حرص فيليب على الالتحاق على بسالته وأخلافه الحميدة في ثنايا روايته.

٢٩- تزوج بلدوين دي إيبيلين، كافل قبرص، (١٢٤٦ - ١٢٤٧) من أليس، ابنه وولتر صاحب بيسان، وقد أخذ أسيراً في المنصورة، عندما كان في خدمة الملك لويس صاحب فرنسا، وقد مات سنة ١٢٦٧، خلفاً عدداً كبيراً من الأولاد كان منهم فيليب قسطنطين قبرص سنة ١٣٠٢.

٣٠- قال أمادي (ص ١١٩): «قرأوا»، ويبدو هذا تفسيراً معقولاً.

٣١- نوع من أنواع المبارزات.

٣٢- قال كتاب «الاعمال»: «تور»، وصحح كوهلر إلى «تورننغيل» وذلك اعتماداً على نافار (٧١) وكذلك من بوسترون، وباستثناء الدور الذي شغله في الحرب ضد الامبراطوريين، الذي أتى نافار على ذكره، هو غير معروف إطلاقاً.

٣٣- « Etqueil Feroit autel Fin Come Sire Heimexy »
ألح فيليب على وضع جون هذا لكي يظهر الأعمال التالية لبرلياس على أنها أكثر انحطاطاً وخيانة، واقترح ماس لاترى (ص ٢٣١) أن جون كان مهتماً بالحفاظ على السلم بين البارونات العائدين للمملكة، وللحيلولة دون الخلاف في أثناء النيابة.

٣٤- ويقول النص «Forsspassa» مما يعني «مضى»، غير أن تورينول لم يمض بعيداً، ويمكن معرفة هذا من خلال عودة ظهوره بعد وقت قصير، حاملاً ضغينته ضد برلياس، وغير راغب مطلقاً في إقامة صلح معه.

٣٥- بوهيموند الخامس ولد بوهيموند الرابع صاحب أنطاكية، كان قد ورث مناصب أبيه، وحكم أنطاكية- طرابلس من ١٢٣٣ حتى ١٢٥١، ولم يوافق البابا هونوريوس الثالث على زواجه من أليس على أساس قرابة الدم، وأخيراً فسخ، وبما أن بلاد طرابلس كانت تحت الحرمان وقت الزواج، ذهب الزوجان إلى جزيرة أمام الساحل للاحتفال بالعرس، وتزوج بوهيموند في سنة ١٢٣٧ لوس Lucie ابنة بول دي سيني Segni، وهي ابنة أخت كبيرة للبابا انوسنت الثالث.

٣٦- كان أن يقبل عموري بالتعيين بالوكالة من قبل الملكة خرق لامتيازات البلاد، ولقواعد الدستور، وحسبما ورد أعلاه كانت المحكمة العليا صاحبة السلطة العليا، وأي عمل أو قرار اتخذ في المحكمة، يمكن أن يغير فيها فقط، وأقسم البارونات في المحكمة على قبول فيليب كوكيل حتى يصل الملك إلى السن القانونية، وفي المحكمة فقط، وبقرار يتخذ فيها كان من الممكن أحداث أي تغيير في الوكالة، وهكذا جرت الأمور، حيث أعيد فيليب إلى الوكالة، ولعل هذا كان بقرار من المحكمة، واحتفظ بوظيفته حتى تاريخ وفاته، عندما قبلت المحكمة أخاه جون صاحب بيروت ليكون وكيلاً حتى بلوغ الملك السن القانونية.

٣٧- أعطى هرقل (ص ٣٦١- ٣٦٢) رواية أكثر تفصيلاً حول الحادث كله: « عندما تزوج (بوهيموند) منها (أليس) أرسل رسلاً إلى قبرص، واجتمع جميع أعيان المملكة في قصر الملكة، وقال الرسل: « ترسل إليكم ياسادتي الملكة التحيات، بحكم أنكم رجالها المخلصين وأصدقائها، وبودها أن تخبركم أيضاً بأنها كوكيلة لابنها، وإرادة منها ورغبة، وبدون أي اكراه وبدون أي سبب آخر غير رغبتها، كانت قد وضعت، وأقامت في مكانها خالها فيليب

دي إيبيلين، غير أنها لم تعد ترغب ببقائه وكيلاً من الآن فصاعداً، وبناء عليه ترسل إليكم أوامرها، بحكم كونكم رجالها، بأن لا تكونوا من هذا اليوم فصاعداً تحت أوامره، وأن لا تفعلوا شيئاً له، وأن تستقبلوا في مكانه عموري برلياس، وأن تكونوا تحت إمرته»، وعندما فرغ الرسل من قوطم هذا، نهض فيليب دي نوفار، وقال: «أيها السادة إنكم تعلمون بأنكم قد أقسمتم لي بأمر من الملكة على أن تطيعوني وأن تنفذوا أوامري حتى وصول الطفل إلى السن القانونية، لأنه هو وريثنا الشرعي، وبودي أن أعرف هل ستبقونني وكيلاً أم لا؟، ثم إنه طلب من كل واحد منهم على انفراد قول ما الذي يريده حول الموضوع، وقال الجميع بأنهم متمسكون به وكيلاً لهم، وذلك باستثناء فارس اسمه بلدوين دي بيليمي Beleme، الذي قال بأنه لن يعترف بوكيل آخر في قبرص غير الملكة أليس، وانقض عليه أقرباء ورفاق فيليب دي إيبيلين، ونجا بصعوبة من الموت، وهكذا بقي فيليب دي إيبيلين في الوكالة، وصارت الملكة خارجة دون أن تتمكن من استردادها».

وتختلف هذه الرواية عن رواية نوفار، عن قبول فيليب بالتعيين، على أساس أنه جاء من عند أليس وليس من قبل البلاط، ولعل نوفار قد شعر بأنه صنع قضية أقوى لصالح الإيبيليني، إذا ما ترك ذكر التعيين على أنه كان بوساطة المحكمة، وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن رواية نافار تمثل تقاليد روايات البيت الإيبيليني، بينما تقدم رواية هرقل نصاً كان هو المقبول بشكل عام في سورية، ولعل هذا النص هو الذي فضله آل لوزغنان ورعوه، وعلى كل حال، وحسب ما جاء أعلاه، من الممكن أن التعيين في هذه الحالة جاء من قبل الملكة أليس، وإنه قد جاء تماماً في إطار ما تقوم به المحكمة، ومن غير الممكن فسخه من دون موافقة المحكمة وهذا واضح في كل

رواية من الروايتين حول القضية.

٣٨ — لم تكن العلاقات وشيجة كما يبدو من اشارة فيليب، وقد تزوجت هليفس أوف راما بالين دي إيبيلين، ومن ماناسيس دي هيرجس، وكان بالين ابنها من الزواج الأول، وهو قد كان والد كل من جون وفيليب دي إيبيلين، وتزوجت ابنتا هليفس من ماناسيس من آنسيو دي بري، وكانت جدة مانسيو دي بري الذي ورد ذكره لدى فيليب دي نوفار، وتزوج آنسيو هذا من أنسيلي Ancelle، أرملة بيتر شابي وقد مات دونما انجاب.

٣٩ — كانت كلمة فيليب هي Vayrs، وقد ترجمناها إلى «بشرة متوردة»، وقد حذف أمادي (ص ١٢٠) هذا الجزء الاخير من الوصف، وقال عوضاً عن ذلك ما هو أكثر فائدة للبطل: «وكان له مظهر بهي».

٤٠ — جون صاحب قيسارية، وابن وولتر صاحب قيسارية، ومرغريت دي إيبيلين، أخت كل من جون وفيليب دي إيبيلين، وقد تزوج جون من أليس حفيدة يوستوريو، رئيس أساقفة نيقوسيا.

٤١ — هذه اشارة مفيدة، تشهد على حب فردريك للطيور، ومن أجل البحث بشأن معرفته بالطيور انظر: «Dearto venandi Cum avibus في كتاب س.ه. هاسكن «العلم في العصور الوسطى» (كمبردج، ماس، ١٩٢٤) ص ٢٩٩ — ٣٢٦؛ وكان جوفيان في ايطاليا في كانون ثاني ١٢٢٦، عندما شهد على مرسومين لفردريك (ه.ب: ٥٣٦/٢ — ٥٣٨).

٤٢ — حمل فردريك الصليب وتعهد بنفسه القيام بحملة صليبية، بمناسبة تنويجه في سنة ١٢١٥، ومرة ثانية أثناء زواجه من ايزابل دي بريين في سنة ١٢٢٥.

٤٣ — برنديزي.

٤٤ — هذا صعب تصديقه بالنسبة للامبراطور، وهو غير عادل، فقد وقع فردريك مريضاً بالوباء الذي اجتاح معسكره في برنديزي، وكان قد أُلْع من الميناء غير أنه كان مريضاً جداً، لهذا أرغم على العودة إلى اليااسة، وذلك بناء على نصيحة الجميع، حتى بناء على نصيحة جيرولد بطريك القدس، وقد ظن البابا غريغوري التاسع أن ذلك مجرد محاولة ثانية لتجنب السفر، فلذلك قام على الفور بحرمانه كنسياً.

٤٥ — كان الاسطول الذي بعث قبله تحت إمرة توماس دي أكوينو Aquino، كونت أوف أسيرا، ورئيس العدالة في Terra di Lavoro، الذي عينه فردريك وكيلاً له في سورية، وتحت هنري أوف ليمبورغ.

٤٦ — طلب القانون مضي أربعين يوماً بين تسليم ضمان المبارزة والقتال، ووقوع المبارزة نفسها (انظر قانون القدس: ١/١٦٠ — ١٦٢. الملكية الاقطاعية ص ٢٧٩).

٤٧ — جيرولد أوف لوساني Lausanne، راعي دير موليم وكلوني من قبل، وأسقف فالنس، وقد جرى تعيينه بطريكاً للقدس من قبل غريغوري التاسع مع صلاحيات نيابة البابا، وكان موضوع دراسة لـ: و. يعقوب «جيرولد بطريك القدس» (آخن ١٩٠٥)، وكان جيرولد فعالاً جداً في معاداته لفردريك الثاني، وقد استدعي أخيراً، بناء على اصرار الامبراطور.

٤٨ — كان وولتر صاحب قيسارية قسطلان قبرص (١٢١٠ — ١٢٢٩)، زوج مرغريت دي إيلين، أخت جون وفيليب، وكان والد الشاب جون صاحب قيسارية، وكان من أعوان الايلينيين الصليبين، وقد

مات في معركة نيقوسيا، حيث قتل من قبل دي سنشي حسبما روى نافار.

٤٩- أعطى أمادي (ص ١٢٢-١٢٣) وبسترون (ص ٦٢-٦٣) روايات أكثر تفصيلاً حول هذه المباراة.

٥٠- قال أمادي (ص ١٢٣) بشكل محدد بأنهم اتهموا الإيلينيين بالتمييز ضدهم لأنهم أحبوا الإمبراطور.

٥١- أعطى كتاب «حوليات الأرض المقدسة» (ص ٤٣٨) تاريخ ١٢٢٧ نفسه، وجاء في هرقل (ص ٣٦٥) قوله: «في الصيف الذي جاء بعده في سنة ١٢٢٨ لتجسيد مولانا يسوع المسيح».

٥٢- أبحر فردريك من برنديزي في ٢٨ حزيران سنة ١٢٢٨، والتاريخ الذي أعطاه نافار هو خطأ.

٥٣- أصر غريغوري التاسع بالأصل على ذهاب فردريك في حملته الصليبية، لكن عندما شرع فردريك ثم عاد، قام البابا بحرمانه كنسياً، وحظر ذهابه، وقد سعى بكل وسيلة ممكنة بعد ذلك، عند مغادرة فردريك لإغلاق الفرص بالنجاح أمامه، وإحباط مساعيه.

٥٤- قال أمادي (ص ١٢٤): في الأول من حزيران؛ وقال بوسترون (ص ٦٣): في الأول من حزيران سنة ١٢٢٨، وكان الإمبراطور مايزال في برنديزي في حزيران، كما ظهر في وثائق في (هـ.ب: ٧١، ٦٩/٣)، وكان التاريخ الفعلي لوصوله إلى ليماسول في ٢١-تموز ١٢٢٨.

٥٥- كان رتشارد فيلنغر مارشال الإمبراطورية، وتوماس أوف أسيرا، وهيرمان فون سالزا، وهنري أوف ليمبورغ، والجماعة التي تقدمت بالسفر على الإمبراطور، في عكا هو والجميع ينتظرونه.

٥٦— أضيف ما بين الحاصرتين من أمادي (ص ١٢٤)، ذلك أن نص نأفار بلا تحديد، ويمكنني أن أستخلص أن هذه العبارة في النص الأصيل لفيليب، لكنها حذفت من قبل مصنف «الأعمال» وكان على كوهلر اضافتها.

٥٧— جاء نص هذه الرسالة — عند د. جونا في «تاريخ قبرص» — الرسالة من فردريك إلى جون دي إيبيلن حسب مايلي:

«مولاي وخالي الممجد جداً: غاية الرسالة الحالية هي اخبارك بوصولنا إلى ليماسول في طريقنا إلى فلسطين، من أجل تقديم العون لعبيد يسوع المسيح، ولإخبارك أننا نرغب قبل مغادرتنا إلى تلك البلاد، أن ننال الرضا برؤيتكم مع الملك ومع أولادكم أولاد خالنا الأعراء والمحبوبين، وأن نحظى بمتعة معانقتكم والتعرف إليكم شخصياً، وأكثر من هذا إننا نرغب بالتشاور معكم حول المنهج الذي ينبغي اتباعه من أجل استرداد الأرض المقدسة، ونحن نقدر بدون حدود نصيحتكم، والآراء الصادرة عن رجل حكيم وعظيم التجربة مثلكم، وعلى قناعة أن التحالف القائم بيننا ينبغي أن يسهم في النجاح السعيد لمشروعنا، ولهذا نرجوكم أن تقدموا على الفور إلى ليماسول بسبب أن حالة الاستعجال لقضايانا لا تسمح لنا بالاقامة طويلاً هناك. في ليماسول ١٧ — ايلول ١٢٢٨. ابن أختك المحب جداً. الامبراطور فردريك».

وأعطى لورانندو في كتابه «تاريخ ملوك قبرص» (الطبعة الفرنسية، باريس ١٧٣٢) ج ١ ص ٥٥، جوهر الرسالة نفسها، إنها بشكل مختصر بعض الشيء، وهذه الرسالة غير موجودة لدى ماس لاتري أوفي Huillard -Breholles ، ومع هذا تحمل هذه الرسالة سمات فيليب دي نوفار، ومع أنها قد تكون غير صحيحة تماماً، ونسخة غير دقيقة عن رسالة الامبراطور، من الممكن أنها استقيت

من الأصل.

٥٨ — ليس للعبارة الأخيرة أي معنى، لأن قبرص لم تكن قد قهرت من قبل الصليبيين.

٥٩ — قال هرقل (ص ٣٦٧) «طلب هو (الامبراطور) أن يمتلك الوكالة بموجب حق الامبراطورية أي وكالة الملك الذي كان قاصراً، ووكالة بلاده، وولاء الملك وولاء رجاله، وفي هذا المقصد لم يكن هناك من يعارضه، وفي الحقيقة جرى التنفيذ تماماً حسبما طلب، وعندما تلقى الولاءات، احتفظ بالملك في بيته»، وقد بدا تسليم الملك له شخصياً في البداية على أنه قبول بإدعاء الامبراطور بالوكالة، لذا مالبت أن اتضح، أن ذلك كان مجرد اعتراف بسيادته على الملك، وليس موقفاً متقدماً ضد حق الايليني بالوكالة.

٦٠ — ديمتريوس أوف مونتفرات، ملك اسمي لسالونيك، وهو ابن بونفيس الثاني دي مونتفرات.

٦١ — مانفرد الثاني، مركز لانكيا Lancia ، والنائب الامبراطوري العام في لومباردي.

٦٢ — أفترض أن عبارة Dou regne تعني Il Regno، أي الصقليين، أما بالنسبة لقوله: «بارونات ألمانيا وبارونات المملكة» ففيه ربما إشارة إلى مملكة صقلية وليس إلى مملكة قبرص.

٦٣ — فراغ بالأصل المخطوط، لعله حوى عدد الرجال.

٦٤ — هذا يفيد أن السيادة كانت لاتعني فقط التسيير الكامل والاشراف على التابع القاصر، بل أيضاً على موارد الاقطاع أثناء حقبة الاشراف والتسيير.

٦٥ — إيزابل بلانتغنت، ملكة القدس (١١٩٠ — ١٢٠٦).

- ٦٦ — عموري الأول ملك القدس (١١٦٢ — ١١٧٤).
- ٦٧ — عموري الثاني صاحب القدس (١١٩٧ — ١٢٠٥).
- ٦٨ — شغل جون وظيفة القسطلان (١١٩٤ — ١٢٠٠)، وقد قايضها بيروت، حسبنا ذكرنا أعلاه، وفتحت بيروت من قبل صلاح الدين، واستردها الصليبيون وكانت في حالة سيئة جداً، وقد بقيت في حوزة المسلمين من ١١٨٧ حتى ١١٩٧.
- ٦٩ — كان من المبادئ الرئيسية في قانون ما وراء البحر، أن المقطع يمكن أن يحرم من إقطاعه بقرار من المحكمة، وقد طالب الإيبليني بتطبيق هذا المبدأ الأساسي.
- ٧٠ — قال هرقل (ص ٣٦٧): «ولده، بالين الأقدم ولادة، وهيوج الثالث».
- ٧١ — قال أمادي (ص ١٢٩): «ما أن غادر والدهم، عندما الامبراطور، إلخ»، وهذه القراءة أفضل بكثير مما هو مثبت بالنص الأصلي.
- ٧٢ — Traversains.
- ٧٣ — أكد هرقل (ص ٣٦٨) هذا السجن وسوء معاملة السجناء.
- ٧٤ — كلا الأمرين: كنائب للقدس وسلطان على ملك قبرص.
- ٧٥ — ديودامور هو الاسم القديم لقلعة القديس هيلاريون في الجبال ما بين نيقوسيا وسيرينا.
- ٧٦ — ترجمت اصطلاح Sodceer إلى «مرتزقة» لكن هذا الاصطلاح غالباً ما شمل الفرسان والسيرجندية الذين خدموا مقابل الدفع.
- ٧٧ — بوهيموند الرابع صاحب أنطاكية (١٢٠١ — ١٢٣٣)، وتبعاً لهرقل (ص ٣٦٨) كان قد قابل الامبراطور في بيروغي على الطريق

فيما بين ليماسول ونيقوسيا.

٧٨ — غي الأول صاحب جبلة (١١٩٤ — ١٢٤٠)، كان مسانداً صلباً للامبراطور، وقد أقرضه مبلغ ثلاثين ألف قطعة ذهبية.

٧٩ — بالين الأول صاحب صيدا (١١٩٨ — ١٢٤٠) ابن رينو صاحب صيدا وهلفيس دي إيبيلين ابن أخت جون صاحب بيروت، وقد كان من أهم لوردات سورية، وقد تزوج حفيدة جون دي بريين، وشغل دوراً هاماً في الصليبية ضد دمياط، وكان واحداً من البارونات المقدسة الذين رافقوا الملكة إيزابل إلى أبوليا، عندما تزوجت من فردريك، وقد بقي مدة من الزمان في إيطاليا بعد الزواج، وورد ذكره لدى ساليمني Salimbene على أنه كان في بادوا في سنة ١٢٢٥، أثناء تعميد ذلك المؤرخ، وظهر اسمه أيضاً على عدد من صكوك مراسيم فردريك في سنة ١٢٢٦ (هـ . ب : ٢ / ٥٣٦، ٥٣٨، ٦٧١)، وعندما وصلت أخبار وفاة إيزابل إلى سورية، انتخبه البارونات واحداً من الوكلاء للامبراطور، وقد أبقى عليه فردريك في هذا المنصب، وقد كان سفيراً مهماً بين الامبراطور والسلطان المصري، وساعد في مباحثات معاهدة يافا، وعندما غادر فردريك سورية عينه وكيلاً، وذلك حسب رواية نوفار، وقد مثل خيرة مجموعة البارونات السوريين الذين رغبوا باحترام حقوق الامبراطور، ومع هذا رفض الوقوف إلى جانبه عندما خرق نوابه الأصول المعتمدة بإدارة المملكة.

٨٠ — ١٧ — آب سنة ١٢٢٨ .

٨١ — عندما شعر جون دي بريين بأنه خدع وأبعد عن تاج القدس العائد إليه، تحالف شخصياً مع البابا في معاداة الامبراطور، وقد غزا أبوليا على رأس جيش بابوي، وأثار الثورة ضده بين النبلاء

غير الراضين، وكانت حملته ناجحة تماماً، وقد استحوذ على جزء كبير من ممتلكات فردريك في القاهرة.

٨٢- لقد ترجمت هذه الفقرة المشوشة بتصرف كامل، ولا بد أن هنري خطأ بدلاً من عموري، وكما أوضح ماس لاتري (تاريخ قبرص : ١ / ٢٤٤ - ٢٤٥)، هناك أهمية كبيرة في هذه الاتفاقية بالاقسام على التابعة، لكن رفض تقديم الولاء، وتبعاً «لقوانين القدس» (٢ / ٣٩٨) لا يحتاج التابع تقديم الولاء إلى الوكيل أو إلى سيد قاصر، ذلك أن الولاء لا يجوز إلا أن يطلب من قبل السيد فقط، لكن يمكن للوكيل أن يصادر ممتلكات أي تابع يرفض أن يقدم إليه الولاء خلال مدة الوكالة، علماً أن التابع إذا ما قدم الولاء للسيد عندما يصل إلى السن القانونية، يتوجب على السيد أن يعيد الإقطاع إليه (انظر الملكية الاقطاعية في القدس ص ٥٣ - ٥٤)، وبالنسبة لوضع فردريك الثاني، كان البارونات القبارصة على استعداد تام لتقديم الولاء إلى مولى ملكهم، لو أن الاتفاقية بين الملك عموري والامبراطور هنري السادس قضت بذلك، لكن كان على الملك هنري نفسه أن يقدم الولاء إلى فردريك على أنه مولاه، وكان الإيبيليني مستحوذاً على الولاءات التي قدمت إليه كوكيل للملك القاصر.

٨٣- قال هرقل (ص ٣٦٩): « قضى اتفاق الصلح أن يستحوذ الامبراطور على وكالة الملك بالنسبة لبلاد قبرص، وينبغي أن تكون كل الموارد له، وعليه أن يحرر الرهائن، ويحلل من التعهدات، وأن يتلقى ولاء جون دي إيبيلين، باستثناء المطالب التي طلبها منه..... وقد عين شحناً في القلاع تابعين له، مع وكلائه في جميع أنحاء البلاد لجمع الموارد وإرسالها إلى سورية».

ورفض الإيبيليني تقديم ولائه إلى فردريك في إطاركون فردريك وكيلاً

لقبرص، ولا بد أن معنى ذلك أن الإيليني قدم الولاء إلى فردريك،
كنائب لملك القدس.

٨٤ — ٢ — أيلول سنة ١٢٢٨ .

٨٥ — هل معنى هذا أن جون كان الرهينة الثانية وليس بلدوين؟ أو أن
معنى ذلك هو أنه بعدما أعاد فردريك الرهيتين: بالين وبلدوين،
أخذ الأخ الأصغر جون، ووضعه في حاشيته؟ إن المرجح هو الأمر
الثاني.

٨٦ — يقول روهريخت في (تاريخ ملوك القدس ص ٧٧٥) بأنه عاد إلى
إيطاليا مع الامبراطور، وينقل عن «الأعمال» لتوثيق ماذهب إليه،
لكن ليس في النص ما يشير إلى أن جون عاد إلى إيطاليا مع
فردريك، وفوغيا موجودة في Capitanate.

٨٧ — ٣ — أيلول ١٢٢٨، ويؤكد هرقل (ص ٣٦٩) بوضوح بأن جون
دي إيلين وولتر صاحب قيسارية قد رافقاه.

٨٨ — نفين قائمة في منطقة طرابلس، على الساحل، إلى الجنوب من
مدينة طرابلس مباشرة.

٨٩ — وكان فيليب قد قال في مقطع ٣٤ المتقدم بأن بوهيموند قد جاء
إلى الامبراطور قبل أن ينطلق إلى نيقوسيا لمطاردة الإيليني.

٩٠ — استثنى الحرمان البابوي الذي نشر في سورية بعد وصول
فردريك: رجال الدين، والداوية، والاستبارية، على أن فرسان
التيوتون وقفوا إلى جانب الامبراطور، وأولاه البارونات السوريون
القليل من الاهتمام.

٩١ — أقحم هذا النص الذي بدايته «ترك صور...» ونقل من عند
أمادي (ص ١٣٣) وكان ذلك من قبل كوهلر، ولعله يومئ إلى أن

فردريك قد توقف أولاً في صور ثم ذهب إلى عكا، والحقيقة هي أن جون دي إيبيلين قد التحق به في صور، بعد التوقف أولاً في بيروت، مما يؤكد هذا الانطباع، وتظهر رواية Chron- iconsicul (انظر الملحق الثالث) إن الاسطول الامبراطوري قد توقف في ميناء صور، لكن دون أن ينزل منه أحد، ولم يبق هناك لوقت طويل، ومن الممكن أن يكون الايبيليني قد التحق بالأسطول في الميناء، وكان أول نزول لفردريك إلى اليابسة في سورية، في عكا، التي كانت عاصمة المملكة.

٩٢- وأضاف أمادي (ص ١٣٣): «على مسافة أربع وعشرين من عكا»، وحصن جيش فردريك يافا أثناء سير المفاوضات.

٩٣- الملك الكامل أبو المعالي محمد بن أبي بكر بن أيوب (١٢١٨ - ١٢٣٨)، أسن أولاد سيف الدين، وابن أخي صلاح الدين، وقد كان حاكم مصر بعد موت أبيه.

٩٤- غير صحيح لم يكن الكامل في ذلك الحين سلطان دمشق، وحكم المعظم عيسى، وهو أخ أصغر للكامل، وقد حكم دمشق (١٢١٨ - ١٢٢٧)، وقد خلفه ابنه الملك الناصر داود، وكان داود في البداية قادراً على الدخول إلى ميراثه مع موافقة عمه الآخر، الأشرف موسى، صاحب الجزيرة، لكن حدث في سنة ١٢٢٨ أن دخل الملك الكامل والأشرف في تحالف اقتسما خلاله ديار دمشق، وتسلم الكامل بموجب هذا التحالف فلسطين، في حين توجه الأشرف إلى دمشق وإلى الشطر الشمالي من أملاك المعظم، وكان حصار دمشق من قبل الأشرف طوال الوقت الذي كان فيه فردريك في القدس، وكانت رغبة الكامل الجائحة في أن يتحرر من خطر فردريك ليشارك في الصراع حول دمشق من أهم الأسباب التي دفعت هذا السلطان لتقديم شروط معاهدة مغرية.

٩٥ — لقد تقدمت مناقشة هذه المعاهدة وبنودها في المدخل.

٩٦ — هذا ينبغي أن يكون «Cotron» وليس «Botron» وكان ستيفن أوف كترون هذا، هو الذي أرسله فردريك إلى سورية مع ثلاثمائة فارس من صقلية لمرافقة أسقف ملفي، ولتلقى الولاء من البارونات المقدسة بمناسبة زواج الامبراطور وملكة القدس (هرقل ص ٣٥٩ . هـ . ب : ٢ / ٩٢١ - ٩٢٤) وجاء عند أمادي (ص ١٣٣) «كان الكونت ستيفن في البترون».

٩٧ — كان جون دي إيبيلين صاحب يافا، وابن فيليب دي إيبيلين، هو الذي سيصبح فيما بعد مولى فيليب دي نوفار وتلميذه، وهو مصنف العمل العظيم حول قوانين القدس، وكان في السابعة عشرة من عمره في سنة ١٢٣٢، ولا بد أنه كان في الخامسة عشرة من عمره في ذلك الحين.

٩٨ — رفض كل من الداوية والاستبارية إتباع فردريك، لأنه كان محروماً كنسياً، وتحت الحظر البابوي، ولقد وافقوا أخيراً على التعاون مع جيشه بمثابة حلفاء يخدمون في ظل «رباط المسيح»، وليس تحت إمرة الامبراطور (هرقل ص ٣٧٢ - ٣٧٣) وعبثاً حاول فردريك الاستيلاء على قلعة الداوية في تل الصافية (ري - التحصينات العسكرية ص ٩٩)، واتهم الداوية بمحاولة اغتياله (متى باريس : ٣ / ١٧٧ - ١٧٩)، وخدم فرسان التيوتون الامبراطور عن طواعية، وكانوا مخلصين له طوال الوقت، لكن تنظيمات الرهبنة الأخرى احترمت الأوامر البابوية، ورفضت إطاعة الامبراطور، وورد ذكر معارضة الرهبانيات والبطريرك في رسائل جيروльд، وهيرمان al، وريكاردوس سينت جرمانو (ص ٣٥٥).

٩٩ — بيتردي مونتافيو، المقدم الأعظم (١٢١٩ - ١٢٣٢)، وكان أخاً

ليوستوريو رئيس أساقفة نيقوسيا.

١٠٠ - أقحم كوهلر هذه العبارة من أمادي (ص ١٣٤)، وأوضح أمادي تداخل مادة «الأعمال» بقوله: «كان في ذلك الوقت عدد كبير من الرهبان الشجعان من الداوية، وكان المقدم هو بيتردي مونتافيو، ومثل هذا امتلك فرسان التوتون مقدماً شجاعاً وحكيماً».

١٠١ - هيرمان فون سالزا، المقدم الأعلى (١٢١٠ - ١٢٣٩)، وقد كان واحداً من أعظم مستشاري فردريك ثقة، وكان هو الذي ساعد على مناقشات الزواج من ملكة القدس لتأمين عرش القدس لفردريك، وأفضل ما هو معروف به هو تأمينه الامتيازات للفرسان في بروسيا، مما شكل فيما بعد القاعدة من أجل دولتهم الإقليمية.

١٠٢ - لعل في قوله: «شعب السهل» إشارة إلى سكان السهل الساحلي من حول عكا.

١٠٣ - هذه هي الإشارة الوحيدة لتتويج فردريك في القدس في ١٨ - أيار ١٢٢٩، التي قدمها نوفار، وقدم هرقل (ص ٣٧٤) رواية التتويج من وجهة النظر السورية، ملاحظين أن الكتيبة القبرصية قد بقيت في يافا، ولم ترافق الامبراطور إلى المدينة المقدسة، ويمكن لهذه الأوضاع شرح كل إشارة إلى التتويج لدى نوفار، ولم يعترف الإيلينيون بهذا التتويج، واعترفوا فقط بفردريك على أنه وكيل لكونراد فقط، وكونراد هو الوريث الشرعي. (انظر : Roh- richt, Geschichte, P 791, Kantorawicz, Fredrik 11, P.197)

١٠٤ - استمر الحصار وفقاً لرواية جيروльд لمدة خمسة أيام (MGH Epis, 1, 315-17). (ففي رسالة من جيروльд صادرة في أيار ١٢٢٩ (هـ . ب : ٣ / ١٣٥ - ١٤٠) تشكى من أن فردريك قد

حاصره في قصره العائد للبطيركية ، وادعى كانتوروكز(ص ٢٠٤ - ٢٠٥) بأن الشعب قد أثير من قبل البطيريك ضد فردريك ويلاحظ أن عدوانيته نحو الداوية قد استمرت بعد عودته إلى إيطاليا حيث صادر جميع ممتلكاتهم في بلاده.

١٠٥ — تحدث كل من أمادي(ص ١٣٤ - ١٣٥) وبوسترون(ص ٧٢) عن محاولات قام بها الامبراطور لاعتقال جون صاحب بيروت في ذلك الحين، وقد شكل الداوية والجنوية مع جون صاحب بيروت حلفاً عملياً ضد الامبراطور لحماية أنفسهم.

١٠٦ — كان يودس دي مونتبليارد، قسطلان القدس قد عين وكيلاً للقدس من قبل الملك جون دي برين في سنة ١٢٢٣ ، وقد استمر في مركزه بتكليف من فردريك في أيام زواجه، واستبدل في تموز ١٢٢٧ بالكونت توماس أوف أسيرا، ثم أنه اختير من قبل البارونات بعد وفاة إيزابل ليكون وكيلاً لكونراد، وذلك مع بالين صاحب صيدا ليكون زميلاً له، وكان هذان يشغلان وظيفة الوكالة عندما وصل الامبراطور إلى عكا، وعاد يودس إلى الوكالة عندما استقال غانير الألماني ليصبح داوياً في سنة ١٢٣٩، ومرة ثانية عندما بلغ كونراد في سنة ١٢٤٣ السن القانونية، وقد أثر حقوق الملك كونراد ضد الإيلينيين، مع أنه كان قريباً جداً من تلك الأسرة : فقد كان هو ابن وولتر دي مونتبليارد وبورغوني دي لوزغنان ، وكانت عمته(خالته) أليس زوجة فيليب دي إيلين، وأخته اسشيفي قد تزوجت بالين ابن جون صاحب بيروت، وهو نفسه قد تزوج من اسشيفي صاحبة طبرية حفيدة هيلفيس دي إيلين وابنة أخت(أخ) بالين صاحب صيدا، وقد تزوجت ابنته من فيليب دي إيلين ابن بلدوين.

١٠٧ — انظر أعلاه الفقرة ٣٤، الحاشية ٧٩ .

١٠٨ — جرى تحديد شخصية غارنيير الألماني من قبل إ. وكلمان على أنه ويرنفون إيشيم Egisheim، وكان ألساتياني alsatian (فردريك الثاني : ١ / ١٣٥ - ١٣٦) وقد كان واحداً من أقدم أفراد أسرته في الشرق، وأسهم في وصولها إلى موقع الأهمية، وقد تزوج من بافي Pavie صاحبة جيلة، وغدا ابنتها سيداً لقيسارية من خلال زواجه، وكانت أسرته ذات عواطف امبراطورية، وكان حفيده غارنيير الأصغر عضواً في المستعمرة الامبراطورية - القبرصية في كورفو، تحت قيادة فيليب شينارت Chenart، وقال روهريخت (Bei- trage, 1, 47 و Geschichce P. 745 بأن الألماني وجون صاحب بيروت (Zweitreuse Anhanger Friedrichs) قد تركا بمثابة وكيلين في حين جعل بالين صاحب صيدا قسطلان صور، هذا وأعطى هرقل (ص ٣٨٨) اسم أيمون دي لارون على أنه هو الذي كان قسطلان صور، ولم ينقل روهريخت عن أي مصدر بشأن هذه الرواية المدهشة، التي لا تتماشى بشكل مؤكد مع سياسة فردريك نحو الإيلينيين.

١٠٩ أليس دي مونتفرات، ابنة وليم الرابع دي مونتفرات وبيترثا أوف غريفساني Gravesane التي لم تكن لابنة خال (عم) لفردريك ولا لوليم، وجاءت قرابتها لهنري من كونها حفيدة كبرى لكونراد زوج إيزابل صاحبة القدس، ووهم أمادي في (ص ١٣٦) حين جعلها ابنة وليم صاحب السيف الطويل، حيث خلط بينه وبين كونراد، ولقد مضى دوكانج (الأسر، ص : ٦٣) حتى أبعد من هذا ، حيث جعل وليم صاحب السيف الطويل، كونت سالسبري، ابناً طبيعياً لهنري الثاني ملك إنكلترا، ووالداً لأليس، وكان وليم الثالث أوف مونتفرات الجد الأعلى العام لكل من أليس وإيزابل، زوجة فردريك المتوفاة، وأن زوجته صوفيا كانت ابنة

فردريك الأول، وعممة (خالة) فردريك الثاني، وحسبما بين ماس لاتري (المصدر نفسه: ١ / ٢٥٣) لم تكن في جميع الاحتمالات موجودة أثناء حفلة العرس، ولعلها تزوجت من واحد من وكلاء الأعمال.

١١٠ — باع فردريك الوكالة إلى عموري برلياس ورفاقه الأربعة قبل أن يغادر عكا (هرقل، ص ٣٧٥)، وجددت الاتفاقية في ليماسول، وكانت الوكالة لمدة ثلاث سنوات.

١١١ — قال هرقل في (ص ٣٧٥): «وأخبرهم بوجوب تسليم العشرة آلاف مارك إلى بالين صاحب صيدا ومعه غارنيير الألماني، اللذان بقيا في موضعه كوكيلان للقدس».

١١٢ — هذا هو أول ظهور لفيليب على أنه شخصية فعالة في أحداث روايته، ولعله استقى مواده الاخبارية المتقدمة من بعض الإيبلينيين، لكن من الآن فصاعداً غدت الرواية رواية شخصية عن الأحداث التي أسهم فيها شخصياً بدور كبير.

١١٣ — أوضح غاستون الباريسي (دورية الشرق اللاتيني ٩ (١٩٠٢) ١٩٤) أن هذا قد يفيد بأن الإيبلينيين كانوا آسفين بعض الشيء بشأن أعمالهم، وأن الحزب الامبراطوري كان على الأقل حزباً شعبياً، ومن المؤكد أن مقاصد فيليب كانت لإعطاء هذا الانطباع، وهذا واحد من الأماكن التي أباحت سمات فيليب الدعائية عن نفسها.

١١٤ — قال هرقل في (ص ٣٧٦) بأن الوكلاء قد سلبوا أراضي جون دي إيبيلين ومتحزبيه الذين كانوا ما يزالون في عكا، حتى يتمكنوا من تأمين جمع مبلغ ثلاثة آلاف مارك لدفعها إلى الامبراطور (ربما القسط الأول من العشرة آلاف).

١١٥- قد يومي هذا بأن موقف الإيليين لم يكن الموقف الأكثر شعبية، وأن الوكلاء قد امتلكوا أتباعاً لهم قدرهم، انظر وقارن الحاشية رقم / ١١٣ / المتقدمة، وقد لجأ فيليب إلى الميول الاعتذارية للوكلاء في الفقرة التالية.

١١٦- كان معنى قبول فيليب للاقطاع من الوكلاء أن عليه تأييدهم والارتباط بهم بموجب قانون العلاقات الاقطاعية، وكان منح الاقطاعات شائعاً لربط إنسان ما بآخر من أصحاب السلطة، وهذه هي المرة الأولى التي ورد فيها ذكر ديون فيليب التي أصبحت فيما بعد كبيرة جداً.

١١٧- قال أمادي في (ص ١٤٠) «كان قد قتله»، وهذه الفقرة غير واضحة كثيراً فما الذي قصده فيليب من الالتجاء إلى مقر الاستبارة، حيث كانت النسوة هناك، وكيف حشد مائة وخمسين رجلاً عسكر معهم في المقر، وبذلك تولى خدمة نفسه وخدمة النسوة؟.

١١٨- قام كوهلر بالتصحيح بعد قراءة تصحيح غاستون الباريسي (رومانيا ١٩ (١٨٩٠) ٩٩)، وقراءة «الأعمال» هي «Bonlait» وقال أمادي (ص ١٤٠): «لإنقاذ ديودامور والسيدات اللاتي هناك»، وهذا خطأ لأن السيدات لم يكن في ذلك الوقت في ديودامور.

١١٩- غاستريا Gastria الحديثة، في أسفل جزيرة كراباس، جنوبي كنتارا، وشالي فياغوستا.

١٢٠- أي عائدين من الحملة الصليبية التي رافقوا فيها الامبراطور.

١٢١- كان التوركبلية فرساناً خفيفي التسليح جرى تجنيدهم من خليط من السكان الفرنجة والسوريين، وكانت لهم مكانتهم الهامة

كإحتياط لفرسان الإقطاع الثقال.

١٢٢ — كان وولتر صاحب قيسارية، قسطلان قبرص (١٢١٠ - ١٢٢٩)
(الزوج الثاني لمرغريت دي إيبيلين، أخت كل من جون وفيليب ،
وكان ابنهما جون » صاحب قيسارية الشاب الطيب«، كما كان
مساعداً فعالاً للإيبيلينين.

١٢٣ كان جيرارد دي مونتاغيو بالإضافة إلى كونه حفيد بيترو وغورين،
ويوستورغ، زوج اسشيفي دي مونتليارد، ابنة بيترو وبوروني ،
وأخت يودس الوكيل، وتزوجت اسشيفي بعد وفاة جيرارد بالين
دي إيبيلين، وتؤكد حوليات الأرض المقدسة (ص ٤٣٨) موت
جيرارد وولتر في هذه المعركة.

١٢٤ — كنتارا قائمة في كراباس، وإلى أقصى الشرق للثلاث قلاع
العظيمة أي قلاع الشمال وهي: ديودامور، وبوفانتو، وكتاراً، وتبعاً
لهرقل (ص ٣٧٧) كان وليم دي ريفت مع برلياس وصاحب
بيسان في ديودامور، وقال بوسترون (ص ٧٨) بأن دي ريفت قد
هرب إلى بوفافتو، وأضاف ماس لاتري في (التاريخ : ١ / ٢٥٩)
بأن نوفار قد حاصره هناك، لكن رواية فيليب تظهر أنه لم يكن في
بوفافتو، وليس هناك من بينة تشير بأن دي ريفت قد ذهب إلى
هناك، ومن المؤكد لو أن فيليب ربح حصار مثل هذه القلعة الهامة
لما أخفق في ذكر ذلك، لأنه قدم تفاصيل واسعة عن حصارات
أخرى.

١٢٥ — أعطى هرقل في (ص ٣٧٧) التاريخ على أنه السبت ٢٤
حزيران لسنة ١٢٢٩ كان يوم أحد، في حين كان يوم ١٤ تموز كان
يوم سبت، وقال أمادي في (ص ١٤٣) كان ١٤ - حزيران، وقال
ماس لاتري (المصدر نفسه : ١ / ٢٥٨) : بأن ذلك كان يوم

السبت ٢٣ حزيران، وأعطى روهرخت (التاريخ ص ٨٠٣) ١٤ -
تموز ، وذلك اعتماداً على «الأعمال»، لكن علينا أن نلاحظ أن
أما دي ريبا صحف في قراءته Jjugnet الذي ورد في «الأعمال»
كحزيران، عوضاً عن تموز.

١٢٦- كيرينا الحديثة على الساحل الشمالي، إلى الشمال من نيقوسيا
مباشرة.

١٢٧- توفي هيوغ الابن الثالث لجون من دون ورثة، وكانت وفاته في
حوالي سنة ١٢٤٠، وقليل هو المعروف عنه.

١٢٨- كانت الـ Trebuchet آلة حصار هجومية، وكانت سلاحاً
أكثر فعالية وقوة من أية آلة قديمة لرمي المقذوفات، واستخدمت
أول ما استخدمت في القرن الثالث عشر، ويبدو أنها شرقية
الأصل، ذلك أنها استخدمت كثيراً من قبل المسلمين (انظر أومان
:تاريخ فن الحرب في العصور الوسطى، (ط . ثانية، لندن ١٩٢٤
٢٠ / ٤٣ - ٤٦).

١٢٩- قال هرقل في (ص ٣٧٧): عشرة أشهر، وكان الحصار قد بدأ في
تموز ١٢٢٩، أي مباشرة بعد معركة نيقوسيا، وانتهى بعد بعض
الوقت، بعد عيد الفصح لعام ١٢٣٠، الذي جاء في ٧ - نيسان.

١٣٠- قال هرقل في (ص ٣٧٧): «ولهذا عانى الملك هنري ، الذي كان
في الداخل، من آلام عظيمة ومن الحاجة إلى الطعام والملابس،
وعانى كذلك الذين كانوا معه في الداخل، ولهذا انتقد كثيراً الذين
أمسكوه داخل الحصار، واشتكى إلى إخلاصهم بحكم كونهم
أتباعه، ووبخهم على أنهم خونة، وأمر جون دي إيبيلين بجمع
المال من جميع أرجاء الجزيرة، وبذلك تابع الحرب، واستمر بالحصار.

١٣١- ٧ - نيسان ١٢٣٠ .

الواقعة في سنة ١٢٢٩، ونص الرواية في هرقل هي كما يلي: «في ذلك الوقت الذي غادر فيه الامبراطور بلاد سورية وقبرص، قدمت الملكة أليس أم الملك هنري إلى عكا، وطالبت بمملكة القدس على أساس أنها الوريث الأكثر شرعية كان ظاهراً بين أولاد جدها الملك عموري، واجتمع رجالات البلاد للتشاور، وردوا عليها بأنهم ليسوا رجال الامبراطور فردريك، المستحوذ على البلاد وكالة عن ابنه كونراد، ولهذا السبب هم كانوا غير قادرين لتلبية ما طلبته، لكن بما أنهم لم يروا قط كونراد ابنه هذا، كما أنه لم يحضر مطلقاً إلى المملكة، لما تقدم بعثوا رسالة إلى الامبراطور بأنه يتوجب عليه أن يرسل خلال عام ابنه إليهم، وإذا ما بعثه إليهم سوف يحافظون عليه سيداً لهم، وإذا لم يرسله سوف يفعلون من أجله الذي هو متوجب عليهم، وبغية تقديم هذا الطلب إلى الامبراطور بعثوا كرسلاً اثنين من الفرسان، كان أحدهم غيوفري لى تور، الذي كان باروناً في البلاد، وكان الآخر جون دي بيلول - Bail-luel، الذي كان باروناً في فلاندرز، وعبر هذان الفرسان البحر إلى أبوليا في غليون، وقد وصلا إلى برنديزي، وسافرا من هناك حتى وجدا الامبراطور في سان لورانزو، حيث كان متوجهاً إلى كابوا، حسبما سمعت، وأعطياه هناك رسالتهم، وقد أجابهما بأنه سوف يفعل المطلوب منه خلال المدة المحددة».

١٣٩ — أقام فردريك مصالحة مع البابا غريغوري في سان جرمانو سنة ١٢٣٠.

١٤٠ — هذا واضح أنه موقف مسبق وحكم غير عادل إلى حد ما، وقد أعطى هرقل (ص ٣٨٣ — ٣٨٦) سبباً إضافياً لإرسال فردريك الحملة هو الاضطرابات التي واجهها المقدسة في عملهم للسيطرة على القدس، فقد كان المسلمون يؤذونهم ولا يحترمون المعاهدة، وقد

ناشد سكان القدس وكلاء الامبراطور لتقديم العون لهم، وناشد هؤلاء بدورهم الامبراطور، ولكن في الوقت الذي بعث الامبراطور فيه الأسطول للقيام جزئياً بإعادة السيطرة على المدينة المقدسة، كان إخضاع الإيلينيين هو السبب الرئيسي لإرسال الحملة.

١٤١ — كان رتشارد فيلنغر واحداً من رجالات فردريك المعتمد عليهم، وقد جرى تعيينه نائباً إمبراطورياً في الشرق، ووكيلاً في قبرص وسورية، وطالبت رسالة بعث بها غريغوري التاسع تاريخها ١٢ — آب سنة ١٢٣١، السوريين من رجال دين وشعب قبول فيلنغر كوكيل لفردريك ملك القدس، وليس كنائب إمبراطوري. (MG H. Epis, 1,363 - 64)

١٤٢ — تبعاً لما ذكره جون دي إيلين صاحب يافا (القوانين: ١ / ٣٢٥) قام بالين صاحب صيدا، وهو يعمل بناء على أوامر الامبراطور، فجرد صاحب بيروت من جميع ممتلكاته في مملكة القدس، وقال فيليب دي نوفار (القوانين: ١ / ٥٢٨) بأنه قد جرد من إقطاعاته في عكا، وجرى أيضاً تجريد كل من جون صاحب يافا، وروهارد صاحب حيفا، وفيليب لى آسن، صاحب قيسارية، من قبل بالين، وبما أن هذا الإجراء لم يجر بوساطة المحكمة، بل فقط من قبل الوكيل، كان عملاً غير شرعي، وقام البارونات بمساندة المجردين في جهودهم للحفاظ على إقطاعاتهم.

١٤٣ — قال هرقل (ص ٣٨٦) بأنه جرى استخدام جاسوس من قبل الإيليني، كان قد جاء على السفينة من برنديزي، ويبدو أن هذا كان منطقياً بما أن التيوتون أنفسهم كانوا على صلة وثيقة بالامبراطور.

١٤٤ — قال هرقل (ص ٣٨٦) بأن الإيليني والملك قد ذهبا إلى لى

كويت Quit (كيتي قرب لارنكا) مع عدد قليل من الفرسان والسيرجندية احتشدوا في لياسول تحت قيادة بالين.

١٤٥ — جاء الأسطول على قسمين: فقد وصل القسم الأول إلى رأس غافاتا، بينما كان القسم الثاني مايزال في برنديزي، وجاء فيلنغر نفسه بعدما كان رجاله من القسم الأول يحاصرون بيروت.

١٤٦ — قدم هرقل (ص ٣٨٦ — ٣٨٧) رواية أكثر تفصيلاً حول المناقشات، ونص روايته هو التالي: «وصل في هذا الحين غليونان إلى لياسول كان فيهما أسقف ملفي مع اثنين من الفرسان، كان إقطاعهما في عكا، وأولهما أيمنون الألماني، وثانيهما جون دي بيلول، الذي كان من الفلمنك، وقد طلبا الملك ليتحدثا إليه، وقد أخبرا أنه كان في لى الكويت، وقد غادرا لياسول في غليونيهما، ومضيا إلى لى الكويت، فهناك كان الملك معسكراً.

وعندما وصلا إلى هناك قالوا للملك بحضور صاحب بيروت: «بعث إليك الامبراطور رسالة يطلب بها منك بحكم كونك تابعاً له، أن تقوم بطرد جون دي إيلين وأولاده، وأحفاده وأقربائه، وبمغادرتهم لبلادك، لأنهم اقترفوا الخطأ، وبناء عليه يرسل إليك أوامره، ويحظر عليك بحكم كونك تابعاً له، أن تمنحه مأوى أو ملجأ في أراضيك»، وعقد الملك الذي كان دون السن القانوني المشاورات، وجرى إعداد جواب له ليقدمه إلى الفارسين بوساطة فارس كان من أتباعه واسمه وليم فيزكونت، الذي قال لهما: «أيها السادة، لقد أمرني الملك، وفوضني في أن أقول لكما: إنه مندهش جداً لقيام مولاكم الامبراطور بتقديم مثل هذا الأمر، لأن صاحب بيروت هو خاله من جهة أمه، ومعروف بشكل جيد أنه هو وحفيده وجزء من أقربائه هم من أتباعه، ولهذا لا يمكنه أن يتخلى عنهم، وبصرف النظر عن لطف الامبراطور، لا يمكن للملك، ولا

يجوز له أن يفعل ما أخبرتماه به، وإنه إذا ما فعل ذلك، يكون قد أخطأ بحقهم»، ونهض بعد هذا جون دي إيبيلين وقال مخاطباً الملك: «مولاي إنني من أتباعك، لذلك أرجوك أن تدعمني وفقاً للعدل، لأنني على استعداد لتقديم العدل وأخذ العدل أمامك وفي بلاطك إذا ما طالب أي إنسان بذلك». وهنا قام الرسولان وقالاً للملك: «مولاي لقد سمعت ما قلناه لك وأبلغناه إياك عن الامبراطور، ولقد سمعنا جوابك» وبناء عليه غادرا على الفور ومضيا إلى غليونيهما، واعتليا ظهريهما وسافرا إلى غافاتا حيث كان أسطولهما راسياً.

١٤٧ — قال هرقل (ص ٣٨٧) بأنها تمهلاً هناك، انتظاراً لوصول المارشال فيلنغر.

١٤٨ — أدرج يوبل Eubel في كتابه «تاريخ الكاثوليكية» اسم غوليرانوس Gualeranوس على أنه كان أسقف بيروت في سنة ١٢٣٣ — ١٢٤٥، ولعله كان الأسقف الذي استسلم في سنة ١٢٣٠.

١٤٩ — تبعاً لجونا «تاريخ قبرص» (١ / ٥٣٦، ٥٣٩) : كان جون غونيمي Goneme هو المتولي لقلعة بيروت.

١٥٠ — دون تاريخ هرقل (ص ٣٣٨ — ٣٩٢) أخبار وقائع حدثت في عكا، وقد أسقط ذكرها نوفار مع أنها كانت ذات تأثير مباشر على الرواية، مثلما يلي:

«بعدما أمضى المارشال مدة وجيزة في بيروت مضى إلى عكا مع قوة صغيرة فقط، وعندما وصل إلى هناك حشد جميع الفرسان والبرجاسية، وما أن اجتمعوا في قلعة القصر الكبير، حتى أمر بقراءة رسائل عليهم بحضورهم، وهي رسائل كانت مختومة بالذهب، وأرسلت من قبل الامبراطور فردريك إلى جميع الذين في

المملكة، وقد حوت كلمات كثيرة لطيفة ومهدئة ومطمئنة، وقد قال بين أشياء: «لقد بعثت إليكم مارشال الامبراطورية، رتشارد فيلنغر نائباً يعمل لصالحه، وليكون وكيلاً للمملكة للحفاظ على الحق والعدالة، وليحمي حقوق الكبير والصغير، والغني والفقير»، وعندما اكتملت قراءة هذه الرسائل، نهض رتشارد وقال: «أيها السادة لقد سمعتم رسائل مولاي الامبراطور، وحسبها قد أمرني، أنا جاهز للعمل بوساطة التشاور مع نبلاء الناس في هذه البلاد»، ولو أن السلوك والأعمال كانت مثل هذه الكلمات والرسائل، لرضي أهل البلاد تماماً، واستقبلوه كوكيل، لكن ما أن وصل إلى البلاد، حتى كانت أعماله مخالفة تماماً، فقد أباح عما كان في قرارة نفسه مما أضمره في عقله، فبدأ متجبراً ومتكبراً، وغير مزود بالعقل، وبناء عليه شعر كل انسان وأدرك أن مقصده هو تدمير كل شيء، وتحويل كل شيء إلى لا شيء، وبعدما أدركوا هذا كله، وباتوا متأكدين من سوء نواياه، اجتمعوا وتشاوروا، وبناء عليه وقف بالين صاحب صيدا وقال: «لقد فوضوني أن أقول لك كلمة باسمهم وباسمي شخصياً: عليك أن تعرف أنه عندما جرى الاستيلاء على هذه البلاد، لم يكن ذلك بفضل قائد من الحكام، بل جرى الاستيلاء عليها بوساطة الصليبيين، وبفضل أعمال الحجاج والشعب الذي احتشد، وعندما استولوا عليها، اتخذوا رئيساً لهم بالاتفاق وبوساطة الانتخاب، وأعطوه السيادة على المملكة، وصنعوا فيما بعد بموافقة الشعب كله وبمعرفة «قواعد» و«قوانين»، رغبوا بالحفاظ عليها واستخدامها في المملكة، لسلامة الحاكم وبقية الشعب، وللحفاظ على الحقوق، وأقسموا بعد ذلك على الحفاظ عليهم، وجعلوا الرئيس يقسم أيضاً، ومنذ ذلك الحين حتى الوقت الحالي أقسم جميع الحكام الذين عرفتهم المملكة عليها، وكذلك فعل الامبراطور، ويوجد في هذه القواعد وقواعد

أخرى وقوانين هذا القانون القاضي: إنه لا يمكن للحاكم (الملك) ولا يستطيع ولا يجوز له حرمان تابعه الاقطاعي بدون موافقة المحكمة، ومن المعروف بشكل جيد بأن صاحب بيروت هو تابع للامبراطور، وقد قمت أنت، الذي حللت محل الامبراطور لحماية الأرض، وللحفاظ على الحقوق، بوضع يدك على ممتلكاته الاقطاعية، وحرمته من مدينة بيروت، والمناطق المحيطة بها، وتوليت حصار القلعة من دون قرار من المحكمة، ومن دون صدور حكم عنها بهذا الشأن، ولهذا نطلب منك، بموجب الحق والعقل، وبغية الحفاظ على اليمين والإخلاص والثقة العائدة لمولانا الامبراطور، أن تقوم أنت ورجالك بمغادرة بيروت، وإذا ما توفرت لديك الرغبة في خلع صاحب بيروت وحرمانه، وإذا كنت ترغب بأن تطلب وأن تدعي أي شيء عليه، اطلب دعوته بموجب ممارسات المملكة، ودع قرار الحكم للمحكمة، وإذا كان قرار المحكمة لصالحك، نحن على استعداد لمساعدتك، وأن نضع قوتنا لدعم القضية التي تحتاج إلى ترضية وإصلاح.

«وعندما سمع المارشال رتشارد فيلنغر هذا الكلام استولى عليه العجب كيف تجرأوا على مخاطبته به، لأنه لم يعتقد بوجود أي إنسان يمكنه أن يتجرأ على معارضة أي شيء أراد هو صنعه، وقد رأى الآن أن الأمر ماضياً حسبما فكر، وهو لن يمضي كذلك أيضاً، ومع هذا أخفى ضغيته في قلبه، لأنه لم يكن بإمكانه فعل ما هو أحسن، وبناء عليه قال لهم: بأنه لا يستطيع الرد عليهم، فيما يتعلق بهذا، حتى يتشاور مع أعيان رجال الامبراطور، الذين قدموا معه، والذين هم الآن في بيروت، وهو سوف يذهب إلى هناك، ليقوم بعقد مشاورات معهم، وعليهم أن يبعثوا إليه إلى هناك للحصول على جوابه، وإثر هذا غادر في صباح اليوم التالي، وذهب إلى

بيروت، وعندما حصل هناك شدد الحصار على القلعة وضيق عليها أكثر مما فعل من قبل».

«وبعث بالين صاحب صيدا، وجون صاحب قيسارية، ويودس دي مونتبليارد، وغارنيير الألماني والفرسان والآخرين بفارسين إلى بيروت يطلبون الجواب من المارشال، وذلك بناء على ما وعدهم به، وكان أحد الفارسين رينو دي كيفاس، حاجب المملكة، وكان الآخر دانيال دي مولبيك Molembec، وعندما جاء هذان الرجلان إلى بيروت أخبر المارشال أنهما قدما إليه للحصول على الجواب الذي وعد به أتباع الامبراطور، وهو ما جاءا يطالبان به، وكان جوابه هو التالي: «أخبركم أيها السادة أنني تابع للامبراطور، وأنا قائم لتنفيذ أوامره، وبودي أن يعلم كل واحد أنني سوف لن أجلب الأذى إلى أي واحد طالما أنا قادر، في أي جانب هو معقول) وذلك أنه معلوم كيف تصرف جون دي إيبيلين بذاته، وسلك نحو الامبراطور، وأكثر من هذا إنني أفعل ذلك بسبب أنني عبد الامبراطور، والامبراطور هو المولى، وإذا ما شعرتهم بين أنفسكم بأن الامبراطور فعل لكم أشياء ينبغي أن لا يفعلها، ابعثوا رسلاً إليه، وهو بحكم كونه سيد مخلص وجيد، سوف يفعل ما يرضيكم، فهذا ما ينبغي»، وعاد الرسولان إلى عكا، وأبلغا بجواب المارشال الذين بعثوا بهما».

«وعندما سمع رجالات المملكة الجواب، وأدركوا أن إرادة المارشال كانت بالفعل حسبما أرغموا على الاعتقاد، وبناء عليه إذا لم يقوموا بالتشاور فيما بينهم بشأن أعمالهم سوف يلجون في مضيق خطر، وتنفيذاً لهذا اجتمع أكثرهم حكمة وأبعدهم رؤية للتشاور فيما بينهم، وأنه ليس أمامهم من منهج غير المنهج التالي: من المتوجب عليهم جميعاً ربط أنفسهم برباط القسم بالقيام بحماية حقوقهم،

وامتيازاتهم وإعفاءات المملكة من التكاليف والمحافظة عليها، ثم إنهم تذكروا أنه يوجد في المملكة أخوانية (رهبانية)، عرفت باسم رهبانية القديس أندرو، التي كانت قد تأسست من قبل الملك بلدوين، وتأكدت بالامتياز الذي منحه، وقد توفر في هذه الرهبانية قواعد وطرائق، بحكم شريعة امتيازات أعضائها، ولقد كان من بين الأحكام فيها: يمكن لكل من يود الانضمام إلى الأخوانية أن يفعل ذلك، وعلى أعضاء الأخوانية استقبالهم، ثم اجتمع الأعيان والفرسان والبرجاسية، وعندما كانوا مجتمعين بعثوا يطلبون مستشاري الأخوانية مع امتيازاتها، وعندما حضروا إلى هناك طلبوا قراءة الامتيازين، وبعد ذلك أقسموا على الانتماء إلى الأخوانية، ثم قام معظم الناس بالاقسام على الانتماء إلى الأخوانية، وقد فعلوا ذلك برغبة كبيرة بسبب الخوف الذي انتابهم نتيجة شرور المارشال رتشارد، وهكذا ارتبطوا جميعهم واحداهم بالآخر، ثم أرسلت إثر هذا رسالة إلى قبرص لإخبار جون دي إيبيلين، وعندما سمع هذا بالإجراء الذي اتخذ في عكا من قبل رجال المملكة، وفق الطريقة التي سمعتم بها، كان عظيم السرور بذلك، وبدأ ذلك بالفعل عظيم العون له في الحفاظ على وضعه».

١٥١ — الاشارة إلى وليم أوف أورانج بطل ملحمة ألسكانز Aliscans وملاحم إقطاعية أخرى، على أنه طلب العون لمساعدة حفيده، هي موجودة في (نهاية الأغنية الرابعة) من: Roman de Foulque de candie

١٥٢ — كانت لدى ليوبوند صاحب النمسا نواياه تجاه عرش قبرص أثناء الحملة الصليبية الخامسة.

١٥٣ — قال هرقل (ص ٣٩٢): كان هناك من رفض المساعدة بدافع الغيرة.

١٥٤ — في قوله «انتهاء موسم الاضطراب» إشارة إلى الاعتدال الربيعي، وقال هرقل (ص ٣٩٢): بأنهم غادروا في أول أيام الصيام، الذي كان في سنة ١٢٣٢ يوم ٢٥ — شباط.

١٥٥ — هذا يعني أي قائد كبير أو مهم، وكان آرنس صاحب جبلة وكيل صاحب الشؤون المالية في قبرص، وقد ترك قائداً للجزيرة خلال غياب الإيليني والملك (هرقل ص ٣٩٩)، وتبعاً لجونا) تاريخ قبرص: ١ / ٥٣٧ ، ٥٤٥) تُرك فيليب دي نوفار نفسه حاكماً لقبرص، وهذا خطأ واضح.

١٥٦ — هذا يعني: برلياس، صاحب بيسان، وصاحب جبلة.

١٥٧ — كان مرسى القسطلان قائماً على الساحل فيما بين البترون ونفين.

١٥٨ — قال هرقل (ص ٣٩٣) بأن فيلنغر قد بعث غليوناً إلى طرابلس لجلبهم إلى بيروت، وأضاف: «وسبب تخليهم عن الملك وعن جيشه هو كما قالوا: كان الملك قاصراً وتحت سلطان الآخرين، وهم كانوا بشكل رئيسي أتباعاً للامبراطور، ومرتبطين به أكثر من ارتباطهم بالملك».

١٥٩ — ممر ضيق على الطريق البحري بين جبلة وبيروت.

١٦٠ — قدم أمادي (ص ١٥٣) دوبييت معزو إلى نافار، أسقط من رواية «الأعمال»، وأدخله كوهلر في حواشيه، على أنه بلا شك جزء من النص الأصيل لفيليب، ونصه كما يلي:

«منحنا الرب كثيراً من القوة والصحة

كافية لنا للحفاظ على شرفنا وعلى ثروتنا».

١٦١ — أضاف هرقل (ص ٣٩٣ — ٣٩٤) رواية حادثة هامة قال عنها: «عندما جاءوا إلى هناك (إلى بيروت) أرسل جون دي إيبيلين

رسولاً إلى عكا، وكان واحداً من رجاله اسمه دروين، وبعث بعدة رسائل إلى بالين صاحب صيدا، وإلى جون صاحب قيسارية اللذان كانا ابني أخته، وإلى عدد كبير آخر من أصدقائه، وأرسل رسائل إلى رجالات البلاد بشكل عام، وقد حوت هذه الرسائل، وأوضح مايلي بعد التحيات: «أيها السادة، أنا هنا لأعلمكم بأن رجالاً غرباء من بلد آخر قد قاموا بمهاجمتي، وقد استولوا على مدينتي وأخذوها، وكذلك فعلوا بأرضي، وقاموا بحصار قلعتي، ولهذا السبب ليس لدي قدرة للقدوم إليكم، أو لإرسال أي من رجالي، لأنهم محاصرون في قلعتي، ولا يمكنهم الخروج منها، وبناء عليه تدبرت أمر إعلامكم بما أحتاج إليه، بهذه الرسائل، التي أدعوكم فيها وأطلب منكم بحكم كونكم أخوان لي وأصدقاء، أن تقوموا بنجدي فوراً، وذلك وفقاً للممارسات مملكة القدس ولعاداتها، وأن تقدموا المساندة لي حتى أتمكن من إنقاذ مدينتي والحفاظ عليها، وعلى قلعتي وأرضي».

وقرئت هذه الرسائل في بيت بالين صاحب صيدا، حيث كان معظم رجال الامبراطور مجتمعين، وبناء عليه طلب جون صاحب قيسارية، الجواب لتقديمه لخاله جون دي إيبيلين، وتطور الأمر بناء عليه إلى انقسام الناس إلى قسمين، قسم منها رأى أن عليهم تقديم العون إليه ومساندته في هذا الموقف، وعرضوا القيام بالذهاب لمساعدته ومساندته، وقال القسم الآخر إنهم لا يتفقون مع أصحاب هذا الموقف، وكان الذين وافقوا على الذهاب هم: صاحب قيسارية، وروهارد صاحب حيفا، مع أخيه رينو، وغيوفري لى تور، وغيوفري دي استروني، وبلدوين دي بون فيسين، مع فرسان آخرين، حيث توفر منهم ثلاثة وأربعون، واستعد هؤلاء، وانطلقوا، وزحفوا إلى حيث كان ملك قبرص وجون دي إيبيلين».

١٦٢ — البطريك جيرولد، والمقدم أرماند دي بيرغورد مقدم الداوية، والمقدم غورين مقدم الاستارية، وبالين صاحب صيدا، ويودس دي مونتبليارد، القسطلان، وبالإضافة إلى هؤلاء ذكر هرقل (ص ٣٩٤): بيتر، رئيس أساقفة قيسارية، ووكيل البنادقة، وقنصلي الجنوية والبيازنة.

١٦٣ — قال هرقل في (ص ٣٨٨) بأن صور قد استسلمت إلى هنري، أخو فيلنغر، وكان مسلمها إليه إيمون دي لارون، الذي تولى حراستها، وكان بالين صاحب صيدا وكيل فردريك في المملكة، وربما كان بالين قد أمر دي لارون الذي كان قسطلان صور بالقيام بعملية النقل.

١٦٤ — أضاف هرقل في (ص ٣٩٤) أنهم عادوا بعد ذلك إلى عكا.

١٦٥ — قال كتاب «الأعمال»: «صور»، لكن أمادي صححها إلى «أرسوف» وكذلك فعل كوهلر.

١٦٦ — كان وكيلاً في ١٢٤٦ — ١٢٤٨، و١٢٤٩ — ١٢٥٤، و١٢٥٦ — ١٢٥٧، و١٢٥٨ — ١٢٥٩، وذلك في ظل أليس ملكة قبرص، وبليسانس Plaisance، وهيوج الثاني، وكان القسطلان من ١٢٥١ إلى ١٢٥٨.

١٦٧ — كان الزواج فيما بين ايزابل دي لوزغنان، وهنري الابن الثاني لبوهيموند الرابع، وصار بوهيموند بعد عودته من قبرص معادياً تماماً لفردريك الثاني، وراهن الايلينيون على هذا آملين بمساعدته، وفي النهاية تم الزواج، وكانت المحصلة أن أصبح هيوج صاحب انطاكية — لوزغنان، هيوج الثالث صاحب قبرص.

١٦٨ — كان السير وليم فيزكونت واحداً من أشهر رجال العدالة في وقته، وقد أورد نافار ذكره على أنه كان من أبرز رجال العدالة

الذين عرفهم، وكان هو المتحدث باسم القبارصة عندما طلب
فردريك طرد الإيليين. (انظر أعلاه، الفصل ٧٩ — الحاشية
١٤٣).

١٦٩ — قامت تلة الحجاج آنذاك خارج طرابلس مباشرة، فهناك كانت
قلعة كان قد أقامها ريموند صنجيل، عندما كان يحاصر طرابلس.
١٧٠ — ييمونت أو بيوليو، اسم دير سسترياني كان هاماً خارج
طرابلس.

١٧١ — الملك الأشرف، سلطان دمشق (١٢٢٨ — ١٢٣٧).

١٧٢ — تزوج بيرتراند بورسليت من ماري لى روكس دي بيسان، وقد
باعوا في سنة ١٢٣٤، اقطاعاتها في «عربي وزكنين» إلى فرسان
التيوتون (Strehlke, pp.61-62)، وكان بورسليت قد فقد
اقطاعاته في قبرص في سنة ١٢٣٢.

١٧٣ — قال النص: (-et mostroyentau doit porou il mon- teroyent) وقد جرى ترجمة ذلك بتصريف لأن المعنى غامض.

١٧٤ — قال أمادي (ص ١٥٩) بأنهم رفعوا مقابض تحريك مراكبهم،
حتى لا يمكن لها المغادرة.

١٧٥ — قال ريكاردوس سان جرمانو (ص ٣٦٨) بأن جون صاحب
بيروت قد تسلم عكا في نيسان ١٢٣٢، (-Inodium imperator is)،
وأعطى هرقل (ص ٣٩٥) هنا موعد حادثة تحطيم اسطول
اللومبارد، التي ذكرها نافار فيما بعد (فصل ١١٥)، حيث أثار
الإيلينيون سواد الشعب بعكا ضد اللومبارد إلى حد الاقدام على
تحطيم الاسطول الذي كان راسيا في الميناء هناك، وتم الاستيلاء
على سبع عشرة سفينة، وسمحوا لواحدة فقط بالنجاة، ويبدو في

هذه الحالة أن تحديد هرقل لموقع الحادث صحيح، وأن نافار تذكر الحادث، دون أن يعرف تماماً متى وقع، ولهذا أورد الخبر في روايته بالمكان غير الصحيح ولم يحسن الربط، فقد كان نافار نفسه في طرابلس وقت حدوث الحادث، وقد سمع به فيما بعد من الإيبيليين، وبالنسبة لمسألة كومونة عكا، انظر أي مقال من مقالات «أبحاث ذكرى هاسكن Haskins، ص ١١٧ — ١٣٢».

١٧٦— كان الجنويون دوما من حزب الغولف، ولم يكونوا مرة كذلك أكثر مما كانوا عليه أثناء صراعهم مع فردريك الثاني، وكانت بيزا من حزب الغبليين، وتصارعت المدينتان في خارج إيطاليا في البحر، وفي السواحل السورية.

١٧٧— قال هرقل (ص ٣٩٥ — ٣٩٦) بأن الإيبيليين حشدوا جنوداً لحصار صور، حيث كان فيلنغر مقيماً، وأنه عندما سمع فيلنغر بالخطّة للهجوم عليه، أرسل أوامر إلى أخيه لوثير، بأن يرفع الحصار عن بيروت، وأن يجلب قواته إلى صور.

١٧٨— اسمها حالياً خربة الحمصين، وهي على بعد اثني عشر ميلاً إلى الشمال من عكا.

١٧٩— قال هرقل (ص ٣٩٦) بأنهم عندما سمعوا بأمر الانسحاب الذي قام به جيش اللومبارد من بيروت إلى صور، تخلّوا عن خططهم بالهجوم على صور.

١٨٠— ألبرت ريزاتو أسقف بريسيثا Brescia، وبطريك أنطاكية (١٢٢٨ — ١٢٤٦)، وبعد صلح سان جرمانو قام البابا بمساندة القضية الامبراطورية في سورية، وقام في تموز ١٢٣٢ بتجريد جيرولد بطريك القدس — الذي كان معادياً عنيفاً للامبراطوريين — من منصب نائب البابا، الذي منحه إلى ألبرت

بطريك أنطاكية، وقد عهد إلى ألبيرت بالقيام بمهمة استرداد السلم في الشرق، وأن يرد بارونات قبرص إلى طاعة الامبراطور.

١٨١ — كان غي دي ايبيلين، الابن الخامس لجون صاحب بيروت، قسطلان قبرص في سنة ١٢٤٧، وقد ميز نفسه في أثناء حملة القديس لويس على مصر، وتزوج من فيليبا ابنة عموري برلياس.

١٨٢ — أعطى هرقل (ص ٣٩٧) مزيداً من التفاصيل: كان الحرس تحت إمرة جون دي إيبيلين متمركزين، لكن في الجانب الخطأ من المعسكر، أي في الجانب المتجه إلى عكا، وليس نحو صور، وكان الحراس جميعاً نياماً في خيمهم.

١٨٣ — كان في هذا أذى للملك الذي كان ما يزال طفلاً، وتبعاً لهرقل (ص ٣٩٧) قام جون بابن فوضع الملك على فرسه، وأرسله تحت الحراسة إلى عكا، بينما بقي هو نفسه في القتال، حيث أصيب بجراحة خطيرة، وأخذ أسيراً.

١٨٤ — ذكر هرقل (ص ٣٩٨) أسماء: بالين صاحب صيدا، ويودس دي مونتليارد، وجون صاحب قيسارية، وروهارد دي كيفاس.

١٨٥ — قال أمادي (ص ١٦١) بشكل مؤكد: «وهكذا هجروا الطريق ومضوا عبر الحقول لشعورهم بالعار بسبب هذه الهزيمة».

١٨٦ — ممر ضيق قرب درج صور على الطريق من عكا إلى صور.

١٨٧ — أعطى هرقل (ص ٣٩٨) تاريخاً دقيقاً لمعركة قلعة ايمبرت هو الثالث من أيار لسنة ١٢٣٢، وهو اليوم الذي وصل فيه الملك هنري إلى سن الرشد أي إلى الخامسة عشرة.

١٨٨ — اسمهما في «الأعمال»: مريم وايزابل.

١٨٩ — ظهر هذا الاسم بأشكال: آرنس، آرنسيوس، هيرنس، وهينرس،

فهكذا ورد على عدد الصكوك مع الإيبليين في السنوات ١٢٢٠ — ١٢٣٩ (لى مونت: «سجلات محفوظات الكنائس والديرة في نيقوسيا» (بيزنشن: ٥ / ١٩٣٠) أرقام: ١٢، ٣٨ — ٤٢، ٤٥، ٤٦).

١٩٠ — أضاف كل من «الأعمال» وهرقل (ص ٣٩٩): «الذي تركه صاحب بيروت قائداً للبلاد».

١٩١ — كان فيليب دي كافران واحداً من الشهود على معاهدة هنري مع الجنويين في سنة ١٢٣٣، وكان قريباً من أسرة مورف في قبرص عن طريق الزواج، ذلك أنه تزوج من أغنس ابنة بلدوين دي مورف.

١٩٢ — أضاف كل من «الأعمال» وهرقل (ص ٣٩٩): «وكادوا أن يضيعوا بسبب نقص الطعام وكانوا في حالة قنوط وحزن حتى تم انقاذهم».

١٩٣ — كانت إسشيفي دي مونتبليارد ابنة وولتر وبوروني دي لوزغان، كما كانت أرملة جيرارد دي مونتاغيو، الذي قتل في معركة نيقوسيا في سنة ١٢٢٩ —، وقد تزوجت من بالين دي إيبيلين، لكن أعلن أن الزواج يفتقر إلى الشرعية لأنها قريبان إلى درجة تمنع الزواج، لأن عمته (خالتها) قد تزوجت من فيليب عم بالين، وقد حرما كنسيا في الخامس من أيار عام ١٢٣١، من قبل غريغوري التاسع، واستمر الحرمان لم يرفع حتى مابعد ١٢٣٢، لكن قبل ١٢٣٩.

١٩٤ — غوينارت، أو جيراردو، أو جيرارد.

١٩٥ — أقحم «الأعمال» هنا الفقرة ١٨٠ من أجل أحداث نقله إلى الموضوع التالي بقوله: «هنا عبرت بصمت حكاية اللومبارد الذين كانوا في قبرص، وفكروا بأنهم حصلوا على كل شيء، فانعطفوا نحو الملك هنري ونحو صاحب بيروت، اللذان بادرا بكل سرعة

ونشاط وتصرفا في وسط المصاعب التي وجدا نفسيهما فيها».

١٩٦ — ٣ — أيار ١٢٣٢.

١٩٧ — لم تحفظ هذه المعاهدة الأولى، بل جددت ومددت بوساطة معاهدة فيما غوستا، انظر ما يلي ص ١٥٦ — ١٥٧.

١٩٨ — جرد غريغوري جيرولد من سلطات نيابة البابوية في تموز ١٢٣٢، وحوّل هذه السلطات إلى بطريك أنطاكية.

١٩٩ — كان البوليان فرنجة من مواليد سورية.

٢٠٠ — وفقاً لرواية هرقل (ص ٣٩٥) وقعت حادثة الاستيلاء على الاسطول العائد للومبارد كلها قبل معركة قلعة ايمبرت، وذلك عندما قدم جون دي إيبيلين إلى عكا، واتخذ مقدماً للكومونة في نيسان ١٢٣٢ (انظر المقطع ١٠١، والحاشية ١٧٤)، ويبدو أن التاريخ الأبكر هو الأكثر احتمالاً لعدة أسباب، وهو المقبول من قبل روهريخت، وموللر مع آخرين، وقال فيليب نفسه في المقطع /١٠١/ بأن الإيبيلينيين قد حشدوا اسطولا بهذه المناسبة، وأثار في المقطع /١٠٣/ إلى أن هذا الاسطول كان راسياً في ميناء عكا، وفي ١٧ — حزيران، أي قبل وصول أخبار معركة أغريدي إلى روما، لأنها وقعت في ١٥ حزيران، وكان البابا قد كتب إلى جيرولد يحذره من التعاون ضد الامبراطور مع أعدائه (MGH.Epis. I.NO 467)، ولو أن هذه الحادثة وقعت في نيسان لكانت في ذهن البابا عندما كتب تحذيره، وعلى هذا لا بد أنها قد وقعت بعد هزيمة قلعة ايمبرت، ويبيّن موللر أن نافار كان في ذلك الحين في طرابلس مع بالين، وبذلك حصل على القصة بعد تداولها، ولا بد أن التغيير في سياسة بوهيموند صاحب أنطاكية — طرابلس تساعد أيضاً على التوضيح، إذا كانت ثورة عكا والاستيلاء على

اسطول اللومبارد قد حدثا في تاريخ أبكر. (موللر- اللومبارد في قبرص ص ٣٩).

٢٠١- قال هرقل (ص ٣٩٨) بأن عدداً من اللوردات قد ارتعبوا بعد هزيمة قلعة ايمبرت ولهذا التحقوا باللومبارد، وعلى هذا بات على الإيبيليني والملك تأمين عدد كبير من الرجال الجدد حتى يتمكنوا من الصمود مجدداً.

٢٠٢- يبدو أن عملية البيع التي ذكرها نافار هنا، قد تناولت بيع بعض الحاجيات من قبل جون دي إيبيلين في Rue de La vielle Reine في عكا الاستبارية، وكان ذلك في نيسان سنة ١٢٣٢ (Delavielle Le Roux, Cartulaire, II, docs, 2015,) (2016)، وقال هرقل (ص ٣٩٨) بأنه بعد هزيمة قلعة ايمبرت باع جون صاحب قيسارية قلعته التي اسمها كفرلت إلى الاستبارية مقابل ١٦,٠٠٠ قطعة ذهبية، وأن جون دي إيبيلين صاحب يافا باع قلعته التي اسمها عرامس Arames إلى الداوية، مقابل مبلغ ١٥٠٠٠، ويبدو هنا أن نافار قد مزج البيعين العائدين للحقبتين، وذلك عند ذكره بيع الأرض في قيسارية، الذي وقع بعد المعركة، وبيع الأملاك والحاجيات في عكا، الذي حدث في نيسان، وروى هرقل بأن الاستيلاء على الاسطول والمشاكل الأولى في عكا كانت في نيسان، وأن بيع الأراضي ومحاولة تجنيد الرجال، كانتا بعد معركة قلعة ايمبرت، وبما أن نافار قد كتب متأخرا من السهل التصور بأنه مزج بين الحادثتين المتشابهتين، لأنه تم في الحالتين بيع أراضي وحصول على سفن.

٢٠٣- قال أمادي (ص ١٦٤) بأن الجنويين التحقوا بهم.

٢٠٤- أعطى هرقل (ص ٤٠٠) تاريخاً للمغادرة على أنه كان مع عيد

الحصاد، أي في ٣٠ أيار.

٢٠٥ — قال أمادي (ص ١٦٥) بأنهم قدموا من طرابلس مع الجنويين.

٢٠٦ — هناك فراغ في نص «الأعمال»، ولعل معنى المفقود هو «أولئك الصيدايين»، لأنه من الصعب الإشارة إلى بالين صاحب صيدا، كوكيل للامبراطور.

٢٠٧ — رأس إلى الجنوب من فيما غوستا.

٢٠٨ — قال فيليب أعلاه بأن أستشيفي زوجة بالين دي إيبيلين قد تولت تحصين قلعة بوفافيتو ضد اللومبارد، ولعل الإشارة إليها هنا جاءت خطأ، ذلك أنها حذفت في الجملة التالية.

٢٠٩ — قال هرقل (ص ٤٠٠) «يومان»، وتاريخ معاهدة الجنويين هو ١٠ — حزيران.

٢١٠ — جرى نشر نص المعاهدة من قبل ماس لاتري «التاريخ: ٥١/٢ — ٥٦»، وفي:

Liber Jurium reipublicae lanuensis (تورين ١٨٥٤ — ج ١ ص ٨٩٩ — ٩٠٢)، وقد منح جون دي إيبيلين الجنويين حقوقاً في بيروت منذ تاريخ مبكر هو تشرين ثاني ١٢٢١، (ماس لاتري: ٤٣/٢ — ٤٤).

٢١١ — في «الأعمال» «وليم دي لور»، لكن الذي ورد في نص المعاهدة هو «دي أورتو»، وقد دعت به باسم «نائب قنصل»، وأبرمت المعاهدة فيما بين الملك وهيوج فيراريو Ferrario ووليم دي أورتو، قنصل ونائب قنصل الجنويين.

٢١٢ — الشرط الأول من المعاهدة، وتبعاً لقوانين القدس: ١٢٨/١ — ١٢٩، حوكت هذه القضايا في المحكمة الملكية، وقد حفظت

جميع حقوق منح البلاط للطوائف التجارية (انظر لى مونت:
الملكية الاقطاعية ص ١٠٢، ٢٣٥ — ٢٣٦).

٢١٣ — الشرط الرابع من المعاهدة، واعتقد محققو الطبعة الأكاديمية
(ص ١٧٣) أن هذه تشير إلى الاعفاء من الجمارك، وأنا أعتقد أنها
تعني منح الحق بعرض قضايا في محكمتهم البحرية كانت بالعادة
تعرض في Cour de la chaine الملكية، وأعطاهم الشرط
الأول محكمة خاصة بهم، وأعطاهم الشرط الثاني حرية الابحار مع
الاعفاء من الضرائب.

٢١٤ — قلعة قرب ليماسول؛ المادة الثالثة من المعاهدة، وقد أعطوا أيضاً
بيوتاً وأراضي في فيماغوستا وبافوس.

٢١٥ — ترجمنا كلمة ounement التي وردت في النص بـ «تحالف»،
وقرأ محققو الطبعة الأكاديمية هذه الكلمة بـ armement.

٢١٦ — استقيت الكلمتان اللتان جاءتا بين حاصرتين من أمادي (ص
١٦٧) لأن ذلك أوضح.

٢١٧ — لى كوثيري أو كيثيرا قرب نيقوسيا، وكانت دوما مركزاً للطحن.

٢١٨ — أضاف «الأعمال»: «وذلك في اليوم نفسه الذي جاءوا فيه».

٢١٩ — أضاف «الأعمال»: «الذي كان اسمه تراهونا Trahona » وورد
هذا الاسم أيضاً في هرقل (ص ٤٠٠).

٢٢٠ — قال كل من «الأعمال» وهرقل (ص ٤٠٠): «الثلاثاء الخامس
عشر من حزيران».

٢٢١ — أضاف «الأعمال» من هرقل (ص ٤٠٠): «وهكذا جرى ارسال
جزء من تجهيزاتهم وسيرجنديتهم».

إلى القعلة المذكورة، وكان الجزء الآخر سيصل فيما بعد»، ولم يوضح فيليب تمام الإيضاح استراتيجية القبارصة في أغريدي، فبعدما أنقذ الإيليني أغريدي زحف مباشرة نحو ديودامور، واجتاز الشعب الضيق الذي كان فيه اللومبارد، وقد قاتل هؤلاء الجيش القبرصي من على جناحيه، لكنهم لم يتمكنوا من إيقاف تقدمه، وتمكن بالين وفرقته عند فم الشعب من أحداث فراغ كبير بين الفرقتين الأوليتين للومبارد، والكتلة الأساسية من جيشهم، وتم ربح المعركة تماما قبل وصول فيلنغر مع القوة الكبرى، وقدم سير جندية الإيليني الذي احتلوا أغريدي في الوقت المناسب، ليقدّموا مساعدة ثمينة، وهذه المعركة هامة لأنها معركة أحسن فيها القبارصة استخدام المشاة، فقد قلب ذلك الموازين: وصار فرسان اللومبارد الثقيل تحت رحمة المشاة القبارصة، الذين تولوا قتلهم عند سقوطهم من على ظهور خيولهم، وساعدوا في الوقت نفسه فرسانهم على التمكن من امتطاء خيولهم ثانية.

٢٢٢ — استخرج كوهلر هذه القراءة من أمادي (ص ١٦٩) مصححاً بذلك «الأعمال» الذي جاء فيه: «وأقام في قيادة الرتل الأول السير هيوج — ابنه —، والسير أمسيودي بري في الرتل الثاني، والسير بلدوين دي ايلين في الثالث، وصاحب قيسارية الشاب في الرابع، ووقف هو في الساقة، لأن أكثر من ذلك لم يكن هناك أرتال»، وقال جونا (١/ ٥٥٠) بأن فيليب دي نوفار قد تسلم قيادة قوات الساقة.

٢٢٣ — كان يودس دي لي فيرتي فيزكونت عكا في سنة ١٢٥٠، وكانت أسرة مونتوليف أسرة لها أهمية عالية في قبرص في أثناء القرن الرابع عشر، وقد ظهرت على صكوك عائدة لكونت طرابلس في القرن الثاني عشر، وغير هذا لم يكن هؤلاء الرجال معروفين، وقد جعل

دوم جونا (٥٥٢/١) صاحب أرسوف بطلاً لعملية الدفاع المنفردة هذه، وقد أصبح لي فيرتي، دي فيرتي، ولي فليس ناسيو، في هذه الرواية.

٢٢٤— وليم دي باليريا، كونت أوف مانويلو، ونائب عام للامبراطور، وقد كان واحداً من مستشاري فردريك المعتمد عليهم.

٢٢٥— غيوفري دي مونتفوسكولو Montefoscolo، وقد أصبح هو نفسه فيما بعد متسلم العدالة في كاليرا.

٢٢٦— قال أمادي (ص ١٧١): «انعطفوا نحو أغريدي».

٢٢٧— كاستري أو كاستريا.

٢٢٨— ربما كان هذا بيرارد دي مانويلو Manupello، أحد أقرباء بيرارد دي مانويلو كونت لوريتو، الذي كان في سنة ١٢٣٩ واحداً من الفرسان الذين عهد إليهم فردريك بأمر الأسرى اللومبارد.

٢٢٩— أعاد كوهلر بناء هذا الجزء الأخير كله من هذا المقطع اعتماداً على أمادي ص: ١٧١— ١٧٢، وجاء نص الأعمال كما يلي: «وشيء واحد توفر هناك قد ساعد القبارصة كثيراً، وأعني بذلك السيرجندية الرجالة، وهكذا حدث أنه عندما كان يقع أرضاً واحد من فرسانهم كانوا يساعدونه على إمتطاء فرسه ثانية، وعندما كان يقع واحد من فرسان اللومبارد كانوا يقتلونه أو يأخذونه أسيراً، ولهذا السبب قتل عدد كبير من أبوليا، أو أخذوا أسرى، في حين فقد القبارصة فارساً واحداً، كان اسمه سيرجي، وكان قد ولد في توسكانيا، لكنه نشأ في قبرص وفيها صار فارساً، وقد قتل من فرسان أبوليا أكثر من ستين فارساً، ووقع بالأسر، أكثر من أربعين».

٢٣٠ — بليشيا Blessia أو بليتشا Pletcha في السهل جنوب ديودامور.

٢٣١ — فسر ماس لاتري (التاريخ: ٢٩١ / ١) هذا على أن معناه قطع أيديهم أو أقدامهم، وهي عقوبة غالباً ما نفذت بحق من لم يكونوا من النبلاء وذلك بموجب «قانون أنظمة البرجاسية» (القوانين: ٥٦ / ٢).

٢٣٢ — اقترح روهريخت (التاريخ ص ٨٢٣ — ٨٢٤) أن انتي دي تشيلجن ربما هو هانس فون شيلجن، أما البقية فتعذر التعرف عليهم.

٢٣٣ — كان فيليب شينارت قد صار قائداً لكتتارا بعد وفاة جوفيان.

٢٣٤ — في الأبروزي Abruzzi، كان وولتر أوف أكوافيفا ابن رينارد أكوافيفا.

٢٣٥ — ذكر كوهلر اسم فيلنغر اعتماداً على أمادي ص ١٧٤، وجاء سياق رواية «الأعمال»، وكأن هيوغ صاحب جبلة قد بقي الوكيل في صور، في حين ذهب فيلنغر، وبرلياس، وصاحب بيسان إلى الغرب، وقد تقبل هذه الرواية كل من روهريخت (التاريخ ص ٨٢٤)، وموللر (اللومبارد، ص ٥٤)، لجعل صاحب جبلة وكيلاً في صور، وقال ماس لاتري (التاريخ: ٢٩١ / ١) بأن فيلنغر قد ذهب إلى الغرب، خلفاً أخاه لوثير وكيلاً في صور، وأن صاحب جبلة قد التحق مؤخراً بلوثير هناك، وأنا أميل إلى مراجعة التصحيح الذي قدمه كوهلر على أساس أن فيلنغر قد اختفى ولم يكن حاضراً في سورية لمدة طويلة بعد هذا الحادث.

٢٣٦ — هذه هي المرة الأخيرة التي تذكر فيها رواية فيليب مجموعة: برلياس، وصاحب بيسان، وصاحب جبلة، وأعطى أمادي (ص

١٧٤-١٧٥) أسماء آخرين أعلن عن مصادرتهم في ذلك الحين وهم: فيليب شينارت، وهيوج شابوت (زابوك)، وهيوج دي ماري، ورينو لي شامبرلين (زامبر لاني) وهيوج بورسليت، وبيرتراند بورسليت، وسادة حصون: الطور، وكرباسو، وميسوريا.

٢٣٧- هرب شيعة الامبراطور بعد نفيهم ومصادرتهم في قبرص إلى بلدان صديقة، أو إلى بلدان تحت حكم الامبراطور، فقد فرّ عموري برلياس وأسرته إلى طرابلس، وهناك مات قبل وقت قليل من عام ١٢٣٦، وإلى طرابلس التجأ أيضاً هيوج صاحب جبلة، وبيرتراند بورسليت، وكان أمراء طرابلس - أنطاكية يؤثرون الامبراطور، ولهذا رحبوا بهؤلاء اللاجئين، وأقروهم ببيوت جديدة، وقدم لوثير فيلنغر فيما بعد إلى هناك، وهرب إلى أبوليا عموري صاحب بيسان، وشينارت، وشابوت، ودي مير، وعدد كبير آخر من القبارصة، حيث منحوا هناك اقطاعات من قبل الامبراطور، وأدخلوا في الخدمات الامبراطورية، وقد ترقى فيليب شينارت الذي كان المدافع عن سيرينا إلى أعلى المراتب، حيث تزوج من وارثة أبولية، وغدا كونتاً لكونفيرسانو conversano (١٢٤٢)، وإليها أضاف السيادة على أكوافيفا، وعين في سنة ١٢٤٧ قسطلاناً لباري، وعين في السنة نفسها مع : عموري صاحب بيسان، وتوماس دي أكينو- كونت أسيرا، الوكيل الامبراطوري السالف في سورية- وعموري سافارين الذي كان قبرصياً منفيّاً آخر، نواباً لصقلية، عندما كان الامبراطور بعيداً في الشمال، ثم جرى تعيينه قائداً أعظم لصقلية من قبل مانفرد في سنة ١٢٥٥، وهو الذي قاد اسطول الصقليين أثناء هجوم مانفرد على سواحل ألبانيا، ثم عين نائباً امبراطوريا صقليا في كورفو وإبروس، ومنح في كورفو عدة اقطاعات لعدة قبارصة، وأسس هناك مستعمرة ثانية للقبارصة،

الذين كان من بين البارزين بينهم أسرة بيت ألمان، وعند وفاة مانفرد أعلن فيليب نفسه سيداً مستقلاً لكورفو، لكن مالبت أن قتل إثر ذلك بتحريض من زوجته الثانية، التي كانت ابنة أمير اغريقي لإبروس، وأقام ابنه، بعد مقاومة يائسة، سلباً مع شارك أوف أنجو، واستمر في المكانة نفسها والتملك والشرف في كورفو تحت حكم الأسرة الجديدة. وتزوج عموري صاحب بيسان من وارثة تريكاريكو Tricarico في أبوليا، وأصبح من خلالها الوريث هناك، وصار هيوج شابوت سيداً لغرومو Grumo والأراضي المجاورة، واستخدم من قبل الامبراطور فردريك الثاني حيث بعثه سفيراً إلى انكلترا في سنة ١٢٣٩، وأصبح هيوج دي ماري صاحب شامبو مارينو، وأرسل رسولاً إلى فرنسا، ولحق جون جوفيان ابن جوفيان دي شنشي، بعمه فيليب شينارت، واستحوذ على أراضي في أبوليا، وشكل هؤلاء نواة مستعمرة قبرصية في الأراضي الامبراطورية، وبات مقدراً بأن هؤلاء القبارصة قد استحوذوا على جميع أراضي منطقة باري تقريباً. (انظر إ. بيرتوكس Bertaux: «فرنجة ماوراء البحر في أبوليا وفي ايري Epire» الدورية التاريخية، ٨٥ (١٩٠٤)، ٢٢٤ — ٢٥١، والحواشي التي لدى: «غ. غودشي Godici» «العلاقات الدبلوماسية أيام حكم شارل الاول وشارل الثاني دي أنجو، ٢٩٨/١ — ٢٩٩، ٣٠٧ — ٣١٠).

٢٣٧ — اعتماداً على أمادي (ص ١٧٦)، واستدرك ر. دي ماس لاتري هنا أن ذلك لا بد أنه كان في عيد الحصاد، لأن عيد الفصح لعام ١٢٣٢ حل يوم ١١ — نيسان، في حين كان عيد الحصاد في ٣٠ — أيار.

٢٣٨ — كان هيوج دي إيبيلين هو الابن الأكبر لبالين دي إيبيلين، وعم

جون دي إيبيلين صاحب بيروت، وقد تزوج من أغنس دي كورتناي، بعد طلاقها من عموري الأول - ملك القدس ١١٦٢ -
— ١١٧٤ — وظل رأساً لأسرة آل إيبيلين من سنة ١١٥٥ حتى تاريخ وفاته في سنة ١١٧٤ .

٢٣٩ — كان فيليب دي ميللي Milly صاحب نابلس ابن غي دي ميللي صاحب نابلس وستيفاني، وتزوجت ستيفاني بعد وفاة غي من بلدوين صاحب الرملة، وتزوجت ابنتها هلفيس صاحبة الرملة من بالين دي إيبيلين، وجاء من هذا القران هيوغ دي إيبيلين، وعلى هذا كان فيليب خال هيوغ، وورث فيليب في سنة ١١٦١ السيادة على الكرك والشوبك، وأرغم على التخلي عن إقطاعه الذي شمل نابلس لصالح التاج ليحصل على الموافقة الملكية على ميراثه الذي ضم إقطاعية أكبر (Strehlke, p.3) وتخلّى في سنة ١١٦٩ عن إقطاعياته لوريثته، وصار المقدم الأعلى لفرسان الداوية.

٢٤٠ — حول هذه المسألة انظر Schlumberger, Campagnes du Roi Amaury I, PP 192 - 93 ولى مونت «الملكية الاقطاعية» ص ٩٩، وبينوت - القوانين: ١ / ٤٥٥، الحاشية، ويّين شلمبيرغ أن هذه القاعدة كانت مجرد أمر صدر في ذلك اليوم، ولم تكن حكماً دائماً، لأنها غير موجودة في أي من كتب القوانين.

٢٤١ — كان فيليب موغستيل ابن توماس دي موغستيل، أحد إقطاعيي قيسارية، وأخاً لسمعان دي موغستيل رئيس أساقفة صور، وقد تزوج من مرغريت دي دياسبري Diaspre، والأخت تزوجت من دانييل دي تيريموند.

٢٤٢ — بالفعل إذا ما تخلينا عن الأحكام العدوانية والمواقف العنيفة المسبقة لفيليب، يبدو أن هذه كانت محاولة مخلصنة من جانب

الامبراطور للوصول إلى صلح مع البارونات السوريين، وكان هنري وصاحب بيروت يحاولان أن يكسبا الناس إلى جانبيهما عن طريق منح الاقطاعات، لكن كانت الغالبية العظمى من البارونات السوريين متمسكة بشدة بإخلاصها لكونراد وللامبراطور، مع أنهم اعترضوا على تجاوزات فيلنغر، واعتقد الامبراطور أنه بتعيينه لواحد من البارونات من أسرة محلية جيدة وكيلاً مشتركاً مع فيلنغر، سيزيل بعض أسباب الشكوى لدى السوريين، وسيقوي من وضعه، ومن الجدير بالملاحظة أن بالين صاحب صيدا ويودس دي مونتبليارد كانا راضيين بهذه الترتيبات، ولهذا رفضا من قبل الاعتراف بفيلنغر وكيلاً، واستمرا يعدان نفسيهما السوكيلين الصحيحين للامبراطور في سورية.

٢٤٣ - خلف يودس دي مونتبليارد غارنيير الألماني كشريك صاحب صيدا في وكرالته.

٢٤٤ - أضاف أمادي (ص ١٧٩): «وكوكبة كبيرة من الجنوين».

٢٤٥ - يوجد لدى جون دي إيبيلين صاحب يافا في «قوانين القدس»: ٢ / ٣٩٩ رواية أخرى حول هذه الحادثة نفسها هذا نصها: «وعندما عاد الامبراطور ترك في مكانه صاحب صيدا مع السير غارنيير الألماني، وبقي السير غارنيير في (مركزه) وقتاً قصيراً، ومن ثم انتسب إلى الداوية، وحل القسطلان محله، وحدث بعد ذلك أن أرسل الامبراطور أسقفاً إلى هذه البلاد، يحمل رسائل إلى صاحب صيدا، وإلى القسطلان، يأمرهما فيها بوجوب تولي السير فيليب دي موغستيل للسيادة، وجمع صاحب صيدا والقسطلان رجال الاقطاع في كنيسة الصليب المقدس، وكان البطريك جيرولد موجوداً هناك، وصدر الأمر بقراءة الرسائل التي تحتوي على أمر الامبراطور المذكور أعلاه، وقدم ابن خالي جون صاحب قيسارية

إلى هناك، وتفوه برد الاقطاعيين بسبب أن صاحب بيروت ونحن جميعاً كنا في قبرص، وتحدث كيف أن الامبراطور ثم القسطلان وصاحب صيدا - اللذان كانا هناك - قد أقسما عندما بقيا في محله على التمسك بالقوانين وبالممارسات وبالعواديات العائدة لمملكة القدس، وأنه هونفسه وجميع الاقطاعيين الآخرين متمسكين بإخلاصهم - وخاصة باليمين - وتعهدهم بالتمسك بالقوانين، وبالعواديات الجيدة لمملكة القدس، وبالمحافظة عليها، وأن هذا الذي أمر به الامبراطور مضاد لهذه القوانين وللممارسات، لأنه أراد أن ينقض بوساطة الرسائل ماجرى إبرامه أمام المحكمة، وهذا ما لا يسمحون به ولن ينفذوه للأسباب المبينة أعلاه، وحدث هياج عظيم، وقرع ناقوس الكومونة، وغادر الأسقف، وبقي صاحب صيدا والقسطلان حيث كانا بإدارة السلطة، ومات صاحب صيدا، وبقي القسطلان في إدارة السلطة.

٢٤٦- قال جونا (١ / ٥٥٥) بأن سيرينا قد وضعت تحت إمرة بلدوين دي بري، وهو أخ لـ «أنريان Anrian دي بري» الذي قتل أثناء الحصار.

٢٤٧- قال أمادي (ص ١٨٢): خمسين أسيراً.

٢٤٨- ترك فيليب دي نوفار الذي اهتم بالصراع الإيليني - اللومباردي فقط، سياق الأحداث هنا، وعبر مباشرة نحو وفاة جون دي إيبيلين في سنة ١٢٣٦، فقد استمر الصراع بين الإيلينيين والامبراطور، وتدخل البابا لصالح فردريك حسبما كنا قد رأينا، ولم يذكر نوفار مطلقاً حقيقة وقوف الإيلينيين ضد البابا، وأهملاً كلياً ذكر السفارات التي تنقلت فيما بين سورية وروما، وقدم هرقل (ص ٤٠٦ - ٤٠٧) حكاية بعض هذه المباحثات بقوله: «في هذه الأونة (خطأ فتاريخ سنة ١٢٣٣ يتوجب أن يكون سنة ١٢٣٥)»

أرسل رجال مملكة القدس رسلاً إلى روما، وذلك بناء على تحريض من هيرمان مقدم استبارية التيوتون، للعمل على عقد صلح بينهم وبين الامبراطور، وكان الرسل فارسان من عكا وهما: فيليب دي تروي، وهنري صاحب الناصرة، وعندما قدما إلى روما فعلا ما أراده مقدم التيوتون تماماً وذلك وفقاً لإرادة الامبراطور، وختما رسائل موثيق السلام، وعندما عادا إلى عكا، قدما الرسائل إلى حيث قرئت، وعندما سمع أهل المملكة بشكل السلم كما ورد في فحوى الرسائل غضبوا غضباً شديداً، وكانوا يمتلكون التسويغ لفعل ذلك، لأن هذا السلم كان عاراً عليهم وخسارة ومضاداً لسلطانهم وللتعليقات الصادرة إلى الرسولين، ولهذا لاموهما، وعدوهما خائنين وزائفين، وكادوا أن ينزلوا بهما عقوبات جسدية، واجتمع رجال المملكة للتشاور، وبإتفاق جماعي بينهم بعثوا إلى ملك قبرص، وبناء عليه بعث ملك قبرص ورجال مملكة القدس رسولاً عاماً عنهم يمثلهم جميعاً إلى روما إلى الخبر الأعظم، وجاءت مراسلتهم إلى البابا فيما يتعلق بهذا الأمر، ولأن هذا الصلح الزائف قد أبرم أمامه وبمعرفة، وكان الرسول الذي بعثوا به فارساً من قبرص، كان قد ولد في سورية، لكنه ذهب للعيش في قبرص على إقطاع كبير كان الملك هنري قد منحه إياه، وقد جعله هناك حاجب قبرص، وكان اسم هذا الفارس غيوفري لى تور، ووضع الملك هنري نفسه في هذا كله مع جماعة رجال مملكة القدس، فلقد تضرر الملك كثيراً من هذه المعاهدة التي تكلمنا عنها أعلاه حسبما جاءت بالرسائل، وغادر غيوفري لى تور قبرص، وقدم إلى عكا، وتسلم رسائل بارونات البلاد واعتراضاتهم، وذلك بالإضافة لما كان قد تسلمه من ملك قبرص، ودخل مسافراً إلى سفينة جنوية، وعبر بوساطتها إلى جنوى، ومضى من هناك إلى فيتربو، حيث كان البابا مع بلاطه كله، وحمل معه هدايا فائقة وثمينة إلى البابا وإلى

الكاردينالات، وسلم رسائله، وأظهر للبابا النقاط التي بموجبها والأسباب التي ينبغي للصلح أن يتم قبوله، واستقبله البابا بشكل لائق، وسمع منه بكل رغبة، وردّ عليه بأنه غير مندهش أبداً إذا ما رفضوا تلك المعاهدة، لأن الذي قامت عليه زائفاً وشريراً، ولم يكن بإمكانه فعل أي شيء آخر، لأن السفيرين اللذان أبرماها قالاً بأن لديهما أوامر بصنع ما صنعاه، وإذا كان (البارونات) غير راغبين بالموافقة على ما عقده (الرسولان) فهذا ممكن لهم وحق في حدود سلطتهم، وهو لن يرغمهم أبداً، بل وعدهم بتأييد الكنيسة ودعمها، وأرسل إليهم رسائل رغب فيها إليهم بأن تتخذ المملكتان الموقف نفسه، وأرسل إلى عكا، وإلى الرهبانيات العسكرية الثلاث، وإلى الكومونات يطلب فيها من ملك قبرص ومن بلاده، ومن الذين في مملكة القدس وجوب التعاون في حماية أنفسهم وحقوقهم والدفاع عنها، وأمرهم بإلحاح بضرورة التمسك بذلك، وبعث بالرسالة نفسها إلى معتمد الجنويين وإلى كومونتهم بالرسالة نفسها، وحمل غيوفري لى تور هذه الرسائل كلها وأشياء كثيرة أخرى تسلمها من البابا غريغوري، وهكذا عاد إلى جنوى، ومن هناك ركب سفينة وعبر إلى عكا، ومنها ذهب إلى قبرص.

وكان الصلح الأول قد عقد عندما كان البابا والامبراطور على وئام، وجاءت سفارة غيوفري إلى غريغوري بعدما فسدت العلاقات ثانية بينه وبين فردريك.

٢٤٩ — فيليب دي مونتفورت، صاحب كاسترا Castres في ألبويس Albigeois، وابن غي دي مونتفورت، وبالتالي حفيد سمعان دي مونتفورت الذي استولى على الألبينسيين Alebigensians، وابن خال (عم) إيرل ليستر المشهور.

٢٥٠ — ماري أوف طرابلس - أنطاكية - ابنة ريموند روين وهلفيس

دي لوزغنان، وقد ورث اللقب المعزو إلى تورون(التي كانت داخل الأراضي الاسلامية) من جدتها أليس صاحبة أرمينيا، وكان هذا بعيد سنة ١٢٣٦، وقد تزوجت في سنة ١٢٤٠ فيليب دي مونتفورت.

٢٥١— كانت أمه هلفيس دي إيبيلين، أخت جون صاحب بيروت، وكانت تعرف باسم سيدة صيدا.

٢٥٢— قال «الأعمال» صور، لكن هذا من الواضح أنه خطأ، وقد صححه كوهلر.

٢٥٣— اسشيفي صاحبة طبرية، ابنة رينو صاحب طبرية، ومرغريت دي إيبيلين، وأخت غير شقيقة من خلال أمها لجون صاحب قيسارية.

٢٥٤— أوضح أمادي(ص ١٨٧) بأن بالين صاحب صيدا، الذي كان وكيلاً في عكا، كان ميتاً، وكان يودس قد صار وكيلاً بالزمالة مع بالين عندما استقال غارنيير الألماني من الوكالة.

٢٥٥— بيتر فيلابرايد المقدم الأعلى للاستتارية ١٢٣٩ / ٤٠ — ٤٣ .

٢٥٦ — الناصر صلاح الدين يوسف — سلطان حلب (١٢٣٦ — ١٢٦٠)، وكان آخر سلاطين الأيوبيين في حلب.

٢٥٧— يبدو أن هذا الحصار قد وقع في سنة ١٢٤١، وذلك اعتماداً على بينة فيليب ومن خلال التطورات المنطقية للأحداث، ومع أن «حوليات الأرض المقدسة» (ص ٣٨٢) تجعله في سنة ١٢٤٣، بعد الاستيلاء على صور، وقال ريكاردوس دي سان جرمانو(ص ٣٨٢) بأن مدينة عكا قد ثارت ضد الامبراطور في سنة ١٢٤١، وأن ذلك كان في تشرين الأول وعلى هذا نجعل تاريخ الحصار من

تشرين الأول ١٢٤١ إلى نيسان ١٢٤٢.

٢٥٨ — روى كل من هرقل (ص ٤٢٢) وأمادي (ص ١٩٢) بأن مغادرة فيلنغر حصلت بعد اجتماع المحكمة العليا التي انتخبت الملكة أليس لتولي السلطة.

٢٥٩ — أضافت الأعمال هنا: «عندما غادر رتشارد فيلنغر»، وكان فيلنغر مارشال الامبراطورية لكن ليس في سورية، وإذا كان لوثير قد عين مارشالاً للقدس من قبل فردريك، فهذه هي البيئة الوحيدة على ذلك.

٢٦٠ — قال أمادي (ص ١٨٩): أربعة برجاسية بنادقة وجنويين، ويتوافق هذا بشكل جيد مع ما قاله مرسيليو جورجيو فيما يتعلق بالمبادرة المتعلقة بخطط الاستيلاء على صور (انظر الملحق).

٢٦١ — سقط قوله: «حفظ بشكل سيء» من «الأعمال»، وأقحمه كوهلر نقلاً عن أمادي (١٨٩)، وأنا أميل إلى التساؤل حول ضرورة هذا الاقتحام، لأنه حتى فيليب كان قد أقبل على إظهار أن بالين قد حافظ على إخلاصه، وفردريك لم يفعل ذلك.

٢٦٢ — ولد كونراد في ٢٥ — نيسان ١٢٢٨، وبناء عليه وصل إلى سن البلوغ في ٢٥ نيسان ١٢٤٣، وبناء على هذه القاعدة جرى التأريخ للاستيلاء على صور في ١٢٤٣ (انظر حاشية المقطع ١٨٩، أي رقم ٢٧٤).

٢٦٣ — ينبغي التذكر أنه في سنة ١٢٢٩، ادعت أليس الحق في المملكة على أساس أنها وارثة لإيزابل، وأن المحكمة العليا قد رفضت ادعاءاتها على أساس أن كونراد كان الوريث الشرعي، وحثها فيليب هنا على المطالبة بالمملكة على أساس أن تكون وكيله، بحكم أنها أحق الورثة وأقربهم من كونراد، الذي امتلك بموجب

قانون البلاد سنة ويوماً بعد وصوله إلى سن الرشد ليقدم نفسه شخصياً للمطالبة بميراثه، وعليه كان يمكنها تسلم الميراث حتى يأتي شخصياً ويطالب به.

٢٦٤- كان رالف دي سواسون الأخ الأصغر لكونت أوف سواسون، وكان قد قدم إلى سورية مع صليبية ثيوت ملك نافار، وتزوج الملكة الثرية لكن المسنة.

٢٦٥- كان هذا في ٥ - حزيران ١٢٤٣، وكان البطريك متغيباً، وكان رئيس أساقفة صور يعمل ممثلاً له، ولدينا أربع روايات حول هذا الاجتماع الهام للمحكمة العليا وهي: رواية مرسيليو جورجيو، ورواية جون دي إيبيلين صاحب يافا، ورواية فيليب دي نوفار، ورواية هرقل، وجرى تقديم الروايات الثلاث - باستثناء رواية نافار - في الملاحق، ولرواية مرسيليو جورجيو أهمية خاصة بتحديد التواريخ بدقة، وسأقت «حوليات الأرض المقدسة» (ص ٤٤١) سلسلة الأحداث كلها في حولية سنة ١٢٤٢، وقال فقط: «طالبت في هذه السنة الملكة أليس بمملكة القدس، وبناء عليه استقبلها أهل عكا بمثابة ملكتهم الوارثة، وقدموا الولاء إليها وإلى زوجها رالف دي سواسون، وزحف أهل عكا وصاحب بيروت وطرردوا اللومبارد من صور ومن سورية، وأسروا وكيل صور، واستولوا على السفينة التي كان فيها، ذلك أنه لسوء حظه كان عائداً»، ونص الحوليات القصير هذا خطأ في قوله بأن «أليس استقبلت كملكة»، وأن صاحب أرسوف قد استولى على صور.

٢٦٦- الإشارة هذه إلى البيازنة خطأ، وقال أمادي (ص ١٩٠) بشكل محدد: «وليس البيازنة لأنهم كانوا متحيزين إلى الامبراطور»، ويتوافق هذا مع سياسة البيازنة التي كانت غبيلية بشكل ثابت، ولقد قبل روهرخت بوجودهم في هذا الاجتماع، لكنني لا أدري كيف

كان ذلك، ولم يذكرهم مرسيليو جورجيو، ومثله فعلت بقية الروايات.

٢٦٧— قال أمادي (ص ١٩٢): «كان الوكيل والمسؤول عن الموارد»، واعتقد روهرخت (ص ٨٥٧) إن المقصود هنا هو فيليب دي مونتفورت، لكن بحكم أننا رأينا فيليب دي نوفار يقوم بتجهيز السفينة، يبدو من الطبيعي أكثر أن نعتقد أنه المقصود، لاسيما وأنه ذكر ذلك مباشرة بعد حديثه عن مكاسبه المالية.

٢٦٨— أضاف «الأعمال»: «وتابعوا الاندفاع وساروا عبر البحر بمحاذاة أسوار المدينة بوساطة استبارية التوتون».

٢٦٩— تبعاً لهرقل (ص ٤٢٣) جاء رالف دي سواسون إلى صور، فقط بعد الاستيلاء على المدينة، وقال مرسيليو بأن الملكة قدمت فيها بعد، غير أنه لم يذكر رالف.

٢٧٠— أضاف أمادي (ص ١٩٤): «كان الجزء الأعظم جنوبيين وبنادقة».

٢٧١— نقرأ في أمادي (ص ١٩٤) وفي «الأعمال»: «بعد إمضائهم تسعة أيام في البحر ساقهم الحظ إلى برباري، ووجدوا هناك سفينتهم في حالة مؤسفة، حيث كان الماء يدخل إليها من عدة أماكن»، ونجد هذا نفسه في هرقل (ص ٤٢٦).

٢٧٢— كانت القراقي سفينة ذات أشعة ثلاثة، عالية الدكة، مع أشعة أمامية مربعة، ومع شراع مثلث في النهاية القصوى.

٢٧٣— أضاف أمادي (ص ١٩٦): «وصرخ الذين كانوا في الخارج بوجوب التوقف، وإرسال واحد ليتحدث معه».

٢٧٤— ينبغي أن يكون هذا في سنة ١٢٤٣، والتواريخ الخطأ غير

موجودة في أمادي، وعزاهم كوهلر إلى مصنف «الأعمال»، ومن السهل التعرف إلى تاريخ الاستيلاء على صور بشكل صحيح من خلال رسالة مرسيليو جورجيو، التي كتبت في تشرين أول ١٢٤٣، وفيها روى أحداث شهر حزيران من ذلك العام، ومن غير الممكن القبول بتاريخ أبكر للهجوم على صور، أي أن يكون قبل ٢٥ نيسان ١٢٤٣، وهو التاريخ الذي وصل فيه كونراد إلى السن القانونية، وأكد كل من الإيليني ونافار بأن ذلك كان بعد الاعتراف بأليس، فبعد هذا الاعتراف جرى الهجوم، وجعل هيو لارد - بريهول (تاريخ الدبلوماسية، ص ٣٥٧ من المدخل) تاريخ الاستيلاء على صور في سنة ١٢٤٠، وذلك اعتماداً على ماريو سنوتو (ص ٢١٦)، لكن مصداقية الإيليني، ونافار، وجورجيو أعلى من مصداقية سنوتو، ومما ورد لدى هرقل (ص ٤٢٠)، حيث جعل حادث الاعتراف بأليس يقع في سنة ١٢٤٠ (بعد حديثه عن زواج أليس من رالف قال هرقل بأنه بعدما تزوج رالف طالب بالاستحواذ على المملكة، غير أنه لم يذكر بالتحديد أكان ذلك على الفور أو بعد زواجه منها)، وكان فيلنغر مايزال الوكيل في صور بتاريخ ١٧ - أيار ١٢٤٢ (روهرخت، السجلات، الوثيقة رقم ١١٠٧)، ولم يظهر اسم توماس أوف أسيرا بمثابة وكيل في الشرق حتى آب ١٢٤٣، (السجلات، وثيقة رقم ١١٢)، ومع أن ريكاردوس دي جرمانو قال بأنه عين في سنة ١٢٤٢، وعلى هذا يكون تعيينه وقت مغادرة فيلنغر، أي قبل الهجوم على صور (انظر توماس لاتري - التاريخ : ١ / ٣٢٤، الحاشية كوهلر ص ١٣٨. روهرخت - التاريخ ص ٨٥٤ - ٨٥٩).

٢٧٥ - غير موجود في «الأعمال»، ووضعه كوهلر في الحاشية، ويبدو أن هذا النص المأخوذ من أمادي (ص ١٩٧) يشكل النهاية الحقيقية

- ٢٦٢٦ -

لتاريخ فيليب دي نوفار، وبناء عليه أدخلته على أنه المقطع الأخير
في كتاب نافار، مع أنه من الممكن لم يكتب من قبل فيليب الذي
حرص في كل مكان على تجنب الحديث بلغة الشخص الأول.

- ٢٦٢٧ -

جريدة
أهم المصادر

MANUSCRIPT

Paris, Bibliothèque Nationale, Nouvelles Acquisitions français 6680: *Les Gestes des Chiprois*.

EDITIONS OF THE TEXT AND WORKS USED IN ESTABLISHING IT

Kohler, Charles, *Les Mémoires de Philippe de Novare, 1218-1243*. Paris, Champion, 1913. "Les Classiques français du moyen âge," t. 10. (This is the edition followed in the present translation.)

Raynaud, Gaston, *Les Gestes des Chiprois*. Paris and Geneva, 1887. "Société de l'Orient latin, Série historique," t. 5.

Paris, Gaston, and Louis de Mas Latrie, *Les Gestes des Chiprois*. Paris, 1906. "Recueil des historiens des croisades; Documents arméniens," II, 651-872.

Mas Latrie, René de, *Chroniques d'Amadi et de Strambaldi*. 2 vols. Paris, 1891-93. "Collection des documents inédits sur l'histoire de France"; t. 1, *Chronique d'Amadi*, t. 2, *Chronique de Strambaldi*.

——— *Chronique de l'île de Chypre par Florio Bustron*. Paris, 1886. "Collection des documents inédits sur l'histoire de France, Mélanges historiques," t. 5.

OTHER WORKS OF PHILIP DE NOVARE

Novare, Philippe de, "Le Livre de forme de plait," edited by Count Beugnot in *Assises de Jérusalem*, I, 469-571. Paris, 1841.

——— *Les Quatre Ages de l'homme*, edited by Marcel de Fréville. Paris, 1888. "Société des anciens textes français."

WORKS ABOUT PHILIP DE NOVARE

Beugnot, Count, "Notice sur la vie et sur les écrits de Philippe de Navarre," *Bibliothèque de l'École des chartes*, II, 1-31. Paris, 1840-41.

——— "Introduction aux Assises de la Haute Cour" in *Les Assises de Jérusalem*, I. Paris, 1841. "Recueil des historiens des croisades: Lois," I.

Grandclaude, Maurice, *Étude critique sur les livres des Assises de Jérusalem*. Paris, 1923.

Herzog, Annie, *Die Frau auf den Fürstenthronen der Kreuzfahrerststaaten*. Berlin, 1919. (Pages 118-38 are a study of Philip.)

- Lajard, F., "Philippe de Navarre, Jean d'Ibelin et al . . . redacteurs . . . des Assises de Jérusalem," in *Histoire littéraire de la France*, t. XXI, Paris, 1847.
- Langlois, Charles, *La Vie en France au moyen âge d'après quelques moralistes du temps*, pp. 205-40. Paris, 1926.
- Paris, Gaston, "Philippe de Novare," *Romania*, XIX (1890), 99-102.
- "Les Mémoires de Philippe de Novare," *Revue de l'Orient latin*, IX (1902), 164-205.
- Pastoret, E., "Philippe de Navarre jurisconsulte," in *Histoire littéraire de la France*, t. XIII. Paris, 1814.
- Richter, Paul, "Beiträge zur Historiographie in den Kreuzfahrerstaaten vornehmlich für die Geschichte Kaiser Friedrichs II," *Mitteilungen des Instituts für österreichische Geschichtsforschung*, XIII (1892), 255-310; XV (1894), 561-99.

CONTEMPORARY CHRONICLES AND COLLECTIONS OF DOCUMENTS

- Abou'l Feda, "Annals," in *Recueil des historiens des croisades: Historiens orientaux*, t. I. Paris, 1872.
- "Annales de Terre Sainte, Les," edited by R. Röhricht in *Archives de l'Orient latin*, II, Part B, 427-61. Paris-Geneva, 1884.
- Assises de Jérusalem, edited by Count Beugnot. 2 vols., Paris, 1841-43.
- "Recueil des historiens des croisades: Lois."
- Bedr ed Din Alaïny, "Le Collier de perles," in *Recueil des historiens des croisades: Historiens orientaux*, t. II. Paris, 1887.
- "Breve Chronicon de rebus Siculis" in Huillard-Bréholles, *Historia diplomatica Friderici Secundi*, t. I, Paris, 1852.
- Burchardi et Conradi Urspergensium Chronicon, Hanover, 1874. "Monumenta Germaniae historica: Scriptores," XXIII.
- Delaville Le Roulx, J., *Cartulaire général de l'Ordre des Hospitaliers de St. Jean de Jérusalem*, 4 vols. Paris, 1894-1904.
- "Estoire, L', de Eracles empereur et la conquête de la Terre d'Outremer; la continuation de l'Estoire de Guillaume archevesque de Sur," in *Recueil des historiens des croisades: Historiens occidentaux*, t. II. Paris, 1859.
- Giudice, G., *Codice diplomatico del regno di Carlo I e II d'Angiò*. 2 vols. Naples, 1863-69.
- Huillard-Bréholles, J., *Historia diplomatica Friderici Secundi*. 6 vols. in 12. Paris, 1852-61.
- Ibelin, Jean d', "Documents relatifs à la successibilité au trône et à la régence," in *Assises de Jérusalem*, II, 397-422. Paris, 1843.

- "Le Livre des Assises de la Haute Cour," in *Assises de Jérusalem*, I, 21-430. Paris, 1841.
- Joinville, Jean de, *Histoire de St. Louis*, edited by N. de Wailly. Paris, Firmin Didot, 1874.
- Laffan, R. G. D., *Select Documents of European History*, 3 vols. London, 1930-31.
- La Monte, John L., "Register of the Cartulary of the Cathedral of Santa Sophia of Nicosia," *Byzantion*, V (1930), 439-522.
- Liber iurium reipublicae Ianuensis*, edited by Ricotti. 2 vols., Turin, 1854. "Historia patriae monumenta," t. 7, 9.
- "Les Lignages d'Outremer," in *Assises de Jérusalem*, II, 435-74. Paris, 1843.
- Lusignan, Étienne de, *Histoire contenant une sommaire description des généalogies, alliances, et gestes de tous les princes et grans seigneurs . . . qui ont iadis commandé és Royaumes de Hierusalem, Cypre, Armenie, et lieux circonuoisins*. Paris, 1579.
- Description de toute l'isle de Cypre, et des roys, princes, et seigneurs, tant Payens que Chrestiens, qui ont commandé en icelle. Paris, 1580.
- Makrizi, "Histoire d'Égypte," translated by E. Blochet in *Revue de l'Orient latin*, VI-XI. Paris, 1858-1908.
- Matthæi Parisiensis *chronicon maiora*, edited by H. R. Luard. 7 vols., London, 1872-83. "Chronicles and Memorials of Great Britain and Ireland."
- Michaud, J. F., *Bibliothèque des croisades*. 4 vols. Paris, 1829.
- Monumenta Germaniae historica: Epistolae XIII saecula spectantes*, edited by Reiffenberg. 3 vols. Berlin, 1883-94.
- Monumenta Germaniae historica: Leges*, 4th series, t. 2, edited by L. Weiland. Hanover, 1896.
- Röhricht, Reinhold, *Regesta regni Hierosolymitani*. Innsbruck, 1893. *Additamentum*, Innsbruck, 1904.
- Ryccardi de Sancto Germano notarii *chronica*, edited by Prutz, Hanover, 1866. "Monumenta Germaniae historica: Scriptores," XIX.
- Sanuto, Mario, *Liber secretorum fidelium crucis*, edited by Bongars, Hanover, 1611. "Gesta Dei per Francos," t. II.
- Strehlke, E., *Tabulae ordinis Theutonici*, Berlin, 1869.
- Tafel, G., and G. Thomas, *Urkunden zur älteren Handels- und Staatsgeschichte der Republik Venedig*. 3 vols., Vienna, 1856-57. "Fontes rerum Austriacarum," Section II, Vols. 12-14.
- Winkelman, E., *Acta imperii inedita*. 2 vols. Innsbruck, 1880-85.

MODERN WORKS

- Archives de l'Orient latin. 2 vols. Paris-Geneva, 1881-84.
- Bertaux, E., "Les Français d'outremer en Apulie et en Épire au temps des Hohenstaufen d'Italie," *Revue historique*, LXXXV (1904), 225-51.
- Bloch, E., "Les Relations diplomatiques des Hohenstaufens avec les sultans d'Égypte," *Revue historique*, LXXX (1902), 51-64.
- Bréhier, L., *L'Église et l'Orient: les croisades*. 5th edition, Paris, 1928.
- Delaville Le Roulx, J., *Les Hospitaliers en Terre Sainte et à Chypre*. Paris, 1904.
- Du Cange, C. D., *Les Familles d'Outremer*, edited by E. G. Rey, Paris, 1869. "Collection des documents inédits sur l'histoire de France."
- Guilhiermoz, P., *Essai sur l'origine de la noblesse en France au moyen âge*. Paris, 1902.
- Iorga, N., *France en Chypre*. Paris, 1931.
- Jacobs, W., *Patriarch Gerold von Jerusalem*. Aachen, 1905.
- Jauna, Dom, *Histoire générale des royaumes de Chypre, Jérusalem, Arménie, et Égypte*. 2 vols. Leyden, 1785.
- Kantorowicz, E., *Frederick II*. English translation by E. O. Lorimer, London-New York, 1931.
- Kington, T. L., *History of Frederick II, Emperor of the Romans*. 2 vols. London, 1862.
- Lafiteau, Jean, *Histoire de Jean de Brienne*. Paris, 1727.
- La Monte, John L., *Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem, 1100-1291*. Cambridge, Mass., 1932. "Monographs of the Mediaeval Academy of America," No. 4.
- "The Communal Movement in Syria in the Thirteenth Century," *Haskins Anniversary Essays*. Boston, 1929.
- Löher, F. von, *Kaiser Friedrich II Kampf um Cypern*. München, 1878. "Abhandlungen der K. Bayer. Akademie der Wissenschaft." IIIte Klasse, XIV (2).
- Longnon, Jean, *Les Français d'Outremer au moyen âge*. Paris, 1929.
- Loredano, G. F., *Histoire des rois de Chypre de la maison de Lusignan*, traduit de l'Italien du Chevalier Henri Gibelet. 2 vols. Paris, 1732. (Loredano wrote under the name of Gibelet; the first edition of this work appeared at Bologna in 1647.)
- Mas Latrie, Count Louis de, *Histoire de l'Île de Chypre sous le règne des princes de la maison de Lusignan*. 3 vols. Paris, 1852-61.

- "Généalogie des rois de Chypre de la famille de Lusignan,"
Archivio Veneto, XXI (1881), 309-59.
- Müller, Hans, Der Longebardenkrieg auf Cypern, 1229-1233. Halle,
1890.
- Reinhardt, J. P., Vollständige Geschichte des königreichs Cypern. 2 vols.
Erlangen-Leipzig, 1766-68.
- Revue de l'Orient latin, 12 vols. Paris, 1893-1911.
- Rey, E. G., Étude sur les monuments de l'architecture militaire des
croisés en Syrie et dans l'île de Chypre. Paris, 1871. "Collection des
documents inédits sur l'histoire de France."
- Röhricht, Reinhold, Geschichte des Königreichs Jerusalem. Innsbruck,
1898.
- Die Kreuzfahrt Kaiser Friedrichs des Zweiten. Berlin, 1872.
Also reprinted with corrections and revisions in his Beiträge zur
Geschichte der Kreuzzüge, I. Berlin, 1874. (The edition of the
Beiträge has been cited throughout.)
- Schlumberger, Gustave, Les Campagnes du roi Amaury I^{er} de Jérusa-
lem en Égypte. Paris, 1906.
- Stevenson, W. B., The Crusaders in the East. Cambridge, 1907.
- Storrs, Sir Ronald, A Chronology of Cyprus. Nicosia, 1930.
- Stubbs, William, "The Mediaeval Kingdoms of Cyprus and Armenia,"
Lectures and Addresses on Mediaeval and Modern History. Oxford,
1900.
- Winkelmann, E., Kaiser Friedrich II. 2 vols., Leipzig, 1889-97. "Jahr-
bücher der deutschen Geschichte."

- ٢٦٣٥ -

(٢)

وصف ثيوديرك للأماكن المقدسة

(١١٧٢م)

مدخل

يبدو أنه مامن شيء يقيني معروف عن ثيوديرك، باستثناء اسمه، ومن المحتمل أنه ديتريخ الذي ورد ذكره لدى جون أوف وورزبيرغ في مطلع كتاب رحلته، لكن لا يوجد برهان يؤكد ذلك، كما أننا لانمتلك أية وسيلة لمطابقته مع ثيوديركوس برابوستيوس دي ويردا Praepositus de werdea، أو مع ثيوديركوس برابوستيوس أونولسباخ Onolsbach، الذي نقف على ذكره في السجلات الموجودة في وورزبيرغ والعائدة إلى أواخر القرن الثاني عشر، ولعله حسبما تقدم القول في مدخل رحلة جون أوف وورزبيرغ، كان هو ثيوديرك الذي صار أسقفاً لورزبيرغ في سنة ١٢٢٣، ونعرف أنه كان ألمانياً، ومؤكد أنه كان من منطقة الراين، ذلك أنه حدثنا كيف تولى هو ورفاقه في يوم أحد السعف دفن رفيقهم الحاج أدولف أوف كولون في حقل الفاخوري قرب القدس، كما أن قيامه بعقد مقارنة بين كنيسة الضريح المقدس في القدس وبين الكنيسة في أكس لى شايل (آخن) فيه برهنة على معرفته بتلك البلاد.

وهناك توافق قريب في كثير من الأجزاء بين ما ورد لدى جون أوف وورزبيرغ وثيوديرك، خاصة ما جاء في روايتيهما في وصف الأماكن التي لم يشاهداها، ذلك أنهما استخدما الجمل نفسها وكذلك الكلمات، ولعلهما هنا نقلتا عن بعضهما بعضاً، لكن المرجح أكثر أنهما معاً — أو بالتحري جون أوف وورزبيرغ، مثله مثل يوجيسبوس فرتلوس مع كتاب آخرين نقلوا هذا الجزء من مصدر مختصر عن جغرافية وتاريخ الأرض المقدسة وجوارها، كان آنذاك متداولاً بكثرة، والذي سوف ندعوه هنا بسبب الاختصار: «الخلاصة القديمة الوافية»، وحصلنا على بعض التوضيح لخطته من ذكر جون أوف وورزبيرغ لنيته القيام بالكتابة فقط عن القدس وأحوالها: «وعن الأماكن المقدسة الموجودة داخل الأسوار وخارجها....»

وبناء عليه ليس لدينا نية بتقديم أية رواية عن الأماكن القائمة في المناطق المجاورة، لمعرفتنا أن ما قيل عنهم فيه الكفاية، من قبل أي كاتب»، وجدير بالملاحظة أن ثيتمار (Thietmar) (ط. لورنت Laur-ent، ٢٦) فعل عكس هذا تماماً، لأن الكثير قد قيل عن القدس، ولأن تلك المدينة وصفت وصفاً مفصلاً من قبل عدد كبير من الكتاب، ومع هذا يلاحظ أن جون أوف وورزبيرغ لم ينفذ ما نواه، لأنه أعطانا وصفاً عن أحوال الأماكن المقدسة في الجليل أيضاً، وهذا أمر يثير الشبهات، ويدفع إلى القول أن كل ما فعله كان هو النقل عن غيره، هذا إذا لم نقم مكرهين بالافتراض أن وصف الأماكن البعيدة عن القدس قد أضيف إلى وصف خطط القدس وأحوازاها من قبل يد أخرى، ولقد بدأ ثيودريك عمله بالاعلان بشكل محدد بأن وصفه قائم في جزء منه على ما رآه، وفي جزء آخر على روايات موثوقة استقيت من آخرين، لكن حتى وهو يتعامل مع هذه «الروايات الموثوقة» أو مع «الخلاصة القديمة الوافية» يمضي بعيداً في الاعتماد على الذات أكثر من جون، زيادة على هذا في روايته — بالاضافة إلى أنها مليئة أكثر — كثيراً من اللمسات المضئية، المعدومة لدى الآخرين، فقد نشد الناس «العون من الرب» ومن «الضريح المقدس» عندما كانوا ينتظرون نزول النار المقدسة يوم عيد الفصح، والدموع تنهمر من أعينهم، وأيضاً قام الحجاج بغرس صلبانهم فوق صخرة الجمجمة، وأشعلوا النيران عشية عيد الفصح، كما قام الجهلة من الحجاج فصنعوا كوماً من الحجارة في وادي حنون متوقعين الجلوس عليها يوم القيامة، ووصف كيف أنه أصيب بالرعب هو ورفاقه من المسلمين، الذين دعاهم بالعرب، والذين كانوا قد شرعوا بفلاحة حقل وقع إلى جانب الطريق إلى نابلس، فقد كانوا يصرخون بشكل مرعب، «قتلك كانت عادتهم عندما كانوا يتولون القيام بعمل ما»، وقد شهد بنفسه ووصف ثراء الاستبارية وأعمالهم الخيرية، وقوة الداوية، وذكر الأسماء النورماندية - الفرنسية مثل: «بلمونت» و«فونتنيود» و«جبل

البهجة»، التي باتت غريبة في فلسطين، كما تحدث عن جموع السفن في ميناء عكا الخطر، حيث كان مركبه بين تلك السفن، والمشهد من جبل الغواية فوق السهل المظلم الواسع، المغطى بأعداد لا تحصى من الحجاج، وكل واحد منهم حامل مشعل، وهم يتولون الحراسة ومراقبة المسلمين فوق التلال العربية لما وراء الأردن، وهذه الأوصاف والروايات لها قيمة لا تقدر بثمن، لأنها تساعد على رسم صورة الأرض المقدسة في أيام ملوك الفرنجة، ولا بد من التمييز بين ما رآه ثيوديرك، وما وصفه اعتماداً على الآخرين، فقد جاء وصف الذي رآه واضحاً وكاملاً، وملئاً بالحقائق الجديدة، بينما جاء المنقول مختصراً، متداخلاً ومضطرباً دوماً، ويبدو أنه نزل أولاً في عكا، وسافر من هناك إلى القدس، وزار أريحا والأردن، وعاد عبر الطريق نفسه، مع أنه قد يكون تولى شخصياً زيارة الناصرة، وطبرية وجبل الطور، وروايته عن بحر جنسارث مضطربة بشكل مرعب، ولعل مرد ذلك إلى أخطاء النساخ، وهو على كل حال لم يصف ما رآه فقط بشكل واضح، بل جاء وصفه ساذجاً وذكياً بغية كسب تقدير القارئ، وكان المخلص مقيماً إلى جانب قلبه، لا يزاخمه على مكانته سواء، وقد تحدث عن أمه بالاحترام اللائق، دون أثر لعبادتها الذي تميزت به العصور المتأخرة، ونجده متفوقاً على كثير من رحالة أيامنا هذه، أي أنه لم يملك مشاعر الكراهية ضد الديانات الأخرى، ومع هذا لانجد لديه روح النقد المتوفرة لدى المؤرخ المعاصر، ولا يحتوي الكتاب سوى على القليل من ردات الفعل الدينية التي غالباً ما يخفي الناس وراءها جهلهم بأمور هذه الحياة، ولهذا يرغب الانسان لو أن الكاتب أعطانا تعبيراً أوفى عن مشاعره الشخصية بشكل صادق، ومستقيم وصادر عن القلب، ومع أننا نتعرف من الفصل (٢٩) بأن الكاتب كان رجل دين، هو لم يحاول قط أن يفرض مكانته الدينية علينا، والمثير حقاً والغريب أنه لم يشر قط إلى قيامه بالدعاء أو بأية أعمال تعبديّة أخرى في أي من الأماكن المقدسة، ففي الحقبة التي كتب فيها احتلت الأمور الروحية

مكانة سامية، ومع هذا بدا أنه من غير الضروري بالنسبة له القيام بإثارة مشاعر القراء أو المستمعين.

وليس هناك من شك بأن رحلة حج ثيوديرك قد قامت في أيام الحروب الصليبية، أي قبل طرد الصليبيين من القدس سنة ١١٨٧ م، وهناك شواهد متميزة عديدة بأنه أقام في القدس في الوقت الذي كانت ما تزال فيه تحكم من قبل ملوك الفرنجة، وكل الذي بقي علينا هو أن نحاول تحديد السنة تماماً، وهكذا نقرأ في الفصل الثلاثين بأن عماد الدين زنكي، واسمه لديه «سنجينوس» أو «سنجيونيوس»، قد قطع رؤوس ستة من الرهبان في أحد الأديرة على شواطئ الأردن.

ويبدو أن هذا قد حدث سنة ١١٣٨، عندما عبر المسلمون نهر الأردن، وأغاروا على مناطق أريحا وتقوع، وبعد هذه الغزوة بأعوام ثمانية اغتيل عماد الدين، ونجد في الفصل الثاني عشر اسم البطريك فولتشر، الذي تولى كرسي البطريركية من سنة ١١٤٦ حتى سنة ١١٥٧.

وقرأ ثيوديرك (الفصل ١٥) بأن هيكل الرب قد انتهى في السنة السادسة والثلاثين بعد الاستيلاء على القدس، وذلك بعد سنة ١١٠١ / ويقودنا هذا إلى سنة ١١٦٤ م، وذكر في الفصل (٤٥) بأن بانياس قد استولى المسلمون عليها في سنة ١١٧١، وينقلنا وصف قبور الملوك في الفصل / ١٢ / إلى عموري الذي مات في ١١ — حزيران سنة ١١٧٣.

وهكذا بدا أن سنة ١١٧٣، كانت آخر تاريخ ورد ذكره: والنقطة التالية المتوجب فحصها هي: هل أتيح له رؤية القبور الملكية، وهي مسألة لم تكن سهلة مطلقاً، فقد جاء ثيوديرك من بيعة القديسة حنة في كنيسة الضريح المقدس الكبرى، وتابع سيره نحو الممر الجنوبي، حيث هناك مذبح ملاصق للاتجاه الجنوبي، وأتى هنا على ذكر خمسة قبور وجدت على الجانب اليميني أمام الباب، وكان القبر الأول هو قبر أخي

الملك الحاكم في القدس (بلدوين الثالث)، وكان موضوعاً فوق شرفة جوقة الكهنة، المعروفة الآن باسم «جاثليقية» الكنيسة الإغريقية، وفيما يتعلق بكلمات: «قبر أخي ملك القدس الذي اسمه بلدوين» هي غير واضحة بما فيه الكفاية، وأعتقد أن التعليل موجود في جملة: «القبر الرابع هو قبر والد الملك الحالي، أي الملك عموري»، وكانت القبور حسب الترتيب التاريخي هي حسب مايلي:

أولهم قبر غودفري، وهو يقف ثالثاً بعد قبر بلدوين الثالث، إذا ما انطلقت منه نحو الشرفة، وهو القبر التالي لقبر بلدوين الثاني.

والقبر الثاني هو قبر بلدوين الأول، وهو الثاني في الصف.

والقبر الثالث هو قبر بلدوين الثاني (دي بورغ)، والد الملكة ميليساندا، ويودس راعية دير لعازر في بيت عنيا، وهو الخامس بالصف.

والقبر الرابع هو قبر فولك، والد بلدوين الثالث، وعموري، وهو الرابع بالصف.

والقبر الخامس هو قبر بلدوين الثالث، وهو الأول بالصف.

ولا يمكن الآن لإنسان أن ينكر بأن ثيودريك قد قام بحجة إلى الأرض المقدسة في أيام حياة الملك عموري، الذي حكم من سنة ١١٦٢ حتى سنة ١١٧٣، ومن المهم تبيان أن قبر بلدوين الثالث أشير إليه على أنه قبر أخي الملك، لأن من المفترض معرفة الملك الحاكم بشكل جيد وبديهي، ولهذا يمكن بسهولة تعليل لماذا لم يرد ذكر قبر عموري في اللائحة، لأنه كان ما يزال حياً، وبناء عليه يمكننا أن نفترض أنه رأى القبور سنة ١١٧١ م لكن ليس بعد سنة ١١٧٣، التي مات فيها عموري، ونصل الآن إلى محصلة أن حج ثيودريك حدث بين سنة ١١٧١ و ١١٧٣.

وهناك نقاط أخرى جديرة بالتقدير، وهي وإن كانت أدنى دقة، لكنها مع ذلك تشير إلى التاريخ نفسه، فقد قال ثيوديرك في الفصل الخامس بأن بيعة الضريح المقدس كانت ألوان الطلاء فيها باهتة، ولهذا لم يستطع قراءة النقوش التي حفرت على الأقواس، وفي هذا دليل على أن الزيارة التي قام بها قد حدثت في تاريخ متأخر، لكن ليس متأخراً كثيراً بالنسبة لوجود المملكة اللاتينية في القدس، ففي التاريخ المتأخر كثيراً لم نعد نسمع بأن البيعة كانت مقسومة إلى قسمين (انظر رحلة فوكاس، ورحلة المجهول: ٤ فصل ١٥) وقد اعتمد فوكاس على حقيقة أن الامبراطور مانويل كومينوس الذي حكم من سنة ١١٤٣ إلى سنة ١١٨٠ قد تولى تذهيب القيامة كلها، وهناك احتمال كبير بأن ثيوديرك قد رأى بيعة الضريح المقدس أيام ترميمها، حيث مع أنه لم يستطع قراءة النقوش الباهتة الألوان، أخبرنا أنه استطاع أن يقرأ التريزيمية التجاوبية «قام المسيح» بأحرف ذهبية، في حين أن جون وورزبيرغ وصفها على أنها كانت مكتوبة بأحرف فضية، ولقد رأى ثيوديرك البريج التزييني فوق البيعة مع القبة بلون ذهبي، وهذا اللون الذهبي كان براقاً، ومعه أيضاً لون الصليب فوق القبة، وكأنه لون جديد، وتحدث جون فقط عن قبة صغيرة مغطاة بالفضة، وفي هذا كله برهان على أن جون كان المتقدم بالحج على ثيوديرك، ونعرف من ثيوديرك أن الداوية كانوا مشغولين ببناء كنيسة جديدة فوق جبل موريا، وقد استخدم حولها العبارة التالية التي وردت نفسها عند جون وورزبيرغ:

extrucone nove ecclesiae nondum tamen consummatae

زيادة على هذا إن نظرية أن جون كان هو الحاج الأول مدعومة بالملاحظة التالية، وهي قوله: «في شكيم هناك كنيسة قيد البناء» فوق بير أيوب، حيث أن ثيوديرك تحدث عنها على أنها كانت مبنية خالصة، وعلى كل حال يبدو أن هذا لا يتماشى مع البيئة التالية، وهي أن ثيوديرك قد

تحدث عن كنيسة بيترنوستر، أو كنيسة مخلصنا بأنها «الآن قيد البناء» حيث أن جون قد تحدث عنها على أنها كانت مبنية، وفي جميع الأحوال، يمكن أن نستخلص من هذا أن الفارق الزمني بين الحاجين كان قصيراً جداً، وأخيراً يمكننا الإفادة من إشارة ثيوديرك إلى وجود بركة جديدة على الطريق من القدس إلى بيت لحم، وجاء هذا لدى وصفه لوادي حينوم، ولاشك أن المقصود هنا هو بركة السلطان في هذه الأيام، وهي بركة لانمتلك إشارة إليها قبل تاريخ ١١٧٦، ونعرف من جهة أخرى أن بير أيوب القائم عند التقاء واديي حينوم وقدرن قد اكتشف أولاً في سنة ١١٨٤ من قبل جرمانوس، وبناء عليه كان من غير الممكن الإشارة إليه من قبل ثيوديرك.

ونعرف من بيئة داخلية بأن رحلة حج ثيوديرك قامت في ربيع السنة أيام «العبور الأول» في آذار أو في وقت الفصح وليس أيام «العبور الثاني» في آب يوم عيد القديس يوحنا، ذلك أن ثيوديرك رأى شعيراً ناضجاً في سهل أريحا في يوم أحد جاء بعد يوم أحد السعف، وفي يوم الأربعاء من أسبوع الفصح كان في عكا في طريق العودة إلى الوطن.

وصف ثيوديرك

يبدأ هنا الكتاب الصغير الذي كتبه ثيوديرك حول الأماكن المقدسة.

استهلال

يتوجه ثيوديرك أحقر الرهبان جميعاً ورجال المسيحية بنفسه إلى عباد
الثالوث المثلث المتحد، وبشكل خاص إلى محبي مولانا الكريم يسوع
المسيح.

لكي يعلموا على الأرض أنهم بمشاركتهم بآلام مخلصنا.

يمكنهم أن يستحقوا فيما بعد الحكم معه.

وحرصنا أن ندون كتابة على الورق، كل شيء متعلق بالأماكن
المقدسة، حيث عاش بالجسد بارينا ومخلصنا بشكل فعلي، وأنجز مهامه
مع الأسرار المرتبطة برجولته المباركة، وبخلاصنا، وذلك حسبما رأيناه
بأعيننا، أو تعلمناه من مصادر رجال آخرين موثوقين وصنعنا هذا وفق
أفضل ما نستطيعه، وذلك بغية إشباع رغبات الذين هم غير قادرين على
الذهاب إلى هناك بأجسادهم الفعلية، بوساطة الأشياء التي لم يستطيعوا
رؤيتها بأعينهم أو سماعها بأذانهم، وليكن معلوماً من قبل كل واحد من
قرائنا بأننا بذلنا الجهد في هذا العمل من أجل أن يتعلموا تذكر المسيح
دوماً، لأننا بتذكره يمكن أن نتعلم حبه، وبحبه يمكن أن نشفق عليه
وهو الذي عانى قرب هذه الأماكن، ومن خلال الشفقة عليه يمكن أن
نحصل على الشوق إليه، وبشوق المرء يمكن أن يتحلل من ذنوبه،
وبالتحلل من الذنوب يمكن الحصول على نعمته، وبالحصول على نعمته
يمكن للمرء أن يغدو شريكاً في مملكته في السماء، وبذلك سوف يعد
جديراً من قبله الذي هو مع الرب ومع روح القدس، يعيش ويحكم إلى

الأبد. آمين.

يبدأ هنا الكتاب الصغير الذي كتبه ثيوديرك حول الأماكن المقدسة.

١ — خراب البلاد وتغير أسمائها:

من الواضح لكل من قرأ العهدين القديم والجديد، بأن بلاد كنعان قد منحت بأمر رباني إلى الأسباط الإثني عشر من أبناء إسرائيل ليتملكوها، وهذه البلاد مقسمة إلى ثلاثة أقسام هي:

اليهودية، والسامرة، والجليل، وقد كانت في الماضي غنية بعدد كبير من المدن، والبلدات والقلاع، وأسماء هذه المدن القديمة ومواقعها معروفة لكل إنسان، غير أن المحدثين بحكم كونهم غرباء في البلاد، وليسوا من سكانها الأصليين يعرفون فقط عدداً قليلاً من الأسماء وهي الأماكن التي سوف نتولى وصفها في مواقعها الموائمة، وبما أن مولانا العزيز يسوع قد طلب الانتقام لدمه الذي سفك على الصليب على أيدي المجرمين اليهود، دخل الحاكمان الرومانيان فاسبسيان وتيتوس إلى اليهودية مع جيش تولى اجتثاث الهيكل والمدينة، وهدم جميع المدن والقرى في أرجاء اليهودية، وطرد القتل أنفسهم وأخرجهم من ديارهم وأرغمهم على العيش بين الغرباء، ونتيجة لهذا كله فإن جميع أعمال ومنشآت ذلك الشعب والمقاطعة كلها قد تهدمت، ومع أن بعض الآثار في بعض الأماكن ما تزال باقية، إن جميع الأسماء تقريباً قد تغيرت.

٢ — اليهودية:

دعونا على هذا نتحدث أولاً عن اليهودية، فالمعروف أنها كانت المنطقة الرئيسية للمملكة اليهودية، والتي تمكنا من تفحصها بأعيننا وبآذاننا، وهناك كما تقوم العين في الرأس تقوم مدينة القدس المقدسة، التي منها - بوساطة الرب - تدفقت نعمة مولانا يسوع المسيح، وخلاصه، وحياته، إلى جميع الأمم، ويحدّ اليهودية من جهة الغرب البحر

الكبير (المتوسط)، وهي مفصولة من جهة الجنوب، بوساطة الصحراء عن جبال العربية ومصر، ويحدها من جهة الشرق نهر الأردن، ويتألفها في الشمال السامرة وأدوم، وتتكون اليهودية من الجبال في معظم أجزائها، وترتفع حول المدينة المقدسة على شكل سلاسل عالية، منحدره من جميع الجهات إلى حدودها المتقدمة الذكر، وكأنها ينزل المرء منهم إليها، وهذه الجبال في الوقت نفسه وعرة وكثيفة بصخورها القاسية، وهي مزينة من جهة أخرى بصخور موائمة جداً ليقطع منها حجارة مربعة منحوتة صالحة للبناء، وهذه الحجارة في أماكن أخرى جميلة بألوانها البيضاء، والحمراء، والرخام المتنوع، وكل بقعة وجدت بين هذه الصخور الكثيفة أرضاً صالحة للزراعة استخدمت لإنتاج كل نوع من الثمار، وهكذا رأينا الروابي والجبال مغطاة بالكروم، وغراس أشجار الزيتون، وأشجار التين، والوديان مليئة بالقمح وبمنتجات الحداق.

٣- القدس. وادي شعفاط وجهنم. جبل البهجة (جبال الجودي). قبر شعفاط. وضع المدينة المقدسة. تحصيناتها. أبوابها. شوارعها. بيوتها. بركها. أخشابها.

تقوم مدينة القدس على ذروة هذه الجبال وهي محدودة بكل من شعفاط وجيرون، وتعد مدينة القدس هي الأقدس والأشهر بين المدن الأخرى والأماكن في جميع أنحاء العالم، وهي ليست مقدسة بنفسها، أو تقدست بنفسها، لكنها تقدست وتمجدت بحضور الرب نفسه فيها، وبحضور مولانا يسوع المسيح وبحضور أمه المقدسة، ولأنه وجدت فيها عقيدة، ودعوة، وشهادة الآباء، والأنبياء، والرسل والرجال المقدسين الآخرين، ومهما يكن من أمر هي مطوقة بشعاب جبلية أعلى منها نفسها، ثم إنها هي نفسها مدينة مرتفعة، لأنها مبنية فوق جبل، ومن هنا إنها تجذب أنظار الذين يتطلعون إليها من جميع الجبال التي تحيط بها، ويقوم الآن فيما بين جبل موريا، الذي يقع عليه هيكل الرب، وبين جبل

الزيتون، الذي ترتفع قمته فوق كل الجبال الأخرى، بركة قدرون، ووادي شعفاط، وهو وادي يبدأ من جبل البهجة (جبال الجودي)، ومن هناك يدخل الانسان إلى المدينة من الجانب الشمالي، فيمر بكنيسة القديسة مريم، التي حملت اسمها منها، ثم يمر بقبر شعفاط، ملك اليهودية، فمن موته نال هذا المكان اسمه، ثم يمر قريباً من بركة سلوان للاستحمام، حيث هناك واد آخر يلتقي به، ويعطف هذا الوادي مجراه من عند زاوية المدينة الجنوبية، فيجتاز البركة الجديدة القائمة فيما بين جبل صهيون وحقل الفاخوري، وبذلك يحتضن طرفين من أطراف المدينة بمجرى عميق جداً، ويقوم قبر شعفاط في وسط هذا الوادي، وهو مبني من حجارة مربعة على شكل هرم، ويوجد حوله عدد كبير من القاطنين من عبيد الرب، أو النساك، وكلهم تحت رعاية راعي دير القديسة مريم، هذا وأطول قسم من المدينة هو الممتد من الشمال إلى الجنوب والقسم الأعرض هو الممتد من الغرب إلى الشرق، وهي محصنة بأسوار وبحصن على قمة الجبل القائم فوق الوديان المتقدمة الذكر، وهناك حاجز أو خندق موجود خارج الأسوار، مزود بشرافات وفتحات رماية، يدعونها «حصن أمامي»، وللمدينة سبعة أبواب، يغلقون منها بإحكام ستة كل ليلة من حلول المساء حتى إشراق الشمس، والباب السابع مغلق بجدار، ويفتح فقط يوم أحد السعف، وفي يوم تمجيد الصليب، وللمدينة شكل المستطيل، ولها خمس زوايا، إحداهن عريضة، وشوارعها جميعاً مبلطة بالحجارة، وهي مقنطرة، مخروقة بكثير من النوافذ من أجل مرور الإضاءة، وترتفع البيوت بوساطة حجارة مصنعة بدقة وعناية، ولكنها لا تنتهي بسقف «جملوني» حسب طرائقنا، بل هي مستوية ومسطحة الشكل، ويتولى الناس جمع مياه الأمطار التي تتساقط عليهم، ويتولون تخزينها، بصهاريج لاستخداماتهم الذاتية، ولا يستخدمون ماء آخر، لأنه لا يوجد لديهم، والأخشاب صالحة للبناء وللنار، وهي نادرة هناك، لأن جبل لبنان هو الجبل الوحيد المليء بأشجار الأرز والسرو،

والصنوبر، وهذا الجبل بعيد عنهم، ولا يمكنهم الوصول إليه خوفاً من هجمات المسلمين .

٤- برج داود. جبل صهيون وجبل موريا. حقل الفاخوري. جبل جبعون. بيت بيلاطس. أنطونيا.

كان برج داود ملكاً للملك القدس، وهو متفوق الحصانة، حيث بني بحجارة مربعة ذات حجم هائل، وهو قائم قرب الباب الغربي، ومنه يقود الطريق إلى بيت لحم، وإلى جانبه ومعه القاعة الجديدة البناء والقصر الملاصق له، وهو محصن بشدة بخنادق وسواتر دفاعية، وهو قائم على جبل صهيون، ولهذا نقرأ في سفر الملوك «استولى داود الآن على صهيون»، وهو قائم متوضع في مواجهة هيكل الرب، في جزء المدينة الممتد جانبياً، حيث أن جبل صهيون موجود على اليسار، وجبل الزيتون في الشرق، ويمتد جبل صهيون من البرج حتى كنيسة القديسة مريم، لكن بدون الأسوار، ومن الكنيسة تقريباً حتى قصر سليمان، وإلى الطريق الذي يؤدي إلى الباب الجميل إلى البرج، وهو هنا أعرض، غير أنه أكثر انخفاضاً من جبل الزيتون، ومع أن جبل موريا المطل على وادي شعفاط، والذي يقوم عليه هيكل الرب وقصر سليمان، يمكن أن يظن أنه رابية عالية، مع هذا إن جبل صهيون أعلى منه بأكثر مما هو متصور، وكما قيل من قبل حتى أنه يطل على وادي شعفاط، ويوجد في حقل الفاخوري، المفصول عنه بوساطة الوادي المذكور، مقبرة الحجاج، وفيها تقوم كنيسة القديسة مريم، أي العذراء أم الرب، وفيها أيضاً دفن في يوم أحد سعف النخيل المقدس، أخانا المعروف باسم أدولف، وهو من أهالي كولون، ويطل على هذا الوادي جبل جبعون، الذي جرى عليه تنويع سليمان، وذلك حسبما نقرأ في سفر الملوك.

وفيما يتعلق بالأبنية الأخرى سواء العام منها أو الخاص، لم نستطع العثور على أي أثر، أو لنقل على قليل جداً، وذلك باستثناء بيت

بيلاطس، قرب كنيسة القديسة حنة، أم سيدتنا، وهي قائمة قرب بركة الضأن، ومن جميع الأبنية التي نخبرنا يوسفوس أنها بنيت من قبل هيرود، لم يبق الآن شيء منها، وهي جميعاً قد هدمت تماماً وذلك باستثناء جانب واحد ما يزال قائماً في القصر الذي عرف باسم أنطونيا، مع باب موجود في الخارج قرب باحة الهيكل.

٥ - كنيسة الضريح المقدس، وبداية البيعة التي فيها .

وهكذا إن المتبقي علينا هو وجوب الحديث عن الأماكن المقدسة، التي بسببها دعت المدينة نفسها بالمقدسة، ولقد رأينا أن علينا أن نبدأ مباشرة بقُدس الأقداس، أي أن ننطلق من الضريح المقدس للرب، وكنيسة الضريح هي أجمل بناء وأروع، ومعروف أنه تأسس من قبل الامبراطورة حنة، وبما أن الجدار الخارجي جاء على شكل الدائرة فقد جعل ذلك الكنيسة نفسها دائرية، ويحتل ضريح مولانا النقطة المركزية في الكنيسة، وشكله هو شكل البيعة التي بنيت فوق الضريح نفسه، وهو مزين بشكل جميل، ومغلف بالرخام، وشكله ليس شكل دائرة كاملة، بل ينطلق من محيط الدائرة جداران منخفضان باتجاه الشرق، ويلتقيان بجدار ثالث، وتحتوي هذه الجدران على ثلاثة أبواب، بعرض ثلاثة أقدام وبارتفاع سبعة أقدام، وينفتح واحد منها على الشمال، وآخر على الشرق، وآخر على الجانب الجنوبي، ويتم الدخول بوساطة الباب الشمالي، ويكون الخروج بوساطة الباب الجنوبي، أما الباب الشرقي فمفرد لاستخدام حراس الضريح.

ويوجد بين هذه الأبواب الصغيرة الثلاثة، والباب الرابع الذي يمضي منه الانسان إلى الضريح نفسه، مذبح، مع أنه صغير له قداسة عظيمة، فعليه - كما قيل - جرى تمديد جسد مولانا من قبل يوسف ونيقوديموس، زيادة على هذا، يوجد فوق الفتحة الفعلية لدخل هذا الضريح، القائمة خلف المذبح صورة هذين الرجلين نفسيهما مصنوعة من الفسيفساء وهما

يضعان جسد مولانا في القبر، مع مولاتنا أمه واقفة جانباً وكذلك المريمات الثلاث اللاتي نعرفهن معرفة جيدة من الانجيل، وذلك مع وعاء عطر، ومع ملك أيضاً، جالساً فوق الضريح، وهو يزيع الحجر قائلاً: «انظروا ها هو المكان الذي مددوه فيه، وبين الفتحة والضريح نفسه خط ممتد أخذ شكل شبه دائرة، تحتوي على هذين البيتين من الشعر:

«يشهد المكان والحارس على قيامة المسيح»

«وأقمشة الكتان، والملاك، والفداء»

وقد صورت هذه الأمور جميعاً ضمن عمل فسيفسائي رائع، وبهذا العمل جرى تزيين البيعة الصغيرة، ولكل واحد من هذه الأبواب بواب حريص، لا يسمح بدخول أقل من ستة رجال دفعة واحدة، وليس أكثر من اثني عشر رجلاً، ذلك أن المكان ضيق جداً ولا يمكنه استيعاب عدد أكبر، وبعد قيامهم بتعبدهم يرغمون على الخروج عبر باب آخر، ولا يمكن لإنسان أن يدخل إلى فتحة الضريح نفسه إلا زحفاً على الركب، وبعبوره للفتحة يجد أثمن الكنوز المرغوب بها، وأعني بذلك الضريح حيث تمدد مولانا يسوع المسيح — الأعظم نعمة — لمدة ثلاثة أيام، وهذا الضريح مزين بشكل رائع بوساطة الرخام الأبيض والذهب والحجارة الكريمة، ويوجد على الطرف ثلاث فتحات، يمنح فيها الحجاج المتشوقين جداً، قبلاتهم، إلى الصخرة نفسها التي تمدد عليها مولانا، والتي مساحتها قدمان ونصف القدم بالعرض، وطولها بمقدار ذراع رجل واحد من المرفق، وقدم واحدة أيضاً، والأرضية فيما بين الضريح نفسه والجدار واسعة بما فيه الكفاية لاستيعاب خمسة رجال يقومون بالصلاة وهم جاثين على ركبهم، ورؤوسهم معطوفة باتجاه الضريح، وهناك خارج هذا المبنى سلسلة مكونة من عشرة أعمدة، تشكل مع الأقواس التي تدعمها ساحة مستديرة مغلقة، وتحتها قاعدة

تحتوي على النقش المحفور التالي، المذهبة أحرفه: «قام المسيح من الموت، ولن يموت ثانية، وليس للموت سلطان عليه بعد الآن. لأنه في ذلك قد عاش، قد عاش مع الرب»، وعند رأسه الذي أدير باتجاه الغرب، يوجد مذبح مطوق بجدران فاصلة، وأبواب، ومزاليج من الحديد، مع شعرية من الخشب القبرصي، مزينة بمختلف الألوان، وبسقف من النوع نفسه، ومزين بالطريقة نفسها، وهو قائم فوق الجدران، وسقف العمل نفسه مكون من ألواح من النحاس المذهب، مع فتحة مستديرة في الوسط، يقف من حولها أعمدة صغيرة على شكل دائرة تحمل قناطر صغيرة فوقها، وهي تدعم سقفاً على شكل كأس، ويوجد فوق السقف نفسه صليب مذهب، وفوق الصليب حمالة مذهبة أيضاً، ويتشكل بين كل عمودين في الدائرة قوس، معلق في وسطه مصباح، وبالطريقة نفسها معلق أيضاً مصباحان بين كل من الأعمدة المنخفضة حول الدائرة كلها، وحول كل قوس من الأقواس المنخفضة، كتبت أشعار، بعضها فوق بعض الأقواس لم تكن قادرين على قراءتها، لأن لون الطلاء كان باهتاً، وكنا قادرين فقط على قراءة ستة بشكل واضح، وقد كتبت فوق ستة أقواس:

تمدد في هذا الضريح
الذي تولى صنع هذا العالم:
أنت يا من ترى ضريحه
أسرع لتكون
هيكلاً يلبي حاجتي.
حمل الرب بارك!
الآباء القدماء

متشوقون هنا في مرقدهم
إليه لرؤيته.

طلع في عفراتا Ephrata

عانى في الجلجلة

هو من فراشه الصخري

قاد أبانا آدم،

فرفعه عالياً

وقهر فنون الشيطان وألأعييه

وقال للقلوب الغارقة:

«انهضي، إنه أنا»!

وأيضاً حول الاطار الحديدي الذي - حسبنا قلنا من قبل - هو
موضوع عند رأس الضريح، والذي فوقه شعرية حجرية، يوجد مدرج
مكتوب عليه يحتوي الآيات التالية:

«إنه هنا تمّ نيل النصر على الموت

وبدأت الحياة من أجلنا

إلى الرب جرى تقديم الأضحية المرضية،

وسقطت الضحية،

وعن ذنوبنا عفي

وكانت هناك بهجة في السماء

وحزن وأسى في جهنم

ولقد انتهى العهد القديم
وأرسل الله عهداً جديداً
ونعلم من هذا، أيها المسيح، الذي نذف دمناً هنا،
أن الأرض هذه مقدسة، التي عليها نمشي»

٦ — الكنيسة أو المبنى المستدير نفسه

لقد تم رصف بلاط هذه الكنيسة بشكل جميل جداً، وقد رصف
بالخزف وبمختلف أنواع الرخام الملون، وتستند الكنيسة في الأسفل
وترتفع على ثمانية أعمدة مربعة، مما يدعى باسم سواري، وستة عشر
عموداً حجرياً مفرداً، لكن بما أنها مقنطرة في الأسفل والأعلى، هي
بالأعلى تشبه الكنيسة في أكس لاشايل، فهي مدعومة بالطريقة نفسها،
وهي مرفوعة على ثمانية سواري، وستة عشر عموداً، والاطار المحيط
بالكنيسة كلها، مغطى بنقوش كتابية بالأحرف الإغريقية، ويتلألاً وجه
الجدار القائم بين الاطار الوسطي والاطار الأعلى بفسيفساء لامثيل لها
بالجمال، ومن الممكن من هناك من أمام شرفة جوقة المرتلين، أي فوق
قوس المعبّد، رؤية جسد يسوع وقد صنع من الفسيفساء نفسها، لكن
ذلك صناعة قديمة، وقد رسم بألوان براقّة، وذلك حتى السرة، مع وجه
هو الأكثر جمالاً، وقد وقفت إلى يساره أمه، وإلى يمينه جبرائيل رئيس
الملائكة، وهو يتفوه بالتحية المعروفة جداً: «سلام يا مريم، المليئة بالنعمة،
الرب معك، باركك بين النساء، وبارك ثمرة رحمك»، وقد كتبت هذه
التحية في كل من اللاتينية والإغريقية حول المولى المسيح نفسه، ويوجد
بعد هذا، على طرف اليمين الحواريون الاثنى عشر، وقد جرى رسمهم في
وصف متسلسل في الفسيفساء نفسها، وقد رفع كل منهم يديه شكراً
للمسيح بكلمات تشير إلى الأسرار المقدسة، وفي وسطهم، وفي موضع
خاص مجوف قليلاً داخل الجدار، جلس في أبهة ملكية الامبراطور

قسطنطين، وهو يرتدي اللباس الملكي Trabea، ذلك أنه هو ووالدته حنة قد أسسا الكنيسة، وهناك أيضاً خلف الرسل رئيس الملائكة ميكايل وهو يتلألاً بأشعة رائعة، ويتبع هذا على اليسار صف فيه ثلاثة عشر نبياً، كلهم قد أداروا وجوههم نحو الطفل الجميل، وتوجهوا إليه بالخطاب بكل احترام، حاملين في أيديهم نبواتهم التي أوحى لهم بها في القديم، وجلست في وسطهم الامبراطورة حنة المباركة، في مقابل ابنها، وهي تتلألاً بشكل مجيد، ويرسو فوق الجدار نفسه سقف من الرصاص، مستند على عوارض خشبية قبرصية مائلة، وفي وسط هذا السقف فتحة دائرية كبيرة، يدخل من خلالها الضوء من الأعلى، وينير الكنيسة كلها، لأنها لا تمتلك نافذة أخرى مهما كان نوعها.

٧- شرفة جوقة الرهبان النظاميين

زيادة على هذا، هناك إلى جوار هذه الكنيسة، معبد، أو قدس الأقداس، وهو عمل فني رائع، وقد بني بالتتابع من قبل الفرنجة، الذين يغنون هناك بشكل جميل جداً أغان الشكر والمدح، في خلال كل من النهار والليل، أو أن تقول خلال الساعات النظامية، وفقاً لطريقة العذراء مريم، وفي أيديهم أوقاف كنسية، ومخصص لهم نصف التقديمات إلى الضريح المقدس بمثابة دخل، بينما جرى تخصيص النصف الآخر لاستخدامات البطريرك، وجرى تكريس المذبح العلوي على اسم مولانا ومخلصنا وعلى شرفه، ويوجد خلفه كرسي البطريرك، الذي علّق فوقه من قوس المعبد، صورة كبيرة مزينة لسيدتنا، وصورة للقديس يوحنا المعمدان، وصورة ثلاثة لجبرائيل المقدس الذي كان إشبينها، وجرى في السقف الداخلي تمثيل مولانا يسوع المسيح، وهو ممسك صليبه بشماله، وحامل آدم يمينه، وهو ينظر بأبهة ملكية نحو السماء، وقد رُفعت قدمه اليسرى في خطوة هائلة، بينما ظلت قدمه اليمنى مستندة على الأرض، وقد فعل ذلك وهو يدخل إلى السماء، وتبع هذا وقوف أمه، والقديس

يوحنا المعمدان وجميع الرسل من حوله، ويوجد تحت قدمه مدرج مكتوب عليه، وهو ممتد عبر القوس كله من طرف جدار إلى الطرف الآخر، وهو يحتوي على النقش التالي:

«إحمده وهو الذي صلب بالجسد،

ومجّده وهو الذي دفن من أجلنا،

اعبدته فهو الذي قام من الموت.»

ويوجد خلف هذا مدرج مكتوب أعلى امتد عبر القوس نفسه، وقد نقش عليه مقطع من الكتابات المقدسة هو التالي: «صعد المسيح إلى الأعلى، وقاد معه جسداً أسيراً، وأعطى أعطيات إلى الناس» (المزامير: ٦٨ / ١٨)، وهناك في حوالي وسط شرفة الجوقة مذبح صغير مفتوح، له قداسة عظيمة، ورسم على البلاط هناك صليب، نقش داخل دائرة، وفي هذا إشارة وتنبية على أنه على هذه البقعة مدد يوسف ونيقوديموس جسد ربنا، من أجل غسله بعد إنزاله من على الصليب، ويوجد قبل باب شرفة جوقة المرتلين مذبح له حجم ليس صغيراً، وهو على كل حال يستخدم من قبل السريان في طقوسهم، وعندما كانت تنتهي طقوس اللاتين اليومية، اعتاد السريان على إنشاد تراتيلهم إما خارج شرفة جوقة المرتلين أو في واحد من أركان الكنيسة، وفي الحقيقة لديهم في الكنيسة عدد من المذابح الصغيرة، معدّة ومكرسة لاستخداماتهم الخاصة، وهناك طوائف دينية تمارس طقوسها الدينية في الكنيسة في القدس هي: اللاتين، والأرمن، والإغريق، واليعاقبة، والنوبيين، وتختلف هذه الطوائف عن بعضها بعضاً في كل من اللغة، وفي طريقة أداء الطقوس المقدسة، ويستخدم اليعاقبة البوق في أيام أعيادهم، وذلك وفق طرائق اليهود.

٨ — النار المقدسة

جرت العادة في كنيسة الضريح المقدس، أي في كل من الكنيسة نفسها وجميع الكنائس في المدينة، أنهم كانوا يقومون في صباح ليلة الفصح باطفاء جميع المصابيح الدنيوية، ويقومون بانتظار قدوم الضوء من السماء، ويعدون لتلقي هذا الضوء واحداً من المصابيح الفضية، التي جرى تعليق سبعة منها، استعداداً لذلك، ثم يقف جميع رجال الدين والشعب ينتظرون بقلق عظيم وتوقعات كبيرة، حتى يرسل الرب يده نحو الأسفل من الأعلى، وغالباً ما يكون هناك بين الصلوات صرخات بصوت مرتفع، لكن ليست بدون دموع فيها: «أعنا يارب» و«أعيننا أيها الضريح المقدس»، ويحمل في تلك الأثناء البطريك، أو واحد من الأساقفة الآخرين، الذين احتشدوا هناك لاستقبال النار المقدسة، ومعهم بقية رجال الدين، صليباً فيه قطعة كبيرة من صليب مولانا قد أدخلت فيه، وذلك مع آثار مقدسة أخرى للقديسين، الذين غالباً ما يزورون الضريح المقدس للصلاة هناك، ويقومون أيضاً بانتظار هل أرسل الرب نور نعمته إلى الوعاء المعد لاستقباله، واعتادت النار على الظهور في ساعات محددة وفي أماكن معينة، وكانت تظهر في بعض الأحيان في حوالي الساعة الأولى، وأحياناً أخرى في حوالي الساعة الثالثة، أو السادسة، أو التاسعة، أو أنها قد تتأخر حتى آخر ساعات القداس، زد على هذا أنها كانت تأتي أحياناً إلى الضريح نفسه، أو إلى هيكل الرب، وأحياناً إلى كنيسة القديس يوحنا، وعلى كل حال عندما كنا نحن العبيد الحقرء ننتظر النار المقدسة مع الحجاج الآخرين، وصلت تلك النار المقدسة بعد الساعة التاسعة مباشرة، وعلى الفور قرعت النواقيس في الكنائس، وبدأت طقوس القداسات تحكى في المدينة كلها، وكانت طقوس التعميد والطقوس الأخرى قد جرى الاحتفال بها من قبل، وما أن وصلت النار المقدسة حتى نقلت إلى هيكل الرب، كما جرت العادة، وذلك قبل نقلها إلى أي مكان آخر، باستثناء أن البطريك أشعل شمعته منها.

٩- بيعة القديسة مريم والصليب المقدس. سجن الرب. مذبح القديس نيقولا. الباب الذي يؤدي إلى الدير.

ويوجد على الجانب الغربي من الكنيسة، قرب الباب، الذي يصعد منه الانسان أكثر من ثلاثين درجة من الكنيسة إلى الشارع، وفي مواجهة الباب نفسه، بيعة مكرسة للقديسة مريم، وهي ملك للأرمن، كما ويوجد على الجانب الأيسر من الكنيسة، باتجاه الشمال، بيعة مكرسة للصليب المقدس، وفيها جزء كبير من الخشبة المبجلة نفسها، محفوظة في وعاء من الذهب والفضة، وهذه البيعة بأيدي السريان، ومجدداً، هناك على الطرف نفسه، مقابل هذه البيعة، باتجاه الشرق، بيعة ذات قداسة خاصة، حيث فيها المذبح الأكثر قداسة، والمكرس للصليب المقدس، وقطعة كبيرة من الخشبة المقدسة نفسها مغطاة بالذهب والفضة والجواهر، ومحفوظة في وعاء هو الأجل، ومن الممكن رؤيتها بسهولة، ولدى مقتضيات الحاجة اعتاد الصليبيون على حمل هذا الرمز المقدس ضد المسلمين في المعارك، وهذه البيعة مزينة أيضاً بشكل رائع بالفسيفساء، وكان امبراطور الرومان هرقل قد أنقذ هذا الصليب واسترده من كسرى، امبراطور الفرس، أثناء الحرب التي استعرت ضده، وأعادته إلى المسيحيين، وقرب هذه البيعة وعلى الجانب الشرقي منها، يدخل الانسان إلى بيعة مظلمة، وبوساطة حوالي العشرين خطوة، حيث فيها المذبح الأكثر قداسة، ومن الممكن أن يرى تحت البلاط علامة صليب، ويقال بأن مولانا يسوع المسيح قد سجن في هذا المكان، وقد انتظر في هذا المكان بيلاطس في موضع آلامه لمدة طويلة، حتى تمت تغطية وجهه، وأقيم الصليب ونصب فوق الجمجمة، وصار من الممكن تعليقه عليه، ويوجد أيضاً خلف هذه البيعة مذبح مكرس للقديس نيقولا، وخلف هذا هناك باب الدير، الذي منه يدخل الانسان إلى دير الرهبان النظاميين، القائم قريباً من هناك حول المعبد، وبعدما يدور الانسان حول الدير، ويعاود الدخول

إلى الكنيسة من الجانب الآخر لهذا الباب، يلاحظ وجود صورة للمسيح على الصليب، مرسومة فوق الباب العائد للدير، وهي تلمع بشكل أخاذ، وتجعل الناظر إليها يشعر بالأسى العظيم، وقد كتب حول هذه الصورة الأبيات التالية:

«أنت يا من مضيت في هذا الطريق،

أنت قد سببت لي حزناً عظيماً،

أنا عانيت هذا من أجلك،

ومن أجلي تحاشى الآثام»

١٠ — بيعة القديسة حنة. القبر الذي عثر فيه على الصليب.

وينزل الانسان باتجاه الشرق ثلاثين درجة، لابل أكثر، إلى بيعة القديسة الامبراطورة حنة المبجلة، التي هي قائمة خارج الكنيسة نفسها، حيث هناك مذبح مقدس مكرس لها، وثانية ينزل الانسان من جهة اليمين خمس عشرة درجة أو بالحري أكثر من ذلك إلى كهف تحت الأرض، وعلى الجانب الأيمن من هذا الكهف يمكن للانسان أن يرى مذبحاً مفتوحاً، وتحتة صليب محفور على البلاط، ويحكى أن الامبراطورة عثرت في هذه البقعة على صليب مولانا، وهناك صليب مذبح للقديس جيمس، وليس لهذه البيعة من نافذة غير الفتحة الكبرى الموجودة في سقفها.

١١ — بيعة الجلد. قبر الدوق غودفري وقبور ملوك القدس. البيعة تحت برج الناقوس. بيعة القديس يوحنا المعمدان وأحوازها.

هناك في جزء آخر من الكنيسة، أي في الجهة اليمنى، في خلف شرفة الجوقة مذبح لطيف، وذلك حيث يقوم العمود الذي ربط إليه مولانا

وجلد، ومن الممكن رؤية خمسة قبور، خلف هذا في الجنوب، قبل باب الكنيسة، وأحد هذه القبور هو الأقرب إلى الباب، وهو مصنوع من رخام أبيض وعمل فني ثمين، وهو قبر أخي ملك القدس، واسمه بلدوين، والقبر الثاني هو قبر الملك بلدوين أخي الدوق غودفري، ويوجد عليه نقشت الكتابة التالية:

«يرقد هنا بلدوين، الذي هو يهوذا المكابي الثاني،

أمل بلاده، وفخر الكنيسة وقوتها، هو كان،

الأرز ومصر، ودان، ودمشق المتغطرة،

خافت قدرته، وإليه بذل أرسلت الهدايا والجزية.

آه، في يوم من الأيام، تمدد تحت هذه الأبدية الفقيرة».

والقبر الثالث الواقع خلف هذا، هو قبر أخيه الدوق غودفري نفسه، الذي تمكن بسيفه وبحكمته من استرداد مدينة القدس، التي كانت قد غزيت من قبل المسلمين ومن قبل الترك، وأعادها إلى الصليبيين، وأعاد إلى عرشه البطريرك، الذي كان قد طرد من قبل المسلمين، ووضع مجموعة من رجال الدين في الكنيسة، وأعطاهم منحا مقرر حتى يكونوا أقوياء، ويقاتلوا في سبيل الرب، والقبر الرابع هو قبر والد عموري، الملك الحاكم الآن، والخامس هو قبر رئيسة وراعية دير القديس (لازاروس) لعازر.

ويوجد في الجنوب باب، يدخل الانسان من خلاله إلى البيعة القائمة تحت برج الناقوس، ومنها يجتاز الانسان إلى بيعة أخرى ذات قداسة عظيمة مكرسة ليوحنا المعمدان، وهناك أيضاً جرن للمعمودية، ومن هناك يذهب الانسان أيضاً مرة ثانية إلى البيعة الثالثة، ويصعد الانسان من البيعة الأولى إلى الشارع بواسطة أربعين درجة أو أكثر.

١٢ — جبل أكرأ. الدهليز الخارجي أمام الجلجلة. بيعة الصلب.
بيعة الجلجلة باب الكنيسة.

بقي علينا أن نتحدث الآن عن جبل أكرأ (الجمجمة)، التي يتلأأ في الكنيسة مثلما تتلأأ العينان في الرأس، فمن هناك سوف يتدفق النور والحياة الأبدية علينا، من خلال موت وسفك دماء ابن الرب، وقبل المدخل، أو باب الكنيسة، المغطى ببرونز قوي، والذي شكله مضاعف، يصعد الانسان بوساطة خمس عشرة درجة إلى حجرة صغيرة لها سياج ومزينة بالصور، ويقف عند رأس السلم حرس يحرسون الباب، ويسمحون للعدد الذي يريدونه من الحجاج بالدخول، خشية أن يحدث بالضغط الشديد — كما حدث مراراً هناك — دهس أو خطر على الحياة، ويصعد الانسان من ذلك الدهليز إلى بيعة ذات مكانة رفيعة جداً بالقداسة، ذلك أنها أقدس مكان تحت الشمس، وهذه البيعة مكونة بوساطة أربعة أقواس لها قوة عظيمة، وهي مبلطة ببلاط جميل، مكون من مختلف أنواع الرخام، وقبتها من الداخل، أو سقفها، مزين بشكل بديع بصور الأنبياء، مثل داود، وسليمان، وأشعيا، وآخرين، وهم يحملون في أيديهم نصوصاً تشير إلى آلام المسيح، وقد مثلت هناك على الفسيفساء بشكل فائق الجمال، حتى أنه لا يوجد عمل يمكن أن يقارن به تحت قبة السماء، فقط بشرط إمكان رؤيته بوضوح، لأن هذا المكان مظلم بعض الشيء بالبناء المقام من حوله، والمكان الذي نصب عليه الصليب الذي عانى المخلص عليه الموت، موجود على الجانب الشرقي، وهو الآن مرفوع فوق درجة عالية، مغطاة من جانب اليسار بأجمل أنواع الرخام، وظاهر هناك دائرة واسعة بما فيه الكفاية لتستوعب رأس إنسان، ذلك أنه من المعروف بأن الصليب نفسه قد أثبت هناك، ويرغب الحجاج صدوراً عن حبهم واحترامهم الذي يحملونه للذي صلب هناك، في إدخال رؤوسهم ووجوههم في تلك الفتحة، ويوجد في جهة اليمين جبل

أكرا نفسه، وهو أكثر ارتفاعاً ويشكل شعباً جبلياً طويلاً وعريضاً وعميقاً في طرفه، لأن الصخور قد تفتت عندما مات المسيح، وتصدعت وانفتحت من الأعلى ومن الأمام مشكلة جرفاً مخيفاً، وبهذا تبرهن أن الدم الذي تدفق من طرف المسيح، وهو معلق فوق الصليب قد وجد طريقه تماماً إلى الأرض، ومن عادة الحجاج، نصب الصليبان التي يحملونها معهم من بلدانهم، على قمة هذه الصخرة، وقد رأينا كميات كبيرة منهم هناك، وقد اعتاد حراس الجمجمة على إحراقهم بالنار عشية عيد الفصح، ويوجد في تلك البيعة مذبح له قداسة كبيرة، حيث يحتفل بجميع القداسات عليه يوم الجمعة الحزينة، ويتولى ذلك البطريك وجميع رجال الدين، وهناك على الجدار على الجانب الأيسر من المذبح صورة جميلة جداً لمولانا وهو على الصليب، ولوجينوس واقف إلى يمينه وهو يطعن طرفه برمح، ووقف إلى يساره ستيفتون وهو يقدم له خلاً، واسفنجة وقصبة، وأمه واقفة على يساره، والقديس يوحنا على يمينه، وهناك في الوقت نفسه لوحان عظيمان غطيا كلياً بكتابة نقشت بالاغريقية، وهذان اللوحان يحيطان بالصخرة كلها .

وعلى طرف اليمين للمذبح نفسه يوجد أيضاً صورة تظهر نيقوديموس ويوسف وهما ينزلان المسيح الميت من على الصليب، ونقش هناك أيضاً مايلي: «إنزال مولانا يسوع المسيح من على الصليب»، وينزل الانسان خمس عشرة درجة إلى الكنيسة، فيصل إلى البيعة المسماة «الجلجلة»، وهي ذات قداسة عظيمة، لكنها مظلمة جداً، ويوجد في ظهرها حفرة عميقة يمكن منها للمتطلعين هناك رؤية نهاية جرف الصخرة المنحدر من أكرا، ويقال بأن دم المسيح قد وقف في ذلك المكان بعدما جرى نحو الأسفل إلى هناك من خلال الصدع، زيادة على هذا يوجد فوق القوس الذي يشكل حد الجلجلة، أو بكلمة أخرى: فوق الطرف الغربي من أكرا، صورة مرسومة فوق الجدار، فيها يمكن رؤية

هذه الأبيات المكتوبة بأحرف ذهبية:

«تقدس هذا المكان من قبل بدم المسيح،
وتكريسنا له لا يمكن أن يجعله أكثر قداسة
وتاريخ تكريس هذه الأبنية حول هذه الصخرة
هو الخامس عشر من تموز، وجرى تكريسه
من قبل البطريرك فولتشر في وضع مهيب»

ويقف خارج باب هذه الكنيسة، في الفراغ ما بين البابين مولانا
المسيح في ثوب لاهوتي، وكأنه قد قام الآن من الموت، بينما تمددت مريم
المجدلية ساجدة عند قدميه، لكن دون أن تلمسها، ويحمل الرب
باتجاهها مدرج يحتوي على هذين البيتين:

«لماذا أيتها المرأة تبكين، ولماذا تبحثن أمام الذي يتغي الموت؟
لاتلمسيني، انتبهي أنني وأنا حي جدير بأن أعبد».

١٣ — بيعة المريمات الثلاث. بيعة الأرمن. بيعة صغيرة أخرى.
الشارع والسوق. كنيسة ومشفى القديس يوحنا المعمدان. كنيسة
القديسة مريم الكبرى. كنيسة القديسة مريم اللاتينية.

ولدى خروج الانسان من الكنيسة باتجاه الجنوب، يجد نوعاً من أنواع
الساحات المربعة مبلطة بحجارة مربعة، وعلى الجانب الأيسر منها، الذي
هو قرب الجلجلة، في الجانب الخارجي، هناك بيعة مكرسة للمريمات
الثلاث، وهي ملك لللاتين، ويوجد بعد مسافة منها باتجاه الجنوب بيعة
أخرى هي بأيدي الأرمن، وبعدها بقليل أيضاً هناك بيعة أخرى صغيرة،
وعندما يخرج الانسان من هذه الساحة المكشوفة، يوجد على اليسار
شارع مقنطر مليء بالبضائع للبيع، ويوجد في مقابل الكنيسة موضع

السوق ويقف هنا أمام الكنيسة ستة أعمدة، مع أقواس عليهم، وهناك على الجانب الجنوبي من الكنيسة، تقوم كنيسة ومشفى القديس يوحنا المعمدان، وبالنسبة لهذه الكنيسة ما من إنسان يمكنه أن يتحدث بشكل موثوق إلى إنسان آخر، ويخبره كم هي جميلة بناؤها، وكم هي مزودة بعدد وافر من الغرف والأسرة والمواد الأخرى لاستخدامات الفقراء والمرضى من الناس، وكم هي غنية بوسائل انعاش الفقراء، وكم هي منصرفه للعمل للحفاظ على المحتاج وبالفعل لا يمكنه القيام بذلك ما لم تنهياً له الفرصة ليراهها بأمر عينيه، وفي الحقيقة مررنا بهذا المكان، ولم نكن قادرين بأية وسيلة من الوسائل من اكتشاف عدد الناس المرضى الذين كانوا ممتددين هناك، لكن رأينا أن عدد الأسرة كان أكثر من ألف سرير، وليس هذا بقدره أي إنسان، بل إن أقوى الملوك والأباطرة هم وحدهم فقط الذين بإمكانهم رعاية هذا العدد الكبير من الناس، كما يفعل هذا البيت كل يوم، ثم إنه لا عجب، أن الاستبائية بالاضافة لامتلاكهم بيوتاً في البلدان الأخرى (التي من غير الهين معرفة عددها الإجمالي) قاموا مع الداوية بالاستيلاء على جميع المدن والقرى تقريباً التي هي تابعة لليهودية، والتي كانت قد دمرت من قبل فسيبيان وتيتوس، وذلك مع جميع أراضيها وكرومها، ولديهم قوات متمركزة خلال المنطقة كلها، والقلاع هناك محصنة بشكل جيد ضد المسلمين، وبعد هذه إلى الشرق من موقف الإنسان هناك، يأتي إلى كنيسة القديسة مريم، التي فيها راهبات تحت إدارة راعية دير، وهي لها شهرتها الواسعة للقداوات اللاهوتية يومياً، ويقال بأن هذا المكان قد كرس للقديسة مريم، بسبب أن مولانا عندما كان تحت العذاب وهو على طريق الآله، كانت محبوسة في داخل حجرة كانت آنذاك موجودة في تلك البقعة وذلك بناء على أوامره، زيادة على هذا يليها كنيسة أخرى ملاصقة لها وإلى الشرق منها، أيضاً مكرسة لسيدتنا، لأنه بينما كان مولانا يعاني من الآلام من أجل خلاصنا، أغمي عليها من شدة حزننا، وحملت على أيدي الرجال من

هناك إلى قبو تحت الأرض هناك، حيث أنها من حزنها وآلامها نزعته شعرها من رأسها، وهذا الشعر ما يزال محفوظاً حتى هذا اليوم في وعاء زجاجي في تلك الكنيسة، ويوجد في هذه الكنيسة أيضاً رأس القديس فيليب الرسول، وهو مزين بشكل بهي بالذهب، وهناك كذلك ذراع القديس سمعان الرسول، وذراع القديس سيريان Cyprian ، الأسقف، وفي هذه الكنيسة رهبان تحت حكم وسلطان راعي دير.

١٤ — هيكل الرب: الصحن، السلام. الكهف تحت الأرض.
البركة الكبيرة. البيوت. الحدائق. مدرسة القديسة مريم.
الصخرة الكبيرة. الدير والأبنية الديرية لرجال الدين. والبرك الأخرى.

وينعطف الانسان من هناك قليلاً نحو الجنوب عبر الشارع فيجد نفسه داخل الباب الجميل لمعبد الرب، وهو عبر حوالي وسط المدينة، ويصعد الانسان من هناك الساحة المنخفضة إلى الساحة العلوية بواسطة اثنتين وعشرين درجة، ويدخل الانسان من الساحة العلوية إلى المعبد، ويوجد أمام هذه الدرجات نفسها في الساحة السفلى خمس وعشرون درجة أو أكثر تقود نزولاً إلى بركة كبيرة، وقد قيل يوجد من هناك ممر تحت الأرض يوصل إلى كنيسة الضريح المقدس، ومن خلال هذا الممر يقال بأن النار المقدسة، التي تشتعل بشكل إعجازي في تلك الكنيسة عشية عيد الفصح، تنقل من تحت الأرض إلى هيكل الرب، ويجري في هذه البركة غسل الضحايا التي تقدم إلى معبد الرب تبعاً لمبادئ القانون، والساحة الخارجية تبلغ بالحجم ضعف مساحة الساحة الداخلية، أو أكثر، والساحة الداخلية مثلها مثل الساحة الخارجية مبلطة بحجارة عريضة وكبيرة، وطرفان من الساحة الخارجية ما يزالان موجودان حتى هذا اليوم، وجرى أخذ الطرفين الآخرين لاستخدام الرهبان والداوية، الذين بنوا بيوتاً وزرعوا حدائق عليهما، وفي الجهة الغربية

يصعد الانسان إلى الساحة العليا بواسطة سلسلتين من السلام، وكذلك الحال نفسه في الجهة الجنوبية، ويوجد فوق الدرجات التي تقوم البركة أمامهن، ويقوم أربعة أعمدة، فوقهم قناطر، وهناك أيضاً ضريح لرجل غني، محاط بسياج حديدي ومغطى بالمرمر بشكل جميل، ويوجد في جهة اليمين أيضاً، فوق الدرجات في الجهة الجنوبية، أربعة أعمدة مشابهة، وفي جهة اليسار ثلاثة، ويوجد في الجهة الشرقية أيضاً خمس عشرة درجة مزدوجة، يصعد الانسان بواسطتها إلى المعبد من خلال البوابة الذهبية، وتبعاً لهذا العدد يقوم الذين ينشدون المزامير بنظم خمسة عشر مزموراً، ويقف فوق هذه الدرجات أيضاً أعمدة، وإلى جانب هذا، وفي الجهة الجنوبية، فوق زاويتي الساحة الداخلية، يقوم مبنيان صغيران، وقد قيل بأن الذي هو باتجاه الغرب يضم مدرسة العذراء المباركة، ويوجد بين المعبد وبين طرفي الساحة الخارجية — أي بين الطرف الشرقي وبين الطرف الجنوبي — صخرة كبيرة، على شكل مذبح، هي تبعاً لبعض التقاليد فم بعض البرك التي وجدت هناك، وهي أيضاً تبعاً لبعض معتقدات الآخرين، تشير إلى المكان الذي قتل فيه زكريا بن إبراهيم، ويوجد على الجانب الشمالي دير وأبنية ديرية لرجال الدين، كما وهناك حوالي المعبد نفسه برك كبيرة للماء تحت البلاط، ويوجد بين البوابة الذهبية والدرجات الخمس عشرة صهريج ماء قديم مهدم، فيه كانت في العصور القديمة يجري غسل الضحايا قبل تقديمها.

١٥ — وصف الهيكل: المكان الذي عرض فيه المسيح، والمكان الذي رأى فيه يعقوب السلم.

من الواضح أن الهيكل نفسه له شكل ثنائي في جزئه السفلي، وهذا الجزء السفلي مزين حتى الوسط برخام رائع جداً، ومن الوسط حتى إطار النهاية القصوى، أي إلى حدود استناد السقف، مزين بأجمل أنواع أعمال الفسيفساء، ويوجد حول هذا الاطار الذي يمتد حول دائرة المعبد

كله، النقش التالي، وهو يبدأ من الواجهة، أو من الباب الغربي، ومن المتوجب قراءته شروعاً من اتجاه الشمس كما يلي:

في الواجهة: «سلام دائم على هذا البيت، من الأب الدائم»، وعلى الجانب الثاني: «معبد الرب مقدس، الرب يرعاه، وهو الذي قدسه»، وعلى الجانب الثالث: «هذا هو معبد الرب، مبني بثبات»، وعلى الجانب الرابع: «في معبد الرب رجال سوف يتحدثون عن مجده»، وعلى الجانب الخامس: «مبارك مجد الرب من مكانه المقدس»، وعلى الجانب السادس: «بورك في الذين يقطنون في بيتك يارب»، وعلى الجانب السابع: «صدقا الرب في مكانه المقدس هذا، وهذا مالا أعرفه»، وعلى الجانب الثامن: «بني بيت الرب بشكل جيد على صخرة ثابتة»، وإلى جانب هذا يوجد على الجانب الشرقي في مواجهة كنيسة القديس جيمس عمود ممثل في الجدار بعمل فسيفساء، جاء عليه النقش التالي: «العمود الروماني»، ويشكل الجدار الأعلى دائرة ضيقة، تقوم على أقواس داخل البناء، وهي تسند سقفاً من الرصاص، هناك على ذروته كرة كبيرة فوقها صليب مذهب، وهناك أربعة أبواب تقود إلى داخل البناء وإلى خارجه، ويتجه كل باب نحو ربع من أربعة أرباع العالم، وتستند الكنيسة على ثمانية أجزاء مربعة، وستة عشر عموداً، وقد زينت جدرانها وسقفها الداخلي بالفسيفساء بشكل رائع، وتحتوي دائرة شرفة جوقة المرتلين على أربعة أعمدة أساسية، أو دعائم، وعلى ثمانية أعمدة تدعم الجدار الداخلي، مع سقفه الجملوني المرتفع، وفوق أقواس شرفة جوقة المرتلين نقش مكتوب يمتد حول البناء كله، يحمل النص التالي: «سوف يدعى بيتي بيت الصلاة» فهكذا قال الرب، «من سأل فيه شيئاً تلقاه، ومن نشد أمراً وجدته، ومن يقرع على بابه، سوف يفتح له، اسأل ولسوف تتلق، وانشد ولسوف تجد»، وفي الدائرة العليا هناك نقش مماثل موضوع حول البناء وفيه النص التالي: «فالتفت إلى صلاة عبدك وإلى تضرعه أيها الرب إلهي

واسمع الصراخ والصلاة التي يصلّيها عبدك أمامك اليوم. لتكن عيناك مفتوحتين على هذا البيت ليلاً ونهاراً على الموضع الذي قلت إن اسمي يكون فيه لتسمع الصلاة التي يصلّيها عبدك في هذا الموضع..... واسمع أنت في موضع سكنك في السماء» (الملوك: ٢٨/٨/١).

وعند المدخل إلى شرفة جوقة المنشدين، هناك مذبح مكرس للقديس نيقولا، وهو محاط بآطار حديدي، ويوجد على الحافة العليا النقش التالي، أولاً في الواجهة: «في سنة ١١٠١، في الخمسة عشرية الرابعة، وفي ١١ من الجبيرة Epact»، وعلى الجانب الأيسر: «من سنة ٦٣ من الاستيلاء على طرابلس على القدس»، وعلى الجانب اليميني «من سنة ٥٢ من الاستيلاء على طرابلس، و٥١ سنة من الاستيلاء على بيروت، و١١ سنة من الاستيلاء على عسقلان».

زيادة على هذا، هناك مكان، باتجاه الشرق على صف طرف شرفة جوقة المغنين، محاط بسياج حديدي مع أبواب، وهو جدير بالاحترام العظيم، حيث يعتقد أن هناك جرى تقديم مولانا يسوع المسيح، من قبل والديه، عندما جلب إلى الهيكل مع مقدمة، وكان ذلك بعد أربعين يوماً من ولادته، وكان قد أخذه سمعان الشيخ عند المدخل، وحمله على ذراعيه إلى مكان المقدمة، ويوجد في واجهة هذا المكان البيتان التاليان:

«ابن العذراء، ملك الملوك، قدّم هنا

ولهذا زينا هذا المكان بالهدايا وبالتبجيل».

وقريب من هذا المكان، وعلى مسافة غلوة تقريبا، توجد الحجرة التي وضعها البطريك يعقوب تحت رأسه، وعليها نام عندما رأى سلماً يصل إلى السماء، كانت الملائكة تنزل عليه وتصعد فقال: «حقاً الرب هنا في هذا المكان، وأنا لست أدري»، وفي واجهة هذا المكان البيتان التاليان:

«يعقوب مع جسم مستريح، لكن مع عقل مستيقظ

هنا رأى السلم، وهنا أقام مذبحه»

١٦ — بيعة القديس جيمس خارج الهيكل. المكان الذي سئل فيه مولانا عن وسط العالم. المكان الذي رأى فيه حزقيال الماء. السرداب الموجود تحت السدة. النوافذ. المذبح العالي. تاريخ (الهيكل).

ويدخل الانسان من هناك من خلال الباب الشرقي إلى بيعة القديس جيمس الرسول أخي ربنا، الذي كان قد قتل من قبل اليهود الفجار، حيث رمي من أعلى الهيكل، وحطمت ججمته بوساطة عصا القصار، وقد دفن أولاً في وادي شعفاط قرب الهيكل، ثم نقل إلى ها هنا فيما بعد من قبل المؤمنين، بكل تشریف يليق به، ووضع داخل ضريح، كتب فوقه النقش التالي:

«قل أيها الصخر والقبر، هل وجدت عظام الملك مكاناً لها هنا؟»

القديس جيمس العادل: يرقد في داخل هذا القبر»

وهذه البيعة مستديرة في نفسها، وهي واسعة في الأسفل، وضيقة بالأعلى، وهي مدعومة بوساطة ثمانية أعمدة، ومزينة بشكل رائع باللوحات المرسومة، وعندما نعود منها بالطريق نفسه، يوجد على جهة اليسار، خلف عضادة الباب، مكان طوله خمسة أقدام وكذلك عرضه، فهناك وقف ربنا عندما سئل في أي مكان كان هو من القدس، حيث أكدوا بأنه موجود في وسط العالم، وقد أجابهم: «يدعى هذا المكان القدس»، ويوجد أيضاً خلف الباب نفسه في الجهة المقابلة لمشهد المكان المتقدم الذكر، وعلى الزاوية الشمالية، مكان آخر يحتوي على المياه التي رآها النبي حزقيال تتدفق نازلة من تحت الهيكل، على جهة اليمين، وفي طريق عودتنا إلى الكنيسة الكبرى، هناك في جهة الجنوب قرب السدة، لابل في الحقيقة تحت السدة، باب، يدخل الانسان من خلاله بعد نزوله

خمساً وأربعين درجة، إلى السرداب إلى حيث كان الكتاب والفريسيون قد جلبوا امرأة، أخذت لممارستها البغاء، إلى المولى يسوع واتهموها، وقد عفا المعلم المقدس عن ذنوبها وحللها منها، وفي ذكرى لهذا سمح للحجاج بالنزول إلى هذا المكان، وللكنيسة في دورها الأدنى ست وثلاثين نافذة، وفي دورها الأعلى أربع عشرة، وهم إذا ما جمعوا مع بعض يصبح تعدادهم خمسين، وهي مكرسة لمولاتنا القديسة مريم، ولها أيضاً مكرس المذبح العلوي، ويقال بأن الكنيسة نفسها قد بنيت من قبل الامبراطورة القديسة حنة، وابنها الامبراطور قسطنطين.

ودعونا نستعرض الآن ونقوم بتفحص كم مرة بني الهيكل ومن قبل من، وأيضاً كم من المرات قد هدم ومن قبل من، وحسبنا نقراً في سفر الملوك، كان الملك سليمان أول من بنى الهيكل، بناء على أمر إلهي، ومقابل نفقات عالية، لكن ليس على شكل مستدير حسبما نراه في هذا اليوم، بل على شكل مستطيل، واستمر هذا الهيكل موجوداً حتى أيام صديقا، ملك اليهود، الذي وقع أسيراً لنبوخذ نصر، ملك بلاد بابل، واقتيد وهو أسير إلى بابل، وكان معه يهوذا وبنيامين، مثله قد اتخذوا أسيرين، واقتيدا إلى بلاد آشور، وقدم بعد ذلك بوقت قصير حاجبه نبوزردان إلى القدس، وأحرق كل من الهيكل والمدينة، وكان هذا هو الخراب الأول للهيكل، وبعد سبعين سنة من النفي عاد بنو إسرائيل إلى أرض اليهودية، يقودهم زوروبابل، واسداراس، وذلك بفضل وسماح من الملك قورش، ملك الفرس، وقد أعادوا بناء الهيكل نفسه، في المكان نفسه، وزينوه حسب أفضل ما استطاعوه، ويحكى أنهم بإعادة بنائهم للهيكل والمدينة قد عملوا وهم يمسكون حجارة بيد والسيوف في اليد الأخرى، بسبب استمرار الحملات عليهم من قبل الشعوب التي عاشت من حولهم، وعلى هذا كان هذا البناء الثاني للهيكل، وبعد هذا، وحسبنا نقراً في سفر المكابيين، هدمت المدينة — لكن ليس كلياً — من قبل

انطيوخوس، ملك سورية، وظل معظم المدينة مهدوماً، وقد تدمرت كل تزيينات الهيكل، وجرى منع الأضاحي، وهدمت الأسوار وسويت بالأرض، وبات الهيكل، وكذلك المدينة، مقفرين، وتمكن بعد هذا يهودا المكابي مع أخوته - بعون الرب - من إلحاق الهزيمة بأنطيوخوس وإرغامه على الفرار، وطرد قاداته من اليهودية، وأعاد بناء الهيكل وترميمه، ورد المذبح وأقام الأضاحي والتقدمات وأرجعها كما كانت في القديم بوساطة كهنة نظاميين، وكان هذا البناء الثالث للهيكل، وقد بقي حتى أيام هيرودس، الذي قام - وفقاً لما أخبرنا به يوسفوس، مع أن اليهود ينكرون ذلك - بهدم الهيكل وسواه بالأرض، وبني واحداً أعظم، وأكثر إحكاماً في عمارته، وكان هذا البناء الرابع للهيكل، الذي استمر حتى أيام تيتوس وفسبسيان، اللذان استوليا على البلاد كلها عنوة، وهدموا كل من المدينة والهيكل واجتثوا كل شيء من الأساسات، وكان هذا التدمير الرابع للهيكل، وكما تقدم بنا القول، إن الهيكل الحالي، الذي بأيدينا، قد بني من قبل الامبراطورة حنة مع ابنها الامبراطور قسطنطين، وذلك تشريفاً لمولانا يسوع المسيح، وأمه المقدسة، وكانت هذه خامس عملية إعادة بناء للهيكل.

١٧ - قصر سليمان. بيت الداوية واسطبلهم. حديقتهم. مخازنهم للخشب وللماء. مخازنهم للحبوب وحجر الطعام لديهم. قاعتهم القديمة والجديدة. كنيستهم الجديدة.

ثم يأتي إثر هذا في الجنوب، قصر سليمان الذي هو مستطيل، ومدعوم بأعمدة في داخله مثل كنيسة، وهو في نهايته مستدير مثل معبد، وهو مغطى بقبة مستديرة عظيمة، ولهذا قلت إنه يشبه كنيسة، وقد انتقل هذا المبنى مع جميع ملاحقه إلى أيدي فرسان الداوية، الذين يقطنون فيه وفي المباني الأخرى المرتبطة به، ذلك أنهم يمتلكون مخازن كثيرة للسلاح، والثياب والطعام، وهم دوماً متيقظين لحراسة البلاد وحمايتها، ويوجد

تحت الأبنية اسطبلات للخيول كان قد بناها الملك سليمان نفسه في الأيام الخوالي، ملحقة بقصره، وهو بناء واسع ورائع يقوم على دعائم، ويحتوي على ما لا يمكن تعداده من الأقواس المعقدة والقناطر وهذا الاسطبل، أعلن أنه بتقديري وتبعاً لما لاحظته، يمكن أن يستوعب عشرة آلاف رأس من الخيول مع ساستها، وما من إنسان يمكنه أن يرسل سهماً من طرف مبناهم إلى الطرف الآخر سواء بالطول أو بالعرض، وذلك بطلقة واحدة من قوس عقار، ويوجد فوقه عدد وافر من الغرف، والقاعات المفردة، والأبنية الموائمة لجميع أشكال الاستخدامات، ويرى الذين يمشون على السقف عدداً وافراً من الحداثق، والساحات، وحجر الانتظار، والردهات، وصهاريج مياه الأمطار، بينما يحتوي تحته على عدد من أروع الحمامات، والمخازن، ومخازن القمح، والمستودعات لخرن الأخشاب وحاجيات العتاد الأخرى، وشيد الداوية على الجانب الآخر من القصر، أي في الجانب الغربي، بناء جديداً يصعب علي إعطاء مقاسات ارتفاعه، وطوله، وعرض أقبية مخازنه، وقاعات طعامه، وسلاله، وسقفه المرتفع بشكل هرمي، وليس مثل السقوف المسطحة لتلك البلاد، ولو أنني تمكنت من إحصاء ذلك، من الصعب على المستمعين إلي تصديق ذلك، وقد بنوا هناك ديراً جديداً بالإضافة إلى الدير القديم، الذي هو موجود لديهم في جزء آخر من البناء، زد على هذا إنهم يرسون الآن أساس كنيسة جديدة، بحجم رائع، ويعمل فني في هذا المكان، وذلك إلى جانب الساحة الكبيرة، وليس من السهل على أي إنسان تكوين فكرة عن مدى قوة الداوية وغناها، ذلك أنهم مع الاستتارية قد استولوا على جميع المدن والقرى التي كانت اليهودية غنية بهم، وهي المواقع التي جرى تدميرها من قبل الرومان، وقد بنوا قلاعاً في كل مكان، وشحنوها بالحاميات العسكرية، كل هذا بالإضافة إلى ما لا يحصى تعداده في الحقيقة من الممتلكات، التي من المشهور امتلاكهم لها في البلدان الأخرى.

١٨ — الأسوار القديمة حول الهيكل. خرائب أنطونيا. موريا. كنيسة الحمام. أو مهد ربنا. بيت سمعان العادل.

ويحيط سور المدينة من جانبي الجنوب والشرق بجميع السكان هناك، وإنما نجد من جهتي الغرب والشمال، أن السور الذي بني من قبل الملك سليمان لا يحيط بالبيوت الموجودة هناك، بل يحيط أيضاً بالساحة الخارجية للهيكل نفسه، وبقي في الجانب الشمالي من الساحة جدار واحد، وبوابة واحدة بين مجمل خرائب أنطونيا، التي بناها هيرودس، وكانت الرابية التي يقوم الهيكل عليها تدعى في القديم باسم موريا، وفوقها رأى داود ملاك الرب، وهو يضرب الناس بسيف مجرد، ووقتها قال للرب: «ها أنا أخطأت، وأنا أذنبت، وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا؟ فلتكن يدك عليّ وعلى بيت أبي» (صموئيل: ٢ / ٢٤ / ١٧)، وكان على هذه الرابية ساحة بيدر أرونا اليبوسي، التي اشتراها داود منه لبناء بيت للرب، ويوجد هنا في الخلف ممر ضيق بين السور الشرقي للمدينة وحديقة الداوية، التي يأتي الانسان عبرها إلى أعظم الكنائس قداسة، المدعوة كنيسة الحمام، أو كنيسة مهد مولانا المخلص، ففيها تتم عبادة مهد مولانا المسيح، وهذا المهد موضوع في مكان تشریف عند النهاية الشرقية للجدار العالي، في مواجهة نافذة هناك، ويمكن للانسان أن يرى في الجانب الجنوبي جرن كبير من الحجارة، موضوع فوق الأرض، من المعروف أنه استحم فيه وهو طفل، ويوجد في الجانب الشمالي فراش سيدتنا، الذي تمددت عليه وهي ترضع طفلها من صدرها، ويهبط الانسان إلى هذه الكنيسة بوساطة الخمسين درجة، وهي قد كانت فيما مضى بيت سمعان العادل، الذي يرقد فيها هناك بسلام.

١٩ — بركة سلوان للاستحمام

وإذا ما مضى الانسان جنوباً من هذه الكنيسة، أو من زاوية المدينة نفسها، وذلك عبر الجانب المنحدر من الرابية، على محاذاة البناء الخارجي

الذي بناه الداوية لحماية بيوتهم وديرهم، وهو المكان الذي قامت فيه المدينة نفسها في العصور القديمة، هناك ممر صغير يقود إلى بركة سلوان للاستحمام، التي أخبرنا أنها حملت هذا الاسم لأن الماء الصادر من ذلك النبع يصل إلى هناك بوساطة مجرى قائم تحت الأرض، ممتد من جبل سيلو، ويبدو لي هذا أمراً مشكوكاً به، لأن جبلنا الذي تقوم المدينة عليه مع جبال أخرى عديدة قائمة فيما بينهم، كما لا يوجد واد يمتد مباشرة من الجبل إلى البركة، كما أنه من غير الممكن توفر ممر تحت الأرض خلال جبال بمثل هذه الضخامة بسبب المسافة، لأن جبل سيلو يبعد ميلين عن المدينة، وبناء عليه ودون التلفظ بأي قرار حول هذه النقطة، دعونا نخبر المستمعين إلينا مانعلم أنه الحق، ونعلن أن الحق هو أن الماء يفور من الأرض مثل أي نبع، وبعدما يملأ البركة ويسيل إلى بركة أخرى مجاورة، يتوقف عن التدفق، وينزل الانسان إلى البركة بوساطة ثلاث عشر درجة، ومن حولها سوارى تحمل قناطر، تحتها جرى تبليط ممر مستدير حولها، وهو مصنوع من حجارة كبيرة، يمكن للواقفين عليها شرب الماء منها وهم نازلين، والبركة الثانية مربعة ومحاطة بجدار وحيد، وكانت بركة الاستحمام هذه فيما مضى في داخل المدينة، لكنها الآن خارجها، لأن المدينة تقلصت مرتين في هذا الاتجاه ذلك أنها توسعت في الأجزاء القريبة من الضريح المقدس.

٢٠ — بيت عنيا. بيت فاجي. البوابة الذهبية مع بيعتها.

وينبغي أن نقوم الآن بترتيب سياق روايتنا حول آلام المسيح، الذي بنعمته سمح لنا بالمشاركة في آلامه حتى نكون قادرين بوساطة ذلك على المشاركة في مملكته فيما بعد، وعلى بعد ميل من القدس تقع بيت عنيا، حيث يقوم فيها بيت سمعان المجذوم ولعازر، وأختيه مريم، ومرثا، فهناك كان مولانا يستقبل على الدوام ضيفاً، وتقوم بيت عنيا قرب وادي الزيتون، الذي ينتهي فيه الجبل باتجاه الشرق، وحدث في يوم أحد سعف

النخل أن انطلق مولانا يسوع المسيح، العزيز جداً، من بيت عنيا، وجاء إلى بيت فاجي، القائمة في منتصف الطريق بين بيت عنيا وجبل الزيتون، وهناك بنيت الآن بيعة جميلة على شرفه، ومن هناك أرسل باثنين من حواريه لجلب أتان وابنها، ووقف فوق حجرين عظيمين يمكن رؤيتهما في البيعة، وجلس فوق ظهر الأتان، ومضى عبر جبل الزيتون إلى القدس، وقد استقبل من قبل حشد كبير وهو ينزل منحدرًا من الجبل، وتابع طريقه إلى ما وراء وادي شعفاط، وبركة قدرون، حتى وصل إلى البوابة الذهبية، التي هي مزدوجة، وعندما وصل إليها انفتح واحد من الأبواب من قبل نفسه، لأن القفل سقط منه، وخرج بعنف من دائرته، فجعل الباب الآخر يفتح سريعاً مع صوت مرتفع، ولهذا جرى تكريس بيعة هناك على شرف ذلك، وفيها دائرة القفل مغطاة بالذهب، وهي محل تبجيل عظيم، ولا تفتح هذه البوابة نفسها إلا في يوم سعف النخيل، وفي يوم عيد تمجيد الصليب (في ١٤ - أيلول)، وذلك بسبب أن الامبراطور هرقل عبر من خلالها مع قطعة كبيرة من خشبة الصليب، كان قد جلبها من بلاد فارس، ودخل مولانا إلى الهيكل في ذلك اليوم نفسه، وبقي هناك يُعَلِّم كل يوم، حتى اليوم الرابع من الأسبوع.

٢١ - سجن بطرس

ولهذا أرغب أن أصعد معه إلى جبل صهيون، ومشاهدة ما فعله بعد هذا، لكنني أرغب أولاً في أن أسجن مع بطرس، حتى يمكنني أن أتعلم من المسيح أن لا أنكره، بل أن أصلي له، وعلى الطريق الذي يركبه الناس ماضين من الهيكل إلى جبل صهيون، يمرون ببيعة جميلة، يوجد فيها حفرة على عمق عظيم تحت الأرض، ينزل إليها الانسان بوساطة عشرين درجة أو أكثر، حتى يدخل إليها، فهنا السجن الذي غلّ فيه هيرود الأصغر القديس بطرس، ومن هذا السجن قام ملاك الرب بقيادته وإخراجه، وقد نقش عند مدخل هذه البيعة الأبيات التالية:

«قم يابطرس، وخذ رداءك، لقد تحطمت سلاسلك
قم وغادر هذا المكان، فقد غدوت حراً بفضل السماء»
«علمت الآن في الحقيقة، أنني قد تحررت من السجن
حمداً لحب المسيح لي، ذلك أنه خلصني من الأصفاد».

٢٢ — جبل صهيون. كنيسة القديسة مريم. المكان الذي ماتت فيه. حجرة العشاء الأخير. المكان الذي نزل فيه روح القدس. المكان الذي غسل فيه المسيح أقدام الرسل. المكان الذي شعر فيه توما بجرح الرب. قبر القديس ستيفن.

تقع معظم أجزاء جبل صهيون القائمة باتجاه الجنوب خارج أسوار المدينة، وهي تحتوي على كنيسة مكرسة لسيدتنا القديسة مريم، وهي محصنة بشكل جيد بالأسوار والسواتر الدفاعية ضد هجمات المسلمين، ففيها يعيش كهنة نظاميون تحت ولاية راعي دير، وعندما تدخل إليها سوف تجد فيها في جهة اليسار قسماً بارزاً، فهذا هو المكان المقدس الذي تسلم فيه مولانا يسوع المسيح روح أمه المحبوبة، سيدتنا مريم المباركة، ورفعها إلى السماء، وهذا الجزء البارز مربع في الأسفل، ومستدير في الأعلى، وهو يسند قبة، ويصعد الانسان حوالي الثلاثين درجة في جهة اليمين، إلى القاعة العلوية، القائمة في الطرف الأقصى من القسم البارز، ومن الممكن أن نرى هنا مائدة عليها تناول مولانا العشاء مع حواريه، وبعد مغادرة الخائن أعطى إلى الحواريين جسده الرمزي ودمه، ويقف في هذه القاعة العلوية نفسها، وعلى مسافة أكثر من ٣٠ / قدماً، باتجاه الجنوب في ذلك المكان، مذبح، وذلك في المكان الذي نزل فيه روح القدس على الحواريين، وينزل الانسان من هناك العدد نفسه من الدرجات التي صعدناها، فيرى في البيعة القائمة تحت القاعة العليا، الجرن الحجري، المبني في الجدار، حيث غسل مولانا أقدام الحواريين في ذلك

المكان، وإلى جواره، في جهة اليمين، يقوم مذبح في المكان الذي شعر فيه توما ولمس طرف الرب بعد قيامته، وهو لهذا يدعى باسم مذبح الاصبع، ويمر الانسان من هذا المكان من خلال نوع من أنواع الردهات حول حرم الكنيسة، وبناء عليه يجد على الجانب الأيسر مذبحاً مقدساً، تحته بدون شك جسد القديس ستيفن الشهيد الرائد، وكان قد دفن هناك من قبل يوحنا أسقف القدس، ونقل هذا الجسد فيما بعد— حسبما نقرأ في التاريخ— من القدس إلى القسطنطينية من قبل الامبراطورة حنة، ثم من القسطنطينية إلى روما من قبل الامبراطور ثيودوسيوس، ويوجد قبل السدة عمود من الرخام الثمين قائم قرب الجدار، وقد اعتاد بسطاء العقول من الناس على الالتفاف حوله.

٢٣— نهر قدرون. جيسماني. كنيسة القديسة مريم. بيعة الضريح. البيعة الصغيرة فوق الدرج. الأسطورة حول يهودي رغب في سرقة جسد مريم المباركة.

ومن هناك ذهب المولى بعد عشائه عبر نهر قدرون، حيث كانت هناك حديقة، ويمر نهر قدرون في وسط وادي شعفاط، ويوجد الآن في المكان الذي كانت فيه الحديقة كنيسة القديسة مريم، مع أبنيتها الديرية، وقد تأسست حيث دفن جسدها، ومن خلال رواق ينزل الانسان عبر أكثر من أربعين درجة إلى قبو، فيه يقوم ضريحها المقدس، وهو مغطى بأثمن الزينة من أعمال الرخام والفسيفساء، وعلى مدخل هذا القبو يوجد هذان البيتان من الشعر.

«أنت يا وارث الحياة تعال وامدح ملكتنا، التي لها

ندين بحياتنا، والتي حركت مصيرنا».

ويوجد حول هذا الضريح عشرون عموداً، تحمل أقواساً، وسقفاً فوقها، وقد نقشت على الحواف هذه الأبيات:

«من هنا ومن وادي شعفاط، يمر يؤدي إلى السماء،
كانت العذراء هنا مرة راقدة، وهي الفتاة موضع ثقة الرب،
من بقعة غير محددة، من هنا قامت، ولها فتحت بوابة السماء
للفقراء المذنبين، وللدروب، أضاءت أمهم آمالهم».

زيادة على هذا يوجد فوق السقف قبة مدعومة بستة أزواج من
الأعمدة، ومع كرة وصليب فوقها، وجرى تعليق مصباح تحت كل زوج
من هذه الأعمدة الصغيرة المحيطة بالقبة، ويدخل الانسان إلى الضريح
من الجانب الغربي، ويغادره من الجانب الشمالي، ورسم صعودها بشكل
رائع على السقف في أعلاه، وهو يحتوي على الفقرة التالية تحت خط
مستقيم: «أخذت مريم إلى السماء، وقد فرحت الملائكة، وباركت
سيدتنا، وغنت بحمدها»، ومن حول حرم الكنيسة نفسها هناك مدرج
يحتوي على النقش التالي: «حملت أم الرب المقدسة إلى مملكة السماء، فوق
تراتيل الملائكة»، ويصعد الانسان من هنا إلى الكنيسة بوساطة عدد كبير
من الدرجات بقدر عدد الدرجات التي نزل بوساطتها إلى القبو،
والكنيسة نفسها والأبنية الديرية المرتبطة بها محصنة بقوة، بأسوار
مرتفعة، وبأبراج حصينة، وبسواتر دفاعية، ضد الحملات المرعبة
للمسلمين، ويوجد حولها كثير من الصهاريج، وعندما يخرج الانسان من
القبو يرى بيعة صغيرة جداً، موضوعة فوق الدرجات نفسها، ويمتلك
السريان في الكنيسة مذبحاً خاصاً بهم، ومرثي أيضاً على السقف
الداخلي القائم فوق الدرجات التي ينزل الانسان بوساطتها إلى قبو رفع
سيدتنا، وهي صورة فيها ابنها المحبوب، مولانا يسوع المسيح، موجود
بين حشد من الملائكة، وقد تسلم روحها، وتولى حملها إلى السماء، في
حين وقف الحواريون في حزن عميق، وهم يدعون لها بتعبد وتقوى، وكان
عندما مدد جسدها ووضع فوق نعشها المقدس جداً، حاول يهودي أن

يسحب الستارة المغطاة بها، وقد تولى ملاك قطع يديه معاً بالسيف، وقد سقطتا على الأرض، وبقي أثرهما على جسده، ذلك أنه هناك رواية تحدث أنه عندما غادرت روح سيدتنا جسدها على جبل صهيون، حسبما تحدثنا في فصول متقدمة، وقام الحواريون المبعجلون بكل احترام بوضع جسدها الأقدس على النعش، وبينما كانوا يحملونها على طول الطريق الذي يقود نحو الشرق، خارج أسوار المدينة، لدفنها في وادي شعفاط، كان اليهود، الذين يتحرقون كراهية وحسداً، والذين تولوا تعذيب ابنها لمدة طويلة، غير قانعين بعد، وقابلوها بنية تقديم إهانة ما إليها، وقام واحد كان هو الأوقح من البقية والأقل حظاً، وتقدم نحو النعش، الذي تمدد عليه جسدها المقدس، وحاول جاهداً، بمقاصد شريرة، أن يمزق الستارة التي كانت مغطاة بها، لكن محاسن العذراء مريم المباركة وانتقام السماء، عاقبته بقسوة على اندفاعه، حيث أن يديه وذراعيه قد ييسوا، وألقى هذا بالرعب في قلوب البقية، وجعلهم يفرون مسرعين.

٢٤ — كنيسة جيسماني. كنيسة صلوات (مخلصنا). المكان المرتفع الذي يقوم منه البطريرك بمباركة حاملي سعف النخيل. الطريق الذي اقتيد مولانا عبره وهو معتقل.

وعندما ترتحل من هناك باتجاه الجنوب، نحو جبل الزيتون، تلتقي بكنيسة ليست صغيرة الحجم، تدعى جيسماني، إليها دخل مخلصنا، عندما خرج من الحديقة مع حواريه، وقال لهم: «اجلسوا أنتم هنا، بينما أذهب أنا إلى هناك وأصلي»، وما أن تدخل إليها حتى تجد مذبحاً مقدساً، وتدخل من جهة اليسار إلى كهف تحت الأرض، وتجد أربعة أماكن معلمة، في كل منها تمدد ثلاثة من الحواريين وناموا، وهناك أيضاً في جهة اليسار صخرة عظيمة على زاوية المدخل إلى الكهف، وعليها ضغط المسيح بأصابعه، تاركاً ست فتحات مطبوعة عليها، وفي الحقيقة

قدم في مكان أعلى قليلاً، باتجاه جبل الزيتون، ثلاث صلوات، في مكان يبنى عليه الآن كنيسة جديدة، وواحد من أماكن هذه الصلوات موجود في البروز القائم على جهة اليسار، وهناك واحد آخر في منتصف السدة، والثالث قائم على يمين البروز، ويوجد في الفراغ القائم فيما بين جيساني وأماكن الصلوات، على طرف جبل الزيتون، حيث التقت الحشود بمولانا مع سعف النخيل، مكان مرتفع قد بني بالحجارة، فيه يتم في أحد السعف، مباركة سعف النخيل من قبل البطريك، وقرب هذه الأماكن، عندما كان يسوع يرتعد وينهار، جاء يهوذا مع مصابيح ومشاعل وسلاح وقادة من اليهود، واعتقلوه، واقتادوه بعيداً، وجلبوه إلى قاعة الكاهن الأعظم، أو قاعة كيفاس، وبعدما سخروا منه طوال الليل، جلبوه في الصباح إلى أمام قاضيه بيلاطس.

٢٥ — البلاط على جبل صهيون. بيعة مولانا مع عمود الجلد. كنيسة الجليل. الكهف الذي فر إليه بطرس. طريق الآلام.

وبعدما سأله بيلاطس أسئلة كثيرة، أمر باقتياده إلى قاعة المحكمة، وجلس على طريقة مجلس القضاء، وذلك في المكان المسمى البلاط، الذي يوجد مكانه أمام كنيسة القديسة مريم على جبل صهيون، وذلك في مكان مرتفع قرب سور المدينة، وهناك بيعة مقدسة مكرسة لمولانا يسوع المسيح، وفيها يقف جزء كبير من العمود الذي ربط إليه الرب من قبل بيلاطس، حيث أمر بجلده، بعدما حكم عليه من قبله بالصلب، واعتاد الحجاج في تقليد له على الجلد، ويوجد على صخرة أمام الكنيسة قطعت على شكل صليب الكلمات التالية منقوشة: «يدعى هذا المكان البلاط، وهنا حكم على الرب»، وخلف هذه باتجاه الشرق، وعلى جهة اليمين، ينزل الانسان إلى جزء آخر من الشارع خمسين درجة إلى كنيسة تدعى الجليلية، حيث تبقى هناك حلقتان من السلسلة التي ربط بها القديس بطرس، وينزل الانسان بعيد مسافة من هناك، من الجهة

اليسارية للمذبح، حوالي الستين درجة إلى كهف مظلم جداً موجود تحت الأرض، إليه هرب القديس بطرس بعد إنكاره للمسيح، وأخفى نفسه في زاويته، وقد جرى رسمه هناك وهو جالس ورأسه فوق يديه، وهو يبكي بسبب آلام معلمه ولإنكاره له، بينما هناك جارية وصيفة تضغط عليه مهددة، والديك واقف يصيح أمام قدميه، وهذه الكنيسة هي بأيدي الأرمن، ومن هناك اقتيد مولانا للطواف حول سور المدينة، حيث كان هناك آنذاك حدائق، والآن بيوت، وبعد ذلك صلب، لأنه حسبما يقول الرسول: «تألم مولانا خارج البوابة»

لقد تحدثنا حتى الآن، حسب أفضل ما نستطيع، عما رأيناه وتعلمناه عن المسيح بأعيننا، وكذلك عن الأماكن المقدسة، وسوف نتحدث بما هو معروف حول رفاقه وحول الأماكن الأخرى، وبعد هذا سوف نتحدث عن بعض الأشياء التي رأيناها بأنفسنا، وبأشياء رويت لنا من قبل الآخرين.

٢٦ — مكان بيلاطس. كنيسة القديسة حنة. بركة بوابة الضأن. كنيسة المجنومين ومكان إقامتهم. صهرجج الاستبارية الكبير. كنيسة القديس ستيفن. المشفى القائم عند بوابة القديس لعازر. كنيسة القديس شارتون.

إلى جانب هذا الشارع، الذي يقود إلى البوابة الشرقية، على مقربة من البوابة الذهبية، ووراء بيت — أو قصر — بيلاطس، الذي تحدثنا عنه أنه ملاصق للشارع نفسه، تقوم كنيسة القديسة حنة، أم سيدتنا مريم، التي إلى قبرها ينزل الإنسان إلى قبو تحت الأرض، بوساطة حوالي العشرين درجة، ويوجد هناك راهبات يتعبدن الرب تحت سلطان راعية دير، والذي يذهب إلى جانبها الشمالي، سوف يجد بركة الضأن، القائمة في واد عميق قرب رابية صخرية، مغطاة ببعض الأبنية القديمة، وهذه البركة — حسبما أخبرنا في الانجيل — خمسة أقسام، ويقوم في الجزء

الأقصى منها مذبح، وكل من يقوم بالدوران حول أسوار المدينة، إذا ما ابتدأ برحلته من عند برج داود، سوف يجد عند الزاوية الغربية من المدينة كنيسة المجذومين ومكان إقامتهم، وهو موقع أنيق، ومحفوظ بنظام جيد، وإذا ما مررت بالصهريج الكبير للإسبترارية، وقبل أن تصل إلى البوابة الشمالية، سوف تجد فوق رابية، كنيسة القديس ستيفن الشهيد الرائد، وهو الذي عندما ألقي به خارج البوابة، وقذف بالحجارة من قبل اليهود رأى السموات مفتوحة في ذلك المكان، وهناك في وسط الكنيسة مكان قائم فوق درجات، وهو محاط بسياح حديدي، وفي وسطه مذبح مقدس، له شكل مقعر، وهو موجود في المكان الذي وقف فيه عندما رمي بالحجارة، وحيث فتحت السموات من فوقه، وهذه الكنيسة خاضعة لراعي دير القديسة مريم لللاتين، ويوجد عند البوابة نفسها مشفى محترم يدعوه الاغريق بـ Xenodochium، وعندما تسير قليلاً على هذا الطريق، ثم تأخذ الطريق نحو اليسار باتجاه الشرق، سوف تجد كنيسة عائدة إلى الأرمن، وفيها يرقد شهيد اسمه شارتون، عظامه مغطاة باللحم، وكأنه ما يزال حياً.

٢٧ — جبل الزيتون. كنيسة مخلصنا (أو الصعود). كنيسة القديسة بيلاجيا الصغيرة. كنيسة التعليم الرباني.

وبما انه بعد هذا كانت ساعة صعوده تقترب، تسلق مولانا جبل الزيتون، ووقف هناك فوق صخرة عظيمة، على مرأى من حواريه، وبنعمة منه منحهم تبريكاته، ثم صعد إلى السماء، وجبل الزيتون حسبما تقدم بنا القول هو أعلى الجبال التي تطوق المدينة، وهو ممتلئ بالفواكه من جميع الأنواع، ويحتوي على نقطة ذروته كنيسة، من أعلى الكنائس قداسة، مكرسة لمخلصنا، وفي الحقيقة ليس في هذه الأجزاء تكريس وراء ذروة الجبل نفسه، مما تم بالعادة اصفائه على هذه الأماكن التي تمجدت بحضور مولانا، ويصعد الانسان إلى الكنيسة بوساطة عشرين درجة

كبيرة، ويقوم في وسط الكنيسة ببناء مستدير، مزين بشكل رائع برخام باروسي، وبرخام أزرق، مع بروز مرتفع، وضع في وسطه مذبح مقدس، وتحت هذا المذبح من الممكن رؤية الصخرة التي يقال بأن الرب قد وقف عليها عندما صعد إلى السماء، ويتولى ادارة القداسات في الكنيسة رهبان نظاميون، وهي محصنة بشكل جيد ضد المسلمين بوساطة أبراج كبيرة وصغيرة، مع أسوار، وشرافات، ودوريات حراسة ليلية، وعندما يأتي الانسان إلى الكنيسة يأتي إلى كنيسة صغيرة في الجهة الغربية، وهي مظلمة لأنها كهف تحت الأرض، وعندما ينزل الانسان عشرين درجة إليها، يرى تابوتاً حجرياً كبيراً، فيه جسد القديسة بيلاجيا، التي أمضت حياتها حبيسة هناك في عبادة الرب، ويوجد كذلك في جهة الغرب، إلى جانب الطريق الذي يقود إلى بيت عنيا، على طرف جبل الزيتون، كنيسة ذات قداسة عظيمة، لأنها قائمة في المكان الذي جلس فيه مخلصنا، عندما سئل من قبل حواريه: كيف ينبغي أن يصلوا، وقد علمهم الصلاة بالقول: «أبانا الذي هو في السماء»، وقد كتب هذا لهم بيده، وهذه الكتابة موجودة تحت المذبح نفسه حتى يتمكن الحجاج من تقييلها، وهناك أيضاً من وسط الكنيسة طريق يقود نزولاً بوساطة حوالي الثلاثين درجة إلى كهف تحت الأرض، قد قيل بأن الرب غالباً ما جلس هناك وعلم حواريه.

٢٨ - بيت عنيا. كنيسة القديس لعازر. كنيسة مريم ومرثا. الصهرج الأحمر مع قلعته. حديقة إبراهيم. الأبراج والبيت هناك.

وهكذا انتهيت من القدس، التي كان لها في روايتي الأهمية نفسها التي للرأس في الجسد، وسأتحول الآن إلى أماكن أخرى، وكأنها الأطراف لهذا الجسد.

ويأتي بعدها بيت عنيا التي هي أيضاً حصينة، وحصانيتها الناتجة عن

طبيعة الأرض ليست أقل من حصانتها بالبناء هناك، ويوجد هنا كنيسة مزدوجة، القسم الأول منها ممجد بجسد القديس لعازر، الذي بعثه مولانا من الموت في اليوم الرابع، وهو الذي حكم كنيسة القدس لمدة خمسين سنة، والقسم الآخر ممجد بآثار أختيه: مريم ومرثا، وتعبد الراهبات الرب هناك في ظل ادارة راعية، وهنا غالبا ما جرى استقبال ربنا ومخلصنا بمثابة ضيف، وباتجاه الغرب فيما وراء بيت عنيا، وعلى مسافة أربعة أميال من القدس، يقوم هناك جبل الصهريج الأحمر، مع بيعة مرتبطة به، ويحكى أنه في هذا الصهريج جرى إلقاء يوسف من قبل أخوته، وقد بنى الداوية هنا قلعة حصينة، وعلى مسافة أكثر من ثلاثة أميال من هناك تقوم حديقة إبراهيم، في وسط سهل جميل قرب الأردن، ذلك أنه يبعد نصف ميل عنها، وطوله ضعف عرضه، وفيه منبسط كبير يسقيه نهر جميل.

ويمتد عرض هذا السهل حتى الأردن، ويصل امتداد طوله حتى البحر الميت، وفيه تربة موائمة لنمو جميع أنواع الفواكه، مع كميات وافرة من الخشب غير أنها شوكية، ورأينا الحديقة نفسها مليئة بالأشجار التي تحمل مالا يحصى تعداده من التفاح، لكن من الحجم الصغير، ورأينا شعيراً ناضجاً، في يوم الاثنين بعد أحد السعف.

ويوجد هناك عدد كبير من الأبراج والبيوت الواسعة في أيدي الداوية وتحت سلطانهم، ويبارس هؤلاء، مثلهم مثل الاستبارية، حراسة الحجاج الذين يتوجهون إلى الأردن، ويحتاطون حتى لا يكونوا عرضة للأذى من قبل المسلمين، أثناء الذهاب والاياب وأثناء إمضاء الليل هناك.

(يعتقد وجود سقط كبير في النص هنا).

٢٩ — الأردن . جبل القرنطل . نبع اليجبا .

يقع الأردن على مسافة ميل من هنا، وهو يجري بشكل متعرج، أو

بالخري هو نهر كثير الالتفافات، يساير جبال العربية، ويصب في البحر الميت، ولا يظهر بعد ذلك مطلقاً، ويوجد بين الصهريج الأحمر والوادي المتقدم الذكر فيافي مرعبة، إليها جلب مولانا يسوع من أجل إغوائه من قبل الشيطان، ففي نهاية هذه القفار جبل مرعب، ومرتفع جداً، وشديد الانحدار حتى أنه يكاد أن يكون متعذر التسلق، ففي الوقت الذي نجد فيه مؤخراته فوقها ذروته العالية، فهذه الذروة يتلوها منحدر يقود إلى وادٍ مرعب، ويدعو الناس من غير رجال الدين هذا المكان باسم القرنطل، ويمكننا أن ندعوه Quadragea، لأنه هنا جلس مولانا صائماً لمدة أربعين يوماً وليلة، ويمضي الطريق إلى حيث جلس مولانا على طول منتصف طرف الجبل، لكن ليس بشكل مستقيم، لكنه شديد التعرج وغير منتظم بسبب طبيعة الأرض، ذلك أنها منزقة في مكان ما، حتى أنها ترغم أحياناً الحجاج على الزحف على أيديهم، ويوجد في القمة بوابة، وعندما تجتازها وتتابع سيرك قليلاً سوف تجد بيعة بنيت فوق كهف صنع بالأيدي البشرية، وهي مكرسة لسيدتنا، وتبعد من هناك خلال ممر صعب ومتعب نحو الأعلى بدون درج، وتعبر فوق جروف وعرة وهائلة من جروف الجبل، ومن ثم تدخل إلى بوابة أخرى، وتصل من خلال ممر ينعطف مرتان نحو الخلف وهو كثير التعرج، تصل بالتدريج إلى بوابة ثالثة، وبعورك لهذه سوف ترى مذبحاً صغيراً مكرساً للصليب المقدس، وفي جهة اليمين من البيعة الصغيرة التي تحتويه، هناك ضريح قديس اسمه بيليجرينوس Piligrinus، الذي ماتزال يده مغطاة باللحم، وهي مرئية هناك.

وبصعودك الآن حوالي ست عشرة درجة إلى الذروة، سوف تجد في جانب الشرق مذبحاً مقدساً، وفي الغرب المكان المقدس نفسه حيث جلس مولانا، وحسباً تقدم بنا القول صام هناك أربعين يوماً وليلة، وهناك أيضاً بعد صومه، قام ملائكة بتقديم قداس له، ويقوم هذا

المكان في وسط الجبل، لأن ذروته بعيدة صعوداً بقدر بعد القعر عن هناك.

ويمكن أن يرى على ذروته صخرة عظيمة، يقال بأن الشيطان قد وقف عليها وهو يحاول إغواءه، ويمكن من هذا الجبل رؤية مشهد يمتد إلى مسافة عظيمة فيما وراء الأردن، إلى العربية، لابل حتى إلى تخوم مصر فيما وراء البحر الميت يمكن الرؤية، وسطح جبل القرنطل وكهوفه التي هي تحت الأرض مشحونة جميعاً بالأطعمة، وبالأسلحة العائدة للداوية، الذين لا يمكنهم إيجاد حصن أمنع أو أفضل بالموقع لإزعاج المسلمين، وعندما يصعد الانسان هذا الجبل أو ينزل منه، أي عندما يكون في قاعدته، يجد نبعاً عظيماً يتدفق بالماء الذي يمد حدائق إبراهيم والسهل الموجود هناك بالماء، وهناك في هذا السهل الذي يُسقى بالنهر الذي يتشكل من مياه ذلك النبع، اعتاد الحجاج — كما قلنا — على إمضاء ليلة، حتى يتمكنوا من الذهاب إلى القرنطل للصلاة، ولكي يغسلوا أنفسهم بمياه نهر الأردن، ويحظون هناك بالحماية من ثلاثة جوانب بواسطة الحديقة نفسها التي تحميهم من الكائن، وتجري حمايتهم من الجهة الرابعة بواسطة دوريات الحراسة التابعة للاستراتيجية والداوية.

٣٠ — المكان الموجود على شواطئ الأردن الذي تعمد مولانا فيه. الكنيسة والدير. قلعة الداوية. جبال جلبوع.

عندما زرنا بأنفسنا المتواضعة هذا المكان أيضاً، من أجل أن نصلي هناك، ومع الرغبة في أن نستحم في مياه الأردن، نزلنا من الجبل بعد غروب الشمس، ومع حلول الظلام، وكنا قد نظرنا من أعالي الجبل إلى السهل المنبسط تحتنا، فرأينا تبعاً لتقديرنا أكثر من ستين ألفاً من الرجال يقفون هناك، وكلهم تقريباً يحملون مشاعل في أيديهم، وكلهم كان من الممكن رؤيتهم من قبل المسلمين، من جبال العربية فيما وراء الأردن، وفي الحقيقة كان هناك مايزال عدداً أكبر من الحجاج في القدس، كانوا

قد زاروا هذا المكان.

ويوجد في المكان نفسه الذي جرى تعميد مولانا فيه من قبل يوحنا، هناك صخرة كبيرة، يقال بأن مولانا قد وقف عليها أثناء تعميده، وبذلك جاء ماء نهر الأردن إليه، وهو لم يدخل إلى النهر، وقد جرى بناء كنيسة على شاطئ الأردن، وفيها جرى إعدام ستة رهبان سكنوا فيها من قبل زنكي والد نورالدين، ويوجد هناك قلعة حصينة للداوية، وإذا ما عدت عبر الطريق المستقيم المباشر من الأردن إلى القدس، من خلال سهل منبسط، وقبل الدخول إلى المنطقة الجبلية، تصل إلى أريحا، حيث يجري بعدها نهر، يتدفق نزولاً من جبال القدس، وقد تحولت أريحا الآن إلى بلدة صغيرة، وهي على كل حال قائمة وسط تربة خصبة، فيها تنضج جميع الفواكه بسرعة، وتنمو هناك الكثير من الورود المتفتحة بوفرة وافرة من الورود الجميلة، ومن هنا جاءت المقارنة بقولهم: «مثل وردة زرعت في أريحا». وهذا ينطبق على سيدتنا، وهي أيضاً موائمة بشكل مدهش من أجل كروم واسعة، وأعنان رائعة، وهذا المكان قائم تحت سلطان كنيسة لعازر في بيت عنيا، لكن كثيراً من الأرض هي غير مزروعة بسبب غارات المسلمين، وإلى الشمال من هذا الطريق، وعلى جهة اليمين تقع جبال جلبوع، وهي قائمة على طرف السهل المتقدم الذكر، ومن الممكن رؤيتها بوضوح.

٣١ - صحراء إيليم. وادي موسى. جبال سيناء.: حوروعبريم والشوبك. المكان الذي عبر منه بنو إسرائيل الأردن.

تقع الصحراء التي قاد الرب من خلالها مرة بني إسرائيل، بعد قدومهم وعبورهم للبحر الأحمر، بين مصر والعربية، وأطعمهم هناك حسبما نقرأ (في التوراة) بخبز السماء، وجعل الماء ينبع من أجملهم من الصخرة، وتدعى الصحراء التي وجد بنو إسرائيل فيها اثني عشر بئراً للماء، وسبعين نخلة وهي قائمة على تخوم العربية، باسم إيليم (الخروج

١٥ / ٢٧)، وفي العربية هناك واد أيضاً، يدعى باسم وادي موسى، لأن موسى ضرب هناك الصخرة مرتين بعصاه، وجعل الماء ينبع من الصخرة من أجل شعبه، وتشرب من هذا النبع الأرض كلها الآن، وفي المنطقة نفسها جبل سيناء، الذي صام موسى عليه أربعين يوماً وليلة، وهناك أيضاً تسلم الشريعة وقد كتبت باصبع الرب فوق ألواح حجرية، وجبل حور، الذي دفن هرون عليه، موجود أيضاً في العربية، ومثله أيضاً عبريم، الذي دفن الرب عليه موسى، الذي — على كل حال — لم يعثر على قبره، ويوجد في العربية جبل يدعى الشوبك، استولى عليه بلدوين ملك القدس، ووضعه تحت حكم الصليبيين، وهذه هي التخوم والمقاطعات التي عبر من خلالها بنو إسرائيل، عندما خرجوا من مصر، وعبروا فوق البحر الأحمر، وقتلوا سيحون ملك العموريين، وعوج ملك باشان، وتقع بلدان هذين الملكين فيما بين أدوميا والعربية، وقد عبروا نهر الأردن، في المكان نفسه الذي جرى تعميد المسيح فيه، وباستيلائهم على أريحا في السهل، استحوذوا على ملكية أرض الميعاد، وذلك حسبما أخبرنا، وفي الأيام التي عبر فيها بنو إسرائيل العربية، كانت بلاداً مقفرة، إلى حد أنها لم تتميز باسم خاص بها.

٣٢ — وادي جهنم قرب القدس. الصهريج الجديد. بيعة القديسة مريم حيث اعتادت أن تستريح. كفرانا. قبر راحيل.

كل من يجتاز الباب الغربي للمدينة، قرب برج داود، ويوجه سيره باتجاه الجنوب، سوف يجتاز وادي جهنم، الذي يتأخم طرفين من أطراف المدينة عند الصهريج الجديد، وسيصل بعد مسافة أكثر من نصف ميل إلى بيعة لها قداسة خاصة، فهي مكرسة لسيدتنا مريم المباركة، حيث اعتادت أن ترتاح هناك، عندما كانت تسافر من بيت لحم إلى القدس، ويقوم عند بابها صهريج، اعتاد المارون من هناك على الشرب منه والاستراحة هناك، وفي الخلف هناك حقل فيه عدد لا يحصى من كوم

الحجارة، يبتهج الحجاج البسطاء في جمعها هناك، ذلك أنهم يقولون أنهم سوف يجلسون عليها في يوم الحساب، ومجاور لهذا المكان الذي يدعى كفراة، حيث توفيت راحيل زوجة يعقوب بعد ولادتها لبنيامين، وبعدما دفنت هناك، وضع يعقوب فوق قبرها اثنتي عشرة صخرة، ويقوم الآن هناك هرم، كتب عليه اسمها.

٣٣- بيت لحم. كنيسة القديسة مريم. بيعة المهد. المزود. قبر يوسف الأرمائي والقديس جيروم. المكان الذي غني فيه «المجد لله في الأعالي».

ونأتي الآن إلى مدينة بيت لحم الشهيرة، التي — تبعاً لتوقعات الأنبياء — ولد فيها مولانا العزيز يسوع المسيح رجلاً، ويوجد هناك كنيسة مقدسة، مشرفة بتمييزها وبجعلها أسقفية وكنيسة كاتدرائية، والمذبح العالي فيها مكرس لسيدتنا مريم المباركة، وعند نهاية جهة اليمين للبروز، وإلى جانب الباب، ينزل الانسان بوساطة عشرين درجة إلى كهف تحت الأرض، حيث هناك مذبح مقدس له شكل مجوف، لأنه يحتوي على صليب مرسوم على الأرض، ويتألف هذا المذبح من أربعة أعمدة، تدعم قطعة كبيرة من الرخام، وقد كتب فوق هذا المكان البيتين التاليين:

«من رئيس ملائكة لامثيل لفضائله

حملت بالفعل عذراء هنا بالرب»

وفي جهة اليمين، أو باتجاه الغرب، في الكهف نفسه، ينزل الانسان أربع درجات، ويصل بذلك إلى المزود، الذي مرة وضع فيه ليس فقط تبناً للمواشي، بل وجد فيه طعام للملائكة، وجرى تغليف المزود نفسه برخام أبيض، وهناك ثلاث فتحات مستديرة في القسم الأعلى، يقدم الحجاج من خلالها إلى المزود قبلاتهم التي اشتاقوا طويلاً لتقديمها، وهذا الكهف — زيادة على هذا — مزين بشكل جميل بوساطة أعمال

الفسيفساء، ويقوم فوق الكهف بيعة مقدسة، مقنطرة بشكل مزدوج، حيث يوجد على جهة الجنوب مذبح مقدس، وعلى جهة الغرب قبر يوسف الأرمائي مرثي في الجدار، وليس بعيداً عن مزود الرب يقوم قبر القديس جيروم، الذي يقال بأن قبره قد نقل من هناك بواسطة ثيودوسيوس الأصغر إلى القسطنطينية، وعلى سقف الكنيسة نفسها نجمة من النحاس المذهب بشكل جيد، وهي تلمع فوق رمح، وفي ذلك إشارة إلى الحكماء الثلاثة، الذين حسبنا نقراً في الانجيل، جاءوا إلى هناك، يقودهم النجم، ووجدوا الطفل يسوع هناك مع أمه مريم، فتعبدوه، وعلى مسافة ميل من بيت لحم ظهر الملاك إلى الرعاة وتألّق حولهم هناك مجد الرب، وهناك ظهر أيضاً جمهور من الحشد السماوي وهم يغنون: «المجد لله في الأعالي».

٣٤ — الخليل. الكهف المزدوج. الأرض الحمراء. ممرا. البلوطة.

وعلى مسافة من هناك، باتجاه الجنوب، قرب البحر الميت، تقوم الخليل، حيث يقال بأن آدم قد سكن فيها بعد إخراجه من الجنة، وفيها أيضاً دفن، وكانت هذه المدينة مدينة الكهنة من سبط يهوذا، وكانت مقر سكنى العمالقة، وكانت تدعى في الأيام الخوالي باسم «قرية أربعة» أي «مدينة أربعة»، لأن أربعة من الآباء المبجلين قد دفنوا فيها هناك في كهف مزدوج، وهؤلاء هم: آدم — أول إنسان مخلوق — وإبراهيم، وإسحق، ويعقوب، وهم الآباء الثلاثة، ومعهم زوجاتهم: حواء، وسارة، ورفقة، وليا، وكانت هذه المدينة تدعى من قبل باسم «أربعة» وفي أراضيها — أي في طرفها الأقصى — يوجد كهف مزدوج، يتجه نحو ممرا، التي اشتراها إبراهيم بثمن من عفرون بن ساعور الجتتي، وفي المنطقة القريبة من المدينة هناك الأرض الحمراء، التي تحفر من قبل السكان، وتؤكل وتصدر إلى مصر، ويقال بأن آدم قد صنع من هذه الأرض، ويقال بأنه مهما بلغ الحفر بهذه الأرض بالحجم أو بالعمق،

تعود في السنة التالية كما كانت بوساطة القوة الإلهية، وقرب هذه المدينة يقع جبل ممرا، الذي تقوم عند سفحه البلوطة، التي تدعى حالياً باسم «الدلبة»، فتحتها رأى إبراهيم الملائكة الثلاثة، والمعبود الواحد، وقد ضيفهم بكرم وعناية، وبقيت هذه البلوطة حتى أيام الامبراطور ثيودوسيوس، وقد نما من جذعها، أو من جذرها بلوطة أخرى، ومع أنها ذبلت جزئياً، هي مازال قائمة، ولها فعاليتها، فإذا ما حمل فارس قطعة منها في يده، لن يضل حصانه مطلقاً، وكانت الخليل أول مكان وصل إليه كالب ويوشع ورفاقهما العشرة الذين بعث بهم موسى من برية فاران ليتجسسوا على أرض الميعاد، وكانت هذه المدينة بعد ذلك حاضرة مملكة داود، الذي حكم هناك لمدة سبع سنوات، بموجب الأوامر الربانية.

٣٥ - قبر لوط. بحيرة اسفلت. سيجور. تمثال الملح. كرنيم.

على مسافة ميلين من الخليل، كان ضريح لوط، ابن أخي إبراهيم، وعلى بعد عشرة أميال باتجاه الشرق، تقوم بحيرة اسفلت، التي تدعى أيضاً باسم «البحر الميت»، لأنه لا يوجد فيه شيئاً حياً، ولا يقبل شيئاً حياً، ويسمى أيضاً ببحر الشيطان، وذلك في إشارة إلى المدن الأربعة: سدوم، وعاموره، وساعور، ودومه، التي استمرت في ممارسة شرورها، وقد أحرقت بوساطة النيران التي سقطت من السماء، ومن ثم أغرقت في البحيرة، التي ارتفعت في مكان المدن المتقدمة الذكر، ومياه هذه البحيرة مرعبة بسبب شكلها المقيت، وتجعل روائحها الذين يقتربون منها يهربون، ورؤيت في إحدى السنوات، في يوم ذكرى تدمير هذه المدن أحجاراً وأخشاباً وأشياء أخرى من مختلف الأنواع تعوم على وجه البحيرة، وذلك كشهادة على دمارهم.

وقرب البحيرة تقوم مدينة سيجور التي تدعى أيضاً باسم بلع، وزرع، وهي قد حفظت من الدمار بوساطة دعاء لوط، وهي باقية حتى هذا اليوم، وعندما خرج لوط منها، نظرت زوجته إلى الخلف، فتحولت إلى

تمثال من ملح، وهو ما يزال باقياً حتى هذا اليوم، وهو يغدو صغيراً عندما يكون القمر قد أخذ بالاضمحلال، ثم يزداد حجمه عندما يصبح بديراً، ووجهها ملتف إلى وراء ظهرها، وتنتج هذه البحيرة القار أيضاً، الذي يدعى باسم الحمر اليهودي، وهو مفيد جداً للبحارة، ويعثر عند شواطئها أيضاً على الشب، الذي يدعوه المسلمون باسم «القطران»، زيادة على هذا، يوجد عبر البحيرة، عندما يمضي الانسان نزولاً إلى العربية، مدينة كرنيم، وذلك على جبل الموابين، الذي أقام فيه بلق بن باعور ملك الموابين بلعام الكاهن ليلعن بني اسرائيل، ويدعى هذا الجبل بسبب شعابه المنحدرة باسم «الانقطاع»، وتفصل هذه البحيرة اليهودية عن العربية.

٣٦ — غزة. عسقلان. يافا. أرماتيا (رامه). حقل حبقوق.

وتقوم مدينة غزة على شاطئ البحر المتوسط، وهي على بعد عشرة أميال من الخليل، باتجاه الغرب، وهي تدعى الآن «غزة»، وفيها فعل شمشون أفاعيل عظيمة، وحمل أبوابها بعيداً أثناء الليل، وعلى مسافة ثمانية أميال من غزة، على شاطئ البحر المتوسط، تقوم عسقلان وهي مدينة جيدة التحصين، ومن العادة وجود هاتين المدينتين في فلسطين، أو بالحري في بلاد الفلسطينيين، وتقع يافا على شاطئ البحر المتوسط نفسه، التي فيها أقام الرسول بطرس طابيثا من الموت، ويدعو المعاصرون يافا باسم يافيس Jafis، وعلى مقربة منها تقع أرماتيا (رامه) التي جاء منها يوسف، المستشار الطيب، الذي تولى دفن المسيح، ويوجد أيضاً في أرض اليهودية الحقل الذي حمل منه النبي حبقوق بوساطة ملاك، وذلك عندما كان يحمل خبزاً في جعبة، وكان متوجهاً في الحقل لإعطاء الخبز إلى الخواصيد، وجاء حمله إلى بابل، من أجل أن يحمل الطعام إلى دانيال الذي كان في عرين الأسد.

٣٧ — مقبرة بيت الأسد، قرب القدس.

ولدى خروجك من المدينة المقدسة، والسير باتجاه الغرب، بواسطة الباب القائم قرب برج داود، يوجد في جهة اليمين ممر يقود إلى بيعة، ينزل الانسان منها حوالي المائة درجة إلى كهف عميق جداً تحت الأرض، فيجد فيه مالا يحصى تعداده من أجساد الحجاج، الذين يحكى بأنهم جلبوا إلى هاهنا وفق الطريقة التالية: وجد الحجاج الذين جاءوا في إحدى السنوات للصلاة كما هي العادة، المدينة مليئة بالمسلمين، وبما أنهم كانوا غير قادرين على الدخول إليها، حاصروا الذين كانوا في المدينة، لكن بما أنهم لم يمتلكوا ما يكفي من طعام وسلاح لإنجاز هذه المهمة الصعبة جداً، ظهروا وهم يعانون من عوز عظيم بالمؤن، وفيما هم بهذه الأحوال الشاقة، رأى المسلمون أنهم كانوا غير قادرين على المقاومة، فانقضوا عليهم بشكل مفاجيء بحملة قاموا بها من المدينة، وجعلوهم طعمة للسيف، وعندما تصاعدت روائح الجيف التنتنة التي كانت عظيمة الأعداد، قرروا احراقها جميعاً، لكن ظهر في تلك الليلة نفسها أسد أرسله الرب، فقام برمي الجثث في الكهف، الذي امتلك فتحة ضيقة، ومن الممكن حمل كل واحد منهم عبر البحر، وفي الحقيقة عندما كانت جثة أحدهم توضع على ظهر سفينة، كانت السفينة تذهب إلى وطنه بإرادة منها، ودونها قيادة.

٣٨ — كنيسة الصليب المقدس. المكان في الغابة أو مكان القديس يوحنا. جبال مودين أو بليمونت. عمواس، أو فونتنويد. جبال صونيم. راماثا. سيلو، أو جبل صموئيل المقدس.

ويقع بعد هذا خلف أحد الجبال واد خصب جداً وجميل، وفيه تقوم كنيسة جلييلة مكرسة لمولانا يسوع وإلى أمه المحبوبة، يتعبد الناس فيها تحت مذبح مفتوح، المكان المقدس الذي قام فيه جذع الشجرة، التي كان الصليب قد قطع منها، وهو الصليب الذي علق عليه مخلصنا من

أجل خلاصنا، وهذه الكنيسة محصنة بشكل جيد بأبراج وبأسوار، وبشرفات، ضد الهجمات المفاجئة للمسلمين، وهي فضلاً عن ذلك مزينة ببيوت، وغرف طعام، وقاعات، ومقيمين من جميع الأنواع، وهي صالحة لجميع أنواع الاستخدامات، وهي ذات بناء شامخ من الحجارة، ويحكى بأن هذه الصخرة قد قطعت من قبل الملك سليمان، الذي وضع عليها علامة الصليب، ووضعها جانباً في مكان لائق، لانتظار قدوم المخلص، لأنه رأى مسبقاً بوساطة الروح أن الخلاص سوف يأتي إلى العالم من خلال وفاة المسيح، ومن هناك يمضي الانسان إلى القديس يوحنا، أو إلى المكان الذي يدعى «في الغابة»، حيث عاش أبوه زكريا مع أمه اليزابث، وحيث ولد القديس يوحنا نفسه، وحيث أيضاً بعدما استقبلت القديسة مريم بالتحيات من قبل الملائكة في الناصرة، جاءت إلى هناك وحيث من قبل اليزابث، وإلى جانب هذا المكان تقوم جبال مودين Modin، التي عليها جلس متتياً مع أولاده، عندما استولى أنطيوخوس على المدينة وهزم بني إسرائيل عنوة، وعلى مقربة من هذه الجبال تقوم قلعة عمواس، التي يدعوها المعاصرون باسم فونتنويد، Fontenoid، فهناك ظهر الرب إلى اثنين من حواريه في يوم قيامته نفسه، وليس بعيداً عن هناك جبال افرايم، التي تعرف أيضاً باسم صوفيم Sophim، وفي الحال نصل إلى راماثا، وهي مدينة كبيرة تدعى الآن باسم راما، ومن أهلها كان ألقانه، والد النبي صموئيل، وحنه أمه، وعلى مقربة من صوفيم بيت عرون Bethoron، التي تعرف الآن باسم بتر Beter وعلى جهة اليمين، أو في الجهة الغربية من تلك المنطقة، وعلى مسافة ميلين من القدس، يصعد الانسان إلى جبل سيلو، الذي ينبع منه نبع ماء عذب، يتدفق في الوادي القائم تحته، وهناك بقي تابوت عهد الرب منذ دخول بني اسرائيل إلى أرض الميعاد حتى أيام الكاهن عالي، الذي أرغم التابوت في أيامه، بسبب ذنوب العبرانيين، على أن يستولي عليه الفلسطينيون، وبقي في أيديهم حتى أصيبوا بالعذاب من

السماء، فوضعه على عربة، وردوه مكرهين إلى بيتشمس، وكان ذلك بعد سبعة أشهر من استيلائهم عليه، وهنا ثار غضب الرب بشدة على كل من الكهنة والشعب لأنهم احتفظوا بالتابوت، وجاء بعد هذا أهل قرية يعاريم — أو جبعه — وأخذوه من بيتشمس، واحتفظوا به في بلادهم، ثم حمله فيما بعد الملك داود ومعه جميع بني إسرائيل، وسط الغناء والرقص والأناشيد التي أنشدتها الكهنة، وأودعوه في مدينة داود، على جبل صهيون. وبعد هذا عندما قام الملك سليمان ببناء هيكل الرب — كما قلنا من قبل — على جبل موريا، حيث كانت أرض بيدر أرونا اليبوسي، وقتها وضع التابوت في الهيكل، وفي سيلو دفن النبي صموئيل، ومنذ ذلك الحين تغير اسمه الأول، وصار هذا المكان يدعى باسم القديس صموئيل، ويوجد هناك دير للرهبان المحترفين الذين يعرفون باسم الرهبان الرماديين.

٣٩ — اللد. كاكو. قيسارية فلسطين. جبل الكرمل والبلدة.

وعلى بعد ستة أميال إلى الغرب من سيلو، وفي السهل، تقع مدينة اللد، وهي — تبعاً للتقاليد — مكان دفن القديس جورج الشهيد، ولهذا السبب فقد هذا المكان اسمه القديم، وبات يدعى الآن باسم «القديس جورج» وذلك من قبل المعاصرين، ومن هناك ينزل الانسان ويمضي عبر الطريق الذي يقود إلى عكا، وذلك خلال سهل بهيج وجميل، يمتد فيما بين الجبال والمنطقة المنبسطة قرب ساحل البحر، حيث هناك العديد من المدن والبلدات، الجديدة والقديمة، وبين هؤلاء: كفر جمالا، وكفر سمالا، وهي قلعة يدعوها المعاصرون كاكو Cacho، وهي قائمة في سهل خصب جداً، وتدعى البلدة هناك باسم قيسارية فلسطين، وكانت فيما مضى تعرف باسم برج ستراتو، وتقوم جبال حيفا بالقرب، وهناك بلدة نصف مهدمة تحمل الاسم نفسه. ويقال بأنه هنا جرى صنع ثلاثين قطعة من الفضة، وهي التي أعطيت إلى الخائن يهوذا كثن من لدم المسيح،

ويوجد على قمة الجبل قلعة للداوية، تمكن البحارة من رؤية اليابسة من مسافة.

٤٠ — قلعة عقرون الجديدة. حديقة النخيل. عكا.

وبعيد هذا هناك على شاطئ البحر، مقابل عقرون قلعة عظيمة، تحمل الاسم نفسه، وهي قائمة في منطقة غنية، وتدعى باسم القلعة الجديدة، وفي جوارها حديقة كبيرة من أشجار النخيل، وتقع على بعد ثلاثة أميال مدينة عكا، وهي مدينة ثرية وكثيرة السكان، وعلى كل حال إن مرسى عكا— أو لنقل الطريق المستقيم إليه— صعب، وخطر للوصول إليه، عندما تهب الرياح من الجنوب، وترتجف السواحل تحت الهزات المتواصلة التي تتلقاها من الأمواج، التي تراكم هناك في مجموعات كبيرة، لأنه بما أن هيجان البحر لا يوقفه أي تدخل من قبل أي جبل، تظل الأمواج هائجة أكثر من رمي حجرة على الأرض، وبنى الداوية في هذه المدينة بيتاً كبيراً بفن معماري رائع، وهو قائم على شاطئ البحر، ومثلهم أقام الاستبارية بيتاً فخماً هناك، وعندما تجلب السفن الحجاج وتنزلهم فيها، يجدون أنفسهم مرغمين على العودة إلى مرسى المدينة لتقلهم ثانية إلى أوطانهم، وذلك بعد عودتهم من القدس، وفي الحقيقة أحصينا في السنة التي كنا فيها هناك— في يوم الأربعاء من اسبوع الفصح— وجود ثمانين سفينة في الميناء، وذلك إلى جانب السفينة التي تدعى «باص Buss» التي جئنا على متنها مبحرين إلى هنا ثم بها عدنا، ويصدف الانسان على الطريق الذي يقود من القدس إلى عكا، من خلال الأماكن المتقدمة الذكر، عدداً كبيراً من المدن المهجورة، والقلاع، مما كان قد دمره فاسباسيان وتيتوس، ويرى أيضاً قلاعاً حصينة جداً عائدة للداوية وللإستبارية.

٤١ — الكنيسة الصغيرة القائمة في البقعة التي يرى منها الحجاج القدس للمرة الأولى. قرية ماهوميريا (البيرة) وكنيسة القديسة

مريم. قرية أخرى. شكيم أو نابلس. المسلمون.

هناك على بعد ميلين من المدينة المقدسة، وعلى الطرف الشمالي كنيسة صغيرة في مكان يمتلئ فيه الحجاج ببهجة عظيمة، لدى رؤيتهم للمرة الأولى المدينة، وقد اعتادوا على وضع صلبانهم أرضاً، وعلى خلع أحذيتهم، وعلى السعي بتواضع للوصول إلى الذي تلتطف من أجلنا بالقدوم إلى ها هنا فقيراً ومتواضعاً، وعلى بعد ثلاثة أميال من هناك توجد قرية كبيرة يدعوها المعاصرون باسم ماهو ميريا، وبجوارها أيضاً كنيسة مكرسة للقديسة مريم، وكذلك صليب كبير منحوت من الحجر، وهو قائم فوق سبع درجات، ويصعد الحجاج هذه الدرجات، ومن هناك يبصرون برج داود، لكن ليس بدون تنهدات، ذلك أن برج داود— كما سلف بنا القول— يقوم على جبل صهيون، على مسافة تزيد على الأربعة أميال، ولم أعد أتذكر الاسم القديم لهذه القرية، وعلى بعد ثمانية أميال من هناك، توجد قرية أخرى كبيرة، وتقوم فوق جبل مرتفع، وينحدر الانسان منها عبر ممر وعر إلى سهل جميل وخصب، ويوجد فوق جبال أخرى مدينة حصينة جداً، عرفت في الأيام الخوالي باسم شكيم— أو شيكار— غير أنها تعرف الآن باسم نابلس، أو المدينة الجديدة، ولدى عبورنا لهذا الطريق صدفنا حشداً من المسلمين معهم ثيران وحمير من أجل فلاحه السهل الكبير والجميل، ومن عاداتهم عندما يقومون بأي عمل من الأعمال، إصدار صرخات مدوية مثل أصوات الرعد، وقد أنزلت هذه الصرخات بين صفوفنا رعباً عظيماً، ويقطن في الحقيقة أعداد من المسلمين هناك في أرجاء البلاد، وكذلك في المدن وفي القلاع وكذلك في القرى، ويتولون فلاحه الأرض في ظل أمان حصلوا عليه من ملك القدس، أو من الداوية، أو من الاسبتارية.

٤٢— شكيم ثانية. بئر وكنيسة يعقوب. قابيل وهايل. بطمة راحيل. بيت إيل أو لوزة. جبل جرزيم وعبال.

تقوم مدينة نابلس المتقدمة الذكر في السامرة، وفيها الكثير من الينابيع والأنهار والكروم وأشجار الزيتون، وأشجار من مختلف الأنواع، ذلك أن تربتها خصبة ومستغلة زراعياً بشكل ممتاز، وعندما جاء مولانا يسوع إلى ها هنا، ولأنه كان منهكاً بسبب سفره، جلس إلى جانب نبع، حيث تكلم مع امرأة سامرية، ويقوم البئر الذي جلس إليه مولانا الآن على بعد نصف ميل من المدينة، وهو قائم أمام المذبح في كنيسة بنيت فوقه، وفي هذه الكنيسة راهبات يتعبدن الرب، ويعرف هذا البئر باسم بئر يعقوب، وهو واقع في الأرض التي منحها لابنه يوسف، وقد هدمت هذه المدينة في إحدى المرات من قبل أبناء يعقوب، الذين قتلوا أميرها شكيم بن عمور الجتي، لأنه ضاجع أختهم دينا، وتقع هذه المدينة بين دان وبيت إيل، وفيها صنع يربعام ملك إسرائيل عجولين من الذهب، وضع أحدهما في دان والآخر في بيت إيل، ويوجد على مقربة من شكيم جبلين، قدم على واحد منهما قابيل قرباناً إلى الرب من ثمار الأرض الجافة والمهجورة، وعلى شاكلته قدم هابيل قرباناً إلى الرب كان فيه أسمن ما في قطيعه، وكثيراً من ثمار الأشجار ومن مختلف أنواع الفواكه بكميات كبيرة، وإلى شكيم جلبت عظام يوسف من مصر، وعلى مقربة منه توجد البطمة التي خبأت أمه راحيل تحتها الأصنام التي سرقها من أبيها لابان، وعلى بعد ميل من هناك باتجاه الشرق تقوم بيت إيل، التي كانت تعرف من قبل باسم لوزة، فهناك جرت حادثة محاولة إبراهيم التضحية بابنه إسحق، وهناك أيضاً، رأى يعقوب وهو نائم، ورأسه على صخرة، سلماً يصل إلى السماء، والملائكة يصعدون عليه وينزلون، والرب نفسه واقف فوقه، وعلى مقربة من هناك يرى الانسان جرزيم، وذلك مقابل جبل عيال، الذي منه أصدر موسى الأمر القاضي بأن الناس ينبغي أن يباركوا أو أن يلعنوا وفقاً لما يستحقونه.

٤٣ — السامرة أو سبسطية. كهف هيليسيوس وعوبديا. ضريح

الأنبياء السبعين.

وعلى بعد ستة أميال من هناك تقع السامرة، وهي تدعى أيضاً باسم سبسطية، ويدعوها المعاصرون باسم القديس يوحنا، وهي قائمة على جبل حصين، مع أنه غير مرتفع، ومنها نالت منطقة السامرة اسمها، وتعطيها خرائبها العظيمة مظهر مدينة، وهي غنية بتربتها، وفيها وفرة من الكروم وجميع الفواكه، وفي هذا المكان دفن حواريو القديس يوحنا المعمدان جسد معلمهم، وذلك بعدما قطع رأسه من قبل هيرود الأصغر في قلعة مكروننا، وقدمه هدية لفتاة رقاصة، ويقال بأنه أحرق فيما بعد من قبل يوليان المرتد، وحمل رأسه فيما بعد إلى الإسكندرية، ونقل من هناك إلى جزيرة اسمها رودس، وبعد هذا نقل إلى القسطنطينية من قبل الامبراطور ثيودوسيوس، زيادة على هذا جزء من ذراعه محفوظ هناك، وهو محط قداسة عظيمة، وقد دفن في كهف بين النبيين إلياس وعوبديا، وهو الكهف الذي أطعم فيه ذلك النبي مرة سبعين نبياً، وهم أيضاً قد دفنوا هناك، ويذهب الانسان إلى ذلك الكهف بواسطة خمس وثلاثين درجة.

٤٤ — جينين. جرزيل. جبال جلبوع. بيسان. قلعة صفام. جبل حرمون. قلعة أخرى.

وعلى بعد عشرة من أميال تقع بلدة جينين، وهو المكان الذي بدأ منه السامرة، وعلى بعد خمسة أميال من جينين تقع جرزيل (زرعين)، التي تدعى الآن باسم: «أد كورسوم غاليناروم Ad cursum gallinarum»، وهنا كان يسكن نابوت الذي رجم بالحجارة من قبل يزابل المرأة غير التقية، وهي التي جعلها يهوه تنسحق فيما بعد تحت حوافر خيوله هناك، وإلى جانب جرزيل يقع سهل مجيدو حيث واجه يوشع ملك اليهودية الهزيمة ثم القتل على يدي ملك السامرة، ومن الممكن أن نرى هناك الكثير من الخرائب، وكذلك أهرام اسمه يزابل، وعلى ميل من جرزيل،

يمكن رؤية جبال جلبوع (فقوعة)، وعلى ميلين منها تقوم المدينة التي عرفت فيما مضى باسم بيسان «بيت الرب»، وهي تدعى في هذه الأيام باسم سكيروبولس، ونقرأ أنه جرى تعليق رأس شاول وأولاده على سورها، عندما قتلهم الغرباء (الفلسطينيون) وفي جوارها بنى الاستارية، فوق جبل مرتفع، قلعة حصينة جداً وواسعة، حتى يتمكنوا من حماية البلاد من هذا الجانب من الأردن ضد الهجمات المباشرة لنور الدين، حاكم حلب، وهناك أيضاً على مقربة، في جهة الغرب قلعة للداوية اسمها صفام Sapham، وهي محصنة بشكل جيد لصدهجمات المسلمين، وخلف هذا، باتجاه البحر المتوسط، هناك جبل حرمون، الذي بنى الداوية عند سفحه، في الجهة الغربية قلعة ذات حجم كبير، وصنعوا في داخلها صهريجاً واسعاً، مع آلة دولابية لنضح الماء.

٤٥ — طبرية. المكان الذي اسمه المائدة. بحر الجليل. الجبل الذي اعتاد مولانا على إمضاء الليل فيه. بانياس أو بلنياس. «أر» و«دان». الأردن. سهل مزيريب. الوادي في الحقول.

ويأتي خلف هذا أجمل الحقول وأكثرها خصباً، التي تقوم في نهايتها باتجاه الشمال، مدينة طبرية، وذلك على شاطئ بحر الجليل، حيث أشبع مولانا خمسة آلاف رجل بخمسة أرغفة وثلاث سمكات، ولهذا السبب وإثره عرف هذا المكان باسم المائدة، ومن الممكن رؤية آثار المعجزة حتى هذا اليوم، وعلى مقربة أيضاً المكان الذي ظهر فيه الرب لحوارييه بعد قيامته، وأكل قطعة من سمكة، وقطعة من قرص عسل بحضورهم، وهنا في بحر الجليل حيث جاء مولانا يمشي على وجه الماء نحو حوارييه، وذلك في الهزيع الرابع من الليل، وذلك عندما مشى بطرس فوق الأمواج، وبدأ يغرق، فأخذه من يده وقال: «آه، أنت قليل الإيمان، لماذا شككت؟»، وهنا ثانية عندما كان حواريوه في خطر، فجعل البحر يهدأ، وقرب البحر نفسه، ليس بعيداً عن طبرية يوجد الجبل الذي

صعده، فرأى حشداً، وحيث غالباً ما جلس وخاطب تلاميذه والشعب، وعليه نفسه اعتاد أن يمضي الليل، وهنا أيضاً تلطّف فقام بشفاء المجذوم، وعند سفح جبل لبنان، الذي هو حد الجليل باتجاه الشمال، تقوم مدينة بانياس، التي أعيدت عمارتها فيما بعد من قبل فيليب طيطراخ إيطورية، ومنطقة طرخونية، وقد دعيت باسم قيسارية فيليب، وذلك كذكرى لاسمه (فيليب)، وأيضاً تمجيداً للقيصر تاييروس، الذي حكم في ظله، وهذه المدينة تدعى باسم بلنّياس من قبل المعاصرين، وقد استنقذت من أيدي المسلمين في سنة ١١٦١ لتجسيد مولانا يسوع المسيح، والذي تولى استنقاذها هم الصليبيون الذين أقاموا حصناً لشعبهم فيها، وفي هذه المدينة نبعين هما: «أر» و«دان»، وكل منهما ينبع ويتدفق منفرداً حتى جبل «جبل»، وهناك يشكلان الأردن، ويتدفق نهر الأردن — كما قلنا في فصول متقدمة — من جبال «جبل» إلى بحيرة إسفلت، وذلك في خلال واد يدعى «الوادي الكبير» أو «وادي المروج»، وهذا الوادي محاط من طرفيه بسلسلة متصلة من الجبال، وذلك امتداداً من لبنان إلى صحراء فاران، ويفصل مجراه الجليل عن أدوميا وبلاد بصرى، وبصرى هي العاصمة الثانية لأدوميا بعد دمشق، ويتدفق دان من منبعه تحت الأرض حتى سهل اسمه مزيريب (Medan)، حيث يظهر مجراه بشكل واضح تماماً، وتجتمع حشود لا تحصى من الناس في هذا السهل كل سنة عند بداية الصيف، ويجلبون معهم جميع أنواع الأشياء للبيع، ويأتي معهم عدد كبير من الفرس والعرب لحماية الناس وحماية قطعانهم، ذلك أنهم يبقون في هذه الأماكن خلال الصيف، وبعدما يغادر «دان» هذا السهل، يمر خلال السواد، الذي مازال فيه تمثال يعقوب المبارك، وينظر إليه بقداسة من قبل السكان المحليين، ويجري من هناك باتجاه الجليل الإسلامية ثم إلى مدينة جدر (أم قيس)، ويمر بعدها بسهل الأشواك، حيث أماكن التطيب، وتندمج (مياهه بمياه) «أر»، وإثر هذا يتدفق الأردن من بحيرة بعيدة عن بانياس، وبعدما

يمر فيما بين بيت صيدا، وكفر ناحوم من خلال بحر الجليل، يصنع بداية جديدة.

٤٦ — بيت صيدا. جدر. كوروزين. كفر ناحوم. بيت أوليا. بحيرة جنسارث. مجدل. طبرية. جبل الطور. نين. عين دور.

وبيت صيدا هذه هي التي جاء منها: بطرس، وأندرو، وجون، وجيمس بن ألفيوس، وعلى مسافة أربعة أميال من بيت صيدا تقوم كوروزين (قلعة الحصن)، التي يعتقد أن فيها ولد المسيح الدجال، لأن المولى قد لامها بقوله: «الويل لك كوروزين، والويل لك بيت صيدا»، وعلى مسافة خمسة أميال من كوروزين تقع جدر، وهي مدينة جميلة، وهي التي قال عنها النبي في المزامير: «لقد سكنت بين سكان جدر»، وتقوم كفر ناحوم على جانب اليمين من البحر نفسه، وهي مدينة قائد المائة، الذي أقام مولانا ابنه من الموت، وعلى مسافة أربعة أميال من طبرية تقع مدينة بيت صيدا، التي جاءت منها يودث التي قتلت هولوفيرنس، وعلى بعد أربعة أميال من طبرية، باتجاه الجنوب تقع دوثيم (خان جب يوسف)، حيث وجد يوسف أخوته، وعلى جهة اليسار من البحر نفسه، ويوجد في تجويف جبل، سهل جنسارث الصغير وذلك عند مخرج التجويف، وبما أن هذا السهل محاط من جميع الجوانب بالتلال، فإنه لا يشعر بهبوب رياح فيه، ويقال بأنه يشكل رياحه الخاصة من تصاعد الأبخرة الخاصة به، وعلى بعد ميلين من جنسارث تقع بلدة المجدل، التي جاءت منها المجدلية، وتدعى هذه المنطقة باسم «جليل المسلمين»، وهي قائمة في دار سبطي: زبلون، ونفطليم، وفي الجزء الأعلى من هذا الجليل، توجد العشرون مدينة، التي يقال بأن الملك سليمان — كما جاء في سفر الملوك، قد أعطاهن إلى الملك حيرام، ملك صور، وعلى بعد ميلين من المجدل تقع مدينة سينيرث، التي تدعى أيضاً باسم طبرية، والتي سلف وتكلمنا عنها، وعلى مسافة خمسة أميال إلى الغرب من طبرية، يقوم جبل الطور،

الذي ارتفاعه كبير، والذي عليه تغيرت هيئة مولانا يسوع المسيح بحضور حواريه، وقد بني على هذا الجبل كنيسة رائعة، وقد كرسست لمخلصنا، وفيها يتعبد رهبان الرب تحت سلطان راعي دير، ويقال بأن الاحتفال بأول قداس قد تمّ في هذه الكنيسة، وعلى تخوم هذا الجبل إلتقى ملكيصادق كاهن الرب العلي الأعلى، وملك سالم، بإبراهيم وهو عائد من قتل أبيمالك، وقدم إليه الخبز والنيذ، وعلى ميلين من الطور تقوم مدينة نين، التي عند بابها أقام مولانا ابن الأرملة من الموت، وفوق نين يقع جبل عين دور، الذي انتصر عند سفحه، على شاطئ نهر كدوميم — الذي هو نهر قيسون(نهر المقطع) — باراق بن أبنوعم على يمين ملك الأدوميين، وذلك بعد أخذه بنصيحة النبية دبورة، وطارد أيضاً سيرا قائد جيوشه كما وقام بمطاردة ذئب Zeb وزئبي Ze-bee(زبح)وسلمانا، ملوك الإسماعيلية، والهجارين، والعمالقة، والعمونيين عبر الأردن، ولدى عودته من مطاردته لهم وجد سيرا نفسه قد قتل من قبل ياعيل زوجة حابر القيني، وبوساطة وتد خرق صدغه حتى الأرض.

٤٧ — الناصرة. كنيسة القديسة مريم وكهف البشارة. قبر يوسف. مكان ولادة مريم المباركة. المعجزة التي تمت عند نبع جبرائيل. مكان الرمي نحو الأسفل.

على بعد أربعة أميال من الطور، وباتجاه الشرق، على الطريق الذي يقود إلى عكا، تقوم مدينة الناصرة الأكثر مجداً، التي فيها الكنيسة المبهجة، والتي تتمتع بشرف كونها كنيسة كاتدرائية، برئاسة أسقف، وهي مكرسة لسيدتنا مريم المباركة، وينزل الانسان من جهة البروز القائم على اليسار، حوالي أربع عشرة درجة، إلى كهف تحت الأرض، حيث يوجد في نهايته الشرقية صليب صغير مرسوم على الأرض تحت مذبح، وهو يشير إلى المكان الذي أبلغ فيه الملاك جبرائيل سيدتنا بالرسالة حول المسيح، وعلى جهة يسار هذا المذبح، أي إلى الشمال منه، هناك زوجها يوسف،

الذي تولى تربية المخلص، وهو مدفون هناك، ومبني فوقه مذبح، وفي جهة اليمين، أي في الجانب الجنوبي، هناك مكان مع صليب صغير قد رسم على الأرض، وقوس من فوق، فها هنا خرجت أم الرب من رحم أمها لدى ولادتها، ويتحدث الناس جميعاً حول معجزة رائعة اختصت بها هذه المدينة، أنه كلما حاول الكفار مهاجمتها، أصيبوا بالعمى أو بداء من هذا القبيل، يأتيهم من السماء، ويرغمهم على التراجع، وهناك نبع في هذه المدينة يتدفق نحو الأمام ويندفع من خلال ما يشبه فم أسد مصنوع من الرخام، ومن هذا النبع غالباً ما اعتاد الطفل يسوع على نضح الماء وأخذه إلى أمه، ويحكى بأن هذا النبع يستمد أصوله من الحوادث التالية: عندما جاء الطفل يسوع في إحدى المرات لينضح الماء من الصهريج انكسر إبريقه بوساطة رفاقه أثناء لعبهم، ونضح هو الماء وحمله إلى أمه في داخل مئزره، وحيث أنها رفضت أن تشرب من الماء، لأنه بدا لها أنه لم يجلبه بشكل نظيف بما فيه الكفاية، قام وهو مغضب بصب الماء من مئزره فوق الأرض، ونبع الماء من المكان الذي ما يزال يتدفق منه، وهو المكان الذي انصب ما كان في مئزره عليه، وعلى ميل إلى الجنوب من الناصرة المكان الذي يدعى باسم: «مكان الرمي نحو الأسفل»، لأن اليهود رغبوا في رمي المسيح أرضاً، عندما مرّ من وسطهم، ومضى في سبيله.

٤٨ — صفورية. قانا الجليل. قلعة الداوية. عكا. الطريق الذي يقود من هناك إلى القدس عبر الجبال. والطريق الذي يقود إلى القدس على طول شاطئ البحر.

تقع الصفورية على مسافة ميلين من الناصرة، وهي مدينة محصنة على الطريق إلى عكا، ومنها جاءت حنة المباركة أم أم المسيح، وعلى أربعة أميال من الناصرة، وميلين من صفورية باتجاه الشرق، تقوم قانا الجليل، التي منها جاء فيليب وناثانيل، وفيها أيضاً حول مولانا الماء إلى نبيذ،

وأيضاً هناك على بعد ثلاثة أميال من صفورية على الطريق إلى عكا، قلعة قوية جداً وحصينة تابعة للداوية، وعلى بعد أكثر بقليل من ثلاثة أميال، تقع عكا نفسها، ويدعى الآن هذا الطريق الذي يجري من عكا، ومن خلال الناصرة، والسامرة، ونابلس، إلى القدس، باسم الطريق الأعلى، أما الذي يجري من عكا ومن خلال قيسارية واللد، إلى القدس، فيدعى باسم طريق البحر.

٤٩ - دمشق. حوران. السواد. تيمان. نعمان. أرفات. حماه. صفرنثيم. نهر ييوق. جبل سكير. المكان الذي تحول فيه شاول إلى بولص. نهرا فرفر وأبانا. سهل أركاس. أنطاكية.

تتصل العربية بأدوميا في منطقة بصرى، وأدوميا هي مقاطعة في سورية، ودمشق هي المدينة الرئيسة في أدوميا، وهي المدينة التي بناها اليعازر خادم إبراهيم في الحقل الذي قتل فيه قابيل أخاه هابيل، (وعاش) فيما مضى في دمشق عيسو، وسكير، وأدوم، وتبعاً لذلك عرفت تلك البلاد باسم أدوم، ويدعى قسم منها باسم حوران، ومنها جاء المبارك يعقوب، وجزء آخر اسمه السواد، جاء منه بلداخ السوادي، وفي هذه المقاطعة نفسها تقع مدينة تيمان، التي جاء منها علفز (علفز) التيماني، وهناك أيضاً مدينة نعمان التي جاء منها زفر النعماني، وأرفات (أرواد أوتل أرفاد) وحماة، وصفرنثيم (الصفرفند) مدن تابعة لدمشق، ويجري في بلاد أدوميا، وعلى بعد ميلين من الأردن نهر (مخاضة) ييوق، وبعدها قطعها يعقوب في طريق عودته من بلاد الرافدين، تصارع مع ملاك، فغير اسمه من يعقوب إلى اسراييل، وفي بلاد أدوميا جبل سكير (حرمون)، الذي عليه تقوم دمشق، وعلى ميلين من دمشق، المكان الذي صعد المسيح فيه شاول، ثم أنهضه باسم بولص، جاعلاً منه صديقاً بعدما كان عدواً، ومعلماً للحق ومنفذاً له، وعند سفح جبال لبنان ينبع فرفر (العاصي) وأبانا (نهر القاسمية)، وهما نهرا دمشق، حيث

أن أحدهما ، وهو أبانا، يجري في سهل أركاس، ويصب في البحر المتوسط، وإلى هذه الأماكن عاد يوستاخيوس المبارك ليعيش بعد فقدانه لزوجته ولأولاده، ويجري فرفر خلال سورية إلى أنطاكية، حيث يجري تحت أسوارها، ثم ينصب في البحر المتوسط على بعد عشرة أميال منها، وذلك في ميناء سوليم Solim ، (السويدية) الذي يعرف باسم ميناء القديس سمعان، وحصل القديس بطرس في هذه المدينة على تاج البطيركية، وهي ماتزال بطيركية.

٥٠ - فينيقية. المطرانيات. المصيصة. أنطاكية. طرابلس أو طورسولت. جيلة. بيروت. التمثال الرائع هناك.

يفصل لبنان فينيقية عن أدوميا، ومدينة صور هي المدينة الرئيسية في مقاطعة فينيقية، التي يقال بأن سكانها من السريان رفضوا استقبال المسيح عندما سار على شاطئ البحر، مع أنه هو نفسه قد قال بأنه لم يرسل لانقاذ الخراف الضالة من بني اسرائيل، والمدن التالية هي المدن المسورة العظيمة القائمة على شاطئ البحر في سورية، ذلك أن مقاطعتي فلسطين واليهودية تحت سلطة الصليبيين وكذلك: المصيصة، وأنطاكية، وطرابلس، التي تدعى من قبل المعاصرين طورسولت Tur-solgt ، ومدينة جيلة التي تمتلك قلعة حصينة جداً، والمدن هذه هي مدن سورية المجوفة، ويلى هذه المدن باتجاه الجنوب على شاطئ البحر، مدينة بيروت، التي يدعوها المعاصرون باسم باروث Baruth ، وهي مدينة حصينة وغنية وواسعة، وكثيرة السكان، وفيها قام اليهود فيما مضى، وهم أعداء صليب المسيح، فصلبوا تمثالاً له، ظانين أنهم بذلك يوجهون إهانة إليه، وبعدما فعلوا هذه الفعلة النكراء، مثلما فعل آبائهم للمسيح على الصليب — حتى أنهم قلدوهم فطعنوا طرف التمثال برمح — وهنا تدفق الدم والماء، مثلما تدفق من المسيح عندما علق فوق الصليب، ولقد أضافوا ذنباً إلى ذنب بجمعهم ماتدفع في وعاء، وتجراًوا

على تحدي الرب، غير أن الرب القدير حوّل شرهم إلى خير، ولقد امتلكوا أسباباً لكرهيته أكثر، لولا أن مؤثرات فضائل الرب نتجت عن ذلك، حيث أنهم دهنوا أطراف بعض المعوقين بالدم نفسه، وهنا رأوا أن جميع الذين دهنوهم بهذا السائل المقدس، قد استردوا على الفور صحتهم، فما كان منهم إلا أن لووا رقابهم نحو الإيمان المسيحي واعترفوا به، وهذا التمثال محتفظ به حتى الآن بمثابة أثر مقدس في كنيسة المدينة، وهذه الكنيسة سامية المكان لأنها الكنيسة الكاثدرائية للبابا.

٥١ - صيدا. الصرند. صور. قلعة اسكندرية. قلعة إيمبرت. عكا والقلاع الأخرى القائمة على ساحل البحر.

تقع صيدا على بعد ستة عشر ميلاً عن بيروت، وهي مدينة جليلة، منها جاء ديدو الذي أسس مدينة قرطاج في أفريقيا، وتبعد الصرند ستة أميال عن صيدا، التي عرفت أيضاً باسم صرند الصيداوين، وفيها أطعمت الأرملة النبي إلياس، وفيها أقام الرب بوساطة النبي نفسه ابن الأرملة من الموت، واسم ابن الأرملة هذا يونه النبي، وعلى بعد ثمانية أميال من الصرند تقوم مدينة صور، التي هي قائمة على ساحل البحر، وتتفوق صور على جميع المدن الأخرى بقوتها وبأبراجها وبأسوارها، وهذه المدينة مربعة في شكلها، ولها مظهر جزيرة، ذلك أن حوالي ثلاثة من أطرافها محاطة بالبحر، أما الطرف الرابع فهو شديد التحصين، بالحنادق، وبالسواتر الدفاعية، وبالأبراج، والأسوار، والشرافات، وفتحات الرماية، ولها مدخلان فقط محروسان ببوابات رباعية وبأبراج على الطرفين، وهي مدهشة ومتميزة مثل عكا، لأنها تمتلك ميناءً مزدوجاً، ففي الميناء الداخلي ترسو سفن المدينة، وترسو في الخارجي سفن الغرباء والأجانب، ويوجد بين المينائين برجين بنيا من مجموعة ضخمة من الحجارة، وهما داخلين في البحر، وفيما بينهما الطريق أو الباب عبر سلسلة ضخمة مصنوعة من الحديد، وعندما يغلق هذا الباب يجعل الدخول أو الخروج

مستحيلاً، لكن المجاز يصبح ممكناً عند الفتح، وهذه المدينة مشرفة لأنها مقر أسقف، وعلى مسافة أربعة أميال من هناك توجد تقوم قلعة اسكندرية، التي من خلالها تجري المياه التي تنبع فوقها، وتتدفق لتصب في البحر في ذلك المكان، وعلى بعد ثلاثة أميال من هناك قرية واسعة يدعوها المعاصرون باسم قلعة ايمبرت، وعلى مسافة أربعة أميال من هناك نأتي إلى عكا، وعلى مسافة ثلاثة أميال تقوم حيفا القديمة والجديدة، وعلى بعد ستة عشر ميلاً منها تقوم قيسارية فلسطين، التي بنيت مع الميناء المتصل بها بشكل فخم من قبل الملك هيرود، وأيضاً على مسافة أربعة عشر ميلاً منها تقوم يافا، التي لها ميناء خطر للبحار أثناء هبوب الرياح الجنوبية، ووراء هؤلاء بانتظام تأتي غزة، وقلعة عسقلان الحصينة جداً، وهؤلاء جميعاً قد جرى وصفهم من قبل، وجميع هذه المدن قائمة على ساحل البحر، وهم جميعاً مدن واسعة ومحاطة بالأسوار.

وقد استقينا هذه الرواية عن الأماكن المقدسة، التي ظهر فيها مولانا يسوع المسيح بالمظهر الجسدي، حيث أخذ نفسه شكل عبد من أجلنا، ورتبناها وصنفناها، اعتماداً على مآرائنا بأنفسنا من بعض الجوانب، ومن جوانب أخرى مما سمعناه من روايات موثوقة رويت عن رجال آخرين، وقمنا بهذا على أمل أن يثور في عقول الذين سوف يقرأونها أو يسمعونها حبه من خلال معرفتهم الأماكن التي تقدم وصفها.

رحلة حج يوانس فوقاس
في الأرض المقدسة
(في سنة ١١٨٥)

استهلال

لاحظنا فيما تقدم أن معظم الرحالة الذين زاروا فلسطين في أيام الحروب الصليبية، قد قدموا من الغرب الأوربي، أي كانوا من أتباع الكنيسة اللاتينية، ومن المقدّر أن لجميع الرحلات مكانة عالية لمؤرخ الحروب الصليبية، فالمواد التي فيها وثائقية، وإذا كانت الغاية التي أعلن عنها الصليبيون من الارتحال إلى فلسطين هي الحج، نستفيد من الرحلات — فيما نستفيد — في دراسة طقوس الحج وتطورها أيام الحروب الصليبية، ولدى امتلاكنا لتقرير رحلة غير لاتيني، نقارب وقتها بين الطقوس اللاتينية والطقوس الأرثوذكسية ونقارن، لنعرف هل الخلافات بين الكنيستين قد وصلت إلى هذا الجانب؟.

والرحلة القصيرة التي نقدمها الآن كتبها رجل دين إغريقي أرثوذكسي اسمه يوانس فوقاس، وقد ولد يوانس في جزيرة كريت، وكان اسم أبيه متى، وقد التحق هذا الأب بالعمل الدير، أي صار راهباً، ومات في جزيرة باتموس Patmos، وخدم يوانس في سن شبابه في جيش تحت قيادة مانويل كومينوس، وأورد في الفصل / ٢٤ / ذكر إسباني عجوز» الذي مارس لسنوات طوال تقدمت حياة الزهد والتأمل فوق صخرة قرب بحر أضايا، حيث تحدثت أنا شخصياً إليه عندما كنت أخدم تحت لواء إمبراطورنا الرائع كومينوس بروفيروجنتوس»، وغالباً ما أشار إلى هذا الإمبراطور نفسه في كتابه، وقد تزوج وأنجب ولداً ذكراً، لم نستطع التعرف إلى اسمه، وقد سلك فيما بعد مسلك أباه فصار راهباً، وقد زار الأماكن المقدسة في سنة ١١٨٥، وقد أمكن جمع هذه المعلومات من هامش مخطوطة رحلته، ونقرأ على هذا الهامش العبارة التالية: «رواية كتبها الكاهن جون، المقدس جداً فوقاس، الذي مارس العمل الديني في جزيرة باتموس، وذلك حول ما رآه في الأماكن المقدسة في سنة ١١٨٥» وقد كتب في بداية الكتاب العبارة التالية: «أنا ابن فوقاس الكريتي كتبت هذا، باسم....».

وصف مختصر

كتبه

يوانس فوقاس

للقلاع وللمدن من مدينة أنطاكية حتى القدس، وكذلك لسورية
ولفينيقية وللأماكن المقدسة في فلسطين

١- هل يتوجب علي أنا الذي تمتعت برؤية الأماكن المقدسة،
وأبصرت المناطق التي تجلى فيها الرب بشخصه في إحدى المرات، وذلك
عندما جلب شعبه اللاجئ وأخرجه من مصر بوساطة موسى مع شارات
ومعجزات، وبقوة جبارة صعد الأسم وحكامها: سيحون ملك
العموريين، وعوج ملك باشان، وجميع ممالك كنعان، ومدّ ذراعه فغرس
هناك شعباً غريباً، زاد من تعداده، حسبما تحدثنا الكتابات المقدسة، وهذه
الأماكن هي التي قدسها بالتجسيد المقدس لابنه الوحيد المنجب،
ويإنجاز أعمال إعجازية متجددة بنا؟، وسبب سؤالي، هو أنني وحدي قد
تمتعت بهذه المباركة، وقلدت سلوك النهم في تعامله مع الطعام، فأين
يمكن أن نجد مثل ذلك السلوك المستقيم واللفظ الأخوي، التي ظهر
بحب أحداً للآخر، وبذلك عبّرت الألفاظ الخاصة في الطبيعة البشرية
عن ذاتها، وبناء عليه، أرى من واجبي، بحسب ما أمتلك من قدرة، أن
أحاول تصوير البلاد بالكلمات، وكأنها مرسومة على خريطة، وأن أقوم
بشكل غير مباشر بتقديم الأوصاف كتابة لطلاب الدين، أي أوصاف
الأماكن التي رأيته بأم عيني مباشرة، وسيبدو عملي هذا عملاً عابثاً
بالنسبة للذين رأوا هذه الأماكن، لأنه إذا كان الهدف من كتابتي هو
تقليد المشاهد الحقيقي، عندها سوف تكون جميع التشبيهات أدنى من
الأصل، ومن الواضح وقتها أنني سوف أمنحهم سروراً أقل مما ترسخ في
أعينهم، فماذا إذن سيكون هدف كتابي؟ يخيل إلي أن الأشخاص الذين

لم يروا قط هذه الأماكن الرائعة بأعينهم، بل تواجهوا بشكل متكرر مع الإشارة إليها، سوف يتعلمون بتمييز أكبر بوساطة كتابي، وأكثر من التعلم من الذين تحدثوا عنهم دون القيام بتحديد الذي هم عليه، وينبغي أيضاً أن نكون قادرين على تقديم المزيد من السرور حتى إلى الذين رأوهم، وذلك إذا ما راق لهم الإصغاء إلى روايات حول ما سيكون من الممتع رؤيته.

٢- تقع مدينة أنطاكية الربانية على ضفاف نهر العاصي، وهي تشتهر بمسارح واسعة، وبأعمدة جميلة، وبكثير من المعابد، وبأعداد كبيرة من السكان، وبوفرة من الثراء، ولهذا تفوقت بمجدها على كل مدن الشرق تقريباً، وإنها أطفأت الأيام مع أيدي البرابرة ازدهارها، ومع ذلك ما يزال بإمكانها أن تفخر بأبراجها وبدفاعاتها القوية، وبتدفق مياهها الساحر، وبتوزع هذه المياه، أثناء جريان النهر بكل لطف، ليقوم بالانتشار هناك والإحاطة بالمدينة، والدوران حول أبراجها واحتضانها بشكل رطب، وبالإضافة إلى هذا، تتزود بشكل مذهش بالمياه بوساطة أنهر صغيرة تتدفق من نبع قصطليا (بيت الماء)، الذي تندفع مياهه بقوة، وتسيل عبر عدد كبير من الأقنية في جميع أرجاء المدينة، وترويه بالمياه وذلك بفضل الأعمال الواسعة، وذلك خلال الجبال إلى المدينة، وتقع خارج الأسوار ضاحية دفني المشهورة، المزينة بحدائق فيها جميع أنواع الأشجار، وبالجبل الرائع الذي سكنه سمعان الرائع، وقرب هذا الجبل أي جبل طوروس (أمانوس) شعاب جميلة بحث فيها قوم في العصور الخوالي عن الرب ووجدوه، وبين هؤلاء في هذه الأيام الذين صانوا أرواحهم، وهم يسكنون في المناطق الأكثر كثافة في هذه الجبال، ويتمتعون بجملها ويفتنون، وينبع نبع بيت الماء بين تلتين، وينعطف مجراه على طول سفح التل الذي هو الأقرب إلى البحر، حيث يتدفق بشكل مفاجيء بكميات مذهشة من الماء، ورأينا هناك رواقاً يغطي النبع، حيث يتدفق الماء بوفرة،

فينقسم إلى نهرين، ويتم نقل مياه أحدهما بوساطة أقنية عالية، وبذلك صار نهراً هوائياً، ويصب من الأعلى في المدينة في جهة اليمين ويجري الفرع الآخر على الأرض في الجهة اليسرى من النبع، ويصب في المستنقعات، وبعد سقايته جميع مرج دفني، يلتحق بنهر العاصي من جهة اليسار، والجبال القائمة بين المدينة والبحر رائعة وذات منظر جميل، ومن المتع جداً النظر إليها، لأن تخومها تصل إلى المدينة وإلى أرسوز، وتتصل هذه الجبال من جهة أخرى بجرف رأس الخنزير كما وتتصل من الجهة الثالثة بالراية التي تدعى جبل الأقرع، ويجري نهر العاصي وسط عدد لا يحصى من المروج ويرويه، ويلتوي حول قاعدة هذا الجبل، وبعد هذا يصب مياهه في البحر، وعاش على ذروة هذا الجبل رجل عظيم حياة تأمل، وحلق بقلبه، وحلق بجسده أيضاً، وبذل جهوده كي يطير في الهواء هو وجسده، فتعلق في منتصف الطريق فيما بين الرب والانسان، أما كيف تهيأت هذه الحياة الغريبة لهذا الرجل المقدس، فهذا ما سوف أشرحه لكم، فقد تمكن بأعمال الحجارين من حفر قمة هذا الجبل الرائع، وصنع بذلك من صخرة صماء حية، ونحت وسطها عموداً طبيعياً وقد اتخذ موقفه فوقه، ووضع قدمه على صخرة، حسبما جاء في الكتابات المقدسة، وبنى كنيسة جميلة اتجاهاً نحو الشرق، وهي مكرسة للرب، وفيها اعتاد أن يجمع تلاميذه: وبذلك كان يبقى خارج الأبواب، ويمضون هم الليل بطوله في داخل الكنيسة، ويتعبدون الرب، وبذلك صاروا قديسين.

٣- والتالي لهذا وللمدينة أنطاكية هي مدينة اللاذقية، وهي مدينة عظيمة وكثيرة السكان، وهي أيضاً قد فقدت عظمتها، ويلها جبلة، أو «زبله»، ويلي جبلة قلعة اسمها أنطرطوس، أو طرطوس، وعلى هذه الصورة تقوم قلاع متنوعة على الساحل حتى طرابلس، وهناك في داخل البلاد سلسلة جبلية عظيمة، يسكنها قوم يدعون «الحشيشية»، وهم من

الأمة المسلمة، لكنهم لا يأخذون لا بالمسيحية ولا بعقيدة محمد (ﷺ)، إنما يعبدون الله وفقاً لهرطقة خاصة بهم، ويدعون المقدم بينهم باسم سفير الرب (شيخ الجبل)، ويتولى الذين يذهبون بناء على أوامره إلى حكام البلدان الكبيرة، قتلهم بالسيف، ويقفزون عليهم وهم غير متيقظين، ويهلكونهم فور إنجازهم لأفاعيلهم، وبعدها يقاتلون وهم قلة ضد حشد، وذلك بعد تنفيذهم لجريمتهم، ويعدون هذا بمثابة شهادة تجعلهم مخلصين.

٤- — ويلي سلسلة الجبال هذه جبال لبنان، التي هي جبال جميلة جداً، وعظيمة الشهرة في أسفار العهد القديم، وهي أيضاً جبال ضخمة جداً، مغطاة بثوب من الثلج، المتدلي فوقها مثل جدائل الشعر، وتنمو فوقها بكثافة أشجار الأرز، والصنوبر، والسرو، وهي مزينة أيضاً بكميات هائلة من الأشجار المثمرة من مختلف الأنواع، والطرف الموازي للبحر مسكون من قبل المسيحيين، في حين يقطن المسلمون في الجانب المتجه نحو دمشق والعربية، ويندفع من شعابها وتجاويفها الكثير من الأنهار نحو البحر، وهي فائقة الجمال وباردة جداً عندما يأخذ الثلج بالذوبان، فيجعل الأنهار التي يصب فيها شديدة البرودة، وتقوم مدينة طرابلس عند سفوح هذه الجبال، التي بناها مؤسسها فوق شبه جزيرة، ذلك أن هناك نتوءاً، تفرع من جبل لبنان وامتد في داخل البحر على شكل لسان، ويرتفع هذا اللسان كثيراً في نهايته الشرقية، وعلى ذروة هذه الأرض المرتفعة وضع مؤسس المدينة أساساتها، وهذه المدينة صغيرة جداً بالنسبة لمساحة الأرض التي تشغلها، لكنها جديرة بالإعجاب بالنسبة لارتفاع أسوارها وجمال أبنيتها.

٥- — وتأتي بعدها جبيل، وبعدها بيروت، التي هي مدينة واسعة وكثيرة السكان، ومن حولها سهول خصبة، وهي مزينة بميناء جميل، وهذا الميناء ليس ميناءً طبيعياً، وهو قد صنع بشكل فني، وهو يحتضن المدينة

على شكل هلال، وقد توضع عند النهايتين الأخيرتين للهلال برجان عظيمان على شكل قرنين، ويمتد من أحدهما إلى الآخر سلسلة تمنع السفن من الدخول إلى الميناء، وهذا المكان قائم على الحدود ما بين سورية وفينيقيا.

٦- ويأتي بعد هذا صيدا، والميناء المزدوج فيها، الذي أعجب المؤرخ (أخيل تاتيوس Achilles Tatiوس) فوصفه في (الكتاب الأول من روايته كليتوفون Clitophon) وليوسيبي Leucippe، لأنك إذا ما زرت المكان مع مرساه، ومرساه الخارجي سوف تجد حقيقة متوافقة مع الوصف الذي قدمه في كتابته، وفي خارج المدينة وعلى مسافة حوالي ثلاث رميات سهم تقوم كنيسة، محاطة بأعمدة ذات طول كبير، ويوجد فوقها شرفة توضع عليها صخرة ذات جوانب أربعة، يقول العامة بأن المسيح المخلص للعالم اعتاد أن يقف عليها، ويعلم الحشود.

٧- وتقوم قلعة الصرند بعد صيدا، وقد بنيت فوق شاطئ البحر، ويوجد في وسط المدينة كنيسة مكرسة للنبي إلياس، وقد بنيت فوق موقع البيت ذي النافذة، الذي قدم له الضيافة.

٨- وتأتي مدينة صور بعد هذا، وهي المدينة التي تفوقت بجمالها على جميع مدن فينيقيا تقريباً، وهي مبنية مثل مدينة طرابلس فوق شبه جزيرة مشابهة، لكنها ذات حجم أكبر منها بكثير، وتمتلك أبنية أكثر جلاله وجمالاً مما هو موجود في طرابلس، ويقارن مرساها الخارجي ويشبه بمرسى بيروت، مع أنه متفوق عليه بالحجم وبالجمال، وكذلك بارتفاع برجيه، ويوجد خارج المدينة وعلى مسافة حوالي ريمتي قوس، صخرة عظيمة جداً، جلس عليها، تبعاً للتقاليد، المسيح عندما بعث إلى داخل المدينة الحواريين المقدسين: بطرس ويوحنا، لشراء خبز، وقد مضيا وجلبا الخبز، ثم توجهوا معاً مع المخلص إلى نبع مجاور، يبعد حوالي الميل، حيث جلس المخلص أرضاً، وبعدما أكل مع الحواريين وشرب من الماء، بارك النبع،

وصدقاً لقد بقي النبع أعجوبة لانظير لها حتى هذا اليوم، ذلك أنه ينبع وسط مروج هناك، وهو يدهش عابري السيل ويبهجهم، ويقال أيضاً أنه لا قعر له، وعمارته وشكله هو وفق ما يلي: فالذين عملوه أولاً صدوراً عن الحب، تولوا بناء هذا النبع وأحاطوه ببرج ثنائي الشكل، وقد رفعوه إلى علو مناسب، وبعدما بنوا الزوايا على شكل فتحات لتدفق المياه، عمروا أقنية رفعوها فوق قناطر عالية، وبذلك أرغموا الماء على الانصباب فوق المروج الموجودة تحت كل فتحة، وكأن هذه المياه صادرة عن أنبوب، وتنصب المياه بصوت مرتفع، وتتولى سقاية جميع المروج الموجودة حول النبع بكميات وافرة من المياه، والذي يقف فوق هذا البرج، مثل وقوفه فوق برج حراسة، يمكنه رؤية النباتات الكثيفة تحته، مع سقاية حقول القمح بشكل متواصل حتى وقت الظهيرة.

٩ — وبعد هذا تقوم عكا، التي هي مدينة واسعة، وكثيفة السكان إلى حد جعلها تتفوق على جميع البقية، وهي تستقبل جميع سفن التجار، وإليها يقدم جميع الحجاج الذين قدموا من أجل المسيح سواء بالبحر أو بالبر، ومنها يقلعون، وقد فسد الهواء هنا بسبب التدفق الهائل للغرباء، ولهذا انتشرت مختلف أنواع الأمراض، التي غالباً ما تؤدي إلى وفيات متتالية بينهم، مما ينجم عنه روائح نتنة، وفساد للهواء، وسوء حظ للمدينة لاعلاج له، ويوجد على جهة اليمين منها الكرمل، وشاطئ بحر جميع بلاد فلسطين، وتحتوي المناطق الواقعة على اليسار: الجليل والسامرة.

١٠ — والمكان الأول الذي يلي عكا هو الصفورية، وهي مدينة في الجليل، خالية من السكان تقريباً، وليس فيها ما يشير إلى ازدهارها فيما مضى، وتأقي بعدها قانا، وهي موقع حصين وصغير، فهذا حالها في هذه الأيام، وهنا حوّل مخلصنا الماء إلى نبيذ، ونقدم بعدها إلى مدينة الناصرة، التي بنيت في قعر وديان، قادمة من هضاب متنوعة، وتقف في وسطها في المكان الذي شهد معجزة عظيمة، حين أعلن رئيس الملائكة جبرائيل إلى

العدراء أم الرب، وذلك من خلال رحمة الرب العظيمة والشمينة عن صنعه من أجل خلاصنا المسيح ربنا جسدياً، وتجد لدى دخولك من الباب الأول لهذه القرية الكبيرة، كنيسة جبرائيل رئيس الملائكة، ومن الممكن أن نرى هناك كهف صغير على طرف اليسار للمذبح الموجود في الكنيسة، ينبع فيه ماء يتدفق، ويجري على شكل نهر شفاف، فهناك اعتادت أم الرب الطاهرة على القدوم يومياً ونضح الماء، وذلك أثناء إعطائها من قبل الكهنة إلى يوسف البار، ولدى إقامتها في بيته، وتلقت في الشهر السادس (من الحمل) بالرائد (يوحنا المعمدان) الضمة الأولى من قبل جبرائيل، وذلك أثناء نضحها للماء، كما جرت عاداتها، ولأنها ارتعبت كثيراً، عادت وهي ترتجف إلى بيت يوسف، حيث سمعت الملاك يقول: «سلام لك أيتها المنعم عليها» فأجابته بقولها: «هوذا أنا أمة الرب، ليكن لي كقولك»، وبناء عليه تلقت كلمة الرب في رحمها الطاهر، وجرى بعد هذا تحويل بيت يوسف إلى كنيسة جميلة ويوجد على الجانب الأيسر من هناك كهف، ليس مفتوحاً في بطن الأرض، بل على وجهها، وفم هذا الكهف مزين برخام أبيض، وفوقه رسمت يد رسام ملاك مجنح نازل، قدم التحيات إلى العدراء أم الرب وحمل إليها البشائر الطيبة، وكان هذا الرسام قد وجد عملاً جنائزياً في قبر، وهو قطعة منسوجة بالإبرة، وقد رسمه وكأنه كان يتحدث إليها، غير أن العدراء، ارتعبت بسبب الرؤيا غير المتوقعة، واستدارت حول نفسها بكل سرعة، وأسقطت من يديها كل شيء حتى اللاكء، وكانت ترتجف وقد تركت حجرتها بسبب خوفها، وقابلت امرأة كانت قريبتها وصديقة لها، وعانقتها بتحيات صداقة، ثم إنها دخلت داخل فم الكهف، الذي تنزل إليه بعدة درجات، ووقتها تشهد بيت يوسف القديم، الذي فيه حسباً قلت من قبل أعلن رئيس الملائكة البشائر الطيبة إلى العدراء عندما عادت من البئر إلى البيت، ويوجد في البقعة التي وقعت عليها حادثة الإعلان صليب قد نحت من صخرة سوداء فوق رخام أبيض، وفوقها مذبح، وعلى جهة اليمين من

المذبح يمكن رؤية حجرة صغيرة، فيها اعتادت العذراء الدائمة أم الرب، أن تعيش، وعلى جهة اليسار من مكان الإعلان من الممكن رؤية حجرة صغيرة أخرى بلا نافذة، تقول مصادرنا المقدسة بأن المسيح ربنا قد قطن فيها بعد العودة من مصر حتى قتل يوحنا المعمدان صبراً، فوقتها — تبعاً للروايات المقدسة — عندما سمع بأن يوحنا قد تعرض للخيانة، ترك الناصرة، وسكن في كفر ناحوم، وبلي هذا سلسلة مكونة من تلال متنوعة، بينها مكان منحدر، إلى أسفل عزم اليهود على رمي مولانا، غير أنه عبر من بين وسطهم وذهب إلى كفر ناحوم.

١١ — ويوجد خلف سلسلة التلال هذه سهلاً كبيراً، ويقوم هناك على مقربة من التلال جبل الطور، وهو جنة الأرض، وبهجة النفس، والسرور لكل ذوي الإيمان الصحيح، لأن هناك رعاية ربانية خاصة تظلمه، وترسل نفحات النعمة الروحية، وهو هضبة مستديرة، ذات ارتفاع معتدل، يوجد على ذروتها ديرين، فيهما يعيش المسيحيون الذين نذروا أنفسهم إلى حياة الرهبنة، وينشدون رحمة الرب في مختلف اللغات، ويسكن في الدير الذي تغيرت فيه هيئة المسيح من أجل خلاصنا عدد من الرهبان اللاتين، والمكان الواقع إلى جهة الغرب من ذلك المكان المقدس، قد تقدس بالحضور المقدس للناصريين من كنيسةنا، وقد وقع حادث التغير المبارك لهيئة المسيح على قمة الهضبة، حيث يقوم الدير اللاتيني، وفيه يقع المذبح فوق المكان الذي تغيرت فيه هيئة الرب بين إلياس وموسى، وبين ثلاثة من نخبة حواريه هم: بطرس، ويوحنا، وجيمس، وهذا المكان محاط بسياج نحاسي، ومن الممكن أن نرى فوق المكان الذي وقفت عليه قدما مولانا حلقة بارزة بيضاء ناصعة جداً، وقد حفر عليها شكل الصليب المقدس، ويفوح منها رائحة طيبة لا يمكن وصفها، وهي تبهج مشاعر الذين يزورونها، وعلى بعد رمية حجر خارج الدير هناك كهف صغير، دخله المسيح بعد تغيير هيئته الرائع، وأمر

حوارييه بعدم إخبار أي إنسان بما رآوه حتى يقوم من الموت، ويوجد باتجاه الجانب الشمالي من الجبل كهف ملكيصادق، وهو جدير بالرؤية، لأنه حفر بأفواه عدة، ويوجد فيه تحت الأرض وفوقها غرف وأماكن للإقامة متنوعة، وحجيرات تستخدم بمثابة أماكن إقامة للزهاد، حيث أمضى عدد كبير من كبار القديسين حياتهم الزاهدة، وإلى جانب الكهف هناك كنيسة بنيت فوق المكان عينه الذي التقى فيه ملكيصادق بابراهيم لدى عودته من القتال، وباركه وجعله ضيفه، وإذا ما نظرت من هذه الهضبة باتجاه الشرق، سوف ترى سباح الأردن وأقنيته، وهو النهر المبارك بين الأنهر، وإذا ما مددت بصرك أبعد سوف ترى أقساماً من لبنان، مما يتجه نحو الشرق، وهضبتين عظيمتين بينهما بنيت دمشق، وإذا ما حولت بصرك قليلاً إلى يسار الأردن، فسوف ترى بحيرة طبرية بشكل واضح وبدون أية مصاعب، ويظهر على الجهة المقابلة أرض مرتفعة قليلاً، فهناك بارك مخلصنا الأمواج، وأطعم الخمسة آلاف، وبعد القيامة أكل مع حوارييه، وذلك بعد سحب المائة والثلاث وخمسين سمكة، وعلى الطرف الشمالي للهضبة نفسها، هناك سلسلة أخرى من الهضاب تحيط بالسهل على مسافة تقارب الاثنتي عشرة غلوة أو حتى أكثر، وتقوم في داخل الدائرة مدينة نين، حيث بعث المولى ابن الأرملة من الموت، وباتجاه الجانب الشرقي من المدينة نفسها يمكن رؤية مكان اسمه عين دور، وفيما بين الطورونين وعين دور يجري نهر قيشون، الذي عنه يقول داود: «افعل بهم كما بمدين، كما بيسيرا، كما بيباين في وادي قيشون. بادوا في عين دور» (المزامير: ٨٣ / ١٠ - ١١).

١٢ - وعلى مسافة سفريوم واحد من هناك تقوم مدينة سبسطية، التي أعاد هيرود الطيطراخ عمارتها على شرف قيصر، وفيها أيضاً قطع هيرود الأصغر رأس المبجل يوحنا المعمدان، الذي لم يكن هناك قط من هو أعظم منه بين من ولدتهم النساء، وكان ذلك في وسط احتفال، وفي

وسط هذه المدينة هناك سجن أُلقي فيه بسبب انتقاداته للهيروديين، وفيه قطع رأسه، وهذا السجن سجن تحت الأرض، ويقود إليه عشرون درجة هبوطاً، ويوجد في وسطه مذبح قائم فوق المكان الذي قطع فيه رأسه من قبل الجندي (سبكولاتور Speculator) ويوجد على جهة اليمين من هذا المذبح نعش، وضع فيه جسد زكريا المقدس، وهو والد الرائد (يوحنا المعمدان)، وهناك في الجهة اليسرى نعش آخر تمجد فيه جسد إليزابث المقدسة، التي هي أمه، وأودع كل جانب من جوانب السجن بقايا قديسين وحواريين للرائد (يوحنا المعمدان) ويقوم فوق السجن كنيسة قد وضع فيها نعشين، وقد عملا من رخام أبيض، يحتوي أحدهما — وهو الموجود في جهة اليمين — رماد جسد المبجل الرائد (يوحنا المعمدان)، في حين يوجد في الآخر جسد النبي إلياس، ويوجد فوق في وعاء ذهبي اليد اليسرى للرائد، وهي مغطاة من كل جانب بالذهب، وتقوم في وسط الجزء الأعلى من المدينة رابية، عليها قام في العصور القديمة قصر هيرود، حيث فيه جرت الحفلة، وفيه رقصت تلك الفتاة الخبيثة، وتسلمت رأس المعمدان جائزة لرقصها، وعلى كل حال صار المكان في الأيام الحالية، ديراً رومانياً، وكنيسة هذا الدير مغطاة بقنطرة، وهناك على الجانب الأيسر من المذبح حجرة صغيرة، يوجد في وسطها ترصيعة من الرخام، موضوعة في قعر حفرة عميقة، فيها تم اكتشاف الرأس المقدس والمبجل للرائد، وذلك من قبل الملائكة، حيث كان قد دفن هناك في ذلك المكان من قبل الهيروديين.

١٣ — يلي هذا بعد رحلة تقارب الخمس عشرة غلوة Stadia شكيم، التي هي المدينة الرئيسة للسامرة، والتي دعيت فيما بعد باسم نابلس، وهي قائمة فيما بين هضبتين، وقد وضعت أساساتها على الأجزاء المنخفضة لكل منهما، وامتدت لمسافة معتبرة، وعلى هذه الجبال، أي على جهة اليمين (جرزيم)، هناك — وفقاً لروايات السامرة — تكلم الرب

مع إبراهيم، وطلب منه التضحية باسحق، وهناك أيضاً — وفقاً لتقاليدهم — حقق التضحية، وعلى كل حال هم لا يعرفون عما يتكلمون لأن الجبل المقصود هو جبل الجبلجلة المقدس، الذي عليه عانى المخلص آلامه من أجل خلاص العالم، وعند سفح هذه الهضبة المكان الذي أعطاه يعقوب لابنه يوسف، وهناك أيضاً بثر يعقوب نفسه، حيث جلس الرب عندما كان منهكاً وتكلم مع المرأة السامرية، وذلك حسبما جاء في الانجيل المقدس، وقرب الهضبة نفسها قالت المرأة للرب «تعبد أباؤنا في هذا الجبل»، وعلم الرب الناس جميعاً بحدثه معها، كيف أن الذين يتعبدون بروح وبصدق حق لهم التعبد.

١٤ — ويلاحظ أن المسافة من السامرة إلى المدينة المقدسة هي خمس وعشرون غلوة Stadia والطريق كله مرصوف بالحجارة، وعلى كل حال هذه المنطقة كلها جافة وبلا ماء، ومع هذا هي مليئة بالكروم وبالأشجار، وتقوم المدينة المقدسة وسط وديان وهضاب، وعلى هذا منظرها رائع، لأنه في الوقت نفسه تظهر المدينة عالية ومنخفضة، فهي عالية عندما تقارن بمنطقة اليهودية، غير أنها منخفضة عندما تقارن بالهضاب المرتبطة بها، وينشطر هذا المكان المقدس إلى شطرين: المدينة المقدسة، التي هي مبنية على الجزء المنخفض من الراية من جهة اليمين، ويصل إطارها حتى الوادي، والجزء الأعلى، من هذا المكان مغطى كله بالكروم، وهناك جرى رجم ستيفن، رائد الشهداء، وإلى يسار هذا، وعلى الجانب الآخر من الوادي، يقوم جبل الزيتون، حيث غالباً ما أحب الرب أن يتمشى، وقد قدس المكان كله بصلواته، وبتعليمه، وأخيراً بصعوده الرائع إلى الأب، ويقع صهيون المقدس أمام المدينة المقدسة، ويمتد باتجاه طرف اليمين منها، ووصفها هو كما يلي: هناك قلعة، فيها كنيسة صهيون المقدسة، التي هي أم الكنائس، وهذه الكنيسة ذات حجم كبير، ولها سقف مقنطر، ويجد الداخل إليها من الأبواب الجميلة التي هي هناك،

على جهة اليسار، بيت القديس يوحنا الإنجيلي، ففيه سكنت العذراء
المثلثة البركات، بعد القيامة، وهناك أيضاً توفيت، ويوجد في ذلك المكان
حجيرة صغيرة، محاطة بسياج حديدي، وعقدتين ترصيعيتين فوق البقعة
التي سُلِّمت فيها روحها إلى ابنها وإلى الرب، ويوجد على جهة اليمين
من الكنيسة، وكذلك على جهة اليمين من المذبح، حجرة علوية، يقود
إليها سلم فيه ستين درجة، وهذه الكنيسة أربعة أقواس وقبة، وعلى جهة
اليسار من الحجرة العلوية من الممكن رؤية المكان الذي تم فيه العشاء
الأخير للرب، وفي البروز الموجود هناك نزلت الروح القدس على الرسل،
وجرى في القسم الأسفل من هذه الكنيسة غسل (أقدام الحواريين)،
ومقابلها توجد كنيسة قائمة في موقع البناء الذي دخله المسيح إلى
الحواريين، مع أن الأبواب كانت مغلقة، وهنا دفن الرائد الشهيد ستيفن
بعد رجعه، وقد نقل من قبل جمائيل إلى مكان آخر، ويقوم في الجانب
الشمالي من المدينة البرج الذي يدعى برج داود، وهو برج كبير جداً، ومع
أن جميع الناس الذين يسكنون في القدس يعلنون أن هذا البرج هو برج
داود، بيدولي أن هناك أسباباً معقولة للاعتراض على هذا، لأن يوسفوس
أخبرنا بأن هذا البرج قد بني بوساطة رخام ملمع أبيض، وهذا ويلاحظ
وجود كل من هذا البرج والكنيسة، ثم هناك البرجين الآخرين اللذان بنا
فيما بعد من قبل هيرود، وأطلق عليهما اسمي فازليس Phaselis ،
ومريمين، ويبدو مع هذا أن البرج (برج داود) قد بني بحجارة عادية،
ولعل البرج الذي نراه في الأيام قد بني فوق أساسات برج قديم جداً،
ويوجد قرب هذا البرج باب يقود إلى المدينة، وهو إذا ما دخلت منه
سوف تتابع سيرك عبر شارع عريض، يقوم فيه على جهة اليمين، قرب
القصر الملكي مشفى القديس سابا، وإذا ما تابعت سيرك حوالي رمية
سهم على طول الشارع سوف تجد كنيسة الضريح المقدس المشهورة،
ومظهرها مثلما جرى وصفه من قبل العديد من الكتاب، والقبو الذي
يقوم مقام ضريح جسد الرب هو مضاعف، ففي الجزء الأول منه هناك

الحجرة التي أزيحت، وأبعدت (عن فم الضريح)، وهي محفوظة بغلاف من الرخام الأبيض، ويوجد في الجزء الآخر، وفي الجانب الشمالي صخرة منحوتة مرتفعة قرابة الذراع فوق الأرض المرصوفة، فهناك مدد الجسد العاري لمانح الحياة، وهو الآن كما يشاهد مزين من حوله بالذهب الخالص، بفضل حب وإيمان مولاي ومعلمي مانويل كومينوس البروفيجنتوس، وبوساطته، وعلى مقربة منها موقع الجلجلة، حيث مكان الجمجمة، والحفرة التي عملت داخل الصخرة من أجل الصليب، والصدع في الصخرة، وهو الصدع التي حدث أثناء الآلام فوق الصليب، ويوجد تحت الصدع مكان مجوف في الصخرة، فيه جمجمة آدم، وبقايا دم ربنا الذي تلطخت به عندما سفك فوقها، وتشكل الكنيسة التي بنيت فوق الجلجلة من أربعة أقواس وقبة، ويوجد قرب هذه الكنيسة كنيسة واسعة تحت الأرض، ففيها جرى اكتشاف الصليب المبجل للمسيح ربنا والمانح للحياة، ويوجد باتجاه الجانب الشرقي من المدينة كنيسة، هي قدس الأقداس، وهذه الكنيسة فائقة الجمال، ولها سقف مقنطر، وهي قائمة فوق الأساس القديم لهيكل سليمان الشهير، وهي مزينة من كل من الداخل ومن الخارج بالرخام المتعدد الألوان وبالفسيفساء، ويوجد على الجانب الأيسر لهذه الكنيسة قاعتين مقنطرتين، رسم في إحداهن تقديم مولانا المسيح، لأنه في هذا المكان تلقى سمعان الرجل البار مولانا المسيح بين ذراعيه، ورسم في الأخرى السلم الرائع الذي رآه يعقوب، يصل إلى السماء، مع ملائكة الرب يصعدون عليه وينزلون، وتحت صورة السلم هذه من الممكن رؤية الحجر الذي وضع يعقوب رأسه عليه، ويوجد على جهة اليمين فتحة تقود إلى كهف تحت الكنيسة، فيه دفن النبي زكريا، الذي قتله اليهود — وفقاً لما جاء في الانجيل — بين الهيكل والمذبح، وهناك في خارج الكنيسة ساحة كبيرة مبلطة، هي — كما أظن — أرضية الهيكل القديم، وقرب الباب الذي يؤدي إلى جيسماني المقدسة توجد كنيسة القديس يواكيم

والقديسة حنة، وفيها تمت ولادة العذراء الطاهرة، وعلى مقربة من هناك تنبع مياه «البركة الواقعة قرب باب الضأن».

١٥ — وبعد هذا، وفي خارج المدينة، باتجاه الجزء الشرقي، وفي وسط ما يشبه الوادي العظيم هوة تقسم جبل الزيتون وتفصله عن المدينة المقدسة، وهناك يقع موقع اسمه جيسماني، فيه قبر سيدتنا العذراء الأعظم قداسة، مع الحديقة التي غالباً ما استراح فيها مخلصنا مع حواريه، وهناك أيضاً ثلاث كنائس أيضاً، القصوى منهن موجودة على اليسار، وهي قائمة في مكان منخفض تحت الأرض، تحتوي على القبر المبارك للعذراء، وهذه الكنيسة طويلة جداً، مع سقف نصف مقنطر، ويقف القبر في وسط الكنيسة، وهو يشبه منبر، قد عمل من الحجر، وذلك على شكل مبنى مؤلف من أربعة أقواس، وعلى الجهة الشرقية منه ما يشبه الفراش، المعمول من الصخرة نفسها، وهو مزين برخام أبيض، ففوقه جرى تمديد الجسد الطاهر للعذراء المباركة من قبل الرسل، وذلك بعد جلبه من صهيون، وفوق هذه الكنيسة هناك كنيسة أخرى، هي عبارة عن كهف، فيه تلفظ الرب بدعائه، وازداد نوم الرسل عمقاً، ونام، وتقوم الكنيسة الثالثة عند سفح جبل الزيتون، وذلك على مسافة رمية حجر، فهناك — تبعاً لما يخبرنا به الانجيل — قام مولانا، بعد توجيهه اللوم لحوارييه بسبب كسلهم، بحمل نفسه ثانية على الصلاة، ووقتها تصيب العرق منه مثل قطرات من الدم، وحدثت في هذه الحديقة حادثة الخيانة، وقبل يهوذا خداعاً معلمه، وقام الرعاع من اليهود بالامساك به بشدة، وفي الجهة المقابلة من الحديقة، وفي الجزء الأعلى منها، في مقابل صهيون، هناك كنيسة، وتحتها كهف، دخل إليه بطرس بعد نكرانه (للمسيح)، وبكى بمرارة، وتوجد هناك صورة للرسل في حزنه، وفوق جيسماني وكنيسة دعاء الرب، من الممكن رؤية جبل الزيتون، وهو مفصول — كما قلت من قبل — عن المدينة المقدسة بوساطة وادي

شعفاط، ووادي البكاء، والمكان — بناء عليه — هو هضبة، هي أعلى قليلاً من المدينة، تبدو ليست واسعة جداً، عندما ينظر إليها من اتجاه المدينة، لكن عندما تنظر إليها من اتجاه الأردن وبيت عنيا تبدو بالفعل مرتفعة كثيراً، ذلك أنها تأخذ بالارتفاع بشكل لطيف من الصحراء، وعلى قمة الجبل المكان الذي غالباً ما تحدث فيه مخلصنا مع حواريه بعد قيامته، وحيث صنع فيها بعد معجزة صعوده التي هي الأعظم سموماً، وقرب هذا المكان، في القبو في الأسفل، من الممكن رؤية المكان الذي أمضت فيه القديسة بيلاجيا جهادها التألمي، وحيث يستريح جسدها المبارك في داخل نعش حجري، وقرب هذا هناك كنيسة أخرى، حيث أعطى مولانا حواريه دعاء «أبانا الذي»، ويوجد على الجانب الأيسر من المدينة، دير هو للرهبان اللاتين، قد بني — كما قيل — فوق أساسات دير قديم، كان قد تأسس من قبل ميلين Melane شهور، وأمام هذا الجبل، وخلف المدينة، على طريق قدومك من السامرة، يوجد دير (دير كفر جمال) إليه جلب جمائيل الجسد المبارك والمقدس للرائد الشهيد المبارك ستيفن بعد رجه بالحجارة، وتعدد في المكان الذي ذكرناه من قبل، ويستمر الوادي الذي يبدأ من جيسماني حتى دير القديس سابا، وصحراء روبا، التي تقوم حول البحر الميت وسدوم.

١٦ — خلف جيسماني مباشرة، وعلى مسافة لاتزيد عن رمية سهم، يقوم بناء يدعى «الكتل Kettle» (عمود أبسالوم)، قد بني فوق صخرة، وله شكل رباعي، وهو مرتفع، حوالي رمحين، كما أعتقد، وهو متدرج على شكل هرمي من القاعدة حتى القمة، ويوجد فيه راهب إييري يعيش حياة عزلة، وهو يعمل في سبيل خلاصه الشخصي، ويلى هذا هضبة عظيمة، فيها عدد متنوع من الكهوف الاصطناعية، حملت اسمها من اسم العذراء، وهي مسكونة من قبل عدد ضئيل من الرهبان الأرثوذكس، وبعدد كبير من الرهبان الأرمن واليعاقبة، ويتسع الوادي بعد

هذا عند المكان الذي فيه وادي النواح، ويلى هذا حقل الفاخوري الذي شري بثمان مولانا لدفن الغرباء فيه، ويلى هذا بركة سلوان، التي تتدفق مياهها فوق جميع تلك المنطقة الجافة، وخلف هذه يمكن رؤية مروج ذوات مساحات ضيقة وذلك في الجزء المنبسط من الوادي، وفيها أشجار نامية هناك، أما النبع نفسه فمحاط ومزين بأقواس وبعدد كبير من الأعمدة، ويمتد هذا الوادي — حسبما قلت — حتى دير القديس سابا، مسافة أحد عشر ميلاً، ويتسع الوادي فيشكل فجوة واسعة جافة، فيها من الممكن رؤية: الدير، والكنيسة، وضريح القديس، ويوجد أمام الدير، على جانبي الوادي، كهوف وأبراج صغيرة، مسكونة من قبل الذين تخلوا عن الدنيا وعن مباهجها، من أجل مملكة السماء، فهم قد تحملوا حر الدنيا الذي لا يمتلئ، وأطفأوا بوسائل إطفاء النار، الذي لا يطفأ، وينشطر الوادي، في البقعة التي تقوم عليها الكنيسة مع قبر الأب المقدس سابا، الذي ألهم من قبل الرب، إلى ثلاثة أقسام، ويصبح عميقاً جداً، وقد بنى القديس أبراجاً على حافته، وبنيت الكنيسة في وسط هذه الأبراج الكبيرة، وعمل الذين من حولها هذه الحجيرات الصغيرة للعبادة والتأمل، وذلك حسبما جاء في الرواية التي تحدثت عن حياته الرائعة، وهذه الكنيسة مليئة بيا هوام، ذلك أنها واسعة، وطويلة، ومشبعة بالضوء، وبلاطها مزين بالرخام الذي مع أنه منخفض التكاليف، لأنه جلب من القفار، قد صنع بشكل غريب، وهناك في واجهة المعبد ساحة مبلطة، وفي وسطها ضريح أبانا الكبير سابا، وهو مرتفع فوق سطح الأرض حوالي القامة، ومزين بألواح من الرخام الأبيض الناصع، وفي القرب، ومن حول هذا، وتحت الأرض، يمكن رؤية قبور الآباء الذين أشع نورهم في الفياقي، وبين هؤلاء الشعاعين القديمين: س.س. كوزماس، ويوحنا (الدمشقي)، ويوجد هنا حوالي الأربعين رجلاً من الملهمين، وهم أعظم من سواهم بكثير، بينهم ستة قد تحدثوا مباشرة مع الرب، وأسماء هؤلاء: ستيفانوس، وثيودوروس، وبولص، وجاء الرابع

بينهم من ميغالوبوس Megalopols ، والخامس إسباني، والسادس هو يوانس العمودي، الذي هو واسع الشهرة بين الناس لنفاذ بصيرته الروحانية.

١٧ — وإذا ما عدت إلى المدينة المقدسة، ليس من خلال الوادي بل عبر الشعاب الجبلية المجاورة، من مسافة ستة أميال عنها، سوف تجد دير أبانا المقدس ثيودوسيوس الكانوبيارخ Coenobiach (خربة دير ابن عبيد)، وكان هذا الدير محاط بأنواع من الأبراج، وعلى حوالي رمية سهم من أمامه توجد القاعة، التي فيها — حسبنا نقراً في ترجمة حياته — انطفأ فحم كان قد اشتعل في يد القديس، وتقوم في وسط الدير، وفوق أرض مرتفعة، الكنيسة، التي لها سقف مستدير، والتي تحتها كهف، يوجد فيه ضريح القديس، ومتصل به عدة غرف، ترقد فيها آثار قديسين كبار، وعندما تنزل على الدرج إلى هذا الكهف، سوف تجد على جانبه مدخل كهف آخر، دخل إليه الحواري القديس باسيليوس، وبناء على طلب هذا القديس، قام باختيار قبره — حسبنا جاء الخبر في تراجم حياة الآباء — وتمدد ميتاً هناك، وشوهد بعد ذلك لمدة أربعين يوماً ينشد تراتيل في وقت القداسات مع القديسين والأخوان.

١٨ — وفي مقابل الدير المتقدم الذكر، وقليلًا باتجاه اليمين، وفي عمق قفار الأردن يوجد دير القديس يوثيميوس Euthymius الكبير (خربة مرد)، وهو دير محصن بأبراج وبسواتر دفاعية عظيمة، وفي وسط هذا كله تقوم الكنيسة التي هي مثل الكنائس الأخرى لها سقف مستدير، ويوجد تحتها كهف، وفي وسط الكهف ضريح يوثيميوس الكبير، الذي يشبه أبدة سابا الملهم، ذلك أنه مغطى مثله بالرخام الأبيض، ومدفون هنا أيضاً آثار الأبوين المقدسين: باساريون Pasarion، ودومشيان Do-mitian.

١٩ — ويوجد خلف هذا الدير فراغ فاصل مقداره اثني عشر ميلاً،

تجد بعده وادياً عظيماً، يتدفق في وسطه مسيل ماء، ويوجد على الطرف المقابل لهذا الوادي دير كوزيبيا (دير القلط)، وهو شيء لا يصدق حين يوصف، وأعجوبة ملهمة حين تبصر، ذلك أن حجيرات الرهبان هي أبواب كهوف، أما الكنيسة نفسها مع المقبرة، فقد حفرتا داخل الصخر الأضخم، ويسخن بالعادة إلى درجة عالية بوساطة أشعة الشمس، حتى أن الانسان يمكنه أن يرى فيه ما يشبه شكل الأهرام، من ألسنة اللهب المندفعة من الصخور، أما الماء الذي يشرب منه الرهبان فهو يتدفق من الحال الذي سنصفه الآن: هناك ما يشبه البركة ذات المياه الآسنة، وتسخن هذه بوساطة أشعة الشمس عند الظهيرة في منتصف الصيف، وتسخن سخونة كاملة بوساطة الأشعة النارية، ورأيت في هذا الدير عدداً كبيراً من الرجال المقدسين، كان أحدهم صانعاً للأعاجيب، وهو يتحدث مباشرة مع الرب، واسم هذا الشيخ لوقا، ومع شيء من الخطر تسلقت إلى هذا الدير، ثم نزلت منه وذلك بسبب كل من الشعاب الطبيعية للمكان، والحرارة الشديدة جداً للشمس.

٢٠ — ويأتي بعد هذا طريق طويل، وضيق، ووعر جداً، يقود إلى خلف القفار، التي قبل أن تصل إليها ترى في وسطها جبلين، يمر بينهما الطريق إلى أريحا، ولا يوجد على هذا الطريق مكان مرصوف بالحجارة، لكن مع هذا من الممكن تقصي الخطوط العامة الباهتة لذلك، وفي هذه الأيام جميع المناطق المجاورة مليئة بينابيع المياه لاستخدام الدير التي تأسست في القفار، لأن البلاد قد قسمت ووزعت بين هذه الدير المقدسة، ولهذا صارت مشجرة بشكل جيد ومليئة بالكروم، وقد بنى الرهبان أبراجاً فوق حقولهم، وجنوا محاصيل غنية منهم، ويبدو مظهر جميع الصحراء، والأردن وبحر سدوم الميت، وذلك وفقاً لتقديراتي، شبه كثيراً بمنطقة أكريس Achris (في إليريا أو مقدونيا) مع استثناء وحيد، هو أن الماء ينبع من بحيرة أكريس، ويروي كثيراً من الوديان

المجاورة، التي يدعوها السكان باسم: «ستروغاس Strougas»، بينما يصب الأردن هنا في البحيرة، فضلاً عن هذا إن عرض القفار أكثر بمرات عدة من عرض سهل أكريس.

٢١- ويقع على طرف اليمين للجبل المزدوج، الذي تحدثت عنه، طرف البحر الميت ومن خلفه سيجور، وخلف هذه الصحراء، من الممكن رؤية صحراء روبا Ruba الكبيرة وذلك بعد ما يجتاز الانسان بين ديرين، وأقصد بهذا ديري القديس يوثيموس Euthymius، ودير الراعي «اللورا Laura»، وعلى يسار الجبال والطريق من الممكن رؤية الراهبة، التي تعرض عليها مخلصنا بعد صومه لمدة أربعين يوماً لغوايتين من قبل الشيطان، الذي تراجع مقهوراً ومجلاً بالعار، وفي مقابل هذه الراهبة، وعلى مسافة، يمكن أن أقول، تساوي ستة أميال، هناك كنيسة فوقها، حيث تشاور رئيس الملائكة ميكايل مع يوشع بن نون.

٢٢- ولقد بني على ضفاف الأردن ثلاثة أديرة هي: دير الرائد (يوحنا المعمدان) ودير خريسوستوم Chrysostom.، وكان ديسر الرائد قد سوته زلزلة بالأرض، وقد أعيدت عمارته الآن كاملاً باليد الكريمة لإمبراطورنا مانويل كومينوس البروفيروجنتوس، المتوج من قبل الرب، ذلك أنه الأول بالاهتمام الفائق بأعمال إعادة البناء، وعلى مسافة حوالي رميتي سهم من هناك يجري الأردن، وهو النهر الأكثر قداسة بين الأنهار، حيث فيه قام مولاي يسوع المسيح، وهو متمسك بالفقر، بصنع الأسرار العظيمة لخلاصي بوساطة التعميد، وعلى ضفته، على مسافة رمية حجر تقريباً، هناك بناء مربع مقنطر، وذلك حيث عاد الأردن بمجرأه، ليحتضن الجسد العاري للذي غطى السموات بالغيوم، وحيث اليد اليمنى للرائد (يوحنا المعمدان) وهي ترتجف عندما لامست رأسه، وحيث أيضاً الروح وقد نزلت على شكل حمامة على الكلمة القريبة منها، وأخيراً حيث صوت الأب قدم الشهادة على أن المخلص هو ابنه.

٢٣ - ويوجد بين دير الراءد (يوحنا المعمدان) والأردن رابية صغيرة هي رابية حرمون، حيث وقف عليها المخلص، وأشار بإصبع يوحنا المعمدان إلى الحشود، وذلك عندما أزال ذنوب العالم، وكان بين دير الراءد ودير كالامون Calamon ، دير القديس جيراسيموس Ge-rasimus ، الذي أزالته وأزالت أساساته مياه الأردن، ولذلك لم يبق منه أي جزء مرئي، باستثناء القليل من بقايا الكنيسة، وقبورين، وعمود للتنسك، يعيش فوقه شيخ إسباني طويل القامة، وهو شخص لطيف جداً، ويستحق الإعجاب، حيث حصلنا من الحديث معه على كثير من الفائدة، ذلك أن النعم الربانية العظيمة مزينة لهذا الرجل، وإنني أرى من الضروري أن أتحدث إلى جميع الذين يهتمون بسرور بالأشياء الربانية، فعن طريق المعالجة صنعت معجزة من قبل هذا الرجل قبل زيارتنا له، ويوجد لدى دوامات الأردن وتعرجاته، كما هو متوقع، قطع أرض كثيرة متصلة بها، نمت فيها كميات كبيرة جداً من القصب، اعتادت أن تنمو هناك، وهذه الأقصاب مأوى للأسود، وقد اعتاد أسدان على القدوم كل يوم سبت إلى صومعة الرجل العجوز، حيث كانا يحكان رأسيهما، ويطلبان الطعام من خلال تعبيرات أعينهما، وكان الطعام يقدم لهما بكل سرور، ومن ثم يعودان وهما مسرورين، إلى مأواهما قرب تعرجات النهر، وكان طعامهما عبارة عن خضار مبيلة بالماء، وخبز مصنع إما من طحين القمح أو من طحين الشعير، وحدث في إحدى المرات أنها عندما قدما وطالبا بطعامهما المعتاد بحركات أعينهما، لم يكن لدى الرجل العجوز من الوسائل ما يرضي به هذين المخلوقين، لأنه حدث أن هذا الرجل المقدس لم يتسلم طعاماً لمدة عشرين يوماً، ولذلك قال لهما: «أيها الوحشان، بما أنني لا أمتلك أية امكانيات للتخلص من ضعف طبيعتي، ولا أي نوع من الطعام منذ عشرين يوماً، ولم أزود نفسي بالضروريات المعتادة، إنه بأمر الرب القادر بكل سهولة على تلبية حاجتنا، أرى أنه من الضروري وجوب ذهابكما إلى نهر الأردن، وجلب قطع صغيرة من

الأخشاب، يمكنني أن أصنع منها بعض الصليبان الصغيرة، وإعطائها من أجل المباركة إلى الرجال الذين نذروا الحج، وبما أن كل واحد من الرجال من الممكن أن يعطيني بالمقابل بعض القطع النقدية الصغيرة، بهذه القطع ستمكن من شراء بعض المؤن لكم ولي، فهكذا تكلم، وأصغى الأسدان إليه، وتوجها نحو نهر الأردن، وكأنهما يمتلكان العقل، وبعد هنيهة، كانت المعجزة، فقد حملا جذعين من الأخشاب فوق رقبتيهما، ووضعاهما عند قاعدة العمود، ثم بادرا بالفرار إلى مستنقعات الأردن، وهذا يكفي، ودعونا الآن نتابع وصف الأماكن.

٢٤- وقد بني دير العمود أيضاً مع أبراج، وأسوار وقاية، وتقوم في وسطه كنيسة بنيت بالملاط القوي، وهي مغطاة بسقف مقنطر متوضع فوق أقواس اسطوانية، وهي متصلة بوساطة هذه الأقواس بكنيسة مقنطرة صغيرة جداً، ويوجد في البروز صورة للعداء مع المسيح المخلص فوق ذراعيها، وهي تشبه بشكلها، ولونها وحجمها لوحة أياصوفيا في المدينة الامبراطورية، وهناك رواية قديمة بأنها قد رسمت بيد الرسول الانجيلي القديس لوقا، وما يؤيد هذه الرواية ويدعمها المعجزات المتوالية التي تصنعها هذه الصورة، والروائع الذكية المنعشة التي تصدر عنها، وبلي هذا الدير، على مسافة خمس غلوات تقريباً دير خريسوستوم، وعلى بعد رمية سهم من هناك صومعة يعيش فيها رجل طويل حياة تأمل، وهو رجل اسباني، له عادات بسيطة، وكلام لطيف، كان قد مارس من قبل لسنوات طوال حياة التأمل فوق صخرة كانت قائمة قرب شاطئ بحر أضاليا، حيث كنت قد قابلته، عندما كنت أخدم في جيش الامبراطور المتألق جداً مانويل كومينوس البروفير وجنتوس.

٢٥- وخلف الأردن، في مقابل مكان تعميد مولانا، هناك الكثير من الشجيرات النامية، في وسطها وعلى مسافة قرابة الغلوة الواحدة، يوجد

كهف يوحنا المعمدان، الذي هو صغير جداً، ولا يمكنه استيعاب رجل حسن البنية وهو منتصب على قدميه، ومقابل هذا، في عمق الصحراء، هناك كهف آخر سكن فيه النبي إلياس عندما حمل بعيداً بواسطة عربة نارية، وفيما وراء هذين الكهفين، وعلى ضفاف الأردن، توجد — كما يقال — القفار، التي رأى المبجل زوسيموس Zosimus ، أنها لائقة للحياة الملائكية للسيدة المصرية، وخلف الهضاب تقوم القفار التي تقود إلى سيناء، ورأسو Rhaetho والبحر الأحمر، وهنا نهاية حديثي عن القفار.

٢٦ — ويوجد على الطرف الأيمن من مدينة القدس المقدسة، باتجاه برج داود، هضبة مغطاة بالكروم، وهناك فوق الجزء المنخفض منها دير للرهبان الاسبان وُجدت في محيطه — كما يقال — شجرة الصليب الرائع، ومن هناك قطعت، وتبدأ خلف هذا المنطقة الجبلية، وهي تسمية مناسبة جداً، لأن الهضاب تغدو لغلوات عديدة منحدرية وأكثر انحداراً، وعلى مسافة حوالي الأربع عشرة غلوة من المدينة المقدسة يمكن رؤية بيت زكريا النبي، لأنه بعد البشارة للعدراء الطاهرة، نهضت وسارت مسرعة، وعانقت اليزابيث، التي قفز طفلها في داخل رحمها، وكأنه بقرته يقدم التحية للسيدة، وتفوهت السيدة بتلك الأغنية النبوية التي هي محط الإعجاب، وهناك قلعة في هذا المكان، وكنيسة قد بنيت فوق كهف، ففي النهاية القصوى للكهف حدثت ولادة الرائد (يوحنا المعمدان)، وعلى مسافة حوالي رميتي قوس، فوق الجزء العلوي من الجبل، هناك الصخرة التي انشقت، واستقبلت في داخلها أم المعمدان مع ابنها وهو على ذراعيها، عندما كانت هاربة، أثناء قيام هيرود بذبح الأطفال.

٢٧ — خارج القدس، وبين الطريقين، اللذان يقودان أحدهما إلى المنطقة الجبلية والآخر إلى دير وبيعة (القديس سابا) هناك جبل، وطريق

فوقه، يقود من جبل صهيون المقدس إلى بيت لحم، وتقع مدينة بيت لحم على حوالي ستة أميال من المدينة المقدسة، ويقوم في منتصف الطريق بينها وبين المدينة المقدسة دير النبي المقدس إلياس، الذي كان قد بُني من قبل رجل رباني في عصور قديمة جداً، غير أنه تهدم كلياً بوساطة زلزال، وعلى كل حال جرت إعادة عمارته على يد المحسن العالمي، معلمي وامبراطوري، فقد رفعه من أساساته بناء على رجاء رجل سرياني، هو مقدم طائفته، ويشكل ضريح راحيل مثلثاً مع الدير ومع بيت لحم، وقد بني على شكل مقنطر، توضع فوق أربعة أقواس، وفي منتصف الطريق بين بيت لحم، ودير الراعي، يمكن للانسان رؤية حقل، وفي منتصف الحقل هناك كهف، فيه سمع الراعي المبارك، وهو يتولى الحراسة في الليل، الملائكة ترتل وتغني قائلة: «المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام والخلاص للعالم»، وبنيت مدينة بيت لحم المقدسة فوق رابية صخرية، وفيها هناك الكهف المقدس والمزود، والبئر الذي رغب داود أن يشرب منه، وكذلك من الممكن رؤية كنيسة طويلة جداً، قد بنيت فوق قمة الكهف، وهي ذات حجم كبير، وعلى شكل صليب، مسقوفة بجذوع من الشجر غير قابلة للتلف، وأخذ السقف فوق المذبح شكلاً حجرياً مقنطراً، وبنيت هذه الكنيسة الجميلة جداً والواسعة، أيضاً باليد الكريمة لامبراطوري المنقذ للعالم، الذي زين أيضاً الكنيسة كلها بأعمال الفسيفساء الذهبية، وقام الأسقف المسؤول في هذا المكان، وهو ممن يارس الطقوس اللاتينية، فوضع في كثير من الأماكن، ولاسيما في قدس الأقداس نفسه فوق الكهف المقدس، صورة جميلة للامبراطور، ربما تعبيراً عن الشكر له على كرمه، ووضع كهف المزود والبئر هو كما يلي: تقوم على الطرف الأيسر لقدس الأقداس الفتحة المؤدية إلى الكهف المقدس، وإلى جانب ذلك البئر الذي رغب جدنا داود أن يشرب منه جسدياً وروحياً، وقد قام رجلان كانا يحتلان مكانة عالية لديه بشق طريقهما خلال معسكر العدو، ونضحا الماء في دلو، وجلباه لإطفاء عطشه، وقام هو بدوره

به المشهور، بصب الماء وإراقته تشريفاً للرب وتمجيذاً، الأمر الذي
ما صدأ شهرته في الخارج، وينزل الانسان من مدخل الكهف
إلى فمه بوساطة ست درجات، وعلى جانبه الشمالي يوجد النزل المقدس
الذي ولدت العذراء فيه بالمسيح المخلص، وبذلك صارت جميع
المخلوقات التي خلقها الرب بالجسد، والعالم كله، جديدين، وأنا العبد
الفاني، صرت غنياً بوساطة لاهوت ربي وخالقي الذي انتزع فقري
ووضعه على نفسه، وعلى بعد درجة تحت هذا من الممكن رؤية مزود
الحيوانات، الذي له شكل رباعي متساوي الأطراف، وهو الذي غطاه
القدماء برخام أبيض، وقد تركوا فتحة مستديرة في وسطه، من خلالها
يمكن رؤية جزء من ذلك المزود الذي حوى الواحد الأبدي، الذي هو
أوسع من السموات، وأضخم بكثير من الأرض، والبحر، والأجزاء القائمة
تحت الأرض، وقد حواه بسهولة عندما كان رضيعاً، مع أنه هو الذي لم
يكونوا قادرين على احتوائه، وقد قفزت مرحاً وأنا أكتب، وكنت كلي
روحياً في داخل ذلك الكهف المقدس، ورأيت الغطاء الذي غطى به
مولانا عند ولادته، والفراش الذي وضع عليه الطفل الحديث الولادة في
المزود، وشعرت بالنشوة من خلال التفكير بحب المخلص لي، ومن
خلال فقره الشديد الذي جعلني جديراً بمملكة السماء، ولقد رأيت
الكهف ذاك قصراً، والملك قد جلس على صدر العذراء كأنه جالس
فوق العرش، ورأيت أيضاً جوقة من الملائكة تحيط بالكهف، والحكماء
المجوس يجلبون هداياهم إلى الملك، ولقد امتلأت بجميع ألوان النشوة
والسرور لدى تأملي لأنواع النعمة التي رأيت نفسي جديراً بتلقيها، وتولى
الفنان، بيد بارعة، رسم جميع العجائب التي وقعت في ذلك الكهف،
ويوجد في البروز صورة العذراء وهي مستلقية على فراشها، ويدها
اليسرى موضوعة تحت مرفقها الأيمن، وواضحة وجتها فوق يدها اليمنى
وهي تنظر إلى طفلها مبدية لطفها الزائد بابتسامتها المعبرة وفي لون
وجنتيها، ذلك أن لونها لم يتغير، ولم يظهر عليها الشحوب، مثل التي

ولدت حديثاً طفلاً، وذلك للمرة الأولى، لأنها وهي التي عدّت أهلاً لحمل طفل، كانت أقوى من رجل، ولا بد أيضاً أنها قد تجنبت آلام الولادة، وكان خلفها الثور والأتان، والمزود، والطفل، ومجموعة الرعاة الذين تردد في آذانهم صوت السماء، لذلك تركوا قطعانهم، وسمحوا لأغنامهم بأن ترعى دون مراقبة، الأعشاب التي كانت قرب النبع، وأسندوا لكلبهم مهمة المسؤولية عنهم، في حين رفعوا رقابهم نحو السماء، وأصغوا بتلهف إلى ترداد الصوت، وقد وقفوا باتجاهات متنوعة، وذلك حسبما رأى كل واحد منهم الوقفة الأسهل له، وبدت عصيهم للرعى بلا فائدة، وكانت أعينهم شاخصة نحو السماء، وأيمانهم ممتدة نحو الخلف، وكأنها ترمي سهماً، وآذانهم مصغية بتشوق، ومع هذا لم يحتاجوا لسماع الصوت مرة ثانية، لأن الأعين أكثر وثوقاً من الأذان، حيث أن ملاكاً قد قادهم وأراهم الطفل مستلقياً في المزود، ولم تلتفت الحيوانات لرؤية هذا المشهد بل حملوا أنفسهم بحماقة وصرفوها، بعضهم نحو الأعشاب، وبعضهم الآخر نحو النبع المتقدم الذكر، لكن الكلب، ذلك المخلوق الذي يبدو متوحشاً مع الغرباء، قد ظهر يحدق عن عمد بالمشهد غير المعتاد، بينما قفز الحكماء من على ظهور خيولهم، وهم يحملون هداياهم بأيديهم وجثوا على ركبهم، وقدموها إلى العذراء مع رهبة وتحيب.

٢٨— وعلى حوالي الميّلين خارج بيت لحم المقدسة، وفي دير الراعي، هناك كهف فيه أنذر الحكماء بهاتف سماوي بعدم العودة إلى هيرود، وقد عادوا عبر طريق آخر إلى بلادهم، وعلى بعد حوالي الستة أميال خلف هذا الدير، وقرب صحراء روباء، وفي دير القديس شارتون، وعلى مسافة معتبرة خلفه يوجد الضريح المزدوج لإبراهيم، الموجود في الخليل، وبلوطة عمرا، التي تحتها استضاف البطريرك إبراهيم الثلاثة المقدسين، وهذه هي أوصاف (الأماكن المقدسة) من عكا حتى القدس، المدينة المقدسة، وذلك عبر الجليل، وكذلك الأردن والقفار المقدسة،

والأماكن القائمة على شاطئ البحر، وهم كما يلي:

٢٩— على بعد حوالي الستة أميال من القدس، المدينة المقدسة، تقع مدينة أرماتم (رامة — النبي صموئيل) التي ولد فيها النبي صموئيل العظيم، وعلى مسافة حوالي السبعة أميال، أو بالحري أكثر، خلفها، تقع مدينة عمواس الكبيرة، وهنا تمتد منطقة الرملة حوالي الأربعة والعشرين ميلاً، ففيها من الممكن رؤية الكنيسة الكبيرة للشهيد الكبير المقدس جرجس (اللد)، وهنا كان قد ولد، وقام بأعمال قداسة عظيمة، وهنا أيضاً قبره المبارك، والكنيسة مستطيلة، وفي البروز تحت المائدة المقدسة، يمكن للإنسان أن يرى فتحة ضريحه، المحاط كله برخام أبيض، ومن المفيد أن نروي ما سمعته من الكهنة التابعين للكنيسة حول ما حدث قبل عدة سنوات مضت عند ضريح القديس، فقد قالوا : غامر الأسقف اللاتيني المغتصب الحالي، بمحاولة فتح فم الضريح، وعندما أزاح اللوح الرخامي الذي كان مغلقاً له وانتزعه، تكشف له وجود كهف كبير، وجد في داخله ضريح القديس، وعندما حاول أيضاً أن يفتح هذا، شوهدت نار ملتهبة صادرة من الضريح، وقد تركت واحداً من الرجال نصف محروق، والآخر محروقاً حتى الموت.

٣٠— وتقع خلف هذه المنطقة منطقة قيسارية فيليب (اقرأ: فلسطين)، وقيسارية مدينة واسعة وكثيرة السكان، وقد بنيت على شاطئ البحر، وفيها بالفعل ميناء رائع، صنع بالبراعة الانسانية، وقد أنفق هيرود أموالاً عظيمة في سبيل بنائه، وهنا سأل المسيح الحواريين: «من هم الذين يقولون إنني ابن الإنسان؟»، وأجابه بطرس قائلاً: «أنتم المسيح ابن الرب»، مظهراً بكلماته حرارة حبه.

٣١— وخلف هذا يقع جبل الكرمل، الذي عنه نقرأ كثيراً في كل من العهدين القديم والجديد، وهو جرف طويل، يبدأ عند ميناء عكا وحيفا، ويمتد حتى جبال الجليل، ويقع كهف النبي إلياس عند نهاية السلسلة

الجبليّة، في المكان الأقرب إلى البحر، وفي هذا الكهف بعدما عاش ذلك الرجل الرائع حياة ملائكية، رفع إلى السماء، وكان يوجد عند هذا المكان ديراً واسعاً، وذلك حسبما تحدثنا الأبنية المهذمة الباقية حتى اليوم الحالي، ذلك أن الزمان الذي ينهك كل شيء، وغارات العدو المتواصلة، هدمته كلياً، وقام على كل حال منذ بعض الوقت راهب كان كاهناً مرسوماً، وكان صاحب شعر أبيض، وهو من أهل كالبيرا، قام إثر رؤيا للنبي، فجاء إلى ذلك المكان، حيث سكن بين خرائب الدير، وقام ببناء ساتر دفاعي صغير وبرج وكنيسة صغيرة، وجمع حوالي العشرة رهبان، وقام بسكنى المكان المقدس حتى هذا اليوم.

٣٢- — ولسوف أوقف هنا أعمال و صفي، بعدما أكملت الطواف حول الأماكن المقدسة، وإذا ما عدّ قارثي ورأى أن هذا عملاً مفيداً، وقتها أعدّ نفسي بأنني نلت التعويض على تعبتي، وحظيت بالجائزة، وإذا لم ير ذلك، ليكن مايلي: أعد يا بني إليّ الذي أنجبه، فبشرثرته يذكّرني بهذه الأماكن المقدسة، وذلك سوف ينعشني بحلاوة في خيالي ويذكّرني بهم.

- ٢٧٢٩ -

المحتوى

الموضوع	رقم الصفحة
كتاب حروب فردريك الثاني	٥
توطئة	٧
مدخل	١٠
فيليب دي نوفار — الرجل والمصنف	١٥
تقويم لتاريخ فيليب	٢٦
صليبية فردريك	٣١
الحملة الصليبية ١٢٢٨ — ١٢٢٩	٣٨
الحرب الامبراطورية الايبلينية	٥٠
الصراع مع صور	٥٨
خاتمة ١٢٤٣ — ١٢٤٧	٦٥
تاريخ الحرب بين فردريك وجون دي إيبيلين	٦٩
كيف قدم صاحب بيروت ومعه القبارصة من نيقوسيا للعبور إلى سورية	١٣٥
كيف عبر القبارصة البحر	١٣٧
كيف غادر فيلنغر صور	١٧٩
الملاحق	١٩١
الملحق الأول — من كتاب تاريخ الأعمال	١٩٣
الملحق الثاني — من الجزء الثاني من تاريخ أعمال الحرب	١٩٧

الموضوع	رقم الصفحة
الملحق الثالث — اقتباسات تتعلق بصليبية فردريك	٢١٢
الملحق الرابع — حول الاستيلاء على صور	٢١٨
رواية جون دي إيبيلين حول الملكة أليس	٢٢٢
الحواشي	٢٢٧
جريدة بأهم المصادر	٢٩٣
وصف ثيودريك للأماكن المقدسة	٣٠١
مدخل	٣٠٣
وصف ثيودريك — استهلال	٣١٠
خراب البلاد	٣١١
اليهودية	٣١١
القدس	٣١٢
برج داود	٣١٤
كنيسة الضريح المقدس	٣١٥
الكنيسة أو المبنى المستدير	٣١٩
شرفة جوقة الرهبان	٣٢٠
بيعة القديسة مريم	٣٢٣
بيعة القديسة حنة	٣٢٤
بيعة الجلد	٣٢٤

الموضوع	رقم الصفحة
جبل أكر	٣٢٦
بيعة المريمات الثلاث	٣٢٨
هيكل الرب	٣٣٠
وصف الهيكل	٣٣١
بيعة القديس جيمس	٣٣٤
قصر سليمان	٣٣٦
الأسوار القديمة حول الهيكل	٣٣٨
بركة سلوان	٣٣٨
بيت عنيا	٣٣٩
سجن بطرس	٣٤٠
جبل صهيون	٣٤١
نهر قدرون	٣٤٢
كنيسة جيسماني	٣٤٤
البلاط على جبل صهيون	٣٤٥
مكان بيلاطس	٣٤٦
جبل الزيتون	٣٤٧
بيت عنيا	٣٤٨
الأردن	٣٤٩

الموضوع	رقم الصفحة
مكان تعميد المسيح	٣٥١
صحراء إيليم	٣٥٢
وادي جهنم	٣٥٣
بيت لحم	٣٥٤
الخليل	٣٥٥
قبر لوط	٣٥٦
غزة	٣٥٧
مقبرة بيت الأسد	٣٥٧
كنيسة الصليب المقدس	٣٥٨
اللد	٣٦٠
قلعة عقرون	٣٦١
البيرة	٣٦١
شكيم ثانية	٣٦٢
السامرة	٣٦٣
جينين	٣٦٤
طبرية	٣٦٥
بيت صيدا	٣٦٧
الناصره	٣٦٨

الموضوع	رقم الصفحة
صفورية	٣٦٩
دمشق	٣٧٠
فينيقية	٣٧١
صيدا	٣٧٢
رحلة حج يوانس فوقاس	٣٧٥
استهلال	٣٧٧
وصف يوانس فوقاس	٣٧٨
أنطاكية	٣٧٩
اللاذقية	٣٨٠
جبال لبنان	٣٨١
جيبيل	٣٨١
صيدا — صور	٣٨٢
عكا — الصفورية	٣٨٣
جبل الطور	٣٨٥
سبسطية	٣٨٦
شكيم	٣٨٧
القدس	٣٨٨
جيسماني	٣٩١

الموضوع	رقم الصفحة
عمود أبسالوم	٣٩٢
ديرثيودوسيوس — ديريوثيموس	٣٩٤
أريحا	٣٩٥
صحراء روبا — ديرخريسوستوم	٣٩٦
دير يوحنا المعمدان	٣٩٧
دير العمود	٣٩٨
دير سابا	٣٩٩
النبى صموئيل — قيسارية	٤٠٣